إلين رانيلا

ماضينا المشترَك



الأصول الشرقية للأدب الشعبي الغربي

ترجمة

د. موسى الحالول



إلين رانيلا

ماضينا المشترَك:

الأصول الشرقية للأدب الشعبي الغربي

ترجمة د. موسى الحالول

عدد الصفحات: 297 القياس: 16 x 26

الطبعة الأولى 2022



توتول للطباعة والنشر والتوزيع
سورية – دمشق - الحلبوني – شارع المكتبات
00963112256191
00963933247820
totolsy2020@yahoo.com
totolsy2020@gmail.com

إلين رانيلا

ماضينا المشترَك:
الأصول الشرقية للأدب الشعبي الغربي

ترجمة

د. موسى الحالول



توتول للطباعة والنشر والتوزيع

فهرس المحتويات

تصدير المترجم

بتاريخ ٢٨/ ٩/ ٢٠١١ تلقيت جوابًا من دار كوارتِتْ البريطانية يفيد أن الكتاب الذي بين يدينا لم يُترجم إلى العربية، وكنت قد خاطبت هذه الدار بشأن رغبتي في ترجمة هذا الكتاب المهم الذي كنت أظن أنه مُهمَل من الدارسين والمترجمين العرب. وما عزز ظني هذا هو أني لم أعثر على أي إشارة إليه في المواقع الإلكترونية العربية. وبناءً على موافقة الناشر المبدئية واشتراطه أن يجري التفاوض بينه وبين ناشر الترجمة العربية مباشرة، تقدمتُ بمقترحٍ للمركز القومي للترجمة بالقاهرة لترجمة الكتاب ونشره، وشرعتُ في الترجمة. وبعد بضعة أشهر تلقيت من المركز ردًّا يفيد أن الدكتورة نبيلة إبراهيم قد ترجمت هذا الكتاب ونشرته في سلسلة عالم المعرفة الكويتية سنة ١٩٩٩، فتوقفتُ عن الترجمة فورًا، علمًا أنني كنتُ قد ترجمتُ في هذه الأثناء أكثر من نصف الكتاب (بالضبط ترجمتُ حتى الصفحة ١٤٩ من الكتاب الذي يبلغ عدد صفحاته ٢٦٥ صفحة).

وحين حصلت على نسخةٍ من ترجمة د. نبيلة إبراهيم، رحت أقارنها بها ترجمتُه. ومن خلال تصفح سريع لترجمتها تبين أنها تفتقر إلى الدقة والأمانة. والحقيقة هي أن كثرة الأخطاء التي ارتكبتها المترجمة، عن عمدٍ أو سواه، يحتاج تفنيدها كاملًا إلى كتابٍ مستقل. وهذا ما لن أسعى إليه هنا، بل سأكتفي بإيراد عينات من هذه الترجمات الخاطئة التي تقيم الحجة على وجوب إعادة ترجمة الكتاب. فمع أهمية الكتاب الذي يثبت بالدليل القاطع مديونية الغرب للعرب في الأدب الشعبي (وهو السبب الموجب لترجمته)، لا يخلو من بعض الأباطيل الرائجة في الغرب حول القرآن الكريم. وهنا يتحتم على المترجم العربي لا أن يترجم فقط، بل أن يؤدي أيضًا دور الباحث الذي يرد على هذه الأباطيل. وهذا للأسف ما تفتقر إليه ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ما يضيف عبئًا آخر على أي مترجمٍ تالٍ، إذ يجب عليه لا أن يرد فقط على الأباطيل التي ترددها المؤلفة من غير تمحيص أو دليل علمي، بل أن يبين أيضًا

تواطؤ المترجمة في محاولتها تحريف أقوال المؤلفة وكأنها لم تشط أبدًا عن الصواب أو تخالف معتقدات المسلمين.

ومع وافر الاحترام لشخص المترجمة، يشكل ما فعلته فضيحة ترجمية بالمقاييس العلمية والأخلاقية والدينية. ومما يُؤسَف له أيضًا أن هناك طرفين آخرين اشتركا في هذه الفضيحة، مع ما لهما من احترام هائل في الساحة الثقافية العربية. الطرف الأول هو المراجِعة الأستاذة الدكتورة فاطمة موسى، رحمها الله، والطرف الثاني هو المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت الذي نشر الترجمة. ومع قناعتي بأن المراجعة والناشر قد وقعا ضحية ثقتهما المفرطة بالمترجمة، لا يعفيهما ذلك من مسؤوليتهما الأخلاقية في هذه الفضيحة. ولعل هذه الفضيحة تجعل لزامًا على مؤسساتنا الثقافية أن تعيد النظر في سياساتها المتبعة في تدقيق الترجمات وانتقاء المراجعين لضبط جودة مُخرجاتها الثقافية.

وفيما يلي أورد بعضًا من أخطاء المترجمة وبعضًا من أباطيل المؤلفة التي لم تتعامل معها المترجمة بالأمانة المطلوبة بل بالحذف والتزوير (بقصد التجميل)، وذلك بحسب تسلسل ورودها في الترجمة.

١) ترجمت د. نبيلة إبراهيم عنوان الكتاب *The Past We Share: The Near Eastern Ancestry of Western Folk Literature* على النحو التالي "الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية." وهذه ترجمة فضفاضة وغير دقيقة، كما أنها تطمس فكرة الكتاب الأساسية، وهي مديونية الغرب للعرب في القَصص الشعبي. أما الترجمة الصحيحة فهي "ماضينا المشترك: الأصول الشرقية للأدب الشعبي الغربي."

٢) عمدت المترجمة إلى تزييف النص الأصلي حين جعلت المؤلفة تبدو لقارئ الترجمة وكأنها باحثة مسلمة تقول "القرآن الكريم" (وليس القرآن فقط) كما أنها تُصلي وتسلِّم على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كلما ورد اسمه الكريم في النص الأصلي. وهذا غير صحيح إطلاقًا، فالمؤلفة تذكر كلًا من القرآن والنبي بلا تكريم ولا صلاة ولا تسليم. وكان الأجدر بالمترجمة، من باب الدقة والأمانة، وانسجامًا مع الأعراف الأكاديمية، أن تُضيف صفة [الكريم] بين قوسين مربعين بعد لفظة القرآن وكذلك عبارة [صلى الله عليه وسلم] كلما ذُكِر اسم النبي محمد، لكي يعلم القارئ أن هذه من إضافات المترجمة وليست في النص الأصلي.

٣) في الفصل الأول "يوسف وزوجة فوطيفار" [أو بوطيفار أو عزيز مصر] تزعم المؤلفة أن قصة يوسف كما وردت في القرآن الكريم قد تأثرت بالأساطير اليونانية واليهودية:

By the time of Muhammad, the brief bald reference to the wife in Genesis 39 had already developed in the Near East, through stages of Hebrew commentary and folklore and through the mingling of these with Hellenized Hippolytus-Phaedra legends, into not unsympathetic characterization. In their turn, commentators on the Koran and later writers added to the narrative and the sympathy, until Yusuf and Zulaikha became the most popular love story in Islam. (p. 1)

وترجمة ذلك هي، "وبحلول عصر محمد [صلى الله عليه وسلم]، كانت الإشارة اليتيمة العابرة إلى زوجة فوطيفار في سِفْر التكوين (٣٩) قد تطورت في الشرق الأدنى من خلال التفسيرات والحكايات الشعبية العبرية التي اختلطت بدورها مع أساطير هيپوليتوس–فيدرا التي تدور في فلك التراث الإغريقي، حتى صارت صورة فوطيفار لا تخلو من تعاطف. ثم جاء مفسرو القرآن [الكريم] وغيرهم من الكُتّاب اللاحقين فراحوا يضيفون إلى القصة والتعاطف إلى أن أصبحت قصة يوسف وزليخة أشهر قصة حب في الإسلام."

وهذا القول يشير إلى اعتقاد شائع بين عامة المستشرقين والغربيين مفاده أن القرآن الكريم هو من تأليف النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولهذا السبب تظن المؤلفة هنا أن قصة يوسف كما وردت في القرآن الكريم قد تأثرت بالأساطير اليهودية وغير اليهودية. وهذا غير صحيح، وحاشى لكتاب الله أن يكون كذلك. الأدهى من ذلك هو أن المترجمة لا تسكت على هذا الزعم الباطل فحسب، بل تزيف قول المؤلفة حين تترجمه على الشكل التالي، "وفي عصر محمد عليه السلام كانت الإشارة الموجزة البسيطة عن زوجة بوطيفار في العهد القديم التي وردت في سِفْر التكوين (٣٩) وقد [هكذا!] تطورت في الشرق الأدنى عبر مراحل من التفسيرات العبرية، وفي الفُلكلور ومن خلال اختلاط كل هذا بأساطير هيبوليتوس فيدرا اليونانية. ثم أضاف شراح القرآن الكريم بدورهم، وكذلك الكتاب المتأخرون إلى القصة، التعاطف معها، حتى أصبحت قصة يوسف وزليخة أكثر قصص الحب شعبية في الإسلام" (ص ١٣–١٤).

فعدا عن كون هذه الترجمة غير دقيقة، ما نلاحظه هو أن المترجمة حرَّفت قول المؤلفة بغية تجميله وذلك حين حصرت التعاطف في تصوير زوجة فوطيفار فقط في كتابات المفسرين المسلمين، وحذفت قول المؤلفة الذي يشير إلى تعاطف النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع

زوجة فوطيفار ويعزو هذا التعاطف المزعوم للنبي (صلى الله عليه وسلم) إلى تأثره بأساطير العبرانيين وغيرهم!

٤) في حديث المؤلفة عن قصة يوسف كما وردت في القرآن الكريم، تقول:

The immediate source of the Islamic Joseph legend was of course the Koran. (p. 6)

ومعنى قولها هو، "أما المصدر المباشر لأسطورة يوسف الإسلامية فهو القرآن بطبيعة الحال." وحاشى للقرآن الكريم الذي سفَّه أساطير الأولين أن يكون هو مصدرًا لمثل هذه الأساطير. وإن نسج الكتاب المسلمون أسطورةً من قصة يوسف، فمصدرهم هو التفسيرات اليهودية (الإسرائيليات) لهذه القصة.

لننظر كيف ترجمت د. نبيلة إبراهيم هذه الجملة: "كان المصدر المباشر لحكاية يوسف الإسلامية بطبيعة الحال هو القرآن" (ص ١٩). هنا نلاحظ كيف غيرت المترجمة كلمة "أسطورة" إلى "حكاية."

٥) في الصفحة والفقرة ذاتها، ترتكب المؤلفة مغالطتين أُخريين إذ تقول:

Muhammad's revelations were collected twenty years after the date (630) of his death, and were written down and called the Koran, which means *recitations*. Many of its *suras* or chapters are allusive and disjointed; the *sura* of Yusuf is unique in that only one subject is treated throughout and that it is a consecutive and developed narrative. (p. 6)

ومعنى قولها هو، "لقد جُمِع ما أُوحي إلى محمد [صلى الله عليه وسلم] بعد عشرين سنة من وفاته سنة ٦٣٠ ميلادية، ثم دُوِّن وسُمِّي القرآن. كثيرٌ من سور القرآن تلميحية ومفككة، أما سورة يوسف فتمتاز بكونها لا تعالج إلا موضوعًا واحدًا، وهي قصة متتابعة ومتطورة."

هذا كلام غير دقيق، في أحسن الأحوال، إذ إن تسمية القرآن بهذا المسمّى سابقة على جمعه في عهد عثمان بن عفّان (رض)، كما أن كلمة قرآن (أو القرآن) مذكورة عدة مرات في القرآن نفسه. كما أنها تتهم بقية السور القرآنية بعدم الترابط، إلخ.

وهذه ترجمة د. نبيلة إبراهيم، "وتجمع كثير من سور القرآن في ثناياها تعاليم دينية متعددة، أما سورة يوسف فتعد سورة فريدة من حيث إنها تعالج موضوعا واحدا على مسار السورة؛ فهي قصة متتابعة ونامية ..." (ص ١٩). وهنا نلاحظ كيف أن المترجمة لم تكتفِ فقط بحذف القول الذي يحتوي على مغالطة تاريخية أو يسيء إلى القرآن الكريم، بل تخدع القارئ حين

تستبدل بذلك القول جملةً لا وجود لها في الأصل الإنجليزي!

٦) وفي الفقرة التالية، ترتكب المؤلفة مغالطةً أخرى مصدرها اعتقادها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو مؤلف القرآن الكريم:

> But in the centuries between the writing of Genesis 39 and the speaking of Muhammad, a wealth of additional material had accrued in the Near East around biblical characters. Thus there was not only the text of Genesis as a source of the Koranic Yusuf, but also Jewish midrashic and haggadic commentary on the Bible, besides apocryphal booklore and folklore, on some of which Graeco-Oriental traditions of the chaste youth and lustful step-mother had already had an influence. (p. 6)

ومعنى هذه الفقرة هو، "ولكن خلال القرون الفاصلة بين كتابة سِفْر التكوين (الأصحاح التاسع والثلاثين) وحديث محمد [صلى الله عليه وسلم]، تراكم كمٌّ هائل من الزيادات في الشرق الأدنى حول الشخصيات التوراتية. ولذلك لم يكن سِفْر التكوين المصدر الوحيد لقصة يوسف القرآنية، بل كانت هناك أيضًا التفسيرات المِدراشية والهغَّادية اليهودية للتوراة، ناهيك بالحكايات الشعبية والكتابات المجهولةِ المؤلف التي تأثر بعضها بالموروثات اليونانية-الشرقية عن الفتى المتعفف وزوجة الأب الشبقة."

هنا تلَمِّحُ المؤلفة مرةً أخرى إلى الزعم الشائع عند معظم الغربيين بأن القرآن هو "حديث محمد" (أي تأليفه)، وإلى أنه، تبعًا لذلك، قد تأثر بالأساطير اليهودية والموروثات اليونانية والشرقية، أي أن قصة يوسف كما رواها أو ألفها محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرآن متأثرة بهذه الأساطير! فماذا فعلت المترجمة إزاء هذه الافتراءات؟

هكذا دَلَّسَت على النص الأصلي وزيفته، "على أنه في أثناء القرون التي تفصل بين كتابة سِفْر التكوين، (الإصحاح ٣٩) ونزول القرآن، تراكمت مادة إضافية ثرية في الشرق الأدنى حول الشخصيات التوراتية، بحيث لم يعد هناك نص سِفْر التكوين فحسب [هكذا!]، بل كذلك التفسير الميدراشي والهاجاداه للتوراة إلى جانب الأبوكريفا والتراث الفُلكلوري. وقد كان للروايات اليونانية الشرقية المتوارثة عن الشاب العفيف ونموذج زوجة الأب الشهوانية تأثيرها السابق في بعض النصوص العبرية" (ص ١٩).

فما الذي فعلته المترجمة؟ حرَّفت عبارة المؤلفة "حديث محمد" إلى "نزول القرآن." كذلك حرفت قولها، "لم يكن سِفْر التكوين المصدر الوحيد لقصة يوسف القرآنية..."

وجعلته "لم يعد هناك نص سِفْر التكوين فحسب." بل زعمت أن الروايات اليونانية الشرقية كان لها تأثيرها السابق في بعض النصوص العبرية، بينما المؤلفة تزعم أن هذه الروايات كان لها تأثيرها في قصة يوسف القرآنية!

٧) وفي مكان آخر، تقول المؤلفة:

> But unlike the western, the eastern canon was not exclusive—it accepted extracanonical exegesis. So if we look for the standard Arabic account of Joseph and Potiphar's wife, we must go beyond Sura XII to the amplified versions of Koranic commentators, who explained, interpreted, filled in elliptical passages and enlarged concise ones, continuing to draw on the pre-Islamic folklore that Muhammad and his audiences had taken for granted. (p. 11)

وترجمة ذلك هي، "ولكن على خلاف المأثور الغربي، لم يكن المأثور الشرقي مانِعًا، بل سمح بدخول تفاسير من خارج الكتاب المقدس. فإن شئنا البحث عن القصة العربية المعيارية ليوسف وزوجة فوطيفار، فعلينا أن نتجاوز السورة الثانية عشرة إلى النسخ الموسَّعة عند مفسري القرآن الذين دأبوا على شرح النصوص الموجزة وتفسيرها والزيادة عليها، وذلك من خلال اعتمادهم على الحكايات الشعبية في الجاهلية التي سلَّم بها محمد [صلى الله عليه وسلم] وأتباعه."

مرةً أخرى تعود المؤلفة إلى الزعم بأن النبي محمدًا (صلى الله عليه وسلم) يؤمن بخرافات الجاهلية، ولكننا لا نجد لهذا أثرًا في ترجمة د. نبيلة إبراهيم التي تقوم مرةً بعد مرة بتعقيم أقوال المؤلفة وتطهيرها: "على أن النص الشرقي المشروع لم يكن مثل النص الغربي، مانعا دون توليد الروايات التي قبلت على المستوى التفسيري على هامش النص الديني. وإذا شئنا أن نبحث عن الرواية العربية التقليدية لقصة يوسف وزوجة بوطيفار، فعلينا أن نتجاوز سورة يوسف في القرآن الكريم إلى النصوص الموسعة لمفسري القرآن الذين شرحوا وفسروا وملأوا الفجوات من ناحية، وتوسعوا في المختصر منها، من ناحية أخرى، مع الأخذ من الروايات الفُلكلورية السابقة على النص القرآني" (ص ٢٤).

أولًا، نتيجةً للترجمة الخاطئة، فإن الجملة الأولى في هذه الفقرة أُفْرِغت من معناها. ثانيًا، أضافت المترجمة عبارة "في القرآن الكريم" من عندها مع أنها غير موجودة في النص الأصلي. قد يُخيَّل للقارئ أنه لا ضيرَ من هذه الإضافة، إلا أنها تُعطي انطباعًا خاطئًا وكأن المؤلفة هي

التي تعبِّر عن إجلالها للقرآن الكريم. ثالثًا، حذفت المؤلفة العبارة الأخيرة في الفقرة التي تَدَّعي فيها المؤلفة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استلهم حكايات الجاهلية في تأليفه لقصة يوسف، وأحلَّت محلها عبارةً يبدو ظاهرها بريئًا!

٨) في الفصل الثاني المُعَنْوَن "سليمان وملكة سبأ" تدَّعي المؤلفة مرة أخرى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استمد قصص الأنبياء من التراث الشفوي المألوف لسامعيه.

> Pre-Islamic Arabic-Aramaic-Judaic interchange in the Near East therefore supplied the Sheba story with several concrete narrative motifs far removed from the Old Testament. And from this same cross-cultural milieu, affected also by Christians, came the sources of the Koranic version of the tale. For while Muhammad's religious message was original, his stories were drawn from oral tradition already familiar to his hearers. Folk tradition was especially rich in Arabia, which had assimilated not only Jewish and Christian Bible stories, but also the influences of the great civilizations of the past—Sumerian, Egyptian, Syrian, Greek and Persian. Thus, the narratives in the Koran may be taken as synthesizing many strands of both literary and oral lore. The Koranic account of the meeting of Sulaiman and the queen shows this: its core is still the biblical visit, but it is a different story from I Kings 10 and also from targum and midrash. In this extract from Sura XXVII the hoopoe is called the lapwing. (pp. 24-25)

وترجمة قولها هي، "لقد أمدَّ التبادل العربي-الآرامي-اليهودي في الشرق الأدنى قبل الإسلام قصة ملكة سبأ بعدة موتيفات سردية ملموسة شطَّت بعيدًا عن العهد القديم. وقد شكلت هذه البيئة المتعددة الثقافات، التي أثَّر فيها المسيحيون أيضًا، مصادر النسخة القرآنية للحكاية. فبينما كانت رسالة محمد [صلى الله عليه وسلم] أصلية، إلا أنه استمد قصصه من التراث الشفوي المألوف لسامعيه. لقد كان التراث الشعبي ثريًّا، وخصوصًا في شبه الجزيرة العربية التي لم تتمثل فقط قصص اليهود والمسيحيين المذكورة في كتابهم المقدس، بل أيضًا تمثلت تأثيرات الحضارات العظيمة السالفة: السومرية والمصرية والشامية والإغريقية والفارسية. لذلك يمكن أن يُقال إن القصص في القرآن تؤالف حبكتها بين خيوطٍ من القصص الشفوي والأدبي. فالوصف القرآني للقاء بين سليمان وملكة سبأ يبين أن جوهره هو الزيارة المذكورة في التوراة، ولكن القصة تختلف عن تلك الواردة في الأصحاح العاشر من سِفْر الملوك الأول، كما تختلف عن الترجوم والمِدْراش. في المُقتَبَس التالي من سورة النمل يُدعى الهدهد الطيطَوى."

لنقارن بين هذه الترجمة الكاملة وترجمة د. نبيلة إبراهيم التي تقول بالحرف، "وهكذا أمد التداخل بين العربي والآرامي واليهودي في الشرق الأدنى لقصة ملكة سبأ بالعديد من الموضوعات القصصية الملموسة التي تبعد كل البعد عن قصة العهد القديم. ثم نأتي إلى قصة القرآن الكريم في الجزء الخاص بمقابلة ملكة سبأ للنبي سليمان وهي تختلف عن كل من قصة سِفْر الملوك الأول، وقصة التارجوم والميدراش. قال تعالى في سورة النمل" (ص ٣٧).

فماذا فعلت المترجمة إزاء مزاعم المؤلفة؟ أولًا، بدلًا من أن ترد عليها، اختارت المترجمة أن تشطب من ترجمتها كل تلك الأسطر (الموضوع تحتها خطًا في النص الإنجليزي) التي تَرِدُ فيها تلك الافتراءات (أي أنها لم تكن أمينة في ترجمتها إلا في ٣٩ كلمة من أصل ١٦٣)! ثانيًا، بدلًا من أن تترجم الجملة الأخيرة في الفقرة الإنجليزية أعلاه ترجمة أمينة أو أن ترد على زعم المؤلفة التي تدعي أن الهُدهُد يُدعى الطيطوى في القرآن، نجدها تقول "قال تعالى في سورة النمل." وهذه الترجمة تتناقض مع اعتقاد المؤلفة بأن النبي محمد هو مؤلف القرآن.

٩) في الفصل الثالث، تزعم المؤلفة أن القرآن الكريم ماهى بين الإسكندر المقدوني وشخصيةٍ جاهلية يُدعى ذا القرنين:

> The Koran and Koranic commentary supported the view that Alexander was protected by God, was in fact divine, by identifying him with a pre-Islamic figure known as Dhu al-Qarnain, i. e. Two-horned. This pre-Islamic hero may indeed have been Alexander, who is often pictured wearing ram's horns. (p. 79)

وترجمة ذلك هي، "لقد عزز القرآن وتفاسيرُه الرأيَ القائل إن الإسكندر محروسٌ من الله، بل إنه شخص مقدَّس، وذلك حين ماهى بينه وبين شخصيةٍ جاهليةٍ يُدعى ذا القرنين. ولعل هذا البطل الجاهلي كان بالفعل هو الإسكندر، إذ غالبًا ما يُصوَّر لابسًا قرني كبش."

لا تنتبه المترجمة، فيما يبدو، إلى هذا القول المغلوط، فتترجمه على عِلاَّته من غير تحريف أو حذف، وإن كانت ترجمتها لا تخلو من بعض الأخطاء، "وقد دعم القرآن، وكذلك الشروح القرآنية، وجهة النظر القائلة إن الله كان يرعى الإسكندر ويحميه، وأنه في الحقيقة مقدس، وذلك بمطابقته [هكذا!] مع شخصية عاشت قبل الإسلام وعرفت بذي القرنين، أي صاحب القرنين. وربما كان هذا البطل الذي عاش قبل الإسلام هو الإسكندر الذي كثيرا ما صور حاملا [هكذا!] قرني كبش" (١٠٣).

وهذا القول ينم على جهلٍ من المؤلفة والمترجمة معًا، فكلتاهما لا تعرف أن القرآن الكريم

لم يذكر الإسكندر المقدوني إطلاقًا، ولذلك فهو براءٌ من خلطٍ بعض المفسرين بين ذي القرنين والإسكندر المقدوني. وعلى الرغم من تعدد تفسيرات لقب الإسكندر بذي القرنين عند العرب وتضاربها، وهي التي يوجزها ابن منظور في قاموسه الجامع «لسان العرب»، لا نجد مَنْ فهم التكنية فهمًا حرفيًا، وإنما لأن ذا القرنين بلغ قرني الشمس (أي مشرقها ومغربها)، كما يقول نشوان الحميري في «خلاصة السير الجامعة»، أو لأنه مَلَكَ قرني الأرض (أي، مشارقها ومغاربها) كما يقول محمد علي الصابوني في «صفوة التفاسير». كما أننا لا نعدم بعض الآراء التي تُسفِّه مثل هذا الخلط. نذكر على سبيل المثال نشوان الحميري الذي ينفي أن يكون الإسكندر هو ذو القرنين، بل يزعم، نقلًا عن عبد الله بن عباس، أن ذا القرنين رجل من حِمْيَر اسمه الصعبُ بن ذي المراثد. وفي «نهاية الأرب في فنون الأدب» يقول النويري مُسفِّهًا الخلط بين الإسكندر وبين ذي القرنين، "وما آفةُ الأخبار إلا رُواتُها." وابن عباس نفسه يقول، في رواية أخرى، إن ذا القرنين اسمه عبد الله بن الضحَّاك، ولعل هذا الارتباك راجعٌ أيضًا إلى كون ذي القرنين لقبًا تكنّى به أكثر من واحدٍ من ملوك العرب، كالمنذر الأكبر بن ماء السماء، وملكين من ملوك حِمْيَر.

١٠) وفي فقرة تالية، ترتكب المؤلفة عددًا من المغالطات، غير أن المترجمة تحرص حرصًا شديدًا على تعقيم هذه الفقرة قبل إخراجها مزيفةً للقارئ:

> *Sura* XVIII in the Koran speaks of Dhu al-Qarnain and al-Khadir, the Green One, in a way that shows familiarity with the Pseudo-Calisthenes. In one of his marvelous adventures, Alexander is said to have sought for the Water of Life with his servant al-Khadir in attendance. (Sometimes, instead, the servant is named Andreas). In Alexander's absence, al-Khadir, preparing their meal, washes a salted fish in a spring. The fish comes to life and swims away. Al-Khadir jumps in after it and so becomes immortal. When Alexander returns and hears the story, they search for the spring but are unable to find it again. The same passage associates al-Khadir and the fish with Moses—who is not two-horned in the Koran. (p. 80)

وترجمة ذلك هي، "تدل الطريقة التي تتحدث بها السورة الثامنة عشرة [الكهف] في القرآن [الكريم] عن ذي القرنين والخَضِر على دِرايةٍ بالمخطوطة الكالِسثينية المزيفة. ففي إحدى مغامراته العجيبة، يُقال إن الإسكندر بحث عن ماء الحياة برفقة خادمه الخضر (وأحيانًا يُدعى الخادم أندرياس). وفي غياب الإسكندر، يريد الخضر أن يُعِدَّ طعامًا له ولسيده، فيغسل حوتًا مملَّحا في نبعٍ، فيعود الحوت إلى الحياة ويتخذ سبيله في النبع سَربًا.

يقفز الخضر وراء الحوت، وهكذا يكتسب الخلود. وعندما يعود الإسكندر ويسمع القصة، يبحثان عن النبع فلا يجدانه. وتقرن السورة ذاتها بين الخضر والحوت وبين موسى الذي لا يذكر القرآن [الكريم] أن له قرنين."

ترد في هذه الفقرة مجموعة من الأباطيل والمغالطات تُنسَب إلى القرآن الكريم وهو منها براءٌ، وسأوجز الرد عليها فيما يلي. فالقرآن الكريم أولًا يتحدث عن ذي القرنين وليس عن الإسكندر. ثانيًا، القرآن الكريم ليس مسؤولًا عن الخلط الذي جرى لاحقًا بين هاتين الشخصيتين. ثالثًا، الخضر عليه السلام ليس خادمًا لذي القرنين/ الإسكندر، بل هو رجل صالح يقصده موسى عليه السلام ليتعلم منه، أما الخادم فاسمه في كتب الأحاديث النبوية يوشع بن نون، وهو خادم لموسى عليه السلام، يرافقه في رحلة بحثه عن الخضر. رابعًا، ليس الذي يعود ليبحث عن النبع هو ذو القرنين/ الإسكندر، بل يعود موسى عليه السلام إلى المكان الذي فقد عنده خادمه الحوت في البحر، إذ كان الله قد أوحى إليه أنه سيجد الخضر عند ذلك المكان.

لكن المترجمة لا تكتفي بالصمت على هذه المغالطات، بل زيفت الجملة الأولى التي تدّعي فيها المؤلفة أن سورة الكهف تدل على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان على اطلاع على المخطوطة الكالِسثينية المزيفة. وهذه هي ترجمتها، "ويحكي بعض القصاصين العرب [هكذا!] أن الإسكندر الأكبر كان يبحث عن ماء الحياة، وكان معه خادمه الخضر. (في بعض الأحيان يسمى الخادم أندرياس بدلا من الخضر). وفي أثناء غياب الإسكندر، كان الخضر يعد الطعام فغسل سمكة مملحة في نبع ماء، وعادت الحياة إلى السمكة، وتسربت إلى الماء وقفز الخضر وراءها وكذلك [هكذا!] اكتسب الخلود. وعندما عاد الإسكندر وسمع الحكاية، بحث مع الخضر عن النبع ولكنهما لم يجداه ثانية. وتماثل هذه الفقرة فقرة أخرى تربط بين الخضر وسمكة موسى الذي لم يصور بقرنين في القرآن الكريم" (١٠٤).

١١) وحين نراجع ترجمة د. نبيلة إبراهيم للأغنية الشعبية الإنجليزية King John and the Abbot (الملك جون وكبير الرهبان)، نجد هذه الترجمة تعج بالأخطاء. ولكنني سأكتفي بالتعليق على ترجمتها للمقطع الأول فقط من هذه الأغنية:

I'll tell you a story, a story anon,
Of a noble prince, and his name was King John;
For he was a prince, and a prince of great might,
He held up great wrongs, he put down great right.
Derry down, down hey, derry down. (p. 82)

وإليكم ترجمة د. نبيلة إبراهيم، "سأحكي لكم حكاية، وسأحكيها في الحال، عن أمير نبيل كان اسمه الملك جون، لأنه كان أميرا، وأميرا يتمتع بقوة كبيرة، ارتكب هذا الأمير كثيرا من السيئات بقدر ما فعل كثيرا من الحسنات... هيا بنا إلى ميناء ديري، لنهبط هناك (ميناء في شمال غرب أيرلندا)" (ص ١٠٥).

ومآخذنا على هذه الترجمة أنها أولًا ترجمة نثرية تفهة النكهة لقصيدة غنائية طريفة. ثانيًا، أخطأت المترجمة في ترجمة البيتين الثاني والثالث، إذ ساوت بين حسنات الملك جون ومساوئه، أما الصحيح فهو أن هذا الملك طاغية كثير المظالم ولا خير فيه على الإطلاق. ثالثًا، أخطأت المترجمة في فهم الخَرْجة في نهاية المقطع، حيث ظنت أن كلمة derry تشير إلى ميناء إيرلندي، علمًا أن هذه الخرجة هي لازمةٌ لا معنى لها تتردد إلى يومنا هذا في الأغاني الشعبية الإنجليزية والأمريكية، ولدينا ما يقابلها في أغانينا الشعبية العربية (ولا سيما في الخليج العربي). والمُستغرَب أن د. نبيلة إبراهيم، وهي أستاذة للأدب الشعبي المقارن في جامعة القاهرة منذ حصولها على الدكتوراه في هذا المجال من ألمانيا سنة ١٩٦٢، لا تعرف هذه الخرجة المعروفة!

وهذه هي ترجمتي (بشيء من التصرف الذي لا يُخلُّ بالمعنى) للفقرة المذكورة، وقد جعلتها على طريقة المقامات لأحافظ على الأقل على القافية:

سأحكي لكم قصةً، نعم، قصةً في الحالْ
عن الملك جون، ذلك الأمير المِفضالْ.
لقد كان أميرًا، بل أميرًا ذا بأس شديد
به يَزْهَق الحقُّ ويعلو كلُّ جبّار عنيد.
ودانه ودانه وادان دانه يا دانه واداان دانه.

١٢) في الفصل الرابع من الكتاب تتحدث المؤلفة عن سيرة عنترة بن شداد العبسي، وتقدم ملخصًا لها عن ترجمة إنجليزية منشورة سنة ١٨٨٧. وبطبيعة الحال، ترد في هذه السيرة كثيرٌ من أشعار عنترة التي تستشهد بها المؤلفة. وهذا يُحتم على المترجم أن يبحث عن الأشعار الأصلية ويثبتها في ترجمته، وهذا ما فعلته د. نبيلة إبراهيم عمومًا وجعل المراجعة د. فاطمة موسى، رحمها الله، تقول في تقديمها للترجمة، "ومما يميز جهد المترجمة في هذا النص العربي التزامها بالأصول عندما يستشهد المؤلف [هكذا في الأصل] بنصوص من سيرة «عنترة» أو «ألف ليلة وليلة»، أو من كتب لمؤلفين عرب..." (ص ٧). غير أن المترجمة في الواقع لم تلتزم هذه الأصول، ولم تكن أمينةً في نقلها. فحين تستشهد

المؤلفة في صفحتي ٩٣-٩٤ باثني عشر بيتًا من إحدى قصائد عنترة، نجد أن المترجمة جاءت بأربعة عشر بيتًا لا علاقة لها بالتي استشهدت بها المؤلفة (١١٩-١٢٠). وحين استشهدت المؤلفة بالمبارزة الشعرية التي جرت بين قيس بن ضبيان وعنترة (ص ٩٧) وقد بلغ ما قاله كلا الخصمين ١٠ أبيات، نجد أن المترجمة، للأسف، تخدع القارئ مرة أخرى حين تأتي بخمسة أبياتٍ لا علاقة لها بما أوردته المؤلفة (انظر ص ١٢٤). وتفعل الشيء ذاته مع الأبيات الخمسة التي توردها المؤلفة في الصفحة ١٥٠، إذ تأتي بخمسة أبياتٍ أربعةٌ منها لا علاقة لها بما استشهدت به المؤلفة! فأين هذا الالتزام المزعوم؟

خلاصة القول، إن الترجمة التي قامت بها د. نبيلة إبراهيم لا يوثَقُ ولا يُعتَدَّ بها من الناحية العلمية لأنها فاقدة الصدقية. فتدخلات المترجمة في تزييف آراء المؤلفة جعلت الكتاب عملًا هجينًا مختلط النسب، لا يعكس آراء المؤلفة على نحو دقيق وأمين. وهي بهذا تحرم كثيرًا من الباحثين العرب (ولا سيما المختصين بالدراسات الإسلامية) من فرصة الرد على أباطيل المؤلفة. بل ربما تُغري ترجمتها المزيفة أحدًا من هؤلاء المخدوعين أن يكتب عن هذه الكاتبة الغربية التي لا تُقِر فقط بمديونية الغرب للعرب في الأدب الشعبي، بل، وعلى خلاف أبناء جلدتها من الغربيين، تُقِر بأن القرآن الكريم هو كتاب الله المُنْزَل على قلب نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي لا ينطق عن الهوى ولا بتأثير من خرافات الجاهلية وأساطير العبرانيين وغيرهم، وإنما ينطق عن وحيٍ يُوحى.

وبما أن الترجمة قد صدرت في سلسلة عالم المعرفة التي تُصدر عادةً ما بين ٤٠ إلى ٥٠ ألف نسخة من كل واحد من إصداراتها، فإن الضرر الذي سببته هذه الترجمة أكبر بكثير مما لو لم يُترجَم الكتاب أصلًا. أمَا وقد تُرجِم وانتشر على هذا النطاق الواسع، فإنه يحتم علينا علميًا وأخلاقيًا ودينيًا أن نعيد ترجمة الكتاب ترجمةً علميةً أمينةً بلا تجميلٍ أو تدليسٍ، وأن نرد على الأباطيل التي ترد فيه. والله ولي التوفيق.

المقدمة

لا يخفى إلا على غير الباحثين أو يفاجئهم أن الثقافة العربية هي ثالثة الأثافي التي تقوم عليها الثقافة الغربية.

لقد تعلمنا أن حضارتنا نشأت من جذورٍ كلاسيكية (إغريقية-رومانية) ومسيحية-يهودية، وأن العناصر الكلاسيكية قد ضاع جلُّها إلى أن أُعيد اكتشافها في عصر النهضة. أمَا وقد صار العالم الآن أصغر والاتصالات أسهل وتخفف الدِّين من تشدده واتسع التبادل بين الباحثين، فقد بِتْنا في الغرب نعترف الآن بالأرضية التي نشترك فيها مع التراث العربي. والحقيقة هي أن الثقافة كانت في العصور الوسطى إغريقية ولاتينية وعربية.

لقد وصلنا الأدب الإغريقي عبر الرومان، ولهذا كان باللاتينية، ولكن الجزء الأكبر من المعارف الإغريقية التي ضمت العلوم والفلسفة تناقلها البيزنطيون عبر الترجمة من الإغريقية إلى العربية، فطوَّرها العرب بدورهم، ثم انتقلت في العصور الوسطى من العربية إلى اللاتينية. كانت مشروعات الترجمة الهائلة في القرن الثاني عشر في كل من إسبانيا وصقلية جسورًا كبرى عبرت عليها المعارف العلمية عند العرب إلى أوربا الغربية البدائية حينذاك.

يقتصر العنصر اللاتيني على أوربا الغربية، كما يقتصر على العالم المسيحي وما تبقى من الإمبراطورية الرومانية، على ما بين هذه من تعدد الأماكن والتواريخ والفروق والتحولات والقوى والتداخلات، بالإضافة إلى ما تبقى من روما الوثنية. ولهذا يُصنَّف الكتاب المقدس، برغم أصوله العبرية وترجماته الإغريقية، على أنه لاتيني لأنه باللاتينية مُلكٌ للكنيسة.

وما يهمنا أكثر من أي شيء آخر هو إرثنا العربي، ذلك لأنه غير معروف. وهذا الإرث ليس شيئًا بسيطًا واحدًا. فمن كانوا يُعرفون في العصور الوسطى باسم السَراقِنة [الشرقيين] كانوا ينحدرون من مجموعات عرقية متعددة من بينها الإغريق والفُرس والهنود والأقباط والأتراك والأرمن واليهود. وقد استوعبت الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية حضاراتِ هؤلاء

القديمة الثرية، إلا أن الانتشار السريع للإسلام في القرن السابع فرض على هذه المجموعات ثقافة الفاتحين الجدد، فأضفى على هذه الثقافة صبغة عربية جديدة. وأهم مُرتكَزين في هذه الثقافة هما الإسلام، الدين المركزي، والعربيةُ، لغةُ القرآن ووسيلةُ التعبير. بَيْدَ أن هناك تاريخًا فكريًا معقدًا يتضمنه الأدب العربي في العصور الوسطى ويكمن تحت عاملَي التوحيد هذين. وجزءٌ من هذا كان تلك الثروة الهائلة من القصص الشعبي الذي دُوِّن أولًا في الهند أو فارس، ومن ثم جرى تصنيفه على أنه أدب أو حكايات شعبية يغلب عليها الطابع الشفوي، فتناقلتها الشعوب الناطقة بالعربية، وجلبتها معها في توسعها إلى أوربا.

ومع أن التأثير العربي بلغ أوجه في العهد الوسيط، إلا أن مسيرة المثاقفة استمرت. لقد جاء عصر النهضة، فوضعت المخطوطاتُ الكلاسيكية الأدبَ الإغريقي في مدار المعارف الغربية حيث حلت اللغات العامية محل اللاتينية. لقد حلَّ العالم الحديث جالبًا معه شتى أشكال المثاقفة. إن كلمة 'أوربي' التي تشير اليوم إلى الماضيين الإغريقي واللاتيني-المسيحي، بل إلى القوميات الحديثة أيضًا، كانت في العصور الوسطى تشير إلى العنصرين الإغريقي واللاتيني في التقسيم الثلاثي. ففي العصور الوسطى، كانت هناك ثلاثة عوامل منفصلة، ولم يصبح بإمكاننا الحديث عن اثنين بدلًا من ذلك، هما أوربا والشرق، إلا منذ عصر النهضة.

أما في هذا الكتاب الذي يتعامل مع المدونات والحكايات الشعبية، فإن جل مقارناتنا هي بين المرويات الإنجليزية والعربية، بين أوربا الغربية والشرقين الأدنى والأوسط. ونقدم فيه بعضًا من التراثات الشعبية والأدبية التي نشترك فيها مع الثقافة العربية، بعد أن كنا نظن أنها لنا وحدنا.

يوسف وزوجة فوطيفار

أعرب جون مَري، ناشر اللورد بايرون، عن شكٍّ ساوره حول "ملاءمة ورود اسم قابيل على لسان رجلٍ مسلم." فرد بايرون ردًّا مفصلًا لعله ضاع على مري، "وهل تظن أنه لا أحد يعرف آدم وحواء وقابيل ونوحًا سوى الغربيين؟ إن بإمكاني أن أذكر لك أيضًا سليمان وإبراهيم وداوود وحتى موسى... لو أنك علمت أن زُليخا هو الاسم الشعري الفارسي لزوجة فوطيفار، وقد نُظمت عنها وعن يوسف قصيدة طويلة، لما تفاجأت."[1]

نحن بحاجة لتكرار مثل هذا القول، لأننا نتفاجأ حين نعلم أن شخصيات 'كتابنا' المقدس مذكورة في القرآن أيضًا. فقصة يوسف، كغيرها من القصص، مذكورة هناك؛ وهي وإن اختلفت في تفصيلاتها عن تلك الواردة في العهد القديم، فإنها تروي الحكاية ذاتها. إن حادثة زوجة فوطيفار جزء من هذه الحكاية، إلا أنها تتغير في الحكايات التالية على القرآن والمستمدة منه، وما قصيدة جامي الطويلة التي يشير إليها بايرون إلا خير مثال فارسي. وبحلول عصر محمد [صلى الله عليه وسلم]، كانت الإشارة اليتيمة العابرة إلى زوجة فوطيفار في سِفْر التكوين (٣٩) قد تطورت في الشرق الأدنى من خلال التفسيرات والحكايات الشعبية العبرية التي اختلطت بدورها مع أساطير هيبوليتوس-فيدرا التي تدور في فلك التراث الإغريقي، حتى صارت صورة فوطيفار لا تخلو من تعاطف.[2] ثم جاء مفسرو القرآن [الكريم] وغيرهم من

(١) ما يسميه اليهود والمسيحيون العرب فوطيفار بحسب ترجمة ڤان دايك العربية للكتاب المقدس، تسميه كتب التراث العربي الإسلامي قطفير أو أطفير، والقرآن الكريم يسميه في سورة يوسف عزيز مصر. [المترجم].

(٢) هناك اعتقاد شائع بين عامة المستشرقين والغربيين أن القرآن الكريم هو من تأليف النبي محمد (ص)، ولهذا السبب تظن المؤلفة هنا أن قصة يوسف كما وردت في القرآن الكريم قد تأثرت بالأساطير اليهودية وغير اليهودية. وهذا غير صحيح، إذ إن القرآن الكريم أُنزل على النبي (ص) من اللوح المحفوظ عند الله سبحانه وتعالى، غير أنه يصح القول إن بعض المفسرين المسلمين قد وقعوا تحت تأثير التفسيرات اليهودية (وهو ما يُعرف بالإسرائيليات). [المترجم].

الكتاب اللاحقين فراحوا يضيفون إلى القصة والتعاطف إلى أن أصبحت قصة يوسف وزليخا أشهر قصة حب في الإسلام.

من جهة أخرى، تمتاز قصة يوسف في البلدان المسيحية ليس فقط بكونها تمثل قمة الإخلاص لله، بل أيضًا بأنها تمثل قصة نجاح لا قصة حب. فيوسف هو محور الاهتمام، وهو الابن المفضَّل لدى أبيه الذي يعطيه معطفًا متعدد الألوان، ولكن إخوته يهجرونه ويبيعونه لقافلة مصرية، إلا أنه يفسر حلم السنين السِّمان والأخرى العجاف، ثم يصبح وزير فرعون، وهو الذي يغفر لإخوته في نهاية المطاف.

في قصة النجاح هذه، لا تشكل الحادثة مع زوجة سيده سوى انتكاسة عابرة في رحلة البطل إلى القمة. ولكن هذه الصورة البدائية لقصة يوسف وزوجة فوطيفار، على الرغم من هامشيتها، هي التي ظلت ثابتةً عبر القرون في الغرب، وذلك بسبب مكانتها في الأثر التوراتي. إن المواجهة التي ورد ذكرها في سِفْر التكوين هي التي كانت وراء نشأة الموتيف الشعبي الذائع الصيت عن الفتى المتعفف وزوجة الأب الفاسقة، على الرغم من أن هذا الموضوع ليس أقدم مثيلاته ولا أمْيَزَها في التراث اليهودي-المسيحي. لقد أصبحت عبارة "زوجة فوطيفار" بفضل الكتاب المقدس، وكما وردت صيغتها في العهد القديم، عبارة دالة خالدة على مر الزمان.[٣]

من تلك القصة الطويلة المذكورة في الأصحاح التاسع والثلاثين من سِفْر التكوين، نقتبس فيما يلي الآيات ١-٢٣:

وَأَمَّا يُوسُفُ فَأُنْزِلَ إِلَى مِصْرَ، وَاشْتَرَاهُ فُوطِيفَارُ خَصِيُّ فِرْعَوْنَ رَئِيسُ الشُّرَطِ، رَجُلٌ مِصْرِيٌّ، مِنْ يَدِ الإِسْمَاعِيلِيِّينَ الَّذِينَ أَنْزَلُوهُ إِلَى هُنَاكَ. وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلًا نَاجِحًا، وَكَانَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ. وَرَأَى سَيِّدُهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ بِيَدِهِ. فَوَجَدَ يُوسُفُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ، وَخَدَمَهُ، فَوَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَدَفَعَ إِلَى يَدِهِ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. وَكَانَ مِنْ حِينِ وَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ، أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ الْمِصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ. وَكَانَتْ بَرَكَةُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي الْحَقْلِ، فَتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَعْرِفُ شَيْئًا إِلاَّ الْخُبْزَ الَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الصُّورَةِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ. وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةَ سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتِ: «اضْطَجِعْ مَعِي».

(٣) ما توحيه عبارة "زوجة فوطيفار" في التراث اليهودي-المسيحي يوازي في تراثنا الإسلامي ما توحيه عبارة "صُوَيْحبات يوسف." [المترجم].

فَأَبَى وَقَالَ لامْرَأَةِ سَيِّدِهِ: «هُوَذَا سَيِّدِي لاَ يَعْرِفُ مَعِي مَا فِي الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدِي. لَيْسَ هُوَ فِي هذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمْسِكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكِ، لأَنَّكِ امْرَأَتُهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟» وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجِعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا. ثُمَّ حَدَثَ نَحْوَ هذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: «اضْطَجعْ مَعِي!». فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ. وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتْهُمْ قَائِلَةً: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُل عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ». فَوَضَعَتْ ثَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. فَكَلَّمَتْهُ بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ قَائِلَةً: «دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَيْنَا لِيُدَاعِبَنِي. وَكَانَ لَمَّا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ». فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلاَمَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمَتْهُ بِهِ قَائِلَةً: «بِحَسَبِ هذَا الْكَلاَمِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ»، أَنَّ غَضَبَهُ حَمِيَ. فَأَخَذَ يُوسُفَ سَيِّدُهُ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. وَلكِنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَ يُوسُفَ، وَبَسَطَ إِلَيْهِ لُطْفًا، وَجَعَلَ نِعْمَةً لَهُ فِي عَيْنَيْ رَئِيسِ بَيْتِ السِّجْنِ. فَدَفَعَ رَئِيسُ بَيْتِ السِّجْنِ إِلَى يَدِ يُوسُفَ جَمِيعَ الأَسْرَى الَّذِينَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. وَكُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ هُنَاكَ كَانَ هُوَ الْعَامِلَ. وَلَمْ يَكُنْ رَئِيسُ بَيْتِ السِّجْنِ يَنْظُرُ شَيْئًا الْبَتَّةَ مِمَّا فِي يَدِهِ، لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَهُ، وَمَهْمَا صَنَعَ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ.(٤)

هنا تكمن نواة قصتنا: يؤتى بيوسف عبدًا إلى مصر حيث يبتاعه فوطيفار، أحد وزراء فرعون. وهناك يوفقه الله في إدارة شؤون سيده، فيحظى بثقته. إلا أن زوجة سيد يوسف تُراوده عن نفسه جهارًا نهارًا. ولكنها لا تكفُّ عن مُراودته على الرغم من ممانعته لها لأنه لا يريد أن يرتكب إثمًا. وذات يوم حين يخلو البيت إلا منه ومنها، تُمسك به من قميصه، فيتركه في يدها ويهرب. تشكو يوسفَ لزوجها ورجاله، فيلقي فوطيفار بيوسف في السجن. ولكن

(٤) منقول عن ترجمة ڤان دايك العربية للكتاب المقدس المتوفرة على شبكة المعلومات الدولية على الرابط التالي:
http://www.arabicbible.com

بمنةٍ من الله ورحمته التي لم تنقطع، يُعيد صاحبُ السجن يوسفَ إلى مكانته السابقة، بل يصبح وزير فرعون في نهاية الأمر.

وهذه فكرة أساسية عند العبرانيين مفادها أن الإنسان الورع سيفوز فوزًا عظيمًا، وأن من يفعلِ الخير لا يَعدَم جَوازِيَه. إن يوسف صاحبُ حُسْنٍ، وأمانةٍ وبراعةٍ في عمله، وعفَّةٍ كذلك. أما المرأة فهي ذاتُ شبقٍ وقِحةٍ. وإزاء هذا الإغواء، يدعو يوسف ربه لينجّيه، فيُحسِن الله مثواه حتى وهو في السجن. وعلى الرغم من إعطاء تفاصيل دقيقة مثل الكلمات التي قيلت ("اضطجع معي") أو صفات القميص، إلا أن سِفْر التكوين يتعامل مع قصة زوجة فوطيفار بصورة عامة وسريعة بحيث يتسارع الخط السردي إلى موضوعه الأساسي، ألا وهو نجاح يوسف في هذه الدنيا وعلو مكانته فوق مكانة إخوته. لا تتمتع قصة زوجة فوطيفار بأي أهمية سوى أنها تبين طاعة يوسف لربه أولًا، وأن النساء حبائل الشيطان ثانيًا. هنا يقدم سِفْر التكوين مسألة تجسيد المرأة للشر على أنها حقيقةٌ مجردة من الشهوانية أو الشبق؛ أما نقطة الاهتمام التي تستوفي كل شيءٍ سواها فهي استقامة الرجل الذي يجازيه الله خيرَ الجزاء في الوقت المناسب.

ولكن أقدم نسخة مدونة عن الشاب المتعفف وزوجة الأب الشبقة ليست ما ذُكِر في سِفْر التكوين، التي كما وردت في الكتاب المقدس جُمِعت من وثائق أقدم في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد. بل إن أقدم نسخة مكتوبة تظهر في حكاية شعبية مصرية مدونة على ورق البردي حوالي سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد. ولا بد أن تكون الحكاية ذاتها، المعروفة باسم "آنوپ وباتا" أو "الأخَوَان،" أقدم في الحقيقة من مدونة البردي، لأنها بوصفها حكاية شعبية شفوية لا بد أن تتداولها الألسن لعدة أجيال قبل أن تُدوَّن. وعناصرها الشعبية معروفة من بينها: نصائح من أبقارٍ ناطقة، طيران من فوق الحواجز، روحٌ منفصلة، نبوءة مشؤومة، حبٌّ سببُه رؤيةُ شَعرة، رمزٌ حياتي (جِعةٌ مُزْبِدة)، تناسخ متكرر، وموتيف "زوجة فوطيفار." والشخصيات هي آنوپ، الأخ الأكبر، وباتا الأخ الأصغر، وزوجة آنوپ. يعيش باتا مع أخيه آنوپ، وحين تعجز زوجة آنوپ عن إغواء باتا، تقرر أن تشكوه لآنوپ. يترصد آنوپ لقتل أخيه، ولكن بقرة ناطقة تُنذر باتا، فيهرب عبر نهر سحري. وحين يعجز آنوپ عن بلوغ أخيه على الضفة الأخرى، يخبره باتا خبر زوجته الخائنة، فيقتلها آنوپ وفقًا للتقاليد. يرتحل باتا وينخرط في مغامرات جديدة، بما في ذلك مغامرة مع زوجة خائنة له لا ينقذه منه إلا أخوه آنوپ. يرث باتا عرش فرعون، فيدعو أخاه آنوپ ليتقاسم معه مملكته. والجزء الأخير من هذه الحكاية القديمة يشبه حكاية "الأخَوان" الشعبية المعاصرة إلى حدٍّ صاعق.

وما يهمنا هنا بدايةً هو أن "آنوپ وباتا" هي في الحقيقة حكاية شعبية، وأنها ظلت تَتداوَلها الألسن لقرون قبل ١٢٥٠ قبل الميلاد، وثانيًا أن الحكاية برمتها أشد شبهًا بقصة يوسف التوراتية بكليتها مما قد تشير إليه حادثة الفتى المتعفف وزوجة الأب الشبقة لوحدها. فكلٌّ من يوسف وباتا يطلب العون من الله، ثم تصير لكل منهما زوجة، ويعيش عيشًا رغيدًا في ظل فرعون، ويكون لكل منهما أخٌ مُحبٌّ (بنيامين في حالة يوسف)، ثم يُحْسِن كل منهما إلى ذلك الأخ. إن هذه التشابهات تعزز القول بأن هاتين القصتين لهما منشأ واحد. فإذا كان يوسف التاريخي قد عاش، كما هو مُعتقَد، في مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد، فمن المحتمل أن تكون أسطورته قد تأثرت بالحكاية المصرية الدارجة حينها، أو، على العكس من ذلك، أن تكون أسطورة يوسف العبرية الشفوية قد تبناها المصريون وحوَّروها.

أما بخصوص موتيف الإغواء، فلربما كانت هناك في الشرق الأدنى حكاية أو أسطورة تُتداول منذ عصور سحيقة. فلو تجاهلنا تواريخ النسخ المدونة، وافترضنا وجود نسخٍ شفوية، فيمكننا تحديد فترة ٢٠٠٠-١٥٠٠ قبل الميلاد لنشأة هذه الحكاية الأصلية. من ناحية أخرى، بما أنه كانت تكثر زوجات الآباء في المجتمعات المبكرة التي تتعدد فيها الزوجات، فإن مثل هذه القصة من شأنها أن تكون في آنٍ واحد تحذيرًا للزوجات وتسويغًا للنظرة الأبوية التي ترى أن النساء مجرد غاويات. وفي الوقت نفسه، من المعقول جدًّا أن يكون هذا الموضوع الشعبي بالذات قد نشأ بشكل مستقل بين شتى الأقوام القديمة.

ولكن مما لا يرقى إليه الشك هو أن أقوامًا متعددة قد دونت هذا الموضوع بصورة مستقلة. فأول ظهور له في الأدب الإغريقي كان في ملحمة «الإلياذة» في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، إذ هناك إشارتان عابرتان إلى زوجات آباءٍ شبقات. وملحمة «الإلياذة» سابقةٌ على كلٍّ من سِفْر التكوين ومسرحية يوريبيدس، «هيپوليتوس» المشهورة في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد، والتي كان لها دورٌ أساسي في قولبة كل المعالجات اللاحقة لهذا الموضوع. فالمسرحية قائمة على مثلث ثيسيوس-فيدرا-هيپوليتوس المستمد أصلًا من أساطير يونانية أقدم، إذ يظهر ثيسيوس على سبيل المثال في تراث المينوتور الكريتي الذي يعود تاريخه إلى ما قبل ١٥٠٠ قبل الميلاد.(٥) وبما أنه توجد هناك الكثير من العلاقات الكريتية-المصرية، فلعل حكاية "آنوپ وباتا" قد أثرت في كلٍّ من قصة زوجة فوطيفار في العهد القديم ومثيلاتها في

(٥) المينوتور في الأساطير اليونانية وحشٌ نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور، يتغذى على لحوم البشر، ويُحتجَز في متاهةٍ في جزيرة كريت. [المترجم].

الأساطير اليونانية. إلا أن موتيف زوجة الأب الشبقة التي تتهم ابن زوجها ظهر أيضًا في الهند في كتاب «جَتاكَس» البوذي في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، والذي وجد سبيله إلى «كتاب السندباد» عبر فارس. وقد أصبح هذا الكتاب الأخير من أكثر كتب الأدب تأثيرًا حين تُرجِم إلى العربية في القرن الثامن. وقد أدى انتشاره في العالم العربي إلى نقله إلى عدد من اللغات تحت عناوين مختلفة شرقًا وغربًا: *Sindban* (سِندْبان)، Syntipas (سنتيپاس) *Libro de los Engaños* (كتاب الحِيَل)، *Mischle Sindbad* (مِشْله زِنْدْباد)، Sinbad-nameh (كتاب سِندِباد)، *Seven Vezirs* (الوزراء السبعة)، *Sept Sages de Rome* (حكماء روما السبعة)، *Seven Sages of Rome* (حكماء روما السبعة) *Seven Wise Masters* (أساطين الحكمة السبعة)»، *Dolopathos* (دولوپاتوس)، وجزءٌ من «توتي نامه»، وجزءٌ من «ألف ليلة وليلة». وكل هذه حكايات إطارية يلتزم فيها الأمير البريء الصمتَ، ولكن معلمه، أو معلميه السبعة، يدافعون عنه بحكاياتٍ عن مكائد النساء إلى أن يتمكن من الحديث عن نفسه. وسندباد هو اسم المعلم الأول أو كبير المعلمين. وسنعود إلى «كتاب السندباد» مرارًا وتكرارًا. وأيًّا كان الأمر، تُدَوَّن النسخ القديمة للموتيف في هذه الآداب الأربعة المختلفة: المصري، الهندي، الإغريقي، العبري. وبما أن مدونة البردي التي تضم حكاية "آنوپ وباتا" لم تُكتشَف إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، فقد ساد اعتقادٌ أن الكتاب المقدس وحكاية هيپوليتوس هما المصادر الأدبية التي قولبت تلك الحكاية البسيطة عن يوسف وزوجة فوطيفار، وليس القصة الإطارية.

ولكن قصة يوسف وزليخا انتشرت من ديار الإسلام في العصور الوسطى إلى أوربا القارّية وإنجلترا. كان النفوذ العربي يمتد من فارس إلى إسبانيا، ولعل قصة يوسف وزليخا كانت في هذين البلدين أشهر قصة تتعرض للتنقيح والزيادة: ففي فارس أُحْصيت ثماني عشرة نسخة أدبية مستقلة، أما في إسبانيا فالقصائد والمسرحيات والقصص المعروفة باسم "جوزفينا" فلم يُحْصَ لها عددٌ بعد.

أما المصدر المباشر لأسطورة يوسف الإسلامية فهو القرآن بطبيعة الحال.[٦] والإسلام يعد القادة التاريخيين للديانتين اليهودية والمسيحية، ومن بينهم عيسى [عليه السلام]، أنبياءَ من أنبياء الله الواحد الأحد، مثلهم في ذلك مثل محمد [صلى الله عليه وسلم]. وكما قد رأينا، فقد كان محمد [صلى الله عليه وسلم] يروي من جديد في تعاليمه قصص الأنبياء الأقدمين،

(٦) حاشى للقرآن الكريم الذي سفَّه أساطير الأولين أن يكون هو مصدرًا لمثل هذه الأساطير. وإن نسج الكتاب المسلمون أسطورةً من قصة يوسف، فمصدرهم هو التفسيرات اليهودية (الإسرائيليات) لهذه القصة. [المترجم].

كما كانوا يُسمّون، ومن بينهم يوسف [عليه السلام]. لقد جُمِع ما أُوحي إلى محمد [صلى الله عليه وسلم] بعد عشرين سنة من وفاته سنة ٦٣٠ ميلادية، ثم دُوِّن وسُمِّي القرآن.(٧) كثيرٌ من سور القرآن ذات طبيعية تلميحية وغير مترابطة، أما سورة يوسف فتمتاز بكونها لا تعالج إلا موضوعًا واحدًا، وهي قصة متتابعة ومتطورة. وما يتضح لنا هو أن قصة يوسف كان لها سحرٌ عظيم خارج المجتمعين اليهودي والمسيحي كما في داخلهما، والقرآن يسمي قصته "أحسن القصص."

ولكن خلال القرون الفاصلة بين كتابة سِفْر التكوين (الأصحاح التاسع والثلاثين) وحديث محمد [صلى الله عليه وسلم]، تراكم كمٌّ هائل من الزيادات في الشرق الأدنى حول الشخصيات التوراتية. ولذلك لم يكن سِفْر التكوين المصدر الوحيد لقصة يوسف القرآنية، بل كانت هناك أيضًا التفسيرات المِدراشية والهغَّادية اليهودية على التوراة، ناهيك بالحكايات الشعبية والكتابات المجهولة المؤلف التي تأثر بعضها بالموروثات اليونانية-الشرقية عن الفتى المتعفف وزوجة الأب الشبقة.(٨)

وأهم هذه الوثائق هي «مواثيق الآباء الاثني عشر» التي دوَّنها الكُتّاب العبرانيون في فلسطين في حوالي سنة ١٠٠ قبل الميلاد، وهي ترمي إلى رواية سيرة أبناء يعقوب [عليه السلام] الاثني عشر. ومرةً أخرى، نجد أن ميثاق يوسف فريدٌ من نوعه. فبينما تواصل المواثيق الأخرى أسلوبها الوعظي الصارخ الذي نجده في الأسفار الأولى من التوراة، نجد أن ميثاق يوسف يُفَصِّل في ذكرياته عن تجربته مع زوجة فوطيفار. وعلى الرغم من أن العنصر الإيروسي يردعه خوف يوسف من الله، إلا أنه موجود، وهو بهذا يشكل مُفترقًا جديدًا. ونراه كعادته إما يصلي أو ينتحب أو يصوم، ولكنه أيضًا ذو عواطف بشرية طبيعية.

أما النقاط الأخرى التي يضيف فيها ميثاق يوسف تفاصيل إلى آيات التوراة فهي كما يلي: تشير بعض النصوص إلى أن فوطيفار كان خصيًّا من خصيان فرعون؛ تستطيل فترة مغازلة زوجة فوطيفار القصيرة حتى تغطي مدة من الزمن؛ تهدده بالقتل وتعده بأن يكون سيدها في آن معًا؛ تمتدح عفته المشهورة كي تتستر وراءها؛ تعري نفسها وتتزين له لتغويه؛ تعرض عليه أن تقتل زوجها؛ تعرض عليه أن تعتنق دينه؛ تتمارض؛ تهدد بالانتحار؛ يحذرها يوسف [عليه

(٧) هذا كلام غير دقيق، في أحسن الأحوال، إذ إن تسمية القرآن بهذا المسمّى سابقة على جمع القرآن على عهد عثمان بن عفّان (رض)، كما أن كلمة قرآن (أو القرآن) مذكورة عدة مرات في القرآن نفسه. [المترجم].

(٨) انظر الحاشية السابقة. [المترجم].

السلام] من مغبة الانتحار لأن ذلك سيسمح لضرتها أن تسيء معاملة أطفالها؛ عندما يُسجن يوسف [عليه السلام] على إثر اتهامها له، تظل تواظب على رؤيته.

كما أن كتب المِدْراش ربّاح (أي، التفاسير الأسطورية الكبرى للتوراة)، التي يُعتقد أن عِزرا قد بدأها سنة ٤٤٤ قبل الميلاد واستمرت حتى حوالي ٢٧٠ بعد الميلاد، قد أدلت بدلوها من الإضافات. فهي تضيف شرحًا مفاده أن الله عاقب فوطيفار بالخصاء لأنه اشترى يوسف لغرض اللواط. وتُعَدُّ زوجة فوطيفار عاهرة لأنها تدعو يوسف لمضاجعتها. وهي شريرة كذلك، إذ يقال إنها وبخته وسخرت منه في السجن وأنها وضعت شوكة تحت ذقنه لكي تجبره على النظر إليها. كما يُصوَّر يوسف [عليه السلام] على أنه عرضةٌ للإغواء، ولكنه صامدٌ في ممانعته.

يُعتقد أن قصةً هَغّاديةً ضائعةً أضافت مشهد وليمةٍ قطَّعت فيها صاحباتها أصابعهن لدى رؤيتهن ليوسف. (الهغّاده هو العنصر الأسطوري في التلمود).

وهناك سجل أبكر، هو كتاب [المؤرخ اليهودي] يوسيفوس، «عصور اليهود القديمة» الذي كتبه سنة ٩٣ ميلادية، يضيف شيئًا جديدًا ومؤثرًا جدًّا، وهو أن حُسْن يوسف هو الذي فتن زوجة فوطيفار.

لقد تأثرت قصة يوسف الإسلامية بالتراثين العبراني والإغريقي، وقد تم هذا بصورة رئيسية عبر أسطورة هيپوليتوس-فيدرا. أو لعل مثيلات هيپوليتوس-فيدرا أثرت أيضًا في الموروثات اليهودية التي أثرت بدورها في الموروثات العربية. لعل استيعاب قصة يوسف، وربما قصة آنوپ وباتا، في التراث اليوناني جعل من مسألة التثاقف في الشرق الأدنى أمرًا لا مناص منه حتى قبل مقدم الإسلام. وقصة هيپوليتوس ذاتها كانت معروفة على نطاقٍ واسع في العالم الذي يدور في فلك التراث الإغريقي وذلك عبر الحكايات الشعبية وحكايات الحب المكتوبة. ومما يتضح من كتاب پلوتارخ، «سيرة كراسوس» أن يوريپيديس كان يلقى إعجابًا شديدًا في الشرقين الأدنى والأوسط. وقد حدث أن أُقيم حفلُ خطوبةٍ فخمٌ في فريثيا بُعيد اغتيال كراسوس وقطع رأسه. فأُزيحت موائد المأدبة، وكان ممثل مأساوي يغني من مأساة «الباكخاي» ذلك الجزء حيث توشك أغاڤه أن تظهر وهي حاملةٌ رأسَ پنثيوس في يدها. في هذه اللحظة يُلقى برأس كراسوس في وسط الحفل، فيحمله الممثل ويتقمَّص دور أغاڤه. أن يصدر هذا من الفريثيين خلال حربهم مع الرومان لَهُو دليلٌ على أن الفريثيين يعون التراث الإغريقي كما وعاه الرومان ورثة الإغريق. ومن بين كل مسرحيات

يوريبيديس، يبدو أن «هيپوليتوس» كانت الأكثر رواجًا. تصور لوحاتٌ فسيفسائية من القرن الثاني في أنطاكية مشاهد لفيدرا والمُرضعة، مما يدل على أُلفة واسعةٍ كأُلفتنا مع أشهر مسرحيات شكسپير.

تختلف قصة هيپوليتوس اختلافًا صاعقًا عن الأصحاح التاسع والثلاثين من سِفْر التكوين فيما يلي من المناحي: يدوم حب فيدرا طويلًا؛ الآلهة هي التي تؤجج هذا الحب، ولذلك فهو ليس مسؤوليتها؛ تذوب فيدرا شوقًا؛ نساء تْرُويْزِن هن صاحباتها؛ ولديها أيضًا مرضعة مخلصة تحذرها أنها لو ماتت فإن ابن زوجها ستكون له اليد الطولى على أبنائها؛ تنتحر فيدرا حين يصدها حبيبها، ولكنها تتهم هيپوليتوس في رسالة؛ لا يستطيع أن يبرئ نفسه بسبب قَسَمٍ للآلهة؛ يلعنه ثيسيوس ثم يُقتَل. ويكاد يكون تركيز المسرحية على فيدرا مثلما هو على هيپوليتوس، ويُنظر إليها على أنها ضحية للآلهة لا بوصفها امرأة خسيسة. هنا، تعمل الآلهة ضد كلٍّ من الفتى المتعفف والمرأة، بينما في النسخ اليهودية يكون الله في جانب الرجال حصريًّا.

إذن، تبين المقارنات بين الموروثات الدارجة في عصر محمد [صلى الله عليه وسلم] تلك العناصر الإنسانية في الحكاية الكلاسيكية اليونانية والهلنستية التي تتنافر مع المأرب الوعظي والمفهوم الأبوي المتشدد للحكاية العبرانية. ولكن تحوير قصة زوجة فوطيفار قد حدث، كما رأينا من قبل، منذ كتابة «مواثيق الآباء الاثني عشر»، إذ تمتد مراودة الزوجة ليوسف مدة من الزمن، كما يُضاف إلى القصة تمارضها وتهديدها بالانتحار وتحذير يوسف لها أن انتحارها سيضر بمصلحة أبنائها. وكل هذه لها ما يوازيها إن لم يكن مصدرها في مسرحية «هيپوليتوس». كما أن تهديدها ليوسف بالانتحار ووعده في الوقت ذاته بأن يكون هو السيد، واستغلالها لعفته لتتستر وراءها، وعرضها عليه أن تقتل زوجها، كل هذه لها مثيلاتها فيما تفرَّع عن أسطورة فيدرا.

أما وصف فوطيفار بأنه خَصِيٌّ، وتعرّي المرأة وتزيُّنها لتغريه، واستعدادها لاعتناق دينه، وزياراتها ليوسف في السجن، وتلك الزيادة من المدراش ربّاح (أي، قابليته للإغواء)، كل هذه تبدو تفاصيل سامِيَّة ستجد طريقها مرة أخرى في النسخ الإسلامية. أما كون حُسْنُ يوسف، الذي كان يوسيفوس أول من أشار إليه، هو سبب افتتان المرأة فهو عنصر سردي آخر سيطوره كثيرًا كُتّاب لاحقون. كما ستظهر موضوعات إغريقية من «هيپوليتوس» مثل: تبرئة الزوجة لأن حبها بأمرٍ من الله، وهزالها شوقًا، وصاحباتها اللواتي يشهدن حالتها، ومرضعتها. فهذه أكثر من مجرد عناصر سردية، بل هي عوامل مهمة تُسبغ على القصة بُعدًا إنسانيًّا.

حين تُقرأ سورة يوسف في القرآن [الكريم] في سياق ما سبقها يظهر هذا اللين تجاه النساء، وهذا يُعزى إما إلى إضفاء طابع إغريقي على الحكاية أو إلى موقف محمد شخصيًّا، لكنها تحتفظ بمحور الله-يوسف والوعظ الذي نعهده في النسخ العبرانية:

﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۞ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۞ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ۞ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٢: ١٩-٣٥)

هنا تتضح الزيادات التي طرأت على قصة يوسف. ومن هذه الإضافات اللافتة للانتباه أن يوسف يستجيب لفتنة المرأة لولا أن رأى برهان ربه الذي منعه من الإثم؛ وأن قميصه قُدَّ

من دُبُرٍ ليكون ذلك دليل براءته لدى شاهدٍ من أهلها؛ وأن تنبهر نسوة المدينة بجماله فيقطعن أيديهن ويبرئن مضيفتهن من اللوم؛ وأن الزوجة تعترف في نهاية الأمر بذنبها. كما تنشأ تغييرات أخرى من التلميحات السابقة التي رأيناها في الموروثات المِدراشية والعبرية الأخرى التي توسعت وتأثرت بالحكايات الإغريقية التي تدور في فلك التراث الإغريقي عن هيپوليتوس.

تحدد سورة يوسف نمط التآليف التالية في الشرق الأدنى، والتي توسعت بدورها. في هذه السورة ليس للمرأة اسم، ولكنها تحتل مكان الصدارة في مشهد الوليمة، وهو ما صار أعظم ثوابت الروايات الإسلامية اللاحقة، وهي التي تتصدر مشهد المحاكمة التي تُجرى لها في بيتها كما في مشهد الإقرار العلني بذنبها. وعلى الرغم من كل هذه الأمور، تظل السورة الثانية عشرة بالدرجة الأولى عن يوسف.

مرةً أخرى نشهد كيف أسبغت سلطة الكتاب المقدس (في الإسلام هذه المرة) على القصة شكلًا ثابتًا، مع غيرها من القصص عن الشخصيات التوراتية المذكورة في القرآن. ولكن على خلاف المأثور الغربي، لم يكن المأثور الشرقي مانِعًا، بل سمح بدخول تفاسير من خارج الكتاب المقدس. فإن شئنا البحث عن القصة العربية المعيارية ليوسف وزوجة فوطيفار، فعلينا أن نتجاوز السورة الثانية عشرة إلى النسخ الموسَّعة عند مفسري القرآن الذين دأبوا على شرح النصوص الموجزة وتفسيرها والزيادة عليها، وذلك من خلال اعتمادهم على الحكايات الشعبية في الجاهلية التي سلَّم بها محمد [صلى الله عليه وسلم] وأتباعه.(٩) ومن أشهر المفسرين الكسائي والثعلبي، وكلاهما من القرن العاشر [الميلادي]، وقد كتب كل منهما كتابًا بعنوان «قصص الأنبياء»، وفي كل منهما حديث عن يوسف وزليخا. ونقتبس فيما يلي نصًّا من الكسائي، وتنويعات أخرى من الثعلبي نضعها بين قوسين مربعين.

> قال ابن عباس رضي الله عنه: ثم إن قوطيفر أتى بيوسف إلى قصر زليخا بنت عكاهرة، وقال لها، أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا. فتعجبت زليخا من حُسْن يوسف وشغفت بحبه. فقالت له: ما أحسن كلامك وما أطيب نعمتك.
>
> قال وهب: وكان النور يزهر بين عينيه ويظهر من بين جلده ولحمه، كما يُزهر المصباح في الزجاجة البيضاء. فقال: يا زليخا، لو رأيتني بعد الموت لأنكرتني، ولم تري أوحش مني. فقالت: يا يوسف قد شغفت بحبك، ولا بد لي من مراودتك

(٩) هذا جهلٌ من المؤلفة، فحاشى أن يتبنى النبي (صلى الله عليه وسلم) حكاياتٍ شعبيةً من الجاهلية. [المترجم].

عن نفسك. فقال: لا زليخا. أمن بعد ما رأيت من الآيات ترتكبين المعصية؟ فقالت زليخا: ما أحسن لغتك غير أني لا أفهمها. فقال يوسف: إنها لغة جدي إبراهيم، ولولا أنها محرمة على من يشرك بالله لعلمتك إياها. ولكن أكلمك إن شئتِ بالحورانية. فقالت: وإني أحب اللغة الحورانية، فإنها لغة أهل مصر.

[لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه، جعلت تذكر له محاسن نفسه، وتُشوِّفه إلى محاسن نفسها. فقالت له: يا يوسف، ما أحسن عينيك! قال: هما أول ما يسيل في الأرض من جسدي. قالت: ما أحسن وجهك! قال: التراب يأكله.]

فلم تنتهِ إلى أن راودته ثانيةً وذلك أنها بنت لنفسها بيتًا حسنًا مزينًا بكل زينة سمّته بيت الفرح والسرور، وزينت نفسها، وقعدت على سريرها، ودعت يوسف وأجلسته على الكرسي وغلّقت الأبواب وأرخت الستور. ثم قالت: يا يوسف، هيت لك، معناه، أنا لك، وقد تزينتُ. فقال: وأين زوجك قوطيفر؟ قالت: ما أصنع به وأنت الحبيب وأنا لك حبيبة؟ فقال: إني أخشى من هذا البيت أن يكون بيت الحزن وبقعة من بقاع جهنم. فقالت: يا يوسف، قلبي يحبك، فارفع رأسك وانظرني في حسني وجمالي. فقال لها: صاحبك أحق بذلك مني. قالت: ادْنُ مني يا يوسف. قال: أخاف أن يذهب نصيبي من الجنة. قالت: إني سترت أمري من الناس، فاقرب مني. قال: فمن يسترني من الله رب العالمين؟

[قالت: يا يوسف، قد أنحلتَ جسمي بصورة وجهك. قال: الشيطان ينبئك على ذلك. قالت: يا يوسف، الجنينة قد التهبت نارًا. قم فأطفئها. قال: إن أطفأتها فمنها احتراقي. قالت: يا يوسف، الجنينة قد عطشت. قم فاسقها. قال: من كان المفتاح بيده فهو أحقُّ بأن يسقيها مني. قالت: يا يوسف، بساط الحرير قد بُسِط لك، فاقض حاجتي. قال: إذن يذهب نصيبي من الجنة. قالت: يا يوسف، ادخل معي تحت الستر، فأسترك به. قال: ليس شيء يسترني من الله تعالى إن عصيته. قالت: يا يوسف، ضع يدك على صدري تشفني بذلك. قال: سيدي أحق مني بذلك. قالت: أما سيدك، فأسقيه كأسًا فيه زئبق الذهب، فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه، ثم ألقيه في الإستبرق وألقيه في القيطون، أي المخدع، لا يعلم به أحد من الناس، وأولّيك ملكه قليله وكثيره. قال: فإن الجزاء يوم الجزاء. قالت: يا يوسف،

إني كثيرة الدر والياقوت والزمرد، فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه في مرضاة سيدك الذي في السماء. فأبى يوسف. فجرى الشيطان فيما بينهما، فضرب بإحدى يديه إلى جنب يوسف، وباليد الأخرى إلى جنب المرأة حتى جمع بينهما. فبلغ من هم يوسف إلى أن حل الهيمان وجلس منها مجلس الرجل الخائن.]

قالت: إن لم تفعل ذلك قتلت نفسي في ساعتي هذه، وتُقتل أنت بسببي. ثم قامت وقربت يدها إلى سكين لتقتل نفسها بها. وكان ذلك خداعًا منها ليوسف. فبادر إلى السكين وأخذها من يدها ورماها. فألقت نفسها عليه وهمَّت به وهمَّ بها. وهبط جبريل وتمثل له في صورة أبيه.

[فضربه بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال يعقوب: يا يوسف لا تواقعها. إنما مثلك، ما لم تواقعها، مثل الطير في جو السماء لا يطاق، ومثلك إن واقعتها مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها﴾ فإذا بكفٍّ قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها ﴿وإن عليكم لحافظين، كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾. فقامت امرأة العزيز إلى الصنم، فظللت دونه بثوب. فقال لها يوسف: أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه، ولا أستحي أنا ممن خلق الأشياء وعلَّمها؟]

فلما نظر إلى البرهان، بادر نحو الباب، فخرجت زليخا خلفه، وجذبت قميصه من خلفه، فقدَّته، فألفيا العزيز وهو بتلك الحالة. فقال العزيز: ما بالك يا غلام؟ فقال: أيها العزيز، إني رأيت في قصرك منكرًا، وأستحي أن أقول إن امرأتك راودتني عن نفسي. فقال له: ارجع يا غلام، وإلا قتلتك! فرجع معه، فلما دخلا القصر، بادرت زليخا إليه وهي تبكي وتقول: ﴿مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فقال يوسف، أيها العزيز ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وإني معها في جهد منذ أن دخلت هذه الدار، فهمَّ قوطيفر أن يضرب يوسف بسيف كان معه. فنجاه الله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، وكان في القصر طفل نائم لأخت زليخا له من العمر ستة أشهر، فتكلم بإذن الله وقال: يا قوطيفر، لا تعجل، فإني سمعت تخريق الثوب ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾. فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ، سكن غضبه على يوسف، وأقبل عليها وقال ﴿إِنَّهُ

مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ثم أقبل على يوسف، وقال: يا يوسف أعرض عن هذا الحديث، لا يسمعه الناس، فيعيرونني به. ثم قال لزليخا ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. فشاع الخبر في المدينة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾. فعاتبها النساء وعيرنها بذلك. وقلن لها: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ولما سمعت بمكرهن، أرسلت إليهن، وأعتدت لهن متكًا، أي اتخذت لهن طعامًا وفُرُشًا، وزينت لهن المجلس، ودعت بامرأة الكاتب والوزير وصاحب الخراج وصاحب الدواة، وأمثالهن من نساء أصحاب العزيز. فلما حضرن، قعدن في مجالسهن، وقدمت لهن صفايا الأترج والعسل، لأن تلك كانت عادتهن قبل الطعام، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، ثم إنها زينت يوسف بأحسن الزينة، وقالت، اخرج عليهن ضاحكًا مستبشرًا رافعًا رأسك حتى ينظرن إلى حسنك وجمالك. ثم دخلت إليهن وقدمت لكل واحدة منهن سكينًا وإناءً فيه أترج. فأخذت النساء في أكل الأترج. فأرسلت زليخا إلى يوسف وقالت اخرج عليهن. فخرج عليهن كما أمرته، فلما تبسم بدت ثناياه كأنها در منظوم ووجهه كالبدر ليلة تمامه وكماله. فلما نظرت إليه النسوة أكبرنه، وقطعن أيدهن وهن يقطعن في الأترج. فقلن لها، يا زليخا ما رأى أحد مثل هذا الغلام لأنه فتنة لكل من رآه. فقالت لهن، ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾. ثم استأذنت زليخا العزيزَ في سجن يوسف، فأذن لها في ذلك. فأدخلته سجنًا ضيقًا منفردًا. ودخل معه السجنَ فتيان كانا للملك. فلما كان من الغد عاد أحدهما إلى خدمة سيده. وعندما رأى الملك رؤيته، طلب من يوسف تفسيرها، ففسرها. فقال الملك: ائتوني به. فرجع الغلام، وبشَّر يوسف وقال: إن الملك يأمر بخروجك. فقال: ارجع إلى سيدك واسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن بالسكاكين يوم أبصرنني. فرجع الساقي إلى الملك وأخبره بذلك. فقال الملك: صدق، ولكن عليَّ بالنسوة. فأتى ببعضهن لأن بعضهن كن قد متن. فلما وقفن بين يديه وفيهن زليخا، فقال الملك ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾. فسكتن حياءً من الملك. ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فقال الملك ائتوني به،

وأكرموا مثواه، ثم دعا وزيره ودفع إليه تاجه وسيفه وفرسه الذي كان لا يركبه إلا يوم الزينة. وانطلق الوزير إلى يوسف وأركبه على فرس الملك وأتى به إلى الملك، فعانقه الملك وأجلسه على السرير وسط القبة.

[فلما خرج من السجن كتب على بابه: هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء. وحدثت المجاعة، ولما بلغت السنة السابعة مات قوطيفر.]

وأصاب زليخا ما أصاب القوم من الجهد والجوع، فباعت ما تملكه طعامًا وصارت مملوكة ليوسف. فأقبلت يومًا على يوسف، وقالت: يا يوسف، سبحان من جعل العبيد ملوكًا وأعزهم بطاعته، وأذل السادات بمعصيتهم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فقال يوسف: من أنت أيها المرأة؟ فقالت: أنا زليخا امرأة العزيز. وذكرت حاجتها إلى الطعام. فبكى يوسف وقال لها: إني باعث إليك بجميع ما تحتاجين إليه، وأرد عليك جميع أموالك وعبيدك، وأنت سيدة كما كنت. ثم تزوجها بشهادة الملك وبحضور ملوك مصر. ورد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها، فلما دخل عليها وجدها بكرًا. فقالت: والله ما مسني ذكرٌ قط. وزوجي قوطيفر ما كان يقدر علي لأنه كان عنينًا. ثم ولدت له ولدين فسمى أحدهما إفرائيم والآخر منشّا.

لقد أُعيد كتابة قصة يوسف وزليخا مرارًا ومرارًا في الشرق بعد «قصص الأنبياء». وتبين مخطوطة إسلامية مُكتشَفة حديثًا من القرن الثالث عشر أو الرابع عشر أنه كان بإمكان أجيالٍ من المنقحين، على الرغم من أنهم لم يشذوا عن التقاليد، أن يضيفوا بعض اللمسات، بما في ذلك اللمسات الفكاهية. ففي هذه القصيدة توبخ زليخا صاحباتها عندما يقطعن أصابعهن على النحو التالي، "رِفقًا بأنفسكن! لا تقطعن أيديكن ولكن اغضضن من أبصاركن! ... فلو تشفعتن لي عنده، لعله يلين..." وهكذا يذهبن إليه وكل واحدة منهن تحاول استمالته إليها لا إلى غيرها، فيقول، "تالله، لقد كن واحدة، والآن تكاثرن، فكيف أنجو منهن؟" ولذلك عندما تطلب زليخا من الملك شخصيًا، وهي "بكامل زينتها" أن يعاقبه، يذهب يوسف إلى السجن بقلبٍ شكور.(١٠)

(10) Ebied, R. Y. and M. J. L. Young (Eds and Trans), *The Story of Joseph in Arabic Verse*, The Leeds Arabic Manuscript 347, Leiden, Bull, 1975 (Leeds Oriental Society Annual,

وفي القصيدة الفارسية من القرن الخامس عشر التي يشير إليها بايرون، ينسج جامي على منوال كثيرٍ من هذه الحكايات الشعبية التي تشكلت في زمن مبكر من الجاهلية. تستهل قصيدته "يوسف وزليخا" برؤية آدم لسلالته المجيدة التي يتربع فيها يوسف على عرش الجمال، "بَهُتَ الجمال لمرآه." أما زليخا فهي أميرة شابة مصونة تحلم ثلاثًا أن شابًا بهيَّ الطلعة يخبرها أن تحتفظ بحبها له. وعندما يخبرها أخيرًا أنه وزير مصر الأعظم، تصر على أبيها أن يرتب لها الزواج من هذا الشخص المجهول. ولا تكتشف إلا يوم زفافها في مصر أن زوجها ليس هو فارس أحلامها. ولكن الملك جبريل يطمئنها أنها ستجد الحب الحقيقي من خلاله. وبالفعل تجده وهي عائدة من حفل الزفاف، إذ ترى يوسف معروضًا للبيع في سوق العبيد، فتقنع زوجها بأن يشتريه. وحتى فرعون نفسه يريد هذا العبد الوسيم، ولكن لما كان الوزير خَصِيًّا يُسمَح له بأن يتخذ يوسفَ ولدًا. تستمر الحكاية على منوال «قصص الأنبياء»، ولكنها تغوص في تفصيل كل شيء: مرضعة زليخا التي تساعدها وتحرضها، قصر الحب، الوليمة، حبس يوسف وخروجه منه، حلوله محل زوج زليخا في الوزارة، موت زوجها إثر ذلك، توبة زليخا، افتقارها المدقع وسكنها في كوخ قريب من درب يوسف، ملاقاتها يوسف، وزواجهما. من جهة أخرى، تذكرنا المرضعة التي تحرضها على الفعل بأسطورة هيپوليتوس، كما يذكرنا بها القدر الذي كتبه الله لزليخا. ولعل من أكثر الأمور إثارة للاهتمام هو أن نرى أن محور الحكاية الشرقية، كما في الموروثات الغربية عن فيدرا، هو المرأة.

هنا تصبح القصة قصة زليخا لا قصة يوسف. وحاشى أن تكون امرأةً شبقة، بل هي بتولٌ بريئةٌ تتمسك بحلمٍ أوحى إليها به الله. وبعد التوبة والعودة إلى الله، يتحقق حلمها، فتستعيد شبابها وجمالها وتُبَرَّأ ساحتها من كل لوم.

هكذا تُكمِل قصة يوسف دورتها كاملةً: من عبارة بايرون الساخرة عن الغربيين الذين تحافظ نسختهم منها في كتابهم المقدس على قسوة البلاد والأزمنة لدى تدوينها إلى صيغتها الإسلامية التي تهب منها تلك النفحات الإنسانية والواقعية لقصص الحب الشرقية.

Supplement 3), pp. 40 ff.

حكاية من الغرب: ملابس الإمبراطور الجديدة

كان في قديم الزمان إمبراطور مولعٌ جدًا بالملابس الجميلة حتى أنه أنفق كل ماله على ملبسه. كانت الحياة في المدينة التي فيها قصره رغيدة، وكان الزوار يتوافدون عليها كل يوم. وفي يوم من الأيام وفدَ محتالان، وأشاعا بين الناس أنهما حائكان وأن بإمكانهما حياكة أعجب الملابس. ليست الألون والأشكال جميلة فحسب، بل إن الملابس لها ميزة أن كل من لا يصلح لوظيفته أو غبيًّا غباءً لا شفاء له لا يستطيع رؤيتها.

فقال الإمبراطور في سره، "هذا رائع. فلو صنعت لنفسي ثيابًا من هذا القماش، فسأعرف مَن مِن مستشاريَّ لا يصلح لوظيفته. عليهما أن ينسجا بعض القماش لي." ثم أعطى المحتالين مالًا كثيرًا ليبدآ العمل فورًا.

ثم قال الإمبراطور في نفسه، "سأرسل رئيس وزرائي المخلص ليرى ماذا يصنع الحائكان، ويعلم جودة القماش." دخل العجوز الطيب إلى الحُجرة التي كان يعمل فيها الحائكان ورأى النول الفارغ، فقال في سره، "اللهم احفظني! إني لا أرى شيئًا!"

فقال له المحتالان، "قل لنا رأيك."

تمتم قائلًا، وهو يُسوّي نظارتيه، "إنه جميل."

وأخيرًا قرر الإمبراطور أن يرى القماش. فرافقه أهم رجالات إمبراطوريته ودخل الحُجرة التي كان يعمل فيها الحائكان بلا كَلَلٍ على النول الفارغ.

سأله رئيس الوزراء، "أليس هذا رائعًا؟"

قال الإمبراطور في سره، "لا أرى شيئًا. هذه كارثة." ولكنه قال بصوت عال، "إنه رائع ويحظى باستحساني."

فنصحه كل مستشاريه أن يُفصِّل من هذا القماش ملابس يلبسها في موكب الاحتفال الكبير التالي. وفي الليلة السابقة للموكب، لم يغمض للحائكين جفن. وقد شهد الجميع بمدى انشغالهما. وأخيرًا زفّا الخبر السعيد، "ملابس الإمبراطور الجديدة جاهزة!"

جاء الإمبراطور وتظاهر المحتالان أنهما كانا يُلبسانه ملابسه الجديدة. ثم سار في الموكب وقال كل أهل المدينة إن ملابس الإمبراطور الجديدة جميلة. لم يجرؤ أحد على الاعتراف بأنه لم ير شيئًا. كما لم يسبق لملابس الإمبراطور أن تحظى بهذا النجاح.

صرخ طفل صغير، "ولكن الإمبراطور عارٍ." فتهامس الناس بينهم ورددوا ما قاله الطفل الصغير.

صاح الناس أخيرًا، "إنه عارٍ!"

ارتجف الإمبراطور لأنه كان يعلم أنهم يقولون الحق، ولكنه قال في سره، "عليَّ أن أصبر إلى أن ينتهي الموكب." ثم مشى باعتدادٍ أكثر من ذي قبل.[11]

(11) Abridged from Hans Christian Andersen.

حكاية من الشرق: الملابس التي لا تُرى

جاء ثلاثة محتالين إلى ملك وقالوا له إنهم حائكون وإن بإمكانهم حياكةَ نسيجٍ سِمَتُه أنه لا يستطيع أن يراه إلا من كان ابن أبيه؛ أما من ليس ابن أبيه، وإن ظن الناس عكس ذلك، فإنه لا يراه.

سُرَّ الملك سرورًا عظيمًا لهذا، إذ بهذا يمكنه أن يميز بين رجال مملكته: من منهم ابن أبيه ومن منهم ليس كذلك، وبهذا يمكنه أيضًا أن يزيد كنوزه لأنه بين المسلمين لا أحد سوى الأبناء الشرعيين يرثون آباءهم. ولهذه الغاية أمر أن يُخصص قصرٌ لصناعة هذا النسيج. ولكي يقنعه هؤلاء الرجال أنهم لا ينوون خداعه، وافقوا على أن يُحبَسوا في القصر إلى أن ينتهوا من صناعة النسيج.

أراد الملك أن يستشير شخصًا آخر أولًا، فأرسل كبير الحُجّاب في قصره ليرى ما يصنعون وليعرف إن كانوا يخادعونه. وعندما رأى كبيرُ الحجاب الصُّناع لم يجرؤ على الاعتراف بأنه لم ير النسيج، ولما عاد إلى الملك قال إنه رآه، فقرر الملك أن يذهب بنفسه.

فلما دخل القصر ورأى الرجال يعملون انتابه قلق شديد، وخشي ألا يكون ابن الملك الذي يُفترض أن يكون أباه، أو إن اعترف أنه لا يستطيع أن يرى القماش أن يخسر مملكته. وهكذا راح يُثني على القماش. سارت الأمور على هذه الصورة إلى أن كان هناك احتفالٌ عظيم وطلب الجميع من الملك أن يرتدي بعض تلك الملابس.

وعندما صارت الملابس جاهزة وجاء يوم الاحتفال، أتى النساجون بالملابس للملك. ولما أعلن الملك أنه ارتدى حُلَّته ركب حصانه وتوجه إلى المدينة، وكان الوقت صيفًا لحسن الحظ. دُهِش الناس لمرأى جلالته يأتي بهذه الطريقة، ولكنهم أخفوا دهشتهم خشية العار. غير أن زنجيًا لم يكن لديه ما يخسره، فقال له، "يا سيدي، لا يهمني ابن مَن أنا، لذلك أقول لك إنك عارٍ." فراح الملك يضربه قائلًا إنه ليس ابن أبيه المزعوم، ولهذا لم ير الملابس. ولكن ما إن قال الزنجي هذه الكلمات حتى راح الآخرون يقتنعون بصحة ما قال، ورددوا مثله، حتى لم يعد الملك وحاشيته أخيرًا يخشون من الاعتراف بالحقيقة وأنهم خُدِعوا. وعندما بحثوا عن الحائكين وجدوا أنهم قد هربوا وقد أخذوا معهم كل ما أعطاهم إياه الملك.(١٢)

(12) Abridged from Don Juan Manuel, *Count Lucanor (El Conde Lucanor) or The Fifty Pleasant Stories of Patronio*, London, Pickering and Chatto, 1888, pp. 53-57.

سليمان وملكة سبأ

مما لا مَراء فيه هو أن الكتاب المقدس كان فريدًا من ناحية قولبته ثقافةَ الغرب وتحديد بنيته. فهو بالنسبة إلى البروتستانت يمثل السلطة الدينية الحصرية. أما بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية، التي أفسحت المجال للأساطير والمرويات على الرغم من أنها ليست من الكتاب المقدس، فقد انصب اهتمامها الأساسي على العهد الجديد. وفي العصر الحديث تناسى العالم المسيحي أساطير العهد القديم المضافة إلى التوراة، وهذا ما جعل العهد القديم نصًا مغلقًا بالنسبة إلى الكاثوليك والبروتستانت. وقد رأينا مثالًا على ذلك في قصة يوسف التي يحافظ عليها الغرب اليوم كما وردت في سِفْر التكوين. أما ما أُضيف إليها من زيادات عبرانية وإغريقية من خارج التوراة فقد تُنُوسِيَت.

ولكن الأمر غير ذلك بالنسبة إلى سليمان الذي يأتينا متسربلًا بكل ما في الموروثات الخارجة عن النص المقدس من جلالٍ. فلماذا هذا الفرق؟ لأنه في حالة سليمان، هذه الموروثات الخارجة عن النص المقدس هي موروثات مسيحية، ولهذا حُوفِظ عليها. أما يوسف الذي يُذكَر في العهد الجديد ذِكرًا عابرًا فلا وزن له إلا في العهد القديم، في حين أن سليمان، بالإضافة إلى ذِكر حُكمه في سِفْر الملوك الأول وأخبار الأيام الثاني [في العهد القديم]، يحظى بأهمية كبيرة في العهد الجديد. وكما يشير پرچَّرد،[١٣] تأتي هذه الأهمية من آية واحدة فقط ولكنها كافية: إنها الآية الثانية والأربعون من الأصحاح الثاني عشر في إنجيل متى، ثم تتكرر في الآية الحادية والثلاثين من الأصحاح الحادي عشر في إنجيل لوقا. في هذه الآية يقول المسيح وهو غاضب من الفَريسيين، "مَلِكَةُ التَّيْمَنِ [اليمن] سَتَقُومُ فِي الدِّينِ مَعَ هذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ، لأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ ههُنَا!"

(13) Watson, Paul F., "The Queen of Sheba in Christian Tradition', in Pritchard, James B. (Ed.), *Solomon and Sheba*, London, Phaidon, 1974, p. 11.

إن كلمات المسيح هذه التي خص بها ملكة الجنوب أو سبأ بمناسبة زيارتها سليمان هي التي جعلت سليمان موضوعًا لتفاسير آباء الكنيسة، وهي التي ركزت اهتمام العالم المسيحي على سليمان وملكة سبأ وجعلته محط اهتمام مشترك. ومع أن سليمان لوحده شخصية مألوفة في أدب الحكمة والأمثولات [الغربية] في العصور الوسطى، وساحرٌ عظيم في الروايات الشرقية، فإن ما يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو هذا الثنائي الذي تقوم عليه القصة، لا سليمان لوحده فقط أو ملكة سبأ لوحدها، بل لقاؤهما معًا. وكما سنرى، فإن لقاءهما يأخذ كل منعطف من الدبلوماسية بين أمتين إلى تسخير الجن وإسلام ملكة سبأ إلى القِران الملكي، بل حتى إلى التقديس.

ولكننا نبدأ برواية العصر الذهبي للملك سليمان في القدس في القرن العاشر قبل الميلاد كما دُوِّنت في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد في سِفْر الملوك الأول.

> وَسَمِعَتْ مَلِكَةُ سَبَا بِخَبَرِ سُلَيْمَانَ لِمَجْدِ الرَّبِّ، فَأَتَتْ لِتَمْتَحِنَهُ بِمَسَائِلَ. فَأَتَتْ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ جِدًّا، بِجِمَالٍ حَامِلَةٍ أَطْيَابًا وَذَهَبًا كَثِيرًا جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. وَأَتَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَتْهُ بِكُلِّ مَا كَانَ بِقَلْبِهَا. فَأَخْبَرَهَا سُلَيْمَانُ بِكُلِّ كَلاَمِهَا. لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مَخْفِيًّا عَنِ الْمَلِكِ لَمْ يُخْبِرْهَا بِهِ. فَلَمَّا رَأَتْ مَلِكَةُ سَبَا كُلَّ حِكْمَةِ سُلَيْمَانَ، وَالْبَيْتَ الَّذِي بَنَاهُ، وَطَعَامَ مَائِدَتِهِ، وَمَجْلِسَ عَبِيدِهِ، وَمَوْقِفَ خُدَّامِهِ وَمَلاَبِسَهُمْ، وَسُقَاتَهُ، وَمُحْرَقَاتِهِ الَّتِي كَانَ يُصْعِدُهَا فِي بَيْتِ الرَّبِّ، لَمْ يَبْقَ فِيهَا رُوحٌ بَعْدُ. فَقَالَتْ لِلْمَلِكِ: «صَحِيحًا كَانَ الْخَبَرُ الَّذِي سَمِعْتُهُ فِي أَرْضِي عَنْ أُمُورِكَ وَعَنْ حِكْمَتِكَ. وَلَمْ أُصَدِّقِ الأَخْبَارَ حَتَّى جِئْتُ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ، فَهُوَذَا النِّصْفُ لَمْ أُخْبَرْ بِهِ. زِدْتَ حِكْمَةً وَصَلاَحًا عَلَى الْخَبَرِ الَّذِي سَمِعْتُهُ. طُوبَى لِرِجَالِكَ وَطُوبَى لِعَبِيدِكَ هؤُلاَءِ الْوَاقِفِينَ أَمَامَكَ دومًا السَّامِعِينَ حِكْمَتَكَ. لِيَكُنْ مُبَارَكًا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي سُرَّ بِكَ وَجَعَلَكَ عَلَى كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ. لأَنَّ الرَّبَّ أَحَبَّ إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ جَعَلَكَ مَلِكًا، لِتُجْرِيَ حُكْمًا وَبِرًّا». وَأَعْطَتِ الْمَلِكَ مِئَةً وَعِشْرِينَ وَزْنَةَ ذَهَبٍ وَأَطْيَابًا كَثِيرَةً جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِثْلُ ذلِكَ الطِّيبِ فِي الْكَثْرَةِ، الَّذِي أَعْطَتْهُ مَلِكَةُ سَبَا لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ. وَكَذَا سُفُنُ حِيرَامَ الَّتِي حَمَلَتْ ذَهَبًا مِنْ أُوفِيرَ، أَتَتْ مِنْ أُوفِيرَ بِخَشَبِ الصَّنْدَلِ كَثِيرًا جِدًّا وَبِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ. فَعَمِلَ سُلَيْمَانُ خَشَبَ الصَّنْدَلِ دَرَابَزِينًا لِبَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ الْمَلِكِ، وَأَعْوَادًا وَرَبَابًا لِلْمُغَنِّينَ. لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يُرَ مِثْلُ خَشَبِ الصَّنْدَلِ ذلِكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. وَأَعْطَى الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ لِمَلِكَةِ سَبَا كُلَّ

مُشْتَهَاهَا الَّذِي طَلَبَتْ، عَدَا مَا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ حَسَبَ كَرَمِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ. فَانْصَرَفَتْ وَذَهَبَتْ إِلَى أَرْضِهَا هِيَ وَعَبِيدُهَا. (سِفْر الملوك الأول ١٠: ١-١٣)

وكما رأينا في حال يوسف، ضمت الشروحات الحاخامية للعهد القديم أشياء أسطورية وعجائبية، كما أضاف الكتاب الدنيويون كمًا هائلًا مما صار يُعرف بالأدب المجهول المؤلف. أما بالنسبة إلى قصة سليمان وملكة سبأ، فإن أهم هذه المصادر هو «الترجوم الثاني» عن سِفْر إستير الذي كُتِب ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين. لكن المادة الواردة فيه أقدم بكثير بطبيعة الحال. وبينما يعني الترجوم بالمعنى المتعارف عليه ترجمة آرامية للكتاب المقدس، غير أن هذا الترجوم يخرج عن النص تمامًا. لا تتضح علاقة الجزء الذي نحن بصدده، ونلخصه فيما يلي، بسفر إستير إلا من خلال مقارنة بين مأدبة [الملك الفارسي] خَشايار ومأدبة سليمان.

أقام سليمان مأدبة عظيمة دعا إليها كل ملوك الشرق والغرب والبهائم والطيور والزواحف والشياطين والجن والأرواح. حضر الجميع ما عدا الهدهد. غضب سليمان وأرسل في طلب الهدهد وتوعده بالموت. وكانت حجة الهدهد أنه طار إلى بلادٍ تشتهر بالبخور، وكانت من الغنى أن الفضة ملقاة في دروبها، وهي تحت حكم امرأة. وعرض على سليمان أن يأتي بها، فأعطاه سليمان رسالةً يطلب فيها حضور الملكة. وكان ردها عليه أن أرسلت إليه أسطولًا محملًا باللؤلؤ والأحجار الكريمة وست مئة غلام وفتاة لهم المولد والهيئة نفسها، كما وعدته أن تسافر إليه في أقل من نصف المدة التي تتطلبها الرحلة عادة: في ثلاث سنين بدلًا من سبع، إذ لديها مسائل تريد أن تسأله عنها.

وأخيرًا وصلت إلى مملكة سليمان، فاقتيدت إلى حُجرةٍ مرصوفةٍ أرضُها بالزجاج فجلست فيها. ظنت الملكة أنها مُحاطةٌ بالماء، فرفعت حاشية ثيابها. لاحظ سليمان أن ساقيها مُشْعِرتان، فقال، "هذا عارٌ على المرأة." ثم امتحنته الملكة في ثلاثة ألغاز. كان اللغز الأول، "بئر من خشب ودلوٌ من حديد ينتشل الحجارة ويسيل في إثره شيءٌ كالماء. فما هو؟" فكان الجواب، "المِكْحلة." وكان لغزها الثاني، "غبار يخرج من تراب وقدمه من غبار، ينبجس كالماء ويتجه نحو موطنه." فكانت الإجابة، "النفط." أما الثالث، "تندفع الريح عبر رؤوسه، فتصيح، ورأسه مثل رأس الأَسَل، يمدحه الأمراء ويعيبه الفقراء، سترٌ للأموات، ومَحْزَنة

للأحياء، يُفرِح الطير ويُحزِن الأسماك." فكان الجواب، "الكتّان." ولما كانت إجابات سليمان صحيحة، أقرت الملكة أنه أحكم الناس.

تذكر تعليقات المِدراش مِشْلَه على سِفْر الأمثال ألغازًا مختلفة، وهناك كتابات عبرية أخرى تغير تفاصيل هذه الحكاية وتتوسع فيها. ومع أنه لا يتضح كَمْ مما تراكم في «الترجوم الثاني» قد جاء قبل التأثير العربي أو كم نتج عن هذا التأثير، إلا أن الواضح هو أن هذه القصة هي أساس النسخة القرآنية.

تُصَوَّر الملكة على أنها صاحبة عفةٍ لا غبار عليها. ولكن ما تُدخله هذه الروايات هو كونها مُشْعِرة الساقين إلى درجة شاذة. ولأنه كان معروفًا في الشرق الأدنى أن المرأة المشعرة الساقين هي صِنو الشياطين، فقد أدى ذلك إلى المماهاة بينها وبين ليليت في القصص الشعبية اليهودية، وليليت هذه هي ملكة الشياطين المفلوقة الظِلفين. وهناك تلميحٌ مبكر إلى الشهوانية في ملاحظة سليمان الواردة في «الترجوم الثاني»، وهذا أمرٌ يناسب ليليت التي ترمز إلى الانحلال الجنسي والانحراف.

بين نقيضي الفضيلة والرذيلة هذين نشأ لغزٌ حول ملكة سبأ صار في التطور التالي للأسطورة عنصرًا سرديًا ثانيًا، بل موضوعًا قائمًا بذاته، ألا وهو شكوك سليمان: هل هي روحٌ شريرة أم لا؟ ومع أنه يُرجَّح أن تكون خدعة بركة الزجاج موضوعًا شعبيًا قديمًا، إذ توجد أيضًا في المهابهارتا،(١٤) إلا أن روايات سليمان تفسرها لاحقًا على أنها وسيلته ليرى إن كانت قدماها قدمي بشر أم شياطين.

وهناك موضوع آخر يلقى اهتمامًا في نسخة مغايرة عن الألغاز، إذ تسأل ملكة سبأ عن أيٍّ من طَرَفَي زندٍ خشبي هو الجذر. فيضع سليمان الزند في الماء والطرف الذي يغوص هو الجذر. وهكذا يدخل الزند الخشبي الغائص في الماء إلى القصة بوصفه ثاني شيء يقرن زيارة الملكة ببركة ماءٍ أو جدول.

وهناك عنصر رابع في الأساطير اليهودية، ألا وهو زواج سليمان وملكة سبأ. ومع أن هذا ليس مجال دراستنا هنا، إلا أن هذا الاقتران سيتوسع فيه الرواة في سلسلة الأنساب القومية الإثيوبية.

لقد أمدَّ التبادل العربي–الآرامي–اليهودي في الشرق الأدنى قبل الإسلام قصة ملكة سبأ بعدة موتيفات سردية ملموسة شطَّت بعيدًا عن العهد القديم. وقد شكلت هذه البيئة

(14) Fraser, J. G. *Folklore in the Old Testament*, Vol. 2, London, 1918, p. 558.

المتعددة الثقافات، التي أثَّر فيها المسيحيون أيضًا، مصادر النسخة القرآنية للحكاية. فبينما كانت رسالة محمد [صلى الله عليه وسلم] أصلية، إلا أنه استمد قصصه من التراث الشفوي المألوف لسامعيه.(١٥) لقد كان التراث الشعبي ثريًّا، وخصوصًا في شبه الجزيرة العربية التي لم تتمثل فقط قصص اليهود والمسيحيين المذكورة في كتابهم المقدس، بل أيضًا تمثلت تأثيرات الحضارات العظيمة السالفة: السومرية والمصرية والشامية والإغريقية والفارسية. لذلك يمكن أن يُقال إن القصص في القرآن تؤالف حبكتها بين خيوطٍ من القصص الشفوي والأدبي. فالوصف القرآني للقاء بين سليمان وملكة سبأ يبين أن جوهره هو الزيارة المذكورة في التوراة، ولكن القصة تختلف عن تلك الواردة في الأصحاح العاشر من سِفْر الملوك الأول، كما تختلف عن الترجوم والمِدْراش. في المُقتبَس التالي من سورة النمل يُدعى الهدهد الطيطَوى.(١٦)

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۞ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۞ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ

(١٥) لو كان هذا الكلام صحيحًا تمامًا، فما حاجة النبي (صلى الله عليه وسلم) إذن ليقص على أتباعه حكاياتٍ ألفوها منذ القدم؟ وما دام الهدف من قصص الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم ليس التسلية، بل الاعتبار، ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ (يوسف، ٧)، فإن القرآن الكريم جاء لينقّي قصص الأنبياء مما لحقها من شوائب الرواة. أما التشابه بين قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، فمردُّه إلى أن مصدرها واحد، وهو الله سبحانه وتعالى. [المترجم].

(١٦) هذا استنتاج خاطئ مرده ترجمة رودْوِل الخاطئة للقرآن الكريم (لندن، ١٩٠٩) التي اعتمدت عليها المؤلفة. فالهدهد hoopoe يُدعى في القرآن الكريم بهذه التسمية وليس الطيطوى lapwing. [المترجم].

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٢٠-٤٤)

النقطة الأساسية بالنسبة إلى الرواية القرآنية هو أنها دعوةٌ لعَبَدة الشمس ليؤمنوا بالله الواحد الأحد. فالملكة تخضع لأمر سليمان لا لكي تؤدي إليه هي نفسها فروض الطاعة بل لأنه بالنسبة إليها يمثل الدين الحق. وفي هذا تختلف رواية القرآن عن الترجوم الثاني وعن الأصحاح العاشر من سِفْر الملوك الأول. كما أن حادثة العرش جديدة كذلك، فهي معجزة مرماها هو البرهنةُ على قدرة الله وامتحانٌ لثقة الملكة بحُسن تقديرها. وعندما ترى أنها مخطئة، تؤمن بالله رب العالمين.

ولكن الصيغ المُسلَّم بها لقصص القرآن تتجاوز القرآن ذاته، كما أشرنا من قبل. وهذه تشمل تخريجاتٍ من صنع الرواة العرب الذين نهلوا من ذلك المعين الثر للروايات المعروفة من الماضي السحيق ومن خليط المعارف الذي يحيط بالأديان التوحيدية. فقصص الأنبياء في القرن العاشر الميلادي هي عبارة عن تجميع منهجي لهذه الروايات المفصلة. وهي تشكل مع القرآن فعليًا النسخ العربية المعيارية. وقد رأينا هذا في قصة يوسف وزليخا؛ وتتكرر مرة أخرى مع سليمان وملكة سبأ. وفيها تكتسب ملكة سبأ اسمها العربي بلقيس، وكذلك الهدهد وكثير من الناس الآخرين والأماكن. كما تُستعرَض حاشية سليمان المهيبة وتوصف وصفًا دقيقًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى غنى الملابس والمكان. ويُعاد الاعتبار لموتيفات الترجوم الثاني التي تغاضى عنها القرآن كالغلمان والفتيات المتماثلين. كما يُفسَّر ما ورثته بلقيس عن الشياطين. أما اعتناقها

لدين سليمان وإزالة العنصر الشيطاني الرمزي، أي الشَّعر، فيكتسبان قيمة روحية تُنبئ بولادة جديدة أو معمودية، وهو ما يحدث لدى زواجها من سليمان.

في كتابه «قصص الأنبياء» يلخص الكسائي الحكايات الشعبية المعروفة عن سيرة بلقيس في القرن العاشر الميلادي. وإليكم فيما يلي تلخيصًا لملخصه، وبعض الإضافات الأخرى من الثعلبي يُشار إليها بقوسين مربعين.

إن أول ملك لليمن عبد الشمس هو سبأ بن قحطان بن يشجب بن يثرب، وكان سبأ قد بنى لنفسه مئة قصر بالرخام والصخور، وسقفها بالعاج والأبنوس، وكان له سبعة بنين لكل واحد منهم بلاد ومملكة وجاءهم سيل من موضع يسمى العَرِم وهم غافلون، وهلك سبأ وأهله. ثم جاء بعدهم قوم من ولد حِمْيَر بن سبأ فنزلوها وقالوا هذه أرض آبائنا. وكان للملك منهم وزير يقال له ذو شرخ بن هدار وكان ذا حسن وجمال، وكان مولعًا بالصيد، فاتفق أنه مر يومًا بموضع كثير الأشجار فسمع أصواتًا ينشدون بالأشعار، فعلم أنه وادي الجن فنادى بأعلى صوته، "يا معشر الجن إني نزلت بكم الليلة فأسمعوني أشعاركم." فأنشدوه بيتًا من أشعارهم. ثم ظهرت لهم عميرة بنت ملك الجن.

[وكان أبو بلقيس ملكًا عظيم الشأن، وكان ملك أرض اليمن كلها. وكان يقول لملوك الأطراف، ليس أحد منكم كفؤًا لي، وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر، وكانت الإنس إذ ذاك ترى الجن وتخالطهم].

فلما رآها (أي ريحانة) افتتن بها. وغابت عنه وأخذ حبها في قلبه ثم قال لهم، "من هذه الجارية؟" فقالوا، "هذه ابنة ملكنا." فقال لهم، "أحب أن تأتوني بالملك لأنظر إليه." فأتوا به. فقال له الوزير، "لك التحية والإكرام أيها الملك الهمام." فقال الملك، "وأنت لك ذاك منا. فمن أنت؟" فقال له، "أنا وزير صاحب مدينة سبأ." فقال له، "هل لك أن تزوجني بابنتك؟" فرغب فيه الملك لحسنه وجماله وزوجه بها، فدخل بها فحملت منه بلقيس. ولما أتمت أشهر حملها، وضعت جارية وضيئة كأنها الشمس غاية الكمال، فسميت الجارية بلقيس. ثم ماتت أمها فربتها بنات الجن، ونشأت في جمال حتى كان يقال لها زهرة اليمن. فلما بلغت قالت لأبيها، "يا أبت إني قد كرهت الإقامة بين الجن، فاحملني إلى بلاد الإنس." فقال

لها، "يا بنية إن للإنس ملكًا جبارًا يفتض الأبكار من أهلها قهرًا، وإني أخشى عليك منه." فقالت له، "ابْنِ لي قصرًا خارجًا عن مدينته وحولني فيه، وسترى ما يكون بيني وبينه." فبنى لها قصرًا واتخذ لها عرشًا من العاج، ثم نقلها أبوها إلى ذلك القصر. ثم شاع خبرها للملك.

[فلما مات أبو بلقيس، ولم يخلف ولدًا، طمعت في الملك، وطلبت من قومه أن يبايعوها، فأطاعها قوم وعصاها آخرون، فاختاروا عليهم رجلًا فملَّكوه عليهم. ثم إن هذا الرجل الذي ملَّكوه أساء السيرة في أهل مملكته، فأراد أصحابه خلعه].

فركب (أي الملك) وأقبل إلى القصر، وأرسل قهرمانيته فدخلت القصر، ونظرت إلى بلقيس وما هي عليه من الحسن والجمال، فعادت إليه مسرعةً، وأخبرته بذلك. فدعا وزيره وقال له، "أنت بنيت هذا القصر ولم تعلمني بذلك." فقال له، "أيها الملك، إني بنيت هذا القصر عن قريب ولما رزقت هذه الجارية من ابنة ملك الجن، وقد ماتت أمها، وكرهت الإقامة بين الجن، فنقلتها إلى هذا القصر." فقال له الملك، "أريد أن تزوجني إياها." فقال له، "حبًّا وكرامة، ولكن لابد من إذنها." فرجع أبوها إليها، وقال لها، "يا بنية، قد جاءني ما كنت أخافه عليك. وإن الملك قد خطبك مني." فقالت له، "يا أبت زوجني منه، فإني أقتله قبل أن يصل إليَّ." فرجع أبوها إلى الملك وأخبره بذلك، ففرح الملك بما سمع وكتب لها كتابًا يقول فيه، "إني قد تعشقت باسمك قبل أن أراك، فإذا قرأت كتابي، فأعجلي بالمسير إليّ."

[فلما رأت بلقيس ذلك، أدركتها الغيرة، فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه، فأجابها الملك إلى ذلك، وقال، "ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك." فقالت، "لا أرغب عنك، فإنك كفؤ كريم. فاجمع رجالي وقومي واخطبني منهم." فجمعهم وخطبها منهم. فقالوا له، "تراها تفعل هذا؟" فقال، "إنها هي التي ابتدأتني وإني أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها." فلما جاؤوها وذكروا لها ذلك، قالت، "نعم، إني أحببت الولد."]

فكتبت بلقيس جوابًا، "إني إلى وجهك لأشوق ولكن قصري هذا من بناء الجن، وقد اتخذت لك فيه من المراتب تصلح لمثلك." فلما ورد عليه كتابها قام قائمًا فعمد إلى أفخر ثيابه فلبسه، وركب في سادات قومه وسار. فلما قرب من القصر، أمرت بلقيس أباها أن يخرج إلى الملك ويقول له ألا تدخل القصر إلا وحدك.

فخرج أبوها إلى الملك وأخبره بذلك، ففرق جنوده وأقبل وحده إلى القصر. وكان للقصر سبعة أبواب، وعلى كل باب جارية من بنات الجن كأنها الشمس المشرقة، في أيديهن أطباق الذهب، فيها من الدراهم والدنانير، وأمرتهن أن ينثرن ذلك على الملك إذا نظرنه. فلما دخل الملك نثرن عليه ذلك، فجعل يقول إلى كل واحدة منهن أنت صاحبتي، فتقول، "لا، إني خادمة لك وهي أمامك." فلم يزل كذلك حتى انتهى إلى آخر الأبواب. فلما خرجت بلقيس رأى من حسنها وجمالها ما كاد أن يسلب عقله، ثم أتته بمائدة من ذهب وعليها ألوان الأطعمة. فقال، "لا حاجة لي فيها." فأقبلت عليه بالشرب وجعلت تسقيه فشرب، ثم قدمت إليه الخمرة فسكر، وسقط على الأرض كالخشبة لا حركة فيها. فقامت وقطعت رأسه وقالت لجواريها، "خذن هذا الكافر وغيِّبنه في البحر وأثقلنه بالحجارة لئلا يظهر على الماء." فأجبنها إلى ذلك. ثم أرسلت إلى خزنة الملك أن يحملوا إليها جميع ما في الخزائن من الأموال والتحف. ثم دعت الوزراء وقدمت إليهم الشراب فشربوا. ثم قالت لهم، "إن الملك يقول لكم أن توجهوا إليه نساءكم وبناتكم." فاستشاطوا غضبًا، وقالوا، "أما يكفيه ما جرى؟" فلما علمت أن غضبهم قد تمكَّن منهم، قالت، "أرجع وأعرفه بغضبكم." ثم غابت عنهم ساعة وعادت، وقالت، "إنّي أخبرته ما قلتم، فقال، لابد لي من ذلك." فازدادوا غضبًا. فقالت لهم، "أتحبون أن أقتله فتستريحوا كلكم من شره ويكون لي الملك عليكم؟" فأجابوها إلى ذلك وحلفوا لها. ثم غابت عنهم ساعة ومعها رأس الملك، ففرحوا فرحًا شديدًا ومكَّنوها عليهم ثم أقامت في الملك سبع عشرة سنة.

[ثم جزَّت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها. فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلًا ورأسه منصوبًا على باب داره، علموا أن تلك المناكحة كانت مكرا وخديعة منها. فاجتمعوا إليها وقالوا لها، "أنت أحق بهذا الملك من غيرك." فقالت، "لولا العار ما قتلته. ولكن رأيته قد عم فساده، فأخذتني الحمية ففعلت به ما فعلت." فملكوها واستتبّ أمرها في المملكة].

ثم تسير الأحداث وفقًا للقصة المعيارية التوفيقية لسليمان وبلقيس.(١٧)

(17) Basset, R., *Mille et un contes, récits et legendes arabes*, Vol. 1, Paris, 1924. Translated by E. L. Ranelagh.

ولما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز للمسير، واصطحب معه من الناس والجن والشياطين والطيور والوحش ما بلغ عسكره مئة فرسخ، وأمر الريح الرخاء فحملتهم. فلما أتوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم، وقرب القرابين وقضى المناسك، وبشر أهله بخروج نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبرهم أنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين وأن ذلك مثبت في زبورهم.

ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن، فخرج من مكة صباحًا وسافر نحو اليمن يؤم نجم سهيل، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضًا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها، فأحب النزول بها ليصلي ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه. وكان الهدهد دليله، وكان يرى الماء من تحت الأرض، كما يرى أحدكم كأسه بيده، فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب يستخرجون الماء. فطلب سليمان الهدهد، فلم يجده فتوعده.

ولما نزل سليمان قال الهدهد في نفسه: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع إلى نحو السماء، ونظر إلى طول الدنيا وعرضها، ونظر يمينًا وشمالًا، فرأى بستان بلقيس، فمال إلى الخضرة فوقع فيها فإذا هو بهدهد اليمن، وكان اسم هدهد سليمان يعفور، واسم هدهد اليمن عفير. فقال عفير ليعفور، "من أين أتيت وإلى أين تريد؟" قال، "أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام." فقال الهدهد له، "ومن سليمان بن داود؟" قال، "ملك الجن والإنس والشياطين والوحوش والرياح. فمن أين أنت؟" قال، "أنا من هذه البلاد." قال، "ومن ملكها؟" قال، "امرأة." قال، "فما اسمها؟" قال، "يقال لها بلقيس، وإنّ لصاحبكم سليمان ملكًا عظيمًا ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كله. وتحت يدها إثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مئة ألف مقاتل. فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها فإني أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء." فقال الهدهد اليماني، "إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة." فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها، وما رجع إلى سليمان إلا وقت العصر. فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد، وذلك أنه نزل على غير ماء، فسأل الإنس عن الماء فقالوا، "لا نعلم ههنا ماء." فسأل الجن والشياطين فقالوا، "لا نعلم." فتفقد عند ذلك الهدهد، فلم يجده وتوعده.

قال ابن عباس في بعض الروايات عنه، وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان، نظر فإذا موضع الهدهد خالٍ فدعا عريف الطير وهو النسر، فسأله عن الهدهد. فقال، "أصلح الله الملك، ما أدري أين هو، وما أرسلته إلى موضع." فغضب عند ذلك سليمان وقال، ﴿لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه﴾. ثم دعا العُقابَ سيد الطيور فقال له، "عليّ بالهدهد الساعة." فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين أحدكم، فنظر يمينًا وشمالًا فإذا هو بالهدهد مقبلًا من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده. فلما رأى الهدهد أن العقاب يريده بسوء ناشده الله، وقال، "بحق الذي قوّاك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني، ولا تتعرض لي بسوء." قال فولّى العقاب عنه، وقال له، "ويلك ثكلتك أمك، إن نبي الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك." ثم طارا متوجهين نحو سليمان. فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاهم النسر والطير كله، وقالوا له، "أين غبت في يومك هذا، فلقد توعدك نبي اللهّ سليمان." وأخبروه ما قال. فقال الهدهد، "وما استثنى نبي الله؟" قالوا، "بلى إنه قال، ﴿أو ليأتينيّ بسلطان مبين﴾." فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان، وكان قاعدًا على كرسيه، فقال العقاب، "قد أتيتك به يا نبي الله." فلما قرب الهدهد منه، رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه وهو يجرهما على الأرض تواضعًا لسليمان. فمد سليمان يده إلى رأسه فجذبها، وقال، "أين كنت؟ لأعذبنك عذابًا شديدًا." فقال له الهدهد، "يا نبي الله، اذكر وقوفك بين يدي الله." فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه.

فلما قال ذلك الهدهد لسليمان، قال له سليمان، ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾. ثم إن الهدهد دلَّهم على الماء، فاحتفروا الركايا وهي الآبار التي لم تُطو ببطن كل واد فروي الناس والدواب، وكانوا قد عطشوا. ثم كتب سليمان كتابًا، "من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: ﴿ألا تعلوا عليّ وَأْتُونِي مسلمين﴾. فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، وقال للهدهد، ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾."

فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء، فوافاها في قصرها، وقد غلقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلقت

الأبواب وأخذت المفاتيح، فوضعتها تحت رأسها، ومضت إلى فراشها. فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على ظهرها، فألقى الكتاب على نحرها. فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة كاتبة عربية من قوم تبّع بن شراحيل الحِمْيَري.

فلما رأت الخاتم ارتعدت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الذي أرسل هذا الكتاب هو ملك أعظم منها. وقالت، "إن ملكًا تكون رسله الطير لَمَلِكٌ عظيم." فقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد. ثم إنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها، وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قيل تحت يدي كل منهم مائة ألف مقاتل، وكانت تكلمهم من وراء حجاب. فإذا حَزَبَها أمرٌ أسفرت وجهها. فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم، قالت لهم بلقيس، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

ثم ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أُصانِعه عن ملكي، واختبره بها، أملك أم نبي، فإن يك ملكًا قبل الهدية وانصرف، وإن يك نبيًا لم يقبل الهدية ولم يرض منّا إلا أن نتبعه على دينه.

ثم إنها أهدت إليه وصفاء ووصائف ألبستهم لباسًا واحدًا حتى لا يعرف الذكر من الأنثى. وأرسلت إليه بصفائح الذهب. فلما بلغ ذلك سليمان، أمر الجن فموهوا له الآجر بالذهب. ثم أمر به فأُلقيَ في الطريق في كل مكان. فلما جاؤوا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان، قالوا. قد جئنا نحمل شيئًا نراه ههنا ملقى لا يلتفت إليه، فصغر في أعينهم ما جاؤوا به. وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتب، عمدت بلقيس إلى خمس مئة جارية وخمس مئة غلام، فألبست الجواري لباس الغلمان، الأقبية والمناطق، وألبست الجواري لباس الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفي آذانهم أقراطًا وشنوفًا مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمس مئة فرس، والغلمان على خمس مئة برذون، على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من

الديباج الملون، وبعثت إليه أيضًا خمس مئة لبنة من ذهب وخمس مئة لبنة من فضة وتاجًا مكللًا بالدر والياقوت المرتفع. وأرسلت إليه أيضًا المسك والعنبر والعود والألنجوج، وعمدت إلى حُقَّة وجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزع خرزة مثقوبة معوجة الثقب. ودعت رجلًا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالًا من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت معهم كتابًا بنسخة الهدية، وقالت في الكتاب، "إن كنت نبيًا فميز بين الوصائف والوصفاء، وأخبرنا ما في الحُقَّة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقبًا مستويًا وأدخل خيطًا في الخرزة." ثم أمرت بلقيس الغلمان، فقالت لهم، "إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء." وأمرت الجواري أن يكلمنه كلامًا فيه غلظة يشبه كلام الرجال. ثم إنها قالت للرسول، "انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرة غضب، فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره، فأنا أعز منه. وإن رأيته رجلًا بشاشًا لطيفًا فاعلم أنه نبي مرسل، فتفهم كلامه ورد الجواب."

فانطلق الرسل بالهدايا. فلما رأى ذلك الهدهد، أقبل مسرعًا إلى سليمان وأخبره الخبر كله. فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبِنًا من الذهب والفضة، ففعلوا ذلك. ثم أمرهم أن يبسطوا له في موضعه الذي فيه إلى تسع فراسخ ميدانًا واحدًا بلبنات من الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حيطانًا مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك. فقال لهم، "أي الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟" فقالوا، "يا نبي الله، إنا رأينا في بحر كذا دوابًا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص." فقال سليمان، "عليّ بها الساعة." فأتوه بها. فقال، "شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفة فيها." ثم قال للجن، "عليّ بأولادكم." فاجتمع خلق كثير، فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفًا فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ، وأمر الوحوش والسباع والهوام والطيور، فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره. فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا.

فلما جاؤوا إلى الميدان ورأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا منهم. فقيل لهم، "جوزوا فلا خوف عليكم." قال، فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والسبع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام. فنظر إليهم سليمان نظرًا حسنًا بوجه طلق، وقال، "ما وراءكم؟" فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطوه كتاب الملكة. فلما نظر إليه وقرأه، قال لهم، "أين الحُقَّة؟" فأتى بها فحركها. فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره ما في الحُقَّة. فقال، "إن فيها درة ثمينة بلا ثقب، وخرزة مثقوبة، معوجة الثقب." فقال له الرسول، "صدقت، فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة." فقال سليمان عليه السلام، "من لي بثقبها؟" فسأل الإنس، فلم يكن عندهم علم بذلك. ثم سأل الجن فلم يكن عندهم علم ذلك. ثم سأل الشياطين. فقالوا له، "أرسل إلى الأرضة،" فأرسل إليها. فلما أتت أخذت شعرة من فيها ومررتها في الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال لها سليمان، "سلي حاجتك." قالت، "أن تُصَيِّرَ رزقي في الشجر." قال، "لك ذلك." ثم قال، "من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط؟" فقالت دودة بيضاء، "أنا لها يا نبي الله." فأخذت الدودة خيطًا من فيها وأدخلته الثقب، فخرج من الجانب الآخر. فقال لها سليمان، "ما حاجتك؟" فقالت، "أن تُصَيِّرَ رزقي في الفواكه." قال لها، "لك ذلك." ثم إنه ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم. فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله في اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام يأخذه من الإناء بيديه ويضرب به وجهه. وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد. وكانت الجارية تصب الماء صبًّا وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرًا، فميز بينهم بذلك.

ثم رد سليمان الهدية كلها وقال، "﴿أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم، بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة في الدنيا ولا تعرفون غير ذلك. وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد مكنني منها، وأعطاني ما لم يعط أحدًا من العالمين فيها. ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمني بالنبوة والحكمة." ثم إنه قال للمنذر بن عمرو أمير القوم، "﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ إن لم يأتوني مسلمين." فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها، قالت، "والله ما هذا بملك وما لنا به من

طاقة." فبعثت إلى سليمان عليه السلام، "إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك." ثم إن بلقيس أمرت بعرشها فجعلت فيه سبعة أبيات بعضها داخل بعض في آخر قصر من قصورها. ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسًا يحفظونه. ثم إنها قالت لمن خلفت على سلطانها، "احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا تخلص إليه أحدًا ولا يراه حتى آتيك." ثم إنها أمرت مناديًا ينادي في أهل مملكتها ليؤذنهم بالرحيل، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل مئة ألف مقاتل. قال ابن عباس، "وكان سليمان عليه السلام رجلًا مهيبًا لا يبت بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه." فخرج يومًا فجلس على سرير ملكه، فرأى رهجًا قريبًا منه، قال، "ما هذا؟" قالوا، "بلقيس يا رسول الله." قال، "وقد نزلت منا بهذا المكان؟" قالوا، "نعم." فأقبل سليمان على جنوده وقال، "﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾." فقال سليمان، "أريد أسرع من هذا." ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يَخُدُّون الأرض خَدًّا حتى انحرفت الأرض بالسرير فقبع بين يدي سليمان. فلما رأى سليمان العرش مستقرًا عنده محمولًا إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف وهو مدة يسيرة، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾. فقال سليمان عليه السلام، ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وخافت الشياطين أن يتزوجها سليمان ويستولدها فتفشي إليه أسرار الجن، فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأرادوا أن يزهدوه فيها، فأساؤوا الثناء عليها، وقالوا له إن في عقلها شيئًا وإن رجليها كحافر حمار، فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء صرح. فلما جاءت بلقيس، ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾. فشبهته به، وكانت قد تركته خلفها في بيت ذي سبعة أبواب مغلقة، والمفاتيح معها. فلم تقر بذلك ولم تنكر، فعلم سليمان كمال عقلها. فلما وافت سليمان، ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾. وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس تريده، أمر الشياطين، فبنوا له صرحًا من الزجاج كما لو كان ماءً، وجعلوا الماء يجري أسفله، ووضعوا فيه سمكًا.

لقد رأينا كيف أدى وصف الزيارة الدبلوماسية التي قامت بها ملكة الجنوب إلى الملك سليمان إلى نشأة حكايات يهودية وإسلامية غير تلك المذكورة في التوراة والقرآن. وفي كلا هذين التراثين هناك مسحةٌ من الجن في شخصية الملكة، حيث إن «قصص الأنبياء» نهلت من الروايات اليهودية عن الملكة بعد أن اقترنت بالأرواح الشريرة. ولهذا تخاف الجنُّ زواجَها من سليمان وذلك لاعتقادهم أنها سليلة الجن أو نصف جن. وهكذا ستتمكن هي وذريتها من معرفة أسرار الجن، مما يعني أن خضوعهم لذرية سليمان سيستمر. ولكن الزواج بحسب الأسطورة يقع، وقد أبرزت القصص العربية في هذا القران اعتناق بلقيس لدين الحق. وقد رأى الكتاب المسلمون المتأخرون تفسيرًا صوفيًا يجعل من سليمان رمزًا للرجل الكامل ومن بلقيس رمزًا للروح التي تنصرف عن العالم المادي بحثًا عن الله الواحد الأحد.

إن قصة بلقيس معقدة فعلًا. فكما يلخصها و. م. وات، يمكن أن يُنظر إلى لقائها مع سليمان على أنه "لقاء بين سحرين متنافسين... ولأن القصة مذكورة في القرآن فقد اكتسبت حق المواطنة في الإسلام. كما أنها كانت من قبل قد تطورت نسبيًا في الأدب اليهودي خارج الإطار التوراتي؛ أما في سياقها الإسلامي ومع عدة سمات إسلامية مميزة فقد اكتسبت كثيرًا من ثيمات الخيال الشعبي."(١٨)

وبسبب كلمات المسيح في الأصحاح الثاني عشر من إنجيل متى، نشأت حول ملكة سبأ أيضًا أسطورة مسيحية أدى فيها فن التصوير دورًا كبيرًا. لقد ذكر المسيح، كما ورد في إنجيل متى، الملكة بوصفها شاهدَ نبوءة على يوم القيامة بسبب اعترافها الصحيح بحكمة سليمان. تخبرنا إشارات العهد القديم عن مجيئها إلى بلاطه بقصد طرح بعض الأسئلة عليه التي يجيب عليها سليمان، كما تجلب له هدايا من ذهب وتوابل، فيرد على هداياها بهدايا أعظم منها. استخدم المفسرون اليهود هذه القصة للتدليل لا على عظمة الملك وحكمته فحسب بل على خضوع غير اليهود لبني إسرائيل. أما المفسرون المسيحيون الأوائل فوجدوا في تلك القصة فائدةً لا تقل عن الفائدة التي وجدها نظراؤهم من اليهود. فمن الناحية المجازية، أقرت عبارة يسوع بكون سليمان نموذجًا للمسيح وبكون ملكة سبأ نموذجًا للوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية. وهكذا وجدت كلٌّ من هاتين الشخصيتين المكان المهيأ لها في التفسير التوراتي الذي أسسه آباء الكنيسة الذين كانوا يرون أن أناسًا محددين وأفعالًا معلومة في العهد القديم تُنبئ بأشخاص أو أشياء محددة في العهد الجديد. لذا صارت دراسة

(18) Watt, W. M., "The Queen of Sheba in Islamic Tradition," in Pritchard, *op. cit.*, p. 103.

الرمزية المسيحية لهذه الثنائيات تُعرف باسم دراسة النماذج typology. ومنذ سنة ١٤٨٠ تقريبًا صارت مجاميع النماذج والنماذج المضادة تُعرف من خلال الكتب المطبوعة، ولا سيما من طبعات الأعمال المعروفة باسم *Biblia Pauperum* (الكتب المقدسة للمساكين)، التي كانت كتبَ إرشادٍ للكهنة، ولكن لم يكن يستغني عنها أيضًا الرسامون وغيرهم من المهتمين بالفن المقدس وفن الأيقونات.

فصارت رحلة الملكة الطويلة من بلاد غريبة إرهاصًا لسجود المجوس [للمسيح]: لقد أُبرزت ملكة الجنوب من ناحية وأُظهر ملوك الشرق الثلاثة من ناحية أخرى، وما يربط بين هاتين المناسبتين هو إحضار الهدايا قربانًا لوجه الله الحق. يضرب پول واتْسون[١٩] أمثلة على ذلك من: مخطوطة من *Speculum Humanae Salvationis* (مرآة الخلاص البشري) من منطقة الألزاس، ومخطوطاتٍ ونسخٍ مطبوعة في جنوبي ألمانيا من «الكتب المقدسة للمساكين»، ولوحةٍ ثلاثية مرسومة في مدريد لرسام من مقاطعة فلاندرز البلجيكية، ونسخة مزخرفة من الكتاب المقدس لرسام بوسيكو، والزجاج الملون في إنجلترا في كاتدرائية كانتبري وفي معبد الكلية الملكية في كيمبردج، ومخططات زيتية أولية موجودة في الكنيسة اليسوعية في آنتْوِيْرب كان قد رسمها روبنز من أجل لوحات مفقودة الآن.

ومنذ القرن السابع كان إزيدورو الإشبيلي، الذي اقتفى أثرَه في إنجلترا معاصرُه بِيْد المبجل حتى أنه قلده "كلمة بكلمة تقريبًا،" قد فسر الملكة تفسيرًا مجازيًا يجعلها رمزًا للكنيسة ذاتها "التي تتقاطر من أقاصي الأرض لتستمع إلى صوت الله."[٢٠] وهكذا أصبحت ملكة سبأ نموذجًا للمجتمع المسيحي وليس فقط للوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية. لقد أقبلت على سليمان كما أقبلت الكنيسة على المسيح. هذه النماذج الرمزية موجودة في أوربا العصور الوسطى في تماثيل لسليمان وملكة سبأ في بيت المعمودية في پارما، وفي كاتدرائيات شارتر وأميان، كما في كنيسة التتويج في رانس. ثم أُعطيت الملكة وجهًا آخر في أواخر العصور الوسطى حين أُدرِجت في أسطورة الصليب الحقيقي. وقد جرى تداول هذا الأمر أولًا في القرن الثالث عشر في الحكايات الشعبية البيزنطية والشرقية، ومن ثم روَّج لها في أوربا الأسقف جاكوبوس دو ڤوراجين في إحدى قصصه في *Legenda Aurea* (الأساطير الذهبية) التي جمع فيها أساطير القديسين، فصارت المعين الذي نهل منه رسامو عصر النهضة الدينيون.

---

(19) *Ibid.*, pp. 118 ff.

(20) *Ibid.*, pp. 115.

وبحسب هذه الأسطورة، حين كان آدم يحتضر، أعطى المَلَك جبريل لشيث، ابن آدم، غصنًا (وفي بعض الروايات، ثلاث بذرات) من الجنة من شجرة معرفة الخير والشر، وقال له إنه عندما يُثمر الغصن سيتعافى آدم. غرس شيث الغصن على قبر أبيه، ونما الغصن نموًا عجيبًا. بأحد الأغصان اجترح موسى معجزاته في مصر وأخرج الماء من الصخر الأصم. وتحت هذه الشجرة جلس داوود ليبكي على ما مضى من خطاياه. وفي زمن سليمان تطاولت الشجرة على كل أشجار لبنان. وبأمرٍ منه قُطعت الشجرة لتُستخدم في بناء الهيكل ولكن العارضة التي عُمِلت منها حيَّرت البُناة، فمرةً تكون قصيرةً جدًا ومرةً طويلةً جدًا. استشاط سليمان غضبًا فأمر برميها فوق وادي قَدرون لكي يدوس عليها كل من يعبر الوادي. وعندما دنت ملكة سبأ من بلاطه وجدت العارضة وقد صارت جسرًا للمشاة. ولكن الملكة أدركت قداسة هذه القطعة الخشبية فرفضت أن تدوس عليها، بل فضلت أن تخوض في الماء بدلًا من ذلك.

تؤدي هذه الحادثة إلى رسم مشهد يتكرر لسليمان وملكة سبأ في توسكانيا حيث كانت هذه الأسطورة شائعة جدًا وذلك لأن كثيرًا من الكنائس هناك كانت تمتلك بقايا من الصليب الحقيقي. فلوحات أغنولو غادي الجصية (حوالي سنة ١٣٩٠) موجودة في كنيسة سانتا كروتشيه [الصليب المقدس] ذاتها في فلورنسا؛ كما كانت هناك لوحات جصية في ڤولتيرا وإمپولي، ولكنها الآن مفقودة. ولعل أهم هذه اللوحات هي سلسلة الصليب المقدس في سانتو فرانشسكو في أريزو التي رسمها پييرو ديلا فرانشسكا سنة ١٤٦٤. تصور هذه اللوحات التوسكانية الملكة وهي تسجد إجلالًا لقطعة الخشب.

ثم تتابع القصة قائلة إن سليمان دفنها بعد ذلك، ثم حفر بِرْكة بيت حِسدا [بيت الرحمة] في نفس المكان، فصارت البركة، التي اكتسبت صفاتها من عارضة الخشب التي تحتها، تشفي المرضى فورًا. وحين حان وقت صلب المسيح، طفت العارضة الخشبية على السطح، وهكذا اكتُشفت واستُخدمت.

ولكن سيرة العارضة الخشبية لم تتوقف، بل استمرت في النمو. وكما تقول بارنغ-غولد، "هكذا هي أسطورة الصليب، واحدةٌ من أكثر أوهام العصور الوسطى جُموحًا."[٢١]

والتطور الذي بدأ بالأرضية الزجاجية أو المائية يتضح في رواية الصليب الحقيقي. ففي بعض الروايات المختلفة، يُزعم أن قدم ملكة سبأ كانت مشوهة، ولكن ما إن خاضت في البركة

(21) Baring-Gould, Sabine, *Curious Myths of the Middle Ages*, London, Longman, 1914, p. 384.

حتى صارت سوية، وبهذا ينصرف النظر عن العنصر الشيطاني في شخصية الملكة إلى معجزة صغيرة تأثرت بلا شك بما اكتسبته بركة بيت حِسدا لاحقًا من خصائص شفائية. كذلك تبدو الرابطة مع الزند الخشبي المنشور الذي غمسه سليمان في الماء معقولة أيضًا. ومن الخصائص النمطية للروايات الشفوية المتواترة أن تسوغ الروابط المختلفة وتعيد استخدامها، وإن كانت صورة هذه الروابط باهتة في الذاكرة.

ولا شك أن تركيز الاهتمام عبر المراحل المختلفة من سيرة قصتنا على قدمي الملكة أفضى إلى مرحلة أخرى من القصص الشعبية عنها، ألا وهي نشأة الأسطورة القائلة إن الملكة كانت لها قدمُ إوزَّة. وكما يصفها پول واتْسون، "صارت الملكة تُعرف بلقب ذات القدم الإوزية وهي شخصية مشؤومة إلى حدٍّ ما ... وهذه هي النسخة الغربية من الأسطورة التلمودية والإسلامية، ولهذا فهي مجاورة للأساطير المسيحية." فمن الأرجح أن القدم المشوهة في حكاية الصليب الحقيقي كانت تفسيرًا غربيًا مسيحيًا لكون الملكة مُشْعِرة الساقين. يستشهد واتسون بحكاية يعود تاريخها إلى ما بين ١١٥٤ و١١٥٩ تصف الملكة بأنها، "سيدة كلٍّ من سبأ وإثيوبيا، وهي عَرّافة ذات قدمين كأقدام الإوز وعينين تُبرقان كبريق النجوم." بيد أنه يشير إلى أن هذا الموتيف كان له انتشار محدود يقتصر على بضع إشارات ألمانية في العصور الوسطى وأن من المرجح أن التماثيل المفقودة الآن وكانت تصور الملكة بقدمٍ كقدم الإوز وكانت تزين الكنائس في بيرغَندي مصدرها هو هذه المصادر الألمانية ذاتها. ولكن رابِليه يشير، ولو بصورة غير مباشرة، إلى صورة للملكة ذات القدم الإوزية، وكذلك فعل أناتول فرانس في عصرنا الحديث. ويخبرنا واتسون أن صورتها لا تزال توضَع على لُصاقة نبيذ بوجوليه الفاخر الذي يُنتج في ألوكس كورتون في بيرغندي العليا، غير بعيد من المكان الذي كانت تنتصب فيه تماثيل الرومانسك."(٢٢)

وعلى النقيض من صورة ملكة سبأ ذات القدم الإوزية نجد تماثيل تصور زواجها الملكي من سليمان بوصفها نماذج للمسيح والكنيسة، كما في لوحة سليمان من لوحات بوابات النعيم التي عملها غِبَرتي والمنصوبة في بيت المعمودية في فلورنسا سنة ١٤٥٢، أو على عدد من صناديق الزواج للأُسر التوسكانية الثرية.

فما الذي تبقى لنا اليوم من هذا التراث الغربي الغني عن ملكة سبأ؟ لقد ظلت صورة سليمان في الثقافة الغربية التقليدية مقترنة بملكة سبأ لأن الاهتمام المسيحي بزيارة الملكة التنبؤية إلى الملك الحكيم حفظ لقاءها بسليمان في هذه الثقافة. ولكن أثر الماضي الديني تلاشى في عالمنا

(22) Pritchard, *op. cit.*, pp. 136-38.

الحديث. ففي الغرب ما تبقى لنا في أفضل الأحوال هو انطباعٌ مشوش عن هيمنة مفرطة لشخصية تُدعى ملكة سبأ. وفي مسرحية جورج برنارد شو «پجماليون»، يقول هِغِنْز عن إلايزا، "في ثلاثة أشهر، بإمكاني أن أجعل الناس يتوهمون أنكِ ملكة سبأ." وعندما يوجه العَوام سؤالًا شائعًا مثل، "أتظنين نفسك ملكة سبأ؟" فسؤالهم ينم على استهجانٍ لسلوكٍ متغطرس وليس على أدنى معرفة بالتوراة. وكذلك تُقال عبارة، "أوه، يا ملكة سبأ" من باب الاستهجان الساخر من فتاة جميلة. كل ما نعلمه هو أن هذه الملكة، أيًّا كانت، كانت جميلة وكانت أكثر نساء الأرض هيبة، وربما لم يتبق شيءٌ سوى ذلك. فسيرتها التاريخية لا تهم إلا علماء الآثار؛ وما يُعزى إليها من صفاتٍ شيطانية ظل معزولًا في القصص الشعبية اليهودية ولم يدخل التراث الغربي؛ وأيامها المقدسة مقتصرة على فن الماضي.

وإن كانت لسليمان اليوم من مكانة من دون ملكة سبأ في الثقافة الغربية، فهي مكانة ثانوية تتألف من تلك العبارة الآسرة عن حكمته التي يُضرب بها المثل، وهي كل ما تبقى من مجموعة أدب الحكمة الذي شاع على نطاق واسع في العصور الوسطى. وقصة حكمه في قضية الطفل الذي ادّعت امرأتان أنه ابنها لا تزال ماثلة في الأذهان كما في مسرحية «دائرة الطباشير القوقازية» وفي المرويات الشعبية. كذلك تستمر أسطورة هيكله وذلك بسبب ارتباطها بالماسونية. أما بوصفهما ثنائيًا، فقد خرج سليمان وملكة سبأ من الغرب المسيحي.

أما في الشرق الأدنى، بالمقابل، فإن سليمان، علاوةً على القصص القرآنية عنه وعن ملكة سبأ، يحتل مكانة ذائعة الصيت منفصلة عن بلقيس. فحتى القرن الحالي [العشرين] ظل الحكواتية العرب يسحرون مستمعيهم ليلةً بعد ليلة بحكايات متنوعة عنه: بناء الهيكل من قبل كبير المعماريين من صور؛ قطع الحجارة التي نُحِتت لهذا الغرض من الحجرة العجيبة المسماة سمير والتي جلبها شيطانٌ يُدعى صخر من عُقاب البحر؛ المظلة التي شكلتها الطيور لتظله من الشمس؛ بساطه السحري من الحرير الأخضر الذي كان يسافر عليه في يوم واحد من بلاد الشام إلى أفغانستان؛ ثروته الهائلة؛ بيوته الألف ذات الأسقف الزجاجية التي تحتوي على ٣٠٠ أريكة و٧٠٠ زوجة؛ عرشه المصنوع من الذهب الخالص؛ مائدته الخضراء المصنوعة من حجر البريل الكريم؛ الشمس التي توقفت كي يصلي المغرب؛ حبسه لأشرار الجن في مراكب من رصاص؛ خاتمه الذي كان وسيلته الأساسية في السحر والذي كان يحتوي على أربع جواهر أهداها إليه أربعة من الملائكة، فكانت تُنجِده بالملائكة والطير وتمنحه سلطانًا في البر والبحر، وسلطانًا على الجن؛ تطوافه الهائم حين سلب منه شيطانٌ خاتَمه

بالخدعة واغتصب مكانته؛ عثوره على الخاتم داخل سمكة؛ وأحكامه التي كانت، بخلاف كل هذه المعجزات، نابعةً من إعمال الفطنة والبصيرة لاكتشاف الجريمة. وبعد موته دُفن في غارٍ فيها وراء الأبحر السبعة، وهو جالس على عرشه، ويلبس خاتمه، وتحيط به ثروته الهائلة، ويحرسه ثعبان يقتل كل من يدنو منه. وهكذا يعيش سليمان الساحر والمشعوذ في القصص الشعبية العربية على نحوٍ أنشط مما يعيش سليمان النبي، صاحب بلقيس.

إذن، كان سليمان في الشرق الأدنى هو الشخصية الأهم عبر القرون؛ أما الملكة فهي الأقل أهمية. أما في الغرب فكان الثقل للقاء مع ملكة سبأ وللملكة سبأ ذاتها. وهذا الوضع هو نقيض الفلك الذي دارت فيه قصة يوسف، حيث تقتصر النظرة الغربية على يوسف وحده، بينما تركز النظرة الشرقية على قصة الحب بين يوسف وزليخا. ففي حين استحوذ التراث المسيحي على ملكة سبأ، استحوذ التراث الإسلامي على زليخا، وفي كلتا الحالتين ألهبت شخصيةٌ ثانويةٌ في الكتب المقدسة الخيال الشعبي وظلت التفاسير تتوسع فيها إلى أن بنت حولها أسطورة كبرى.

حكاية من الغرب: تَعومُ بعكس التيار

يُروى أن زوجة الشيخ دَنك هارغروف سقطت في النهر، فهُرع الناس جميعًا للمساعدة في انتشال جثتها. كانوا يبحثون عنها في الحفر الزرقاء ويفجرون الديناميت تحت الجسر. وسرعان ما رأى أحدهم الشيخ دَنك يفتش بين أكوام الأغصان المقطوعة في أعالي النهر بعيدًا عن المكان الذي سقطت فيه. ظن الناس أنه ثَمِل أكثر من عادته، فقفلوا راجعين. ولكن الأمر لم يكن كذلك. لقد اعتقد أن عناد إلسي، حتى وهي ميتة، سيجعلها تطفو بعكس التيار.(٢٣)

(23) Vance Randolph, *Hot Springs and Hell*, Hatsboro, PA, 1965, p. 22.

حكاية من الشرق: الزوجة العنيدة

كان لدى رجلٍ زوجة عنيدة جدًّا إلى درجة أنها كانت تفعل عكس ما يأمرها به، وكانت تستقبل ضيوفه على العشاء بوجه عبوس. وفي يوم من الأيام دعا عدة أناس للعشاء معه، ووضع المائدة في الحديقة قرب نهرٍ. جلست زوجته وظهرها إلى الماء على مسافةٍ من المائدة، وكانت تنظر إلى الضيوف بوجه حقود. قال لها زوجها، "رحِّبي بالضيوف واقتربي من المائدة." لكنها دفعت كرسيها إلى الوراء، مبتعدةً عن المائدة ومقتربةً من حافة النهر وراء ظهرها. فلما رأى زوجها ما فعلت، قال لها غاضبًا، "اقتربي من المائدة." فدفعت كرسيها بعنف نحو الوراء، فسقطت في النهر وغرقت. تظاهر زوجها بحزن عظيم، فركب قاربًا وراح يبحث عن زوجته بعكس التيار، وبيده سارية طويلة. وعندما سأله جيرانه لماذا يبحث عن زوجته في أعلى النهر بدلًا من أدناه، قال لهم، "ألا تعلمون أن زوجتي كانت دومًا تفعل العكس، ولم تسر أبدًا في الطريق المستقيم؟ أنا متأكد أنها خالفت التيار على عكس كل الناس."[٢٤]

(24) T. F. Crane (ed.), *The Exempla of Jacques de Vitry*, London, 1890, p. 225.

الإسكندر الأكبر

لا نستطيع اليوم قولَ ما قاله چوسر:

قصة الإسكندر شائعة جدًا

حتى إن كل مخلوق عاقل

قد سمع شيئًا من نصيبه أو كلَّه.

بعد ألفين وثلاث مئة سنة من موته وست مئة سنة من موت چوسر، يصعب علينا أن نعطي ولو فكرة واهية عن الأثر الفريد الذي تركه الإسكندر الأكبر على البشرية، إذ إن معرفتنا عنه الآن مكنوزة في الكتب بدلًا من أن تكون متاحة مجانًا في القصص الشعبية. وأقرب شبيه له هو ناپليون الذي بدأت صورته تبهت بعد أقل من مئتي سنة، على الرغم من أنه الاسم الأوحد في التاريخ الحديث الذي سمع به كل مخلوق غربي. اسأل مدرس أي مجموعة متعددة الثقافات كالأمريكيين، أو لاحظ المجنون الذي صار مضربًا للمثل في الوهم لأنه "يظن نفسه نابليون." لقد جسَّد كل من بوناپرت والإسكندر، كما عرفه التاريخ، العبقرية العسكرية والكارِزْما والأريحية والمقدرة على تنظيم الإمبراطوريات وعلى التخطيط والبناء على نطاق واسع، كما جسَّدا ذلك الفضول الفكري الذي أسهم إسهامًا عظيمًا في تقدم العلوم والفنون. لكن الإسكندر كان أيضًا أول المستكشفين في العالم العارفين، كما يروي عنه پليني الأكبر، بالبلاد والأقوام والحيوانات والنباتات والمعادن في الأرض المعروفة، وكان لا يدخر جهدًا في سبيل البحث عن المعرفة. وقد أسس ثماني عشرة مدينة جديدة. وكان أول المُغرِّبين للشرق. وحين اكتملت أسطورته في العصور الوسطى، كان الغرب والشرق يعتقدان أن الإسكندر الأكبر هو في الحقيقة أعظم الرجال على مرِّ الدهور.

ولكن النقطة الأساسية في التراث الأوربي عن الإسكندر هي أن شهرته لا علاقة لها بمنجزات حياته التاريخية التي لم يَبُزّها أحدٌ في الماضي ولا في الحاضر. لا شك أن الحياة

التاريخية لهذا الملك الفذ كانت منشًا للأساطير الأصلية التي حيكت عنه، حتى وهو حيٌّ، ولكن حياته الأسطورية هي التي كانت معروفة لدى العامة في العصور الوسطى. لم يصلنا من المدونات المعاصرة له إلا القليل جدًّا مثل مدونة مؤرخه الرسمي كالِسْثينز، وهو أحد أبناء أخت أرسطو. وحين دُوِّنت عنه أولى الروايات التاريخية الرومانية بعد حوالي ثلاث مئة سنة من موته، تأثرت حتى هذه بالأساطير، وبسبب التراجع العام في التعليم الكلاسيكي خلال عصور الظلام، لفَّ النسيان مسيرته الحقيقية. وهكذا نشأت شهرته لا من الحقائق بل من المغامرات الباهرة التي تُعرف اليوم باسم مغامرات الإسكندر.

كانت معظم حكايات مغامرات الإسكندر تتداولها الألسن في الشرق الأدنى، حيث جُمعت في مخطوطة إغريقية لعلها كُتبت في الإسكندرية ولعلها كُتبت قبل سنة ٣٠٠ بعد الميلاد. وقد نُسبت المخطوطة خطأً إلى كالِسْثينز، ولذلك تُدعى مخطوطة كالِسْثينز المزيفة. تكمن أهمية مخطوطة كالِسْثينز المزيفة في أنها أقدم المصادر الباقية عن حياة الإسكندر الأسطورية، ومن خلالها (ولا سيما من خلال فرعٍ نشأ عن نسخة إغريقية مفقودة ترجمها إلى اللاتينية كبير الكهنة لِيو النابولي في القرن العاشر) استمد الغرب في العصور الوسطى معظم قصصه منه. أعد ليو نسخةً منقَّحةً تُعرَف باسم *Historia de Proeliis* (تاريخ المعارك)، فانتشرت انتشارًا مذهلًا ليس فقط في اللاتينية بل حتى في اللغات القومية الناشئة حينها، وصارت مصدرًا لحوالي أربعين كتابًا عن الإسكندر في كل العاميّات الأوربية تقريبًا من إنجلترا إلى روسيا. وهكذا صارت مغامرات الإسكندر أقدم الملاحم وأشهرها في العصور الوسطى، وصار الإسكندر أشهر الأبطال كذلك، كل ذلك بفضل مخطوطة كالِسْثينز المزيفة.

هذه المكانة يثبتها تَواتُر قصص الإسكندر في نوادر العصور الوسطى المسماة الأمثولات التي ازدهرت من بدايات القرن الثاني عشر فصاعدًا. والأمثولات تعني حرفيًا أمثلة، أو حكايات قصيرة تُحكى لرجال الدين أو من قِبَلِهم في طول أوربا وعرضها لتوضيح الأخلاق المسيحية؛ ويمكن النظر إلى محتوى هذه الحكايات على أنه مقياس دقيق للمعرفة المتوقعة من إنسان شبه مثقف أو من أميٍّ من عامة الناس. كانت الأمثولات تُجمَع في كتبٍ تنسخ من كتبٍ سابقة وتكرر الحكايات الرمزية والنُّذُر ذاتها. كان الوُعّاظ الذين يستخدمونها في مواعظهم وصكوك غفرانهم ورحلات حجهم وغير ذلك من المناسبات التعبُّدية يحاولون أن يُسلّوا جمهورهم وينوروهم. ومثل أندادهم من متحدثينا المحترفين اليوم، أدرك هؤلاء فائدة ربط قصة ما باسم مألوف. في مسح شامل للأمثولات، أيَّ اسم تظنونه الأكثر استخدامًا؟ اسم

الإسكندر! يبين فهرست الأمثولات المرتَّب بحسب نماذج القصص المرقَّمة (بغض النظر عن العدد الهائل للأشكال المختلفة لكل قصة) أن الإسكندر يتفوق على كل مَن سِواه. فهناك تسعةٌ وخمسون نموذجًا مختلفًا تجعل منه موضوعًا رئيسًا. أما مريم العذراء فلا يمثلها إلا ثمانيةٌ وأربعون؛ وشارلمان، وهو أقرب رجل، ليس له نصيبٌ إلا في أحد عشر نموذجًا، وصديقنا العتيد سليمان له تسعة فقط. ولأرسطو سبعة، يظهر الإسكندر في اثنين منها. حتى المسيح نصيبه أقل! سبعة وخمسون فقط. (الشخصية الوحيدة التي تُستَخدَم أكثر من الإسكندر هي الشيطان، الذي يظهر في مئةٍ وثلاثٍ وثلاثين أمثولة).

إن تواتر اسم الإسكندر في الأمثولات هو بمثابة استفتاء عن مدى المعرفة في العصور الوسطى وعن مكانته المتفوقة. علاوةً على ذلك، أسهمت الأمثولات بدورها في صياغة التصور الشعبي عن الإسكندر. ولكن أغلب هذه الأمثولات جاءت أصلًا من مصادر شرقية، وظلت لقرون تُتداوَل في القصص الشعبية في الشرق الأدنى قبل أن تدخل إلى أوربا، في حين أن صورة الإسكندر في الغرب، كما ذكرنا آنفًا، قد استقرت منذ وقت طويل قبل زمن الأمثولات الأوربية بفضل ما تَناسَل من مخطوطة كالِسْثينز المزيفة في عشرات العناوين في عشرات اللغات عن مغامرات الإسكندر.

ولكن قبل هذا العمل بوقت طويل، بل بُعيدَ موت الإسكندر في بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد، نشأت هذه الأسطورة وجمعت حول نفسها بالطريقة المعتادة الثيمات المحلية المألوفة من الأديان والمعتقدات وأساطير الأولين والقصص الشعبية. إلا أنه في هذه الحال كانت المنطقة المحلية بلا حدود، حيث كانت مترامية الأطراف ومتعددة القوميات مثل إمبراطورية الإسكندر التي تزيد مساحتها عن مليونَي ميل مربع. ولهذا تداخلت فيها عناصر إغريقية وعبرية وفلسطينية وشامية وعربية وكيليكية وأرمنية وبابلية ومصرية وميدية وفَريثية وفارسية وأفغانية وهندية وغيرها. هذه التراثات المبكرة، التي لا تشمل الإسهامات المهيمنة لكل من المسيحية والإسلام لاحقًا، لا يزال ممكنًا تتبعُ أثرها في المضمون الأساسي لمخطوطة كالِسْثينز المزيفة. وفي الحقيقة لو تساءلنا كيف أصبحت حكايات الشرق الأدنى هي نفسها حكاياتُ الغرب لما وجدنا إلا بضعة أمثلة خيرًا من مخطوطة كالِسْثينز المزيفة التي صارت متاحة للقراء منذ القرن الثالث في الإغريقية والقرن الرابع في اللاتينية. ولكن قبل انتشارها في المخطوطات وفي أثناء ذلك وبعده انتقلت مادة أسطورة الإسكندر شفويًا في شتى اللهجات المحلية لعامة الناس. وقد حصل هذا في أوربا في عصور الظلام حين كان تراث الإغريق والرومان وثقافتهما

بشكل عام في حالة انحدار، وكانت الفنون غير تمثيلية وفجة، وكان أدب الترفيه والمعارف خاضعة لسلطة الكنيسة. ولا بد أن هذه القصة المثيرة بدت لبسطاء المستمعين من أجدادنا الهمجيين كأنها السحر بعينه، حيث إن مخطوطة كالِسْثينز المزيفة تمزج العجائبي بالتاريخي، والشهواني بالمثالي، بطريقة آسرة حتى في يومنا هذا كما سنرى.

لقد فُقِدت مخطوطة كالِسْثينز الإغريقية-المصرية المزيفة التي دُوِّنت في القرن الرابع، ولكن نسخةً نُسِخت في القرن الثالث عشر حفظت لنا ترجمةً من القرن الخامس من الإغريقية إلى الأرمنية، وهي ترجمة دقيقة جدًّا. ولأن النسخة الأرمنية من القرن الثالث عشر قد تُرجمت في الآونة الأخيرة إلى الإنجليزية، فإنه من دواعي سعادتنا اليوم أن نستطيع أن نقرأ هذه الوالدة الشرقية لملاحم الإسكندر الغربية، وكأنها قد وصلتنا للتو من مصر القرن الخامس. والغريب أن هذه القصة عصريةُ اللغة والسيكولوجية.

سيرة فاتح العالم العظيم

الإسكندر المقدوني

سيرةٌ من الإقدام والبطولات، كما هي سيرة موتٍ تَحَفُّه العجائب

بعد أن حدد حكماء مصر حجم الأرض والبحر وأحصوا نجوم السماء، نقلوا للعالم أجمع القوة، واكتشافهم للكلام وكيفية نظمه، ومعرفتهم بالمهارات العملية. ويُقال إن آخر ملوك مصر، نِكتانيبوس، تغلب على كل الرجال بقوة السحر بعد أن أفل نجم مملكته، بل لقد أطاعته حتى العناصر الطبيعية. فحتى لو قامت ضده الحشود الغازية، لم يكن يأبه لآلات الحرب ومخازن الأسلحة أو يحضِّر آلات القتل الحديدية وما كان يعرض أي أجهزة عبقرية. بل كان يذهب إلى قصره وحيدًا، فيأخذ حوضًا، ثم يخلو بنفسه، ويبدأ بالعمل في السحر. كان يصب ماء الينابيع في الحوض، وكان يعمل بيديه سفنًا ورجالًا من شمع، فيُركِب الرجال في السفن، ويضعهم في الحوض، فتدب الحياة في الرجال. عندئذ يأخذ نِكتانيبوس عصا من الأبَنوس، ثم يشرع يرتل تعاويذه التي يتوسل فيها لآلهة الأرض وأرواح السماء. وبهذه الطريقة كان يُعمِّد السفن التي في الحوض. وهو يعمِّد السفن، كانت

سفن الأعداء القادمة من البحر لمهاجمة سفنه تتدمر. وهكذا نعِمت مملكته بالسلام بسبب براعة الرجل في فنون السحر.

وبعد مضي وقت طويل، جاء إلى نِكتانيبوس رجالٌ يسميهم الرومان والأرمن الكشّافة وأخبروه أن جيشًا عَرَمرَمًا قد وصل. جاءه القائد وقال له، "أيها الملك العظيم، دعْ عنك احتفالات السلام والتفت للحرب، فهناك حشدٌ هائل يقترب. لسنا نُغزى من أمةٍ واحدة بل من أمم كثيرة: الهنود والكاوانيين والكومينيين والأوكسيداركيين والإيبيريين والقونيين والليلابِيين والبومتيريين والأرجَف والأزنيين واللوخاليين وجميع أمم الشرق التي لا تُحصى وصلت إلى مصر بجيوش عظيمة. تذكَّرْ قول هوميروس: لا يليق بالرجل الحكيم المؤتمن على الناس وهمومٍ كثيرة أن ينام الليل كله."

وبعد أن فرغ القائد من قوله، تبسَّم نِكتانيبوس لحظةً وقال، "لقد تحدثت بما يليق، وهذا لا بأس به؛ إنك تؤدي أمانتك بكل إخلاص. ولكنك تحدثت حديثَ جبان لا حديث جندي. فالقوة لا تكمن في الأعداد بل في قوة الإرادة؛ فأسدٌ واحد يصطاد عددًا من الغزلان، وذئبٌ واحدٌ يرهق عدة قطعانٍ من الأغنام. لذا، اذهب بجندك الذين يأتمرون بإمرتك، وقف في مَحْرسك المخصص، فبكلمة واحدة مني سأُغْرِق حشود البرابرة التي لا تُحصى في أمواج البحر."

قال هذا وصرف القائد، ثم نهض ودخل القصر وأمر كلَّ من فيه أن يغادروه. وبعد أن اعتزل الناسَ، أتى بالحوض ووضعه أرضًا، ثم كرر فعلته السحرية. حدَّق في الحوض فرأى آلهة المصريين تقود سفن الغزاة البرابرة، وكان قد اعتاد الاختلاطَ والحديثَ مع الآلهة بفضل براعته في السحر. ولكن حين أدرك أن مملكة المصريين قد أزفت نهايتها، حلق شعر رأسه ولحيته. وبعد أن تنكر، تسلل هاربًا عبر الفرع البِلوزي [لنهر النيل]، وبعد الارتحال في عدد من البلاد وصل إلى مدينة پِلاّ المقدونية. كان هذا المتنبئ المصري يرتدي ملابس من كتان، فجلس يمارس التنجيم الذي كان يبرع فيه أيَّما براعة.

وعندما افتقده المصريون في المدينة، توسلوا إلى إلههم ليسألوه عما حلَّ بمليكهم. فأوحى إليهم إله العالم السفلي سينوبوس ما يلي، "إن ملككم الذي هرب سيعود إلى مصر شابًا لا شيبةً. وسيُخضع أعداءكم الفُرس لسلطانه." فلما سمعوا هذا الوحي من آلهتهم، سعوا لمعرفة ما تعنيه هذه الكلمات، فكتبوها على قاعدة تمثال نِكتانيبوس.

أما في مقدونيا فقد اشتهر نِكتانيبوس لدى الناس جميعًا بمهارته في استنطاق النظام الطبيعي حتى إن الملكة أولمپياس ذاتها أتت لتسأله. وقد حدث هذا حين كان فِليپ في

الحرب. فأمرت أن يُحضَر الرجل إليها لتستنطقه عن أمورها. فجاء بكل سرور ليرى الملكة بناءً على رغبتها، فوقف متصلبًا أمام الملكة من غير أن ينحني لها، إذ كان مغرمًا بالنساء إلى حد الجنون. مدَّ يده وقال، "أبْشِري بما يسرك، يا ملكة المقدونيين"—فمن كان من قبلُ سيدًا لم يجد من اللائق أن يقول: يا سيدة. فأجابت أولمپياس، "تحيةَ السرور لك، أيها المقدام، تعال واجلس." ولما تقدم وجلس، قالت له، "هل أنت نِكتانيبوس العَرّاف العالم المشهور في كل مدينة؟ يُفترَض أن الذين استنطقوك علموا كل حقيقة منك. فبأي وسيلة علمية تعرف الحقيقة؟" فقال لها، "أيتها الملكة، تتعدد وسائل الاستنطاق لدى الباحثين، فهناك رُواة الأحلام، وقارئو النُّذُر، وفاحصو الأحلام، وكَهَنة آمون، ومُحدِّقو الأحواض، وقُراء الولادات، وقارئو الطالع، ومُتكهِّنو المصائر الذين يُدعون السحرة، ففي أيديهم كل مسائل العلم." وبعد أن فرغ من قوله، نظر إلى أولمپياس نظرةً ماضيةً تفيض شَبَقًا. فقالت له الملكة أولمپياس، "لماذا وقفت متصلبًا عندما رأيتني؟" فأجابها، "يا صاحبة الجلالة، لقد تذكرت أن آلهتي أوحت إلي ذات يومٍ أنني سأتشاور مع ملكة وأستطلع أمورها، وما علمته من إجاباتهم صحيح. والآن قولي ما شئتِ."

أخرج نِكتانيبوس يده من تحت ثيابه، وأخرج مائدةً تُعجز كل كلمةٍ وجهدٍ عن وصفها، إذ كانت مصنوعة من الذهب والعاج وتتلألأ منها سبع أنجُم: العَرّاف الأثيري آرامزاد، وشمسٌ من الكريستال الجليدي، وقمرٌ من القطيفة الأرجوانية، وآرِس من حجر الدم، وهِرمس من زمرد، وأفروديت من ياقوت الصَّفير، وكرونوس من حجر الأفاعي الأخضر المرقَّط.(١) وكانت خريطة الأبراج مصنوعة من رخام أبيض. ذُهِلت أولمپياس لمرأى الخريطة المعقدة ولمنظر النجوم الجميل. دنت منه وأمرت كل مَن في الداخل بالخروج. ثم قالت له، "استطلع لي ميلادي وميلاد فليپ، لأنه يُشاع أنه عندما يعود من الحرب سيُنحِّيني ويتخذ زوجةً أخرى." فقال لها، "ضعي علامة ميلادك وميلاده." فسألته، "ما هذا الذي تفعله؟" وضع نِكتانيبوس علامة ميلاده إلى جانب علامة ميلاد أولمپياس، وبعد أن أجرى استطلاعه، قال لها، "إن الإشاعة التي سمعتِها ليست كاذبة. أجل، فهذا مُقدَّرٌ لك. ولكن لأنني عرّاف مصري، فبإمكاني مساعدتك لكيلا يُنحِّيك، وحتى لو نُحِّيتِ فستجدين مَن يثأر بك." فسألت أولمپياس، "هل هذا صحيح؟" فأجابها، "وفقًا لما عرضتِ أمامي، فأنتِ مُقدَّرٌ عليك أن

(١) آرامزاد هو كبير الآلهة وأبوهم، وخالق السماء والأرض عند الأرمن؛ أما آرِس وهِرمِس وأفروديت وكرونوس فهم على التوالي: إله الحرب، ورسول الآلهة، وإلهة الحب، وأبو الآلهة عند الإغريق. [المترجم].

تُعاشري إلهًا أرضيًا وأن تحبلي منه، وبعد الحمل، أن تلدي وتُرضعي، وأن يرد لك هذا الطفل المظالم التي تلقينها من فليب." فسألت أولمپياس، "أي إله سأعاشر؟" فأجابها، "ستعاشرين آمون، إله الليبيين." فواصلت أولمپياس سائلةً، "هل هو طويل، شابٌ، أم متوسط العمر، وكيف هو مظهره؟" فقال لها، "إنه أبيض الشعر، وله قرنا كبشٍ فوق فكيّه. والآن، عليك أن تُهيِّئي نفسك وتكوني ملكةً وامرأةً، لأنك سترين حلمًا عن هذا الأمر وعن الإله الذي سيعاشرك." فقالت له أولمپياس، "إن رأيت هذا الحلم، سأُجِلُّك إجلالي لإلهٍ لا لرجل."

خرج نِكتانيبوس من القصر وبسرعة راح يلتقط نبتةً معينة ويجمعها لأنه يعلم أنها تحرض الأحلام. وبعد أن أنهى هذا بسرعة، صنع من الشمع جسد أنثى وكتب عليه اسم أولمپياس. ثم صنع سريرًا من الشمع ووضع عليه التمثال الذي صنعه لأولمپياس. بعد ذلك أشعل نارًا وصبَّ عليها مَرَق النبتة وهو يُرتِّل فوقها النذُر الملائمة لهذه الأفعال حتى ظهرت الأرواح لأولمپياس، إذ رأى من الإشارات التي أمامه الإله آمون وهو ملتحمٌ بها. ثم نهض وقال، "سيدتي، لقد حملتِ مني غلامًا سيثأر بك."

وعندما أفاقت أولمپياس من نومها أدهشها علمُ العرّاف وبراعته، فقالت له، "لقد رأيتُ الحلم والإله الذي حدثتني عنه، وإني لَراغبةٌ الآن في معاشرته. وأريدك أن تجعل هذا شغلك الشاغل، وعليك أن تبلِّغني عن أي ساعة يود أن يعاشرني، وذلك كي أهيئ نفسي للعريس على خيرِ ما يُرام." فقال لها، "أولًا، يا سيدتي، إن ما رأيته هو مجرد حلم، ولكن الإله الذي رأيته في منامك قادمٌ إليك بنفسه ليعاشرك. فاسمحي لي أن أنام قريبًا منك في الحُجرة كيلا تخافي عندما يَعْتليكِ الإله."

فقالت له، "إن ما قلته هو عين الحكمة، أيها العراف. سأمنحك إذنًا بالدخول إلى غرفتي، وإن تمت المعاشرة والحمْل سأكرمك كرمًا عظيمًا يليق بعراف لا يخطئ، وسأستقبلك كما لو كنت والد الطفل." قال نِكتانيبوس، "إن أول بشارةٍ بمقدم الإله هي هذه: عندما تدخلين وتجلسين في غرفتك، سترين ثعبانًا يأتي ساعيًا إليك. حينها عليك أن تأمري كلَّ مَن هناك بالخروج. لا تطفئي أنوار المصابيح، بل اذهبي إلى أريكتك وغطي وجهك، وسترين مرةً أخرى الإله الذي رأيته في المنام." قال هذا وخرج.

وفي الحال منحته حُجرة أخرى قريبة من غرفتها. وقد جهَّز هو أنعم جُزَّة كبشٍ مع قرنيه، كما أعد عصًا وثوبًا أبيض. ثم صنع ثعبانًا، وجعله ناعمًا ورخوًا يكاد يتسلل من بين يديه. فجأةً راح الثعبان يسعى وتسلل إلى مَخْدع أولمپياس. ولما رأته لم ترتعب، لأنها كانت تترقب مجيئه.

عندئذ أمرت كل من عندها أن يخرج ويذهب إلى مكانه الخاص به. ثم اتكأت على سريرها وغطت وجهها، وراحت تراقبه من طرف عينها وهو يتقمص الشكل الذي رأته في المنام. وضع عصا خشب النخيل جانبًا، وتسلق السرير، وعطف أولمپياس نحوه وعاشرها. ثم وضع يده اليمنى على خاصرتها وقال، "أيها الطفل المغوار الذي لا يُقهر. عِشتِ طويلًا، يا سيدتي، لأنك حبلى بغلامٍ سيثأر بك وسيفتح العالم ويصبح ملكًا على الكون المتحضر برمته." وبعد أن فرغ من قوله، تناول عصاه وغادر الحُجرة، ثم خبّأ الأشياء التي كانت معه.

وعندما أصبح الصباح، نهضت أولمپياس وجاءت إلى حُجرة نِكتانيبوس الذي استيقظ وقال لها، "ما الأمر يا سيدتي؟ أخبريني: هل تحقق حلمك؟" فأجابته أولمپياس، "لقد تحققت كلماتُك." فقال لها، "إني فرحٌ لأجلك، يا سيدتي." فسألته أولمپياس، "ألن يأتيني ثانيةً؟ إني أنتظر قدومه ومعاشرته مثل أي زوجة؛ فلقد استقبلته بشوق المحبين، أيها العراف. ولكني أندهش إنْ تم هذا الأمر من دون معرفتك، أو لم تكن عارفًا به." سُرَّ سرورًا عظيمًا لأن الملكة أحبته. فقال لها، "استمعي، يا أولمپياس، أنا عرّاف هذا الإله. إن سمحتِ لي بالنوم هنا لكيلا ينزعج أحدٌ، سأُعِدُّ له الوضوء المُعتاد كي يأتي." فقالت أولمپياس، "ليكن لك ذلك من الآن فصاعدًا." ثم قالت لحجّابها، "أعطوه المفتاح لتلك الحُجرة." كان يتصرف بسرية، وكان يغشى أولمپياس كلما اشتهت ذلك. كانت أولمپياس تعلن عن رغبتها للعراف مسبقًا، وكان هذا، كعادته، يعاشرها وهو يُوهِمها أنه آمون.

بدأت بطنها تتكوَّر، فسألته، "أيها العراف، ماذا أفعل إن جاء فليپ ووجد أنني حامل؟" فقال لها، "لا تخافي، يا سيدتي، لأن الإله آمون يؤازرك في هذا الأمر. سيأتيه في المنام ويخبره بما هو مُقدَّرٌ لك، ولن تعاقَبي أو تُلامي." واستمرت الفاسقة أولمپياس على هذا النحو بعد أن جعلتها قوة السحر تُفصح عن طبيعتها الحقيقية.

صنع نِكتانيبوس صقرًا بحريًا وسَحَرَه، ورأى فليپ في أحلامه بسرعة ما تمنى. أعمل سحره على الصقر وتكلَّم وجعله يطير. طار فوق بلدانٍ وبحورٍ في يومين وليلتين حتى وصل إلى مكان فليپ، (وتحدث معه في) المنام (كما علَّمه نِكتانيبوس. فلما رأى فليپ) الحلم هبَّ من نومه فزعًا، فاستدعى بابيلونيوس، مفسر الأحلام، وقال له، "لقد رأيت في المنام إلهًا أبيض الشعر وسيمًا له قرنا كبش في لحيته فوق فكيه. وقد جاء إلى زوجتي أولمپياس ليلًا وضاجعها، وعندما نهض قال لها، 'لقد حملتِ مني غلامًا سيجعلك خِصبةً وسينتقم لموت أبيه.' وقد بدا لي أنني رقعتُ رحم زوجتي بورق البردي وختمتُه بختمي. وكان الختم من ذهب وتتألف شارته

التي تشبه الشمس من رأس أسد ورمح. وهذا ما أظن أنني فعلته حين أتاني الصقر وأيقظني من نومي بجناحيه ولم يعطني إشارة." فقال له مفسر الأحلام، 'إن الحلم الذي رأيتَه حقيقي، بما أن ختمك لرحم زوجتك هو وحيٌ محملٌ بالبراهين. فالختم برهان يدل على أن زوجتك قد حملت، إذ لا يختم أحدٌ وعاءً فارغًا، بل وعاءً مليئًا محملًا، وهذا مختوم بورق البردي. وبما أن البردي لا يوجد إلا في مصر، فالرجل مصري. والبذرة ليست وضيعة، بل متميزة ومجيدة وبهية، ولا سيما بسبب الذهب. وهل هناك ما هو أبهى من الذهب الذي تُكْرَم به الآلهة؟ أما عن الشمس ورأس الأسد والرماح في شارة الختم، فإنها تعني أن المولود سيبلغ أقاصي الشرق، وسيتصرف في كل مسألة كما يحلو له، كالأسد تمامًا. وسيطعن الأقوام والمدن بسبب رمحه الذي في الحلم. أما عن الإله الأشيب ذي القرنين، فهذا يعني أنه آمون، إله الليبيين."

وعندما فرغ مفسر الأحلام من تفسيره، لم يتقبل فليپ حمل زوجته تَقَبُّل الصاغر المطيع، حتى ولو كان يعلم أنه بفعل الآلهة. وبعد أن ربح الحرب، قفَل راجعًا إلى مقدونيا. وفي هذه الأثناء كانت أولمپياس خائفة وكان نِكتانيبوس يُواسيها.

وعندما عاد فليپ وذهب إلى الملكة، جاءته أولمپياس، ولكن بقلبٍ واجِفٍ بسبب ما جرى ذِكْرُه آنفًا. ولما لاحظ فليپ قلقها، قال لها، "سيدتي، لستِ أنتِ من تسبب في هذا، فاللوم يقع على غيرك، وقد رأيتُ في المنام ما يبرئك مما جرى لك. ونحن الملوك نستطيع أن نفعل كل شيء ما لم يتعلق الأمر بالآلهة. وأنتِ لم تُبْتَلي بسوقةٍ من عامة الناس، ولم يشتهِ قوامَك الجميل أحدُ رخيصي النفوس، بل إنها الآلهة القادرة على كل شيء." وهكذا طيَّبت كلماته خاطرها، فانصرفت مسرورة. وقد كانت ممتنة لتحذير العراف، وبعد ذلك لازم فليپ أولمپياس.

في هذه الأثناء كان نِكتانيبوس في القصر، ولكنه لم يظهر لأحد لأنه لم يكن يرغب في ذلك. لكنه سمع فليپ يقول، "أنتِ لم تحبلي من الآلهة، بل ابتُليتِ بشخص آخر لو وقع في يديَّ لأُزْهِقنَّ روحه بصنوفٍ من العذاب لا رحمة فيها." فسمع نِكتانيبوس ما قيل.

بينما كان الناس يحتفلون بعودة الملك، كان الملك وحده الحزين بينهم بسبب حمل زوجته. وبينما كانت الحشود تفرح وتمرح، حوَّل نِكتانيبوس نفسه إلى هيئة ثعبان أكبر بكثير من الأول. ثم راح يجول في ردهات القصر وينفُث نفثًا شديدًا اهتزت له أركان القصر، وقد أرعب كلَّ من رآه، فولوا هاربين. ذُهلت أولمپياس لما عرفت عريسها، فرفعت ذراعها اليمنى من حُجرها ومدتها له. فطاف في الغرفة أولًا، ثم أقبل على ركبتي أولمپياس، فأخرج لسانه المشعوب وقبَّلها.

وبهذا الدليل القاطع أفصح الثعبان عن محبته أمام الجمهور. ولكن فليپ كان خائفًا ومندهشًا في آنٍ معًا، وقد اتضح أنه لم يكن يعلم بمقدم الثعبان. ولما كان نِكتانيبوس لا يرغب في أن يراه الجمهور كثيرًا حوَّل نفسه إلى نسرٍ وطار مبتعدًا. أما عن الوجهة التي قصدها، فهذا ليس لِزامًا عليّ أن أُفصح عنه.

ولكن فليپ خاف خوفًا شديدًا. ولما استعاد رباطة جأشه، قال، "سيدتي، لقد رأيتُ بالدليل القاطع كيف جاء الإله ليؤازرك في محنتك. لكن ما لا أعلمه هو هوية هذا الإله، إذ جاءنا على هيئة كلٍّ من آرامزاد وآمون." فقالت أولمپياس، "عندما ظهر لي حين عاشرني، كان آمون، إله كل الليبيين." ولما سمع قولها، حسب الملك نفسه مباركًا، وقال، "لقد قُدِّر لي أن أكون أبا طفلٍ والدُه إله."

وبعد بضعة أيام خرج الملك وجلس في بستانٍ من بساتين القصر كانت ترعى فيه أسرابٌ من الطيور. فجأةً، وبينما كان منشغلًا ببعض الأمور المهمة، جاء طائرٌ ووضع بيضة في حُجره وطار مبتعدًا. تدحرجت البيضة من حجره إلى الأرض وانفلقت، فخرج منها ثعبانٌ صغيرٌ وطاف حولها عدة مرات. ثم أراد بعد ذلك أن يعود إلى البيضة التي خرج منها، فارتطم رأسه بالقشرة وهو يدخل فمات من فوره.

جزع فليپ جزعًا شديدًا، فأرسل في طلبِ أنتيفونتا الذي كان قارئ نُذُرٍ شهيرًا في عصره. روى له النذر الذي حدث: الطائر، البيضة، الثعبان، طوافه، وموته. فقال أنتيفونتا الذي أوحى إليه الإله ما يلي، "أيها الملك، سيولد لك ابنٌ سيجتاز أقاصي الأرض ليُخضع أهلها ولا يُخضعه أحدٌ، ولكنه يموت في طريق عودته إلى بلاده بعد أن عاش عمرًا قصيرًا فقط. فالثعبان حيوان ملكي، والبيضة التي خرج منها الثعبان هي بمثابة العالم كله. وبعد أن يطوف العالم ويريد أن يعود إلى المكان الذي خرج منه، يعجز عن ذلك ويموت." فسَّر الرجل النذر على هذا النحو ورواه للملك، وبعد أن تلقى هدايا فليپ غادر.

وعندما انتهت فترة الحمل المحددة بتسعة أشهر، ذهبت أولمپياس وجلست على عرش التوليد لتلد. ووقف نكتانيبوس قريبًا منها، وهو يُقدر مواضع النجوم في السماء. ولما وجَّه العناصر الطبيعية المضطربة بقوته، علم أن الوقت لم يحن بعد، فقال، "تَماسكي يا سيدتي الآن وكوني كالتي ولدتْكِ. فلو ولدتِ الآن، فإن مولودك سيكون خادمًا أو عبدًا لغيره."

وعندما نفد صبر المرأة ثانيةً من آلام الولادة الجمة التي لا تُطاق، قال نِكتانيبوس، "تريَّثي قليلًا، أيتها الملكة، لأنك لو ولدت الآن، لَخَصِي مولودك أو تَشَوَّه." ثم خفف عنها

نِكتانيبوس بكلماتٍ تُواسيها، ثم وضع يده على مسالِكها الطبيعية فعرف ما هو مطلوب، وقد تمكن نِكتانيبوس بقوته من منع الولادة. ثم نظر ثانيةً إلى مواضع العناصر الطبيعية في نجوم السماء، فعلم أن الكون برمته في انسجامٍ تام وأن كرونوس قد نزل إلى منتصف السماء. ورأى صاعقةً من البرق في سماء الظهيرة سبَّبَتها قوة الشمس، فقال لأولمپياس، "أطلقي صرخة الولادة." ثم ولَّدها هو نفسه، وقال، "إن ولدت الآن، أيتها الملكة، فسيقهر وليدُك العالم." صرخت أولمپياس صراخًا أعلى من صراخ الثور وولدت صبيًا.

وعندما وقع الولد على الأرض، حدث زلزالٌ ورعدٌ، وراحت السماء تُبرق بين الحين والآخر، واهتزت أركانُ الكون كلها تقريبًا. فقال فليپ، "لا أرغب في تربيته، يا سيدتي، لأنه ليس من صُلْبي. ولكن بما أنني رأيت أن بِذرتَك من الآلهة وأن ولادتك رافقتها نُذُرٌ من الحوادث الطبيعية، فإني سأربيه إكرامًا لذكرى طفلي الذي مات والذي ولدته لي زوجتي الأولى، وسأسميه الإسكندر." ولأن فليپ تكلم على هذا النحو، تلقى الطفل رعاية لائقة، وأُقيمت احتفالاتُ التتويج في مقدونيا وبيلا وتراقيا، بل في كل الأمم. ولكيلا أطيل في مسائل تربية الإسكندر، سأبدأ من البداية لأروي عن العناية التي لقيها. فعندما فُطِم وترعرع وشبَّ، لم يكن يشبه فليپ وأولمپياس أو حتى والده أدنى شبه، بل كانت له قَسماتٌ من نوعٍ فريد. كان له شعرٌ كشعر الأسد، وكانت إحدى عينيه زرقاء، أما عينه اليمنى فكانت كثيفة الجفن وسوداء، واليسرى زرقاء، وكانت أسنانه حادةً كالأنياب، وكان ينظر إلى الهجوم الدفاعي كما ينظر الأسد. وكانت شخصيته تدل بوضوح على ما سيكونه الغلام. وقد شبَّ بمرور الوقت وجرب جناحيه في مسائل العلم والحكم.

كانت مربيته لاكرين السِّلتية، أختَ مينالوس، وكان مؤدِّبه ومدرسه ليونيدز اللاكوني، وأستاذه في الأغاني پولينيكوس، وفي الموسيقى لوسيپوس اللِّمْني، وفي علم الهندسة مِنِخْموس البِلوپونيزي، وفي البلاغة أناكْسيمينوس أرستوكليس اللامْفْسَكيني، وفي الفلسفة أرسطو نيكوميتاخوس الستاجيري من مدينة مِليتْيوس. ولكن پافوڤرانوس ذكر كل هذه المسائل في الكتاب الرابع من سِيَره التاريخية الوافية الضافية.

وصار الإسكندر عالمًا في كل مسألة وكان، كما قلت من قبل، يدرب نفسه تدريبًا جيدًا إلى درجةٍ أوضحت بما يقطع الشك باليقين أن الآلهة هي التي كانت تعلمه. وحين يفرغ من دراسته، كان من حين لآخر يحكِّم المباريات بين زملائه في الدراسة. وحين يرى فريقًا ينهزم، ينخرط في المعركة حتى ينتصر ذلك الفريق. وبهذا يتضح أن النصر من صنعه.

في ذلك الحين جاء سائسو الخيل وجلبوا لفليپ من إسطبلاته حصانًا ضخمًا قويًا. جاؤوا به، وأوقفوه أمامه وخاطبوه قائلين، "مولانا الملك، لقد وجدنا هذا (المخلوق) مولودًا في إسطبلاتك، وهو أجمل من پِساغوس أو آريون وأسرع منهما، وقد جلبناه من لاومِنتيوس وإننا نُهديه إليك." اندهش الملك لرؤية حصانٍ بهذا الجمال والحجم العظيمين، فقال، "وحقِّ خلاصي، إنه جميل." فقالوا له، "ولكنه، يا مولانا، يأكل الرجال." فأجابهم، "من الثابت أن مثل هذه الأمور قد حدثت بين الإغريق. لقد وُهِب فطرةً ميالةً للخير والشر. وبما أنه مال للشر، فخذوه واحبسوه في زنزانة؛ الجِموه واحبسوه لعلَّنا نُلقي إليه من يقع تحت طائلة العقوبة لجريمةٍ فعلها أو قتلٍ ارتكبه." وما إن فرغ الملك من كلامه حتى كان الفعل أسرع من الكلمات.

في هذه الأثناء كان الإسكندر يكبر وينضج. وحين بلغ الثانية عشرة من عمره صار يشتغل مع أبيه. كان يتسلح ويخرج مع المقاتلين، وكان يحب ركوب الخيل. ولكنه رأى أن الأمور بين فليپ وأولمپياس لم تكن على ما يُرام. وكانت أولمپياس قد استدعت نِكتانيبوس وقالت له، "تَقَصَّ لي رأي فليپ عني." وعندما تحقق من الأمر جاء وجلس معها. فسأله الإسكندر، "أبتي، هل تلك النجوم السماوية التي تتحدث عنها مرئية؟" فأجابه، "بالتأكيد، يا بني." فسأله، "وهل بإمكاني أن أراها أيضًا؟" فأجابه، "نعم، بإمكانك."

وعندما حل الليل، أخذ الطفل خارج المدينة وتطلع إلى السماء وأرى النجوم للإسكندر. فأمسك به الإسكندر وقذفه في حفرة. تلقى نِكتانيبوس ضرباتٍ شديدة على رقبته وهو يسقط، فقال له، "أيها الإسكندر، يا بُني، ما الذي دفعك لهذا الفعل؟" فأجابه، "لا تَلُم إلا نفسك، أيها العرّاف." فسأله، "لماذا؟" فأجابه، "لأنك تسعى لدراسة أمور السماء وأنت لا تعرف مسائل الأرض." فقال له، "إني أموت، أيها الإسكندر، لأنني تأذيت أذىً شديدًا وأنا أسقط. ولكن القدر لا مفر منه إلى شيء أو مخلوق فانٍ." فسأله الطفل، "لماذا؟" فأجابه، "إني أعلم كيف قرروا مصيري، وكان مكتوبًا عليَّ أن يذبحني ولدي. ولم أستطع الهرب من قَدَري، ولكنني ذُبِحتُ من قِبَلك." فسأله الإسكندر، "وهل أنا ابنك، إذن؟" فقال له، "بالفعل." فسأله الإسكندر، "حقًا؟" فأجابه نِكتانيبوس، "حقًا." ثم أخبره قصة هروبه من مصر، وكيف قَدِم على أولمپياس، وعن استطلاعه للنجوم، وعن شهوته، وكيف "ذهبتُ إليها متقمصًا هيئة إلهي وعاشرتها." فرغ نِكتانيبوس من قوله هذا، ولفظ روحه.

ولما علم الإسكندر أن الذي مات هو والده، خشي أن يتركه في الحفرة مخافةَ أن تأكله

وحوش البرية ليلًا في هذا المكان المقفر. شعر بالعطف والشفقة على والده، فانتشله برفقٍ وحمله على كتفيه إلى داخل أسوار القصر. فأتى أمَّه وروى لها كل شيء سمعه من الساحر العَرّاف. ذُهِلت أولمبياس واندهشت ولامت نفسها لارتكابها فاحشة الزنا بفعل قوة السحر العجيبة. ثم دفنت نِكتانيبوس، أي نعم نِكتانيبوس ولا أحد سواه، دفنًا يليق بوالد طفلها، بعد أن أعدت له قبرًا ووضعته فيه.

إن مصير نِكتانيبوس شيءٌ مدهشٌ يستحق التوقف عنده. فقد جاء هذا المصري إلى مقدونيا، فكُفِّن ودُفِن وفقًا للأعراف الإغريقية، بينما جاء الإسكندر، وهو مقدوني، إلى مصر ودُفن وفقًا للأعراف المصرية دفنًا يليق بإله.

في هذه الأثناء، وبعد أن عاد فليب إلى بلاده ودخل قصره، أرسل إلى دِلفي طالبًا أن يُوحى إليه عمن سيخلفه في الحكم. فأجابه وسيط الوحي في دلفي، بعد أن شرب من نهر كاستيل في العالم السفلي، قائلًا، "اسمع يا فليب، إن الذي يمتطي الحصان الذي له رأسُ ثورٍ ويطُوف به أرجاء اليونان، فهو الذي سيتسيَّد العالم كله ويحكم الرجال بقوة رمحه." وكان ذلك الحصان يقال له رأس الثور بسبب جرحٍ غريب على فخذه له شكل ثور صغير. ولما سمع الملك هذا الوحي، راح يترقب مَقْدَمَ هرقل جديد.

كان الإسكندر لا يتعلم إلا عند أرسطو الستاجيري. وكان أطفال كثيرون يتعلمون في مدرسة أرسطو، وكثيرٌ من هؤلاء كانوا من أبناء الملوك، فسأل الفيلسوف أحدهم، "لو ورثت مملكة أبيك، فماذا ستعطي معلمك؟" فأجابه، "ستسكن معي، وسأعيِّنك شريكًا لي في حكم مملكتي المجيدة." فسأل آخر، "وأنت يا بني، ماذا ستفعل؟" فقال له، "سأجعلك صَفيي في الحكم ومستشاري في الأمور التي يؤول قضاؤها إلي." ولما سأل الإسكندر، "لو حكمت بلاد المقدونيين، ماذا ستفعل؟" فصمت طويلًا، ثم تطلع إلى معلمه وقال، "إن كنت لا تأمن على غدك، فعلام تسعى لمعرفة ما سيكون؟ إذن سأعطي ما أختار وأختار عندما تقرر الآلهة العُلى زمن العطاء وساعته ووعده." فلما سمع أرسطو هذا القول، قال له، "مرحى لك، يا قاهر العالم، فأنت مكتوبٌ لك أن تصبح إمبراطورًا عظيمًا."

وهكذا صار الإسكندر محبوبًا من قبل الجميع لفطنته وذكائه وموهبته في الحرب. ولكن فليب كان محتارًا. فقد كان يبتهج لرؤية هذه الروح الحربية في ابنه، ويحزن لأنه لا يشبهه البتة. وكان الإسكندر في هذه الأثناء يُهدي إلى الآخرين ما يرسله له أبوه ...

وعندما بلغ الإسكندر الرابعة عشرة من عمره، اتفق أن مر بالمكان الذي يُحبس فيه الحصان صاحب رأس الثور في زنزانة. فسمع صهيلًا رهيبًا، فالتفت ابن فليپ وقال، "ما هذا الصوت؟ أهو صهيلُ حصانٍ أم زئيرُ أسدٍ؟" كان بطليموس، الذي صار يلقَّب بالمنقذ فيما بعد، يتبعه فقال له، "مولاي، هذا هو الحصان صاحب رأس الثور الذي حبسه أبوك وأبعده لأنه يأكل الرجال." وعندما سمع الحصان صوت الإسكندر صَهَل مرة أخرى، لا صهيلًا مرعبًا، بل صهيلًا عذبًا، سارًّا، رقيقًا. ويبدو لي أن الحصان صاحب رأس الثور كان مأمورًا من إله أن يتصرف هكذا مع الإسكندر. كانت طلعته كلها هادئة ورائقة حين راح يتقدم، وما رأت عيناك تذلُّلًا أرق من تذلله لسيده!

ولما رأى الإسكندر طلعته الجديدة، ولاحظ آثار الرجال الكثر الذين أُعدِموا شعر بالشفقة تجاه إخوته من البشر. ثم نحّى الحراس وفتح أبواب القفص المُقَضَّبة. كان الإسكندر معتدًّا بأرومته، فأمسك برَسَن الحصان وأخضعه بقوته الجسدية لا بحظه، ثم امتطاه من غير لجام. وفي الحال طار أحدهم ليروي هذا الخبر لفليپ، الذي تذكر ما جرى بهذا الشأن فهبَّ مسرعًا لملاقاة ابنه. فحيّاه قائلًا، "مرحى لك، أيها الإسكندر، يا قاهر العالم." وظل فليپ مبتهجًا ومسرورًا في سره ويأمل خيرًا لابنه.

وفي يوم من الأيام حين كان الإسكندر في الخامسة عشرة من عمره، وجد أباه غير منشغل بشيء، فعانقه وقال له، "أبتي، أستميحك أن تسمح لي للذهاب إلى پيزا بالسفينة." فسأله فليپ، "وهل تود أن ترى المباريات الأولمبية؟" فأجابه الشاب، "لا يا أبتي، بل أريد أن أشترك فيها." سأله أبوه، "وفي أي رياضة تدربت لكي تود الاشتراك فيها؟ فما أعلمه أن ابن الملك لا يعرف سوى أن يشترك في تمارين الخيول الحربية، وأنت لا تعرف القتال ولا المصارعة ولا أي شيءٍ آخر." فأجابه الإسكندر، "أود أن أسوق عربة، يا أبتي." فقال فليپ، "سأرى؛ لِتُجهَّز لك الأحصنة من إسطبلاتي وتُجلَب لك فورًا، وعليك أنت أن تهتم بتدريبها بالصورة اللائقة." قال له الإسكندر، "فقط امنحني إذْنَك. فلدي حصانٌ دربتُه مُذ كان صغيرًا، وقد ربيَّتُه لنفسي." فعانقه أبوه وقد أذهلته حماسته، فقال له، "إن كانت هذه رغبتك، يا بُني، فلتذهب."

ولما سُمح له بالذهاب، أخذ على عاتقه تجهيز سفينة جديدة تمامًا ووضع الجياد والعربات على متنها. أبحر مع صديقه هِفِسْتيون ووصل إلى پيزا بلا عناء. ثم ترجل من السفينة واتخذ لنفسه مسكنًا بعد أن أمر الخدم بتدريب الجياد باستمرار وتمرينها تمرينًا قاسيًا. بعدئذٍ خرج مع

هِفِسْتيون يتمشى، فصادف رجلًا يُدعى نِكولاوْس، وهو ملك الأكارْنِيين. كان نِكولاوْس ذا قوامٍ ممشوق، ويعتد اعتدادًا شديدًا بممتلكاته العظيمة وبحسن طالِعِه، ولكن دوام الحال من المُحال، وكان يعتد كثيرًا بقوته الجسدية. دنا من الإسكندر وحيّاه فورًا وهو يقول له، "أهلًا ومرحبًا، أيها الشاب." فأجابه الإسكندر، "مرحبًا بك أيضًا، كائنًا من تكون وأيًّا كانت بلادك." فسأله، "مَن بظنك تُكلِّم؟ أنا نِكولاوْس، ملك الأكارْنِيين!" فقال له الإسكندر، "لا تتباهَ، يا نِكولاوْس، بمجد مملكتك، ولا تَعْتَدَّ بما هو زائل. فحُسن الطالِع لا يأتي ويتوقف في مكان واحد، والدنيا بين مدٍّ وجَزْر دائمين، وعلينا أن نقبل بغرائب الأمور." فقال له الآخر، "لقد أحسنت القول. ولكن علامَ تأتي إلى هنا؟ فأنا أعلم أنك ابن فليپ المقدوني." فأجابه، "ما جئت إلى هنا للمشاركة في سباق الخيول، لأنني ما زلت غلامًا، ولا في مباريات العربات ذات الحصانين ولا في أي مبارة أخرى من هذا القبيل." فسأله نِكولاوْس، "إذن، فما الذي تريده؟" فأجابه، "أريد أن أسوق عربة." استشاط نِكولاوْس غضبًا، واستصغر حجَمه غيرَ مُدركٍ عُلُوَّ هِمَّتِه. فبصق عليه، وقال، "لا رأيتَ خيرًا، أيها الغلام الكريه." ولما كان الإسكندر حَسَنَ التهذيب سديد الرأي، آثر ألا يرد ردًّا غريزيًا، بل مسح عن وجهه بُصاق عدوه. ثم تبسم ابتسامة عُدوانية وقال له، "نِكولاوْس، قَسَمًا بأبي الأحمق ورحم أمي الرائع الذي حملني، لأهزمنَّك في سباق العربات، ولأُهْلِكنَّك برمحي هنا في عُقْر دار الأكارنيين." وافترق الاثنان، وكل منهما تتوثب نفسه للقتال.

وبعد بضعة أيام حان الوقت المحدد للمباراة، ودخل الميدان تسعة سائقين، أربعة منهم كانوا أبناء ملوك: نِكولاوْس ذاته، وزانثياس البويوتي، وكيمون الكورِنثي، والإسكندر نفسه. أما الآخرون فكانوا أبناءَ قادةٍ عسكريين وحكام ولايات. وُضعِت الجرة، ووزع عازفو الأبواق الحاضرون القُرعة. فجاء نِكولاوْس أولًا، وزانثياس ثانيًا، وكيمون الكورنثي ثالثًا، وكليتوماخوس البلقاني رابعًا، وأرستيبوس الأولِنثي خامسًا، وبييروس الفوكي سادسًا، وكيمون اللاكوني سابعًا، والإسكندر المقدوني ثامنًا، ونِكوماخوس اللوكري تاسعًا. اتخذ كل منهم موضعه في عربته في مضمار السباق.

دقَّ البوق إيذانًا ببدء السباق، وفُتِحت البوابة. اندفع المتسابقون جميعًا اندفاعًا مخيفًا مسرعين في الجولة الأولى، فالثانية، فالثالثة، فالرابعة. وعندما أصبحت الجياد جاهزة واتخذت مواضعها، كان الإسكندر هو المتسابق الرابع. وكان نِكولاوْس خلفه، ولم يكن هذا يفكر في الفوز بل في قتل الإسكندر لأن فليپ كان قد قتل أبا نِكولاوْس في الحرب.

كان الإسكندر الفطن يعرف هذا، فلما وقع المتسابقون الذين أمامه عن جيادهم، جعل نِكولاوْس يسبقه، فلم يدرك الأخيرُ هذه الحيلةَ، فمضى يسابق الريح ظنًّا منه أنه سيُتَوَّج بتاج النصر. كان متقدمًا مسافة جولتين حين كبا حصان نِكولاوْس الأيمن، فتكوَّمت العربة مع سائقها فوق بعضها بعضًا. فهجم عليه الإسكندر هجومًا وحشيًا بعربته، فهلك نِكولاوْس. ثم تابع الإسكندر طريقه. وهناك مَثَلٌ يُقال عن موت نِكولاوْس: مَن عَمِل عمَلَ سوءٍ لغيره، وقع فيه، ومن نوى نيةً سيئةً ارتدت عليه.

وبعد أن فاز الإسكندر ذهب إلى آرامزاد الأولِمبي ليُتَوَّجَ بتاجٍ مصنوعٍ من غصنٍ زيتون بري، فقال له حارس الضريح، "أيها الإسكندر، يقول لك آرامزاد الأولِمپي بادئ ذي بدء: كما قهرتَ نِكولاوْس، ستقهر أُناسًا كثيرين في الحرب."

وهكذا توجه القاهر المِقدام إلى مقدونيا بعد أن قتل نِكولاوْس ونال تاجًا وتكريماتٍ ممتازةً تليق بإله. وهناك وجد أن أمه قد هجرها فليپ بعد أن تزوج من أخته كليوپاترا، ابنة أتانوس.

وفي اليوم ذاته الذي كانت تُقام فيه احتفالات الزفاف، دخل الإسكندر قاعة الطعام وعلى رأسه التاج الأولِمبي، فقال، "أبتي، تقبَّل مني أولَ تاجِ نصرٍ لي. وعندما أزفُّ أمي أولمپياس لأحد الملوك، سأدعوك لحفل زفافها." قال هذا ثم ذهب وجلس أمام الملك. ولكن فليپ أقلقته كلمات الإسكندر. كان هناك رجلٌ يُدعى، ليسيوس، وهو أحد طُفَيْليي فليپ، ومهرِّج مآدب فقال لفليپ، "والآن بعد زفافك من كليوپاترا، عسى أن تستولد منها أبناءً شرعيين حقًّا يشبهونك في الشكل، يا عظيم المدن والبلدان."

ولما سمع الإسكندر قول المهرج، غضب غضبًا شديدًا، فرمى كأس الشراب، وضرب رأس المهرج وقتله. هب فليپ واقفًا حاملًا سيفه لما رأى هذا، ووثب على الإسكندر. ولكن قدمه ارتطمت بالأريكة، فوقع عليها. ولما رأى الإسكندر هذا الأمر، علق قائلًا إن الذي هب للاستيلاء على آسيا وانتزع كل أوربا عجز عن القفز من فوق أريكة. قال هذا، وانتزع السيف من أبيه، وكاد أن يُلحق بجميع الجالسين جراحًا مميتة.

وستشهد بأم عينك معارك اللاپيث والقنطور والأمور التي حدثت بسبب زفاف پِريثياس. فبعضهم تسلل زاحفًا تحت العرش، وبعضهم راح يرقص مع الموائد كما لو أنها كانت أسلحة، وآخرون توجهوا إلى أمكنة مظلمة وسقطوا. وخرج أوديسيوس جديد حين راح يُذبِّح عُشاق پِنِلوپي، فأدخل أمَّه التي أخذ بثأرها بسبب احتفالات الزفاف، ورفع الجندُ

فليب ووضعوه على الأريكة الملكية، وأدوا واجباتهم الأخيرة.

وبعد عدة أيام ذهب إليه الإسكندر، فجلس بجانبه وقال، "سأدعوك باسمك، يا فليب، مخافةَ أن يَحُزَّ في نفسك أن أناديك أبي، ولأنني ما جئتك بصفتي ابنك، بل بصفتي صديقًا جاء يتشفَّع في هذه الأمور التي فعلتَها. فَقُل لي: هل كان الإسكندر مُحقًّا في قتله ليسيوس بسبب كلماته النابية؟ وهل كنت أنت مُحقًّا في مهاجمة ابنك، الإسكندر، ومحاولة قتلك إياه؟ أم هل كنت مُحقًّا في رغبتك في اتخاذ زوجة أخرى على الرغم من أن زوجتك السابقة أولمپياس لم تحرمك من شيء؟ والآن قم وتصرف على سجيتك لأنني أعلم أنك تتظاهر بالمرض. ليس جسدك هو الذي يُعاني بل روحك، وكل ذلك بسبب آثامِك. ولذلك أتوسل إليك أن تُصالح أولمپياس، وأنا على يقينٍ أنها سترضى، إكرامًا لابنها الإسكندر، على الرغم من أنك لا تود أن يدّعي أُبُّوتك." قال هذا وخرج.

ثم جاء إلى أمه أولمپياس وقال لها، "لا تغضبي، يا أماه، مما فعله زوجك بك، فعيوبك [ليست؟] خافية عليه، وأنا ابنٌ لوالدٍ مصري. لذا، اذهبي إليه واطلبي منه أن يُصالحك، لأنه يليق بالزوجة أن تطيع زوجها." قال هذا ثم رفع أمه لتقف على قدميها، وأخذ بيدها، وقادها إلى فليپ، وقال له، "التفِتْ هنا، وسأدعوك الآن أبي لأنك تنازلت لأجل ابنك الإسكندر. وها أنا قد أتيتك لأنك قبلتَ توسلاتي الكثيرة لنأتي إليك وننسى الأخطاء. والآن تعانقا. لا تخجلا مني فأنا ابنكما." وبهذ الكلمات أفلح في مصالحة أبويه، والمقدونيون يتعجبون منه.

وعندما يريد الناس الزواج، فإنهم يستحضرون اسم ليسيوس، وهم لا يدركون أنهم بِذِكْرهم لاسمه قد يُعرضون زواجهم للتفكك بسبب مقتل ليسيوس.

ذِكْرُ إخضاع موثون لحكم أبيه

كانت هناك مدينة تُدعى موثون وقد تمرد أهلها على الملك فليپ. فأرسل فليپ ابنه الإسكندر على رأس جيوشه لمحاربتهم. ولما وصل إلى المكان أقنعهم بحكمة كلماته أن ينصاعوا للأمر ويخضعوا بدلًا من أن يكونًا عبيدًا بقوة السلاح.

ولما عاد من موثون إلى أبيه رأى أمامه رجالًا في ملابس همجية، فسأل، "مَن هؤلاء الرجال؟" فقيل له، "إنهم مَرْزُبانات داريوس." فسأل الإسكندر، "ما الذي جاء بهم إلى هنا؟" فقيل له، "إنهم جاؤوا للمطالبة بالجزية المعتادة من أبيك." سأل الإسكندر، "ومَن الذي أرسلهم؟" فقيل له، "داريوس، ملك الفُرس." فتابع الإسكندر، "ولماذا يطالبون

بالجزية؟" فقيل له، "من أجل بلاد داريوس." فقال الإسكندر، "إن الآلهة تمنح هذه الأشياء لبني البشر ليستطعِموا منها، وها هو يطالب بجزية من أُعطيات الآلهة. لا يجوز لفليپ أن يدفع الجزية للهمَج."

ولما كان الإسكندر يود أن يُخضِع اليونانيين لقيادته، دعا الهمَج وقال لهم، "اذهبوا وأبلِغوا داريوس أن الإسكندر، ابن فليپ، يقول له: عندما كان أبي مقطوعَ النسل، كان يدفع لك الجزية. أمَا وقد أصبح الآن لديه ابنه الإسكندر، فهو لم يعد يدفع لك الجزية. بل لن أترك لك الجزية التي كنت تأخذها منه، فأنا قادم إليك لأستردها منك." وبهذا القول صرف الرُّسُل. ولم يشأ أن يرسل إليه برسالةٍ لأنه لا يستحقها. سُرَّ فليپ سُرورًا عظيمًا لما رأى ابنه الإسكندر يتصرف بهذه الجرأة.

ولما تمردت مدينة أخرى من مدن تراقيا، أرسل فليپ ابنه الإسكندر بجيوشٍ عظيمة لمحاربة أهلها.

كان هناك سيدٌ من سالونيقا يُدعى پوزيانوس، وكان لديه جيش خاص هائل وثروة عظيمة. وكان هذا الرجل يشتهي أولمپياس، فكان يرسل إليها سرًّا رجاله لعلهم ينالون ثقتها ويُقنعها هو بأن تترك فليپ وتصبح زوجته. ولكن أولمپياس لم توافق على هذا الأمر. فلما علم پوزيانوس أن الإسكندر ذاهبٌ للحرب وأنه ستُقام حفلة غنائية بحضور فليپ، جرد پوزيانوس سيفه ودخل المسرح مع مجموعة من شُجعانه بقصد قتل فليپ وخطف أولمپياس. ضرب پوزيانوس خاصرة فليپ بسيفه ضربة قوية، لكنها لم تُمِته. كان المسرح مكتظًّا بالجمهور، فاندفع پوزيانوس نحو القصر بهدف اختطاف أولمپياس.

في هذه الأثناء كان الإسكندر قد ربح الحرب وعاد في اليوم نفسه ودخل المدينة ورأى هَرْجًا ومَرْجًا كبيرًا. فسأل عن السبب فقالوا له ما حدث وأن پوزيانوس في القصر عند أولمپياس. أمر جُنده أن يقتحموا الأبواب فرأى پوزيانوس يعانق أولمپياس. أوقع الإسكندر بپوزيانوس وأراد أن يقذفه برمحه الحديدي، لكنه خشي أن يصيب أمه. فقالت له أولمپياس، "ارْمِه بالرمح، يا بُني، فآمون يحميني." رمى الإسكندر رمحه فأصاب به پوزيانوس إصابةً مميتةً. ولما وجد أن أباه لا تزال به بقيةٌ من رمق، سأله، "ما الذي تشتهيه؟" فقال له، "ائتِني به." ثم أخذ سيفه ووضعه في يد أبيه، فأخذ فليپ السيف وذبح به پوزيانوس.

فقال فليپ، "لستُ أحزن يا بُنيَّ على موتي لأنك انتقمت لي ولأنني قتلت عدوي بنفسي. لقد صدق آمون في قوله لأمك: إن في رحمك غلامًا سيجعلك خِصبةً وينتقم لموت أبيه."

قال فليپ هذه الكلمات وأسلم الروح لبارئها من فوره. لكنه ذبح عدوه. وتُرك فليپ بتاجه، فأخذته أولمپياس ودفنته، وشاركها المقدونيون جميعًا في حزنها وبكوا عليه.

وبعد مقتل پوزيانوس، حل السلام في المدينة فصعد الإسكندر على تمثال أبيه فليپ، ونادى بصوتٍ عالٍ، "يا معشر البيليين والمقدونيين، يا معشر الثيتاليين والتراقيين، يا معشر الهِلينيين والأمفِكتيونيين، يا معشر اللاكدِمونيين والمدن الهلينية الأخرى، هلُموا معي وضعوا ثقتكم في الإسكندر. هلموا نَغْزُ أقوام الهمجيين ونحررْ أنفسنا من العبودية للفُرس، لأننا نحن الهِلينيين لن نكون عبيدًا لهم." ولما كانت هذه نيته، فقد أرسل مرسومًا مكتوبًا إلى المدن [اليونانية].

اجتمع كل الرجال الذين كانوا في زهْوَة شبابهم، وجاؤوا إلى مقدونيا طَوْعًا كأنما يُلبّون صوتًا مُرسَلًا من الآلهة. ففتح الإسكندر مخازن أبيه وزود الشبان بالأسلحة، ثم استدعى للمعركة أولئك الرجال الذين قاتلوا مع أبيه فليپ. كانت السنون قد تقدمت بهؤلاء، فقالوا للإسكندر، "لقد هدَّتنا السنون، وقد حملنا السلاح تحت إمرة أبيك. ولم تعد في أجسادنا قوة تصد هجوم الأعداء. لهذا السبب، فإننا نقدم إليك استقالتنا من الجيش."

فأجابهم الإسكندر قائلًا، "بل سأجعل منكم جنودًا على الرغم من أنكم شيوخٌ كبار، لأن من طبيعة الأمور أن تكون الشيخوخة أقوى من الشباب. فالشباب يركنون إلى قوة الجسم ويتباهون بها، وفي كثيرٍ من الأحيان يفوتهم ما يرغبون في حصوله، فينجرّون إلى المَهالِك. أما الشيخ فيدرس بعنايةٍ ما يريد أن يحصل عليه، وينجو من الخطر لأنه انتصر بفضل المشورة السديدة. لذلك، ستنضمون إلينا لا لمواجهة العدو بل لتشجيع الشباب على الاستبسال في القتال، ففي التشجيع منفعةٌ للطرفين. فاذهبوا وحصِّنوا الجيش بمشورتكم. ومن الواضح جدًّا في المعركة أنكم تعلمون أن النصر الذي تحرزونه للمدينة هو خلاصٌ لكم أيضًا. وفي حالة الهزيمة، سينقضُّ العدو المهاجم على شبابٍ لا يصلحون لشيء. وعندما ينتصر المنتصرون سيُعزى مجدُ الانتصار للمستشارين." وبهذا الحديث أقنع الإسكندر حتى أولئك الذي فاتهم قطار العمر أن يلتحقوا به.

وبعد أن جمع الإسكندر قوات فليپ الأصلية، وجد أن تعداد الجيش المقدوني يبلغ ٢٥,٠٠٠ رجلٍ في المشاة، و٢,٧٠٠ خيّال، و٨٠٠ في قوات الرديف. فجمع هؤلاء مع رجاله الذين معه، فوجد أن لديه ٧٤,٦٠٠، بمن فيهم هؤلاء الـ ٢٥,٠٠٠، و٨,٧٠٠ في الرديف؛ و٧,٦٠٠ من التراقيين والپلِنثيين والإسقيثيين سدَّ بهم حاجة الجيش للكشافة. ثم أخذ كل

هؤلاء الجند البالغ عددهم ٧١,٦٠٠، بمن فيهم هؤلاء والجند الذين كانوا مع أبيه، وتوجه إلى مقدونيا.(٢) ثم أخذ ٤١,٨٦٠ زِنةً من الذهب، وجهز السفن والسفن الشراعية للحرب.

وبعد أن قطع مقدونيا وبحيرة ماجون وتراقيا العُليا، التي كانت خاضعة له تمامًا بفضل قوة أبيه فليپ، انتقى خيرة الرجال من هناك وأخذ ٥٠٠ زنة [من الذهب؟]. ثم تابع مسيره إلى ليكاوونيا وقدم القرابين مع قادة الجيش هناك. ثم واصل مسيره إلى صقليا وأخضع المتمردين عليه، وبعد ذلك تابع إلى إيطاليا.

أرسل جنرالات الرومان ممثلهم، ماركوس إميليوس، حاملًا معه تاج آرامزاد الكاپيتولي، المصنوع من الذهب واللؤلؤ، ليبلغه، "ونحن أيضًا نقتدي بعادة الإسكندر ونتوجك بهذا التاج الذهبي الذي يساوي ١٠٠ لتر." ولما تلقى عهود الوفاء منهم، وعدهم بأن يجعل منهم بقوته رجالًا عظامًا. ثم أخذ منهم ١,٠٠٠ رجل و٤٠٠ زنة [من الذهب]. ثم قالوا لهم إنهم كانوا يودون أن يمدوه بجندٍ أكثر لولا انشغالهم حاليًا بمقاتلة الكارْشِيدونيين.

ومن هناك عبر البحر الفاصل إلى إفريقيا، فجاءه جنرالات الأفارقة للقائه وتوسلوا إليه أن يُزيح عن مدينتهم حكم الرومان. فوبخهم الإسكندر لحماقتهم وقال، "إما أن تكونوا نبلاء وإما تدفعوا الجزية لِمن هم كذلك."

بعد ذلك ارتحل مع بضعةٍ من الجند، وخلَّف كل ليبيا وراءه قاصدًا معبَد آمون. ثم أمر الجيش للإبحار إلى مكان يُدعى جزيرة الفاروس والبقاء هناك. ولما انحنى أمام آمون وقدم القرابين تذكر كلمات والدته حين قالت له إنه ابن آمون. فوقف داعيًا يقول، "أبتي، إن كانت أمي صادقةً في قولها إنني ابنك، فاجعل لي آية." فرأى الإسكندر في المنام آمون وهو يعاشر أولمپياس. ولما خبر قوة الإله، زيَّن المعبد بهذه الكلمات المنقوشة، "إلى أبي، الإله آمون، من ولده الإسكندر." ثم توسل إليه أن يوحي إليه أين يبني مدينة تخلد اسمه للأبد. فرأى آمون في منام آخر وهو يقول له، "أيها الملك، أنا، قَرْنَي الكبش التامّيْن النقيَّين من الدنَس، أقول لك: إن شئت أن تظل خالدًا أبدَ الدهر، ونَضِرًا إلى أبد الآبدين، فابْنِ مدينةً يُشار إليها بالبنان فوق جزيرة پروتيوس بقليل التي يحكمها پلوتونيوس إلى الأبد الذي يتحكم شخصيًا بالعالَم المترامي الأطراف المحاط بخمس قمم."

فلما سمع الإسكندر هذا الوحي، توسل إلى الإله وسأله عن الجزيرة التي لپروتيوس سطوةٌ حقيقيةٌ عليها وسيادة. ولما سأل أسئلته وقدَّم قرابينه لأبيه الإله آمون، تلقى تعليماتٍ

(٢) يبدو أن هناك اضطرابًا في الأرقام المذكورة هنا. [المترجم].

للتوجه إلى قرية ليبية يُريح فيها جيشه. وبينما كان الإسكندر يتجول، اختبأ أيْلٌ كبير في كهف. فاستدعى الإسكندر راميًا وأمره أن يطلق نباله على الأيل. شد الرامي قوسه وأطلق، لكنه لم يُصِب الأيل. فقال الإسكندر، "لقد أخطأت هدفك، يا صاحبي." ولهذا سُمِّي ذلك المكان پاراتونيون بسبب تَعَجُّب الإسكندر.

ومن هناك توجه إلى تاپوزيريس [أبو صير]، وبعد سؤال الأهالي عن المكان علم منهم أنه ضريحٌ يضم قبر أوزيريس. فقدم قربانًا للإله وواصل مسيره مسرعًا. ثم بلغ سهلًا فسيحًا تترامى أطرافه حتى شملت مُلكية اثنتي عشر قرية وهي: ستيرامْفِس، فرونوتِيْك وإدميتوس، أكونيس، إپيرغوس، تِتراكوتيس، إديوس، أپونيس، سْكامبِتْخ، نِفِيلِتْخ، مِمْنِس، تِياتِخ، وپلاسوس. وكانت هْراكوتِس الأشهر لأنها العاصمة. وكان للمدن الاثنتي عشرة اثنا عشر نهرًا تصب جميعًا في البحر، ولا تزال مجاريها المسدودة قائمةً إلى يومنا هذا. وكانت الأنهار المسدودة بمثابة شوارع صغيرة للمدينة وجاداتها العريضة. ولم يتبق من الأنهار سوى نهرين يصبان في البحر. أما نهر هْراكوتِس الذي لا يزال جاريًا فهو مُكرسٌ للإله العظيم سِراپيس.[٣] وهناك القناة التي تمُدُّها الجادات، وهناك النهر الكبير المدعو خُوليراس، وهو الآن الأسپيتيا، وقناته هي مقامُ القِسمة والنصيب، وهناك أيضًا نهر كاوْپونيوس العظيم. وهناك أيضًا القناة الكبرى والنهر نِفْروتيس، وهما مكانان بعيدان الآن، وقد بُني مقامُ إيزيس نفروتيس فيهما قبل الإسكندرية. وأكبر الأنهار جميعًا هو نهر آرجيوس وهو حيث يقوم عمود آرجيوس. وهناك قناة آرِس، والأعمدة والأقنية التابعة للنهر الكانوپي الذي يتجه باتجاه زِفيروس، ونهر هرقل العظيم هو المرفأ لأنه يمتد بطول المدينة من المكان المُسمى پانديتا إلى المكان المسمى المرفأ الهيراكليوتي.

عندئذ وضع الإسكندر مُخططًا للمنطقة التي امتد عرضها من مِنديدوز إلى مدينة هِيرْمِس الصغيرة. ولكنهم لا يدعونها هيرموپولِس بل هيرماپولِس، لأن كل من ذهب إلى مصر وخرج منها قصد ذلك المكان؛ ولهذا السبب تُدعى بلاد الإسكندريين.

ولكن كْليومينِس النُّقراطي وديموقراطِس الروديسي نصحا الإسكندر هذه النصيحة، "لا تبْنِ مدينةً كبيرة لأنها لن تمتلئ بالناس أبدًا. وإن ملأتْها بالناس، فلن تكفي الأراضي لسد حاجاتهم الأساسية للغذاء. وسيتحارب سكانها عندما تكثر أعدادهم.

(٣) سرِاپيس هو إله الشفاء عند المصريين القدماء. [المترجم].

أما سكان المدن الصغيرة فيجودون عليك بالنصيحة والمعونة، بينما الحشود الكبيرة في المدن الكبرى التي لا تعرف بعضها بعضًا فتتمرد وتتقاتل وتتعادى بسبب أعدادهم التي لا تُحصى."

اقتنع الإسكندر، فأمر المهندسين أن يبنوا المدينة بأي حجمٍ شاؤوا. خطّوا طول المدينة من دراكونتيس وراء قبر تاپوزيريس إلى أغاثيمون قرب كانورون، وامتد عرضُها من مِنْديدوس إلى إلوريخوس ومِلانثيوس. ثم أمر الناس القاطنين هناك أن ينسحبوا إلى قرية تبعد عن المدينة حوالي ثلاثين ميلًا، ثم منحهم أراضي وسمّاهم الإسكندريين.

كان إلوريخوس ومِلانثيوس هما من أنشآ الشارعين اللذين سُمِّيا باسميهما وبقيا كذلك. ثم فكر في إيجاد مهندسين آخرين للمدينة. ومن بينهم كان كْليومينِس النُّقراطي وكراتيرون الأولِنثي وشيخٌ كبيرٌ يُدعى إيروا، وهو ليبي الجنسية. وكان لدى هذا الرجل أخٌ يُدعى هيپونيموس فأشار على الإسكندر أن يُنشئ قنواتٍ مائيةً تصب في البحر، وذلك قبل حفر أساسات المدينة. اقتنع الملك فأمر بأن يُصنَع للمدينة ما لا تملكه مدينةٌ أخرى. وتُسمى هذه القنوات المائية أُنوف هيپونيموس على اسم مُخترعها الليبي.

ولا توجد مدينة أعظم من الإسكندرية، فقد أُخِذ قياس كل المدن المخططة. فأعظم مدينة في بلاد آشور هي أنطاكية، إذ تبلغ ٨ ستاديوم واثنين وسبعين قدمًا، بينما تبلغ مساحة قرطاجة في إفريقيا ٢١ ستاديوم وثلاث مئة وخمسة أقدام.(٤)

وعندما وصل إلى الإسكندرية التي لا مثيل لها، وجد الأنهار والقنوات والبلدات مبنية على الأرض هناك. ولما رأى جزيرة في البحر، سأل، "أي جزيرة هذه؟" فقال له الأهالي، "إنها جزيرة الفاروس. ولقد عاش فيها پروتيوس، وفي أرضنا قبره، وهو جديرٌ بالعبادة." ثم أخذوه إلى قمة جبل شامخ، وهو ما يُدعى الآن قبر هيرود، وأرَوْهُ الكفن. ثم قدم القرابين للبطل پروتيوس، ولما رأى أن القبر قد عاثت به عادِيَات الزمن، أمر بترميمه.

ثم أمر بأن يُخطط محيط المدينة، فأخذوا طحينًا رسموا به مخططًا للمدينة. ثم جاءت طيورٌ من شتى الأجناس والتقطت الطحين وطارت في كل الاتجاهات. قَلِق الإسكندر من مغزى الأمر، فاستدعى العرّافين على عجل وأخبرهم بما حدث. فقالوا له، "إن هذه المدينة التي بُنِيَت ستُطعم العالم بأكمله، وسينتشر الرجال المولودون فيها في أصقاع الأرض؛ وكالطيور سيرتحلون في الدنيا طولًا وعرضًا."

(٤) الستاديوم هو وحدة قياس إغريقية ورومانية قديمة تبلغ حوالي ٦٠٧ أقدام، أي حوالي ١٨٥ مترًا. [المترجم].

ثم بدؤوا في بناء مدينة الإسكندرية في منتصف السهل. فأُعطي المكان بادئ ذي بدءٍ اسمًا لكي يبدؤوا منه بناء المدينة. كان يتردد على المكان الذي يشتغل فيه العمال ثعبان يُخيفهم فيتوقف العمل. وبسبب غارات الثعبان جاء الإسكندر وقال للعمال، "اقبضوا عليه غدًا أنّى وجدتموه." ولما جاءهم الأمر، أمسكوا به وقتلوه لما جاء إلى ذلك المكان الذي يُدعى الآن يارْك. ثم طلب الإسكندر بأن يُبنى له ضريحٌ هناك، فدفنوا الثعبان فيه. ثم طلب أن تُصنع للثعبان كل أنواع الأكاليل تخليدًا لظهوره. وأعلن أن حفر الأساسات لن يجري إلا في تلك البقعة بالذات حيث إلى يومنا هذا يظهر الجبل الشامخ المعروف باسم ألبيوَرْك.

وعندما أرسى الإسكندر معظم قواعد المدينة، كتب عليها الأحرف الخمسة: A, B, C, D, E.

(A) الإسكندر؛ (B) الملك الأعظم؛ (C) من سادة الأمم؛ (D) حلَّ في مكان آرامزاد؛ (E) وبنى مدينة فريدة. وكانت الحمير والبِغال تعمل هناك. وعندما بُني الضريح للثعبان المقدس، نصَّبه على العمود، فصارت الثعابين تخرج من الضريح وتتسلل إلى البيوت التي أصبحت قائمة الآن هناك. وكان الإسكندر لا يزال موجودًا في الخامس والعشرين من شهر طوبي، يبني المدينة وضريح الثعبان ذاته. ولما كانت الأفاعي تدخل المنازل كان البوابون يعبدونها لأنها أرواحٌ خيِّرة وليست سامة كالحيوانات المتوحشة، بل تطرد البهائم السامة. وكانت القرابين تُقدَّم إلى الثعبان لأنه من فصيلة الأفاعي. ثم كللوا جميع حيوانات الجر وأراحوها في ذلك اليوم، لأن هذه الحيوانات بحملها الأثقال شاركت في بناء المدينة البهية. ثم أمر الملك بأن يُعطى الحراس قمحًا، فلما طحنوا القمح وصنعوا خبزًا، وزعوه على السكان كما في أوقات الاحتفالات العظيمة. ولهذا السبب يحافظ أهل الإسكندرية على هذه العادات إلى يومنا هذا في الخامس والعشرين من شهر طوبي. فهم يتوجون حيوانات الجر، ويقدمون القرابين للإله، ويتقربون إلى الثعابين التي تحرس المنازل ويوزعون الخبز.

ولما وجد الأرض التي تقوم عليها أعمدة الشمس وهليون ومعبد ذلك الإله على قمة الذُّرى الخمس البارزة، بحث عن ضريح سِرابيس امتثالًا لأمر الوحي الصادر من آمون، ثم راح يبحث عن أعظم الآلهة. إذ إن وحي الآلهة نصَّ هكذا، "أيها الملك، أنا فوِيجوس الكبش أقول لك إن رغبت في أن تبقى خالدًا أبدَ الدهر، فابْنِ مدينةً يُشار إليها بالبنان في جزيرة پروتيوس التي يرئسها پلوتونيوس وتحيط بأرضها المترامية الأطراف خمسُ قممٍ سامقة." فدعا الإله الذي يرى كل شيء.

ومقابل ضريح الإله بنى محرابًا عظيمًا صار يُعرف منذ ذلك الوقت باسم مَذبَح الإسكندر. فقدم عليه قرابين مُتقنة، ثم وقف داعيًا، "أيها الإله، أيًّا كنت، يا من لديه مسؤولية من السماء عن هذه البلاد وترقُب الأراضين التي لا حد لها، تقبل قرابيني وكن عونًا لي في الحرب." ثم وضع الأُضْحية على المذبح بعد أن أتم دعاءه. فجأةً انقض نسرٌ هائل أمسك بأحشاء الأضحية، ثم طار محلقًا في الجو. حوّم النسر ثم رمى الأحشاء على مذبحٍ آخر. دل أهلُ العلم الملكَ على المكان. وعندما وصل المكان، رأى الأحشاء فوق المذبح. كان مذبحًا قد بُني منذ زمن بعيدٍ، ويحتوي في داخله على صورة من نحاس لا يستطيع الإنسان الفاني أن يقص طبيعتها. وكان إلى جانب الصورة المصونة تمثال هائل لفتاةٍ عذراء.

فسأل الأهالي عن هذا الإله، فقالوا إنهم لا يعرفون، لكن يُقال إنه ضريح آرامزاد وأناهيت، بحسب رواية آبائهم الأولين. وفيه رأى المسلات القائمة إلى يومنا هذا في ضريح سِرابيس خارج سور المدينة الذي كان في ذلك الوقت عند ضريح سِرابيس. وكانت على الضريح كتابات تذكارية مقدسة، وكان على الضريح هذا النقش التذكاري الذي تُرجم للملك على النحو التالي، "أنا، سِسونْخوسِس، ملك مصر وقاهر العالم، بنيتُ هذا الضريح وكرسته لسِرابيس، أول إله ينزل إلى هذه البلاد."

نظر الإسكندر إلى الإله وقال، "سِرابيس العظيم، اجعل لي آيةً أنك إله هذه البلاد." فظهر له سِرابيس في منامه في أوضح هيئة، وقال، "أيها الإسكندر، هل نسيت ما حدث وأنت واقفٌ للدعاء وتقدم القرابين؟ ألم تقل، 'أيها الإله، أيًّا كنت، يا من لديه مسؤولية من السماء عن هذه البلاد وترقُب الأراضين التي لا حد لها، تقبل قرابيني وكن عونًا لي في الحرب؟' وانقضَّ نسرٌ فجأة وحمل الأحشاء ووضعها على المذبح. ألم يتضح لك أنني أنا الإله الحافظ الحامي لكل شيء؟"

وقد توسل الإسكندر إلى الإله في منامه، وسأله، "هل ستبقى هذه المدينة مخلصةً لاسم الإسكندرية الذي أُقيمت تَيَمُّنًا به؟ أم هل سيتغير اسمي إلى اسم ملكٍ غيري؟ انصحني." ثم رأى الإله، فأخذ بيده وقاده إلى جبلٍ شامخٍ وقال له، "أيها الإسكندر، هل بوسعك أن تزحزح هذا الجبل إلى مكان آخر؟" فكر الإسكندر في الأمر وقال، "أنّى لي هذا، يا مولاي؟" فقال له الإله، "وكذلك اسمك لن يحل محله أبدًا اسمُ ملكِ قومٍ آخرين. بل ستزدهر الإسكندرية وتفيض بالخيرات، وستُعين كل ما سبقها من المدن وتنقذها من الهلاك."

رد الإسكندر سائلًا، "مولاي، قل لي كيف ستكون نهايتي." فقال له، "من حسن حظ

الإنسان الفاني وسعادته أنه لا يعرف مقدمًا متى تنتهي حياته. فالبشر لا يدركون أن الحياة تبدو سرمدية ومتنوعة حين يجهلون وَيْلاتِها. وكذلك، أنت يا عزيزي، لا يجدر بك أن تعرف قدرك. ولكن إن شئت معرفة مصيرك، فها أنا أقوله لك: بعونٍ مني، ستُخضع أنت أيها الشاب الغِرّ كل الأقوام الهمجية؛ حينها، ستأتي إلي بين الموت واللاموت. حينها ستهوي أفئدة الدنيا قاطبةً إلى مدينة الإسكندرية التي تبنيها في وسط البلاد التي ستقطن فيها الآلهة لسنين وأيامٍ طويلة. وستتفوق في كل ما هو خير لأنها ستزينها المعابد الكثيرة والأضرحة المتعددة وستزخر بالجمال والعظمة والحشود البشرية الهائلة. ومن استوطن فيها مكث فيها ونسي وطنه الأول. وسأكون أنا الإله الحامي لها في كل الأيام القادمة، وسأبقى أنا النَّضِر الخالد أبد الدهر سيد هذه المدينة، وأُمَتِّنُ هذه البلاد. والمدينة التي بُنيت ستبقى قوية أبد الدهر، وستُلقي بضوئها على النار وتضيء فِجاج الجحيم. وستجعل ريحَ الجنوب تتخاذل حين تنفخ سُمومَها بحيث لا تُجدي مكائد الأرواح الشريرة ضد هذه المدينة. وسيصيبها زلزالٌ لا يطول، وكذلك الطاعون والمجاعة والحرب، ولكنها ستمر جميعًا بالمدينة كالحلم. وسيبجِّلُك الملوك جميعًا إلى الأبد لأنك أصبحت إلهًا وفقًا لأعراف هذه البلاد. وحين تموت سيجلك الناس لأنك صرت إلهًا. وستحتشد جماهير غفيرة في الساحة العامة، كل ذلك بفضل الطقس المعتدل. وسأكون حامي المدينة ودرعَها كيلا تدوم فيها شِدَّةٌ مثل زلزالٍ أو طاعونٍ مميت، بل ستمر في المدينة كأنها حلم. وسيُقْبِل على المدينة ملوكٌ كُثر لا للحرب بل ليقدموا لك واجب الإجلال والتأليه. وحين تموت ستأتيك هدايا الملوك إلى أبد الآبدين. لأنك ستسكن في هذه المدينة حين وفاتك وقبلها، ولأن هذه المدينة التي تبنيها ستكون قبرَك. وسأبين لك فورًا أين قُدِّر لك أن تكون. خُذ مئتين وأضف إليها واحدًا، ثم مئة وواحدًا، ثم أربعة مضروبة بعشرين، وعشرة، ثم خذ الرقم الأول واجعله الأخير، واعلَم للأبد أيَّ إلهٍ أنا." ثم رحل الإله بعد أن أوحى للإسكندر بهذا.

ولما أفاق الإسكندر واستعاد الوحي الذي أوحته له الآلهة، أقر بأن سِرابيس هو ربُّ الأرباب. ثم بنى مذبحًا عظيمًا وأمر أن يُؤتى للآلهة بقرابين مناسبة. ثم أمر بذبحها ووضعها على المذبح. كما أمر بأن تُحرَق كميات هائلة من الصمغ العطري وأن توضَع على المذبح أكوامٌ من شتى أنواع البخور. ثم أمر جميع الرجال بالاحتفال. كما أمر المهندس پارمينيون أن يصنع هذا التمثال النحاسي ويبني هذا الضريح الذي يعيد للذاكرة أشعار هوميروس، ذلك الشاعر الرائع الذي قال، "وجعل ابنُ زُرْوان إشارةً بحاجبيه اللازورديين،

وتراقصت جدائله الإلهية المذهلة على رأس الملك الخالد، فاهتز جبل الأولِمپ اهتزازًا عنيفًا." وبهذه الطريقة بنى پارمينيون ضريحًا يدعى ضريح سِراپيس. وقد كان الإعداد لبناء المدينة كما روينا.

ثم أخذ الإسكندر قواته وأسرع ليصل مصر. كما أرسل سفنه الحربية لتنتظره في طرابلس. كانت الرحلة قاسية، فشقَّ عليه ما سيلاقيه الجيش. كان العرّافون ينتظرون الإسكندر خارج كل مدينة، وكانوا يجلبون معهم آلهتهم ويقدمون القرابين ويلقبونه سِسونخوسِس الجديد قاهر العالم. فعندما بلغ مِمفِس أجلسوه على عرش هِفِستوس وألبسوه ثوبًا كأنه ملكٌ مصري.

رأى الإسكندر تمثالًا لهذا الملك، وكان مصنوعًا من الحجر الأسود، وقد كُتب على قاعدته هذه الكلمات، "هذا الملك الذي هرب سيعود إلى مصر، لا شيخًا بل شابًا. وسيجعل أعداءك الفُرس خاضعين لك." فسأل الإسكندر، "لِمَن هذا التمثال." فقيل له، "إنه تمثال نِكتانيبوس، آخر ملوك مصر. عندما جاء الفُرس ليشنوا حربهم على المصريين، تمكن بقوة سحره أن يرى آلهة المصريين في جيوش العدو عندما دخلوا مصر. ولما علم بغدرهم هرب سرًا. بحثنا عنه وتوسلنا للآلهة لعلنا نعلم المكان الذي هرب إليه الملك، فأرسل لنا إله المعبد السِّراپي في العالم السفلي هذا الوحي: إن ملككم الذي هرب سيعود إلى مصر لا شيخًا كما كان بل شابًا غضًّا!"

ولما سمع الإسكندر هذا القول، راح يعدو ليتسلق التمثال ويعانقه وهو يقول، "هذا والدي وأنا ابنه. لم يكذب إليكم إلهكم فيما أوحاه إليكم. لكنني أتعجب كيف تغلبت عليكم تمامًا أمةُ الهمج. فلديكم أسوارٌ لم تصنعها أيدي البشر ولا يمكن لعدوٍّ أن يستولي عليها. ولديكم أنهارٌ تحيط بمدينتكم وتحميها، وطرق ملتفة وضيقة جدًا يستحيل على جيشٍ كبير أن يمر عبرها ليهاجمكم. حتى أنا لاقيت الأمرّين مع قوتي الصغيرة من مشقة المسير لكي أصل إليكم. لا بد أن هذه عدالة العناية الإلهية العليا وعدالة الإله. وإلا فلماذا رضختم أنتم أصحاب البلاد الخصبة والأنهار لَمن لا يملكون مثل هذا السلطان؟ فلو أنكم أحسنتم الحكم مع هذه الأشياء التي تلقيتموها هدايا، لَهَلك الهمج الذين لم يُمنَحوا هذه الأشياء. وما دام أولئك الهمج تعوزهم مواردُ الحرب، بينما أنتم تملكون الخبرة في الزراعة، فلماذا تكونون عبيدًا لمن لا يملكونها؟ ولماذا يأخذُ المُعدَمون من الموسِرين؟"

ولما فرغ الإسكندر من قول هذا، طالبهم أن يدفعوا له الجزية التي كانوا يدفعونها لداريوس، قائلًا، "إني لن أخزنها في خزائني، بل سأنفقها على مدينتكم الإسكندرية التي في

مصر، وهي عاصمة الدنيا كلها." ولما تحدث معهم هكذا أعطوه كل ما يملكون بكل سرور، وساروا بالملك معززًا مكرمًا عبر الفرع البلوسي للنيل. ثم أخذ جيشه قاصدًا بلاد آشور، فأخضع المدن المجاورة لحكمه.

❋❋❋

من المفيد الاستمرار في أسطورة الإسكندر التي أصبحت عند هذا الحد مزيجًا من مخطوطة كالِسْثينز المزيفة ومشتقاتها الأوربية وغيرها من المصادر الأخرى التي تضفي عناصر إضافية على أشهر قصةٍ عرفها الغرب. يتنوع ترتيب الأحداث بتنوع الروايات، ولكن التلخيص التالي يمثل زبدة هذه الروايات.

بعد ذلك يحاصر الإسكندر الجزيرة التي تقع فيها مدينة صُور فلا يتمكن من فتحها إلا بعد بنائه جسرًا يمتد من البر المجاور واستخدام أبراج المنجنيق وأسطولٍ من السفن. يدمر المدينة عن بكرة أبيها، لكنه يتابع طريقه إلى القدس سِلْمًا، بل يبدي كل احترامٍ لكبير الكهنة هناك. وبعد تلقيه رسالةَ وعيدٍ من داريوس، يزحف إلى بلاد فارس. وعلى الرغم من عرباتهم الحربية المدججة بمناجل مخيفة، يخسر الفُرس المعركة كما يخسرون عددًا كبيرًا من الرجال. ينجو داريوس بنفسه، لكن أمه وزوجته وأولاده يؤسَرون، فيعاملهم الإسكندر معاملة كريمة.

بعد ذلك يتوجه إلى طروادة، فيخيب ظنه بسبب صغر حجم نهر سكامَنْدَر الذي يكون مسرحًا لمعركةٍ عظيمةٍ في ملحمة «الإلياذة». وعندما يقول له شعراؤه إنهم سيُثنون عليه ثناءً لا يستطيعه هوميروس، يجيبهم الإسكندر، "أفضِّل أن أكون ثيرسِتيز في قصة هوميروس بدلًا من أخيل في قصتكم." وبعد مُضي بعض الوقت ينفد الطعام، فيأمر بأن تُذبَح الخيول معللًا قوله بأن الخيول يمكن أن يؤتى ببديل منها، ولكن لا بديل من المقدونيين. ويدمر مدينة طيبة الشهيرة لأنها ترسل قواتٍ لمحاربته. ثم يتابع مسيره إلى كورِنث، حيث يُطلَب منه أن يقيم الألعاب الإزمِثية التي يفوز بها رجلٌ من طيبة. يُعيد الإسكندر بناء طيبة، مكافأةً للفائز.

وبعد مناظراتٍ بين خُطباء أثينا العظماء، وعلى رأسهم دِموسْثينز، تقرر أثينا أن تدفع الجزية للإسكندر. يحاربه لاحقًا اللاكيديمونيون فينهزمون. يواصل الإسكندر تقدمه باتجاه داريوس، لكنه يمرض في كيليكيا. يستعد طبيبه فليپ لعلاجه، ولكن واحدًا من حاشيته يكتب للإسكندر أن فليپ ينوي تسميمه. يتناول الإسكندر الدواء وعيناه على فليپ، ولا يُريه الرسالة إلا فيما بعد. فيُقتل كاتبُ الرسالة بناء على طلب فليپ.

وفي أرمينيا العُظمى يبني الإسكندر على نهرٍ جسرًا من الأقواس والقضبان، فيرفض رجاله أن يعبروا ما لم يتقدمهم هو. وعندما يصبح الجميع على الضفة الأخرى، يأمر بتدمير الجسر معللًا فعلته بقوله إنه يريدهم أن يقاتلوا وهم مصممون على الانتصار لا الانهزام. وحين يذهب الخوف من قلوب الرجال، يهتفون له. ثم يحاول بعد ذلك جاسوس فارسي اغتيال الإسكندر لأن داريوس كان قد وعده ابنتَه. يُثني الإسكندر على علو همة الرجل فيطلق سراحه. ثم يأتي فارسيٌّ آخر ويطلب من الإسكندر أن يزوده بقواتٍ لأسر داريوس وتسليمه للإسكندر، لكن الإسكندر يقول له، "ساعد مليكك، فلستُ آمَنُك على قومي وقد خُنتَ قومك!"

حين يقترب المقدونيون من مدينة داريوس، يشد الإسكندر أغصانًا بقطعان الأغنام التي ترعى في السهول ويسوقها خلف جيشه. يرتفع جبلٌ من الغبار فيظن الفُرس أن جيش عدوهم هائل العدد. يُشار على الإسكندر في المنام أن يذهب إلى داريوس رسولًا عن نفسه. يصل إلى نهر سترانغا الذي من شأنه أن يتجمد ثم يذوب بالتناوب. وبما أنه الآن متجمد يعبر الإسكندر عليه بحصانه، فيُحضره الحراس إلى داريوس وهم يظنون أنه رسول الإسكندر. يدعوه داريوس للعشاء، وهناك يضع الإسكندر القدح الذهبي الذي شرب منه في جيبه. فيسأله داريوس عن السبب، فيقول له إن هذا هو العرف في بلاط الإسكندر، فتستحسن الحاشية هذا الأمر. بيد أن واحدًا منهم يتعرف على الإسكندر فيخبر داريوس. يندفع الإسكندر، فيمسك بالمشعل الوحيد، ثم يثب على ظهر حصانه وينطلق مسرعًا، تاركًا الفُرس يتخبطون في الظلام بحثًا عنه. ثم يتمكن من عبور نهر سترانغا حين يبدأ الجليد بالذوبان الذي يخطف حصانه. يعجز الفرس عن اللحاق به، فيلتحق بجيشه مرة أخرى.

يشن داريوس هجومًا، بعد أن تمكن الفُرس من عبور النهر الذي تجمد ثانيةً. ولكنهم ينهزمون، ومرةً أخرى لا تحصدُ مناجل عجلاتهم إلا أرواح رجالهم. ثم يغرق كثيرٌ من الفرس الهاربين وهم يعبرون نهر سترانغا الذي ذاب جليده في هذه الأثناء. يعرض داريوس على الإسكندر أن يدفع له الجزية، لكن عرضه يُرفَض. يستبقي الإسكندر قصر خِرخِس [خشايار الأول] وقبره، وهو الذي كان قد فتح اليونان من قبل. ثم يمنح أراضي الفرس وأموالهم لمن شوهته الحرب من جنده. بعد ذلك يطارد داريوس الذي يطعنه غدرًا اثنان من خاصّةِ رجاله. يموت داريوس بين ذراعي الإسكندر بعد أن يطلب منه أن يتزوج ابنته روكسيان.

يدفن الإسكندر داريوس بكل مراسم التشريف والتكريم. ثم يتمكن بالخدعة من جعل القاتلَيْن يُفصحان عن نفسيهما، فيصلبهما، ثم يُعد العدة لزواجه من روكسيان بما يليق من احتفالات.

يكتب إلى أمه وأرسطو يخبرهما عن مشاهد غريبة صادفها في رحلاته مثل: رجال لهم وجوه الأُسود، وآخرون يشبهون الكلاب، وأشجار مرةً تكبر ومرةً تصغر، وجرادٌ بحري هائل. ثم يصف عُروجه إلى السماء في قفص مشدودٍ إلى أربعة غَرافين،(٥) كما يصف نزوله تحت الماء في كرة زجاجية.

بعد ذلك يقود جيشه إلى الهند ليهاجم پوروس، وهو أحد حلفاء داريوس. وكانت استراتيجيته هي أن يُسخِّن التماثيل البرونزية، ليحرق بها أفيال پوروس المقاتِلة الشهيرة فيفرقها. ثم يدعو پوروس للنزال فردًا لفرد فيتغلب عليه. يواصل الإسكندر مسيره للقاء البراهمة ليسألهم أسئلة فلسفية تدل على جبريته. يكتب إلى أرسطو عن رؤية أشجار الشمس والقمر، وعن أشجارٍ ناطقة تخبر الإسكندر أنه سيُقتل قريبًا. بعد ذلك يبني سورًا حول قبائل جوج ومأجوج المتوحشة.

يواصل الإسكندر مسيره إلى سَميرام التي تحكمها ملكة جميلة تُدعى كانِدِس، فترسل إليه الهدايا وتأمر أحد رسلها أن يرسم سرًّا صورة للإسكندر. ويتفق أن يأتي أحد أبناء كاندس، واسمه كاندوليس، إلى معسكر المقدونيين يستنجدهم لاسترداد زوجته من أحد الملوك المحليين الذي اختطفها للتو. يأمر الإسكندر صديقه پتلومياس أن يتظاهر أنه هو الإسكندر والإسكندر يكون نائبه. يهجم المقدونيون ليلًا، بإشارة من الإسكندر، فيقتلون الملك ويعيدون لكاندوليس زوجته. يأخذ كاندوليس الإسكندر إلى قصر كاندس البهي، فتعرف الإسكندر من صورته لكنها لا تفصح عن هويته لأن أحد أبنائها متزوج من ابنة پوروس.

بعد ذلك يَجْبي الإسكندر الجزية من الأمازونيات والپراسانغيين. وفي رسالة إلى أمه يصف زياراته إلى أعمدة هِرَقل ونهر الأطلس ومدينة البرونز.

وفي طريقه إلى بابل يساعد فارسين شابين ضرب حصارًا على مدينتهما ديفور، إذ يعطي لكل منهما أميرةً وما تملكه من أراضٍ. بعد ذلك يشرع في مغامرةٍ باحثًا عن ماء الحياة الذي يعثر عليه وزيره أو خادمه، فيحوز الخلود لنفسه بدلًا من الإسكندر. يتخذ الإسكندر طريقه إلى الفردوس الأرضي، لكنه يُمنع من الدخول. لكن العجوز الذي يحرس هذا الفردوس يعطيه

(٥) الغِرفين حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد. [المترجم].

حجرًا عجيبًا على هيئة عينٍ. فهو أثقل من أي كمية من الذهب، ولكن ما إن يُرَشّ عليه قليلٌ من الغبار حتى يصبح أخف من الريشة. يقول أرسطو في تفسير هذا إن للعين قيمةً ما دامت جزءًا من الإنسان الحي، ولكنها تصبح بلا قيمة بموته.(٦)

وقبل أن يصل الإسكندر إلى بابل، يُرتب أنتيباتَر، الذي خلَّفه الإسكندر لإدارة الأمور في مقدونيا، مع ساقي الإسكندر لتسميمه. وألم الاحتضار يعتصره عصرًا شديدًا، يكتب الإسكندر وصيةً يقسّم فيها إمبراطوريته. يطالب جندُه المحزونون أن يروه، فيأمر بأن يُسمح لرجاله أن يصطفوا أرتالًا أرتالًا لرؤيته في حجرته. يُنفَّذ أمرُه، فيموت. ثم يُؤتى بجثمانه إلى مِمفس أولًا لكنه يُدفن في الإسكندرية في تابوتٍ ذهبي.

علاوةً على هذا الوصف الموسَّع، هناك أحداث أسطورية أخرى في حياة الإسكندر تشكل جزءًا من التراث الغربي، لكن ارتباطها بأسطورة الإسكندر أقل من ارتباطها بمصادر خارجها. فهناك ثلاثة مصادر أخرى مميزة تسمح بالإعارة والاقتراض دومًا: نوادر من سيرة الإسكندر التاريخية التي كُتبت باللاتينية بعد موته على الأقل بثلاث أو أربع مئة سنة لكنها تزودنا بالتوثيق الأول، حيث إن الكُتاب الرومان كانوا يكررون ما كان مُتداولًا في السابق؛ ثانيًا، نوادر منفصلة تراكمت حول اسمه لكنها أتت عمومًا من مصادر مبكرة من شرق المتوسط؛ ثالثًا، الأساطير المسيحية.

فمن النوادر التاريخية المدونة أيضًا في المصادر اللاتينية لدينا أشهر قصة تُعرف عنه، ألا وهي قصة العُقدة الغوردية التي كانت تربط عربة الملك مِيداس القديمة إلى نِيْرها. كان المقدونيون قد رأَوْها في غورديوم في أثناء عبورهم في فْريجيا. وكانت مصنوعة من لحاء الكرز ومعقودة بشكل مُحكَم إلى درجة أنه لم يستطع أحدٌ حلَّها خلال الأربع مئة سنة منذ ميداس. ووفقًا للمعتقد الشائع فإن الذي يستطيع حلها سيحكُم آسيا.

وحكاية الحصان بوكيفالوس أيضًا من الحكايات التاريخية، وتُنسَج حوله عددٌ من الحكايات. لكن أكثرها تداولًا هو كيف تمكَّن الإسكندر وهو غلامٌ من ترويضه بينما عجز الآخرون عن ذلك. لاحظ الإسكندر أن الحصان يهتاج هياجًا شديدًا حين يرى ظله، فجعل وجهه نحو الشمس، فاستطاع أن يمتطيه ويروضه. ظل بوكيفالوس رفيق الإسكندر الدائم

(٦) لقد جرت الإشارة إلى التشابهات بين الحادثة المذكورة في *Iter ad Paradisum* [الطريق إلى الفردوس] والأرض اليباب في أسطورة الكأس المقدسة، بما في ذلك العجوز والقلعة المنعزلة المحاطة بالماء في أغلب الأحيان. والحجر العجيب ذاته يُضاهيه حجر الفلاسفة في الخيمياء. ويشير جوزف كامبل إلى أن هذا الحجر بالذات الذي يُدعى 'أُمنية الفردوس' هو الكأس المقدسة نفسها، بدلًا من الوعاء، في ملحمة وُولفرام فون إشِنْباخ الشعرية *Parzival*.

مدة عشرين عامًا، وكان إذا وُضع على ظهره السرجُ الملكي، يرفض أن يمتطيه أحدٌ غير الإسكندر؛ وحتى حين جُرح لدى حصار صُور، ما كان لِيسمح للإسكندر أن يستبدل به حصانًا آخر. وحين هَرِم وهَزُل، كان الإسكندر يستعرضه أمام محاربيه قبيل المعركة، ثم يُنحّى بعد ذلك ويؤتى بمطية أخرى للقتال الفعلي. وحين مات بوكيفالوس في الهند في أثناء الحملة ضد پوروس، أسس الإسكندر مدينة عند قبره وأسماها باسمه.

وربما تكون قصة طائيس حقيقية أيضًا. كانت طائيس محظية جميلة من أثينا، فحضت الإسكندر ورفاقه الذين كانوا منتشين بانتصارهم على الفُرس أن يهُبّوا من مجلس أكلهم وشرابهم ويلقوا بالمشاعل على قصر پيرسيپوليس [تَخْت جَمشيد]، فاحترق القصر المهيب، فندم الإسكندر على ذلك فيما بعد ندمًا شديدًا. وقد وظف جون درايدِن هذه الحادثة في قصيدته "مأدبة الإسكندر." كما تُذكَر أيضًا شهامتُه في معاملة پوروس بعد هزيمته، إذ سئل كيف يود أن يُعامَل، فقال له، "معاملة الملوك." فأُعْجِب الإسكندر بإجابته، فترك له مملكته كما هي وجعله حليفًا له. وهناك أيضًا نباهة أحد حاشيته الذي حُكِم عليه بالموت ذات ليلة لكنه في الصباح استجار من 'الإسكندر المخمور بالإسكندر الصاحي" فعفا عنه الإسكندر. وهذا التعبير باقٍ إلى يومنا هذا بصورة مُبتذلة في 'كنوز المتحدثين' الغربيين في قولهم، 'استجار بالإسكندر الأكبر من الإسكندر الأصغر.' كما يُؤثَر عنه أن معرفته الرصينة بالتاريخ الطبيعي ناتجة من آلاف التقارير التي كان يرسلها له الصيادون والسّماكون وما شابههم، وكان يصنفها له أرسطو.

ولعل أكثر القصص هي تلك التي تتحدث عن نباهة الإسكندر وسماحته، وقد أتت معظم هذه القصص من مُدوَّنات أبكر، وهي توحي أنها منسجمة مع طبيعته المعروفة. لا شك أن الثناء على سماحة أي شخص هو موتيف شائع حين يكون للعامة مصلحة في ذلك، أما النباهة فتستهوي كل المستويات؛ إلا أنه في هذه الحال تنسجم النباهة والسماحة مع الحقائق. وأشهر هذه رد الإسكندر على المحارب المنذهل الذي منحه الإسكندر مدينة، وهو الرد الذي يدونه سِنيكا، قائلًا إنه غير معنيٍّ بما يستحقه الجندي بل بما هو نفسه أهلٌ لعطائه. وقريبٌ من هذا ردُّه على رُسلٍ من آسيا عرضوا عليه نصف مدينتهم، "المسألة ليست مسألة إعطائكم مدينتكم لي، بل مسألة احتفاظكم بما أشاء أن أرده عليكم منها." كان يحب الحقيقة البسيطة ويتكلمها، ولكنه في الوقت ذاته، بدافعٍ من سماحته وحلمه، يُجزي الجواب النزيه حتى لو كان موجهًا ضده. يروي چيچَرو حكاية القُرصان الشهير دايونيدز الذي قال للإسكندر

حين قُبض عليه، "أنت تأخذ الدنيا برمتها بينما أنا آخذ سفينة واحدة بسبب الحاجة؛ وبينما أنا أُدعى لصًّا، تُدعى أنت إمبراطورًا بكل أُبَّهةٍ وفَخارٍ." وبدلًا من معاقبة الرجل لوقاحته، يطلق الإسكندر سراحه ويمنحه وظيفة جديدة في جيشه. وهذه النادرة يحكيها أيضًا القديس أوغسطين، كما يرد ذكرها في كتاب *Gesta Romanorum* (صنائع الرومان) وفي "حكاية متعهد المؤَن" من «حكايات كانتبري» لچُوَسر. وكذلك يُذكر في هذا المقام توبيخه لجندي اسمه أيضًا الإسكندر لكنه هرب من مناوشة، "إما أن تغير اسمك أو أن تكون أهلًا له."

لم تكن صورة الإسكندر الأدبية ثابتة لأنها كانت تتأرجح بين السواد والبياض، طبقًا لما نقله آباء الكنيسة من كُتابٍ مثل چيچَرو وسِنيكا وڤاليريوس ماكسيموس وپلِني الأكبر. فعلى سبيل المثال، پلِني، الذي يذكره مِرارًا، ينسب إليه اكتشاف الشرق، بل يجعله أول من استورد الورق والعطور، بينما يركز سِنيكا على تهوره وغطرسته، وهذا ما فعله أيضًا الوُعّاظ المسيحيون من بعده. لكن لأن ما كُتِب عنه باللاتينية في عصور الظلام ظل محصورًا في الأوساط الدينية، فهو لم يؤثر في تأرجح صورته الأدبية بين صعودٍ وهبوطٍ في الأسطورة المتنامية حوله.

من جهة أخرى، ظلت صورة الإسكندر كما عرفها العامة متساوقة. فجماهير العصور الوسطى كانوا بمعنى من المعاني وَرَثة جُنده الذين أرست ذكرياتهم عن قائدهم المحبوب أسس ما سيأتي. فهو في الحكايات الشعبية أكثر فطنة من أيٍّ كان، جَسورٌ، مقدامٌ في المخاطر، وفيٌّ لرجاله، حُلو المعْشَر، تواقٌ للمعرفة، شهمٌ، أرْيَحِيٌّ، جريءٌ لا يرى غضاضة في الجرأة حتى وإن كانت عليه، سَموحٌ، حليم. وهذه الصفات لا ترد فقط في الأساطير التي نُسجت حول الإسكندر بل حتى في القصص التاريخية، كما في المأثورات في المصدر الثاني، أي في تراث الشرق الأدنى حيث كانت النوادر المألوفة التي تتداولها الألسن بقصد الإمتاع والمؤانسة سابقةً على المخطوطات الإغريقية في الشرق ومثيلاتها اللاتينية في الغرب ومتزامنةً معها في آن معًا. كثيرٌ من هذه النوادر العائمة لم تكن مقترنة به أصلًا، بل لم يبق مرتبطًا باسمه إلا ما كان منسجمًا مع شخصيته. إن صورة الإسكندر الشعبية ارتسمت من خلال هذه النوادر، بخلاف صورته لدى رجال الدين أو، لاحقًا، لدى رجال البلاط. وخير مثال على ذلك لقاؤه مع دايوجينِس. لقد سمع سِنيكا هذه القصة أيضًا، فاستخلص منها عِبرةً مفادها أن أريحية الإسكندر التي يتبجح بها الناس ما هي إلا قناعٌ للغرور. يعرض الإسكندر على دايوجينِس، الذي يسكن في حوضٍ للاستحمام، أي عطية يتمناها. لكن الشيء الوحيد الذي يطلبه دايوجينِس من الإسكندر هو أن يبتعد عنه لئلا يسدَّ عليه منفذ النور. يتقبل الإسكندر هذا الصدَّ ويحترم ما

يعبر عنه من رؤيةٍ للحياة، كما يفعل في قصص شرقية أخرى مشابهة تُروى عنه وعن فلاسفةٍ دراويش آخرين. وخير مثالٍ على هذا حكاية الإسكندر ذي القرنين مع الملك القانع في «ألف ليلة وليلة» الذي يرفض عرض الإسكندر أن يقاسمه إمبراطوريته، معللًا رفضه بأن الناس جميعًا أعداء الإسكندر بسبب ثروته، أما هو فكل الناس أصدقاؤه بسبب فقره.

وهو حليمٌ أيضًا مع معلميه في الصبا، ولا سيما مع أرسطو الذي ظل يُسدي إليه النصح طوال حياته. ففي إحدى المناسبات يلاحظ أرسطو تعلق الإسكندر بعشيقته فِليس، فيحذره من مغبة الخضوع للنساء. تطلب فِليس من الإسكندر أن يعطيها لأرسطو، فتخلب لبه حتى أنه يسمح لها أن تُرْسِنه وتُلجِمه ثم تطوف على ظهره وهو على أربع. تدبِّر فِليس لكي يفاجئهما الإسكندر. يرد أرسطو بنباهة أنه ما جاراها في هذا إلا لكي يمنعها من أن تهزأ بالإسكندر. وفي بعض التنويعات العربية، تُطرد المرأة، ويتبادل الرجلان التهاني لحسن حظهما الذي أنجاهما من الافتتان. وهذه الحادثة مشهورة أيضًا في الطرائف الغربية وفي خرافةٍ واسعة الانتشار معروفة بعنوان «نشيد أرسطو». ومثالٌ آخر على أريحية الإسكندر يوجد في قصة أپليز الرسام. يستأجر الإسكندر أپليز ليرسم له محظيته المفضلة كامپاسپي التي يهيم بها عِشقًا. وفي أثناء جلساته معها، يقع الرسام في غرامها أيضًا. وحين يتناهى الأمر لسمع الإسكندر، يُعطي الفتاة لأپليز. والتضحية بعشيقةٍ أو زوجةٍ لصديقٍ موضوعٌ واسع الانتشار في القصص الشعبي في شرق المتوسط، وهو مستمدٌ من الواقع فيما يبدو، ويرد ذكره مرة أخرى في *Disciplina Clericalis* (عُهدة النُّساك) ومن هنا إلى «ديكاميرون»، من بين أعمال أخرى.

وفي نوادر أخرى ذات منشأ عربي، يظهر الإسكندر بمظهر الأمير الديمقراطي المعروف لدى العرب، على سبيل المثال، من صلاح الدين الأيوبي إلى هارون الرشيد في «ألف ليلة وليلة». فحين يرى أحد قادته العسكريين على ظهر حصانٍ زَريِّ الهيئة، يسأله، "وأيَّ خير أرجوه منك في المعركة وأنت على ظهر هذه الدابة الهزيلة؟" فيرد عليه القائد، "أرجوك يا صاحب الجلالة، فأنا أنوي أن أرابط في موقعي، أما أنت فيبدو من اختيارك لمطيتك أنك مُهَيِّئٌ نفسَك سلفًا للهرب." يروق هذا الرد المُفحِم للإسكندر حتى أنه يُعطي حصانه لقائده بكل زخارفه النفيسة.[٧]

وذاتَ أُمسية كان الإسكندر يتنزه في الخارج مع رجاله، فيسأل‌هم لغزًا، "ما الذي لم يأتِ السنة الماضية، ولم يأت هذه السنة، ولن يأتي السنة القادمة؟" فيرد أحدهم، "المتأخرات من

(7) Scott, Jonathan, *Tales, Anecdotes and Letters*, Shrewsbury, 1800, 329.

رواتبنا بلا شك." فيكافئه الإسكندر وسط قهقهات الجميع. وحُسن عِشْرة الإسكندر لجنده واضحةٌ في كل مكان. فهو يُخاطر بروحه لا بأرواحهم، ويأكل ما يأكلون، ويرفض أن يشرب حين يعطشون، ويتخلى عن مجلسه بقرب النار لجنديٍّ مَقْرور، شِعاره، "لن أحيا أو أموت إلا مع رجالي."

أما المصدر الثالث للروايات الغربية عن الإسكندر فهو الأساطير المسيحية. وهذه تشكل عالمًا قائمًا بذاته كالعادة. قد يبدو مفاجئًا أن تسمع أن الإسكندر يظهر في الكتاب المقدس: في قصة رمزية في الأصحاح الثامن من سِفر دانيال، كما في الجزء الأول في سِفْر المكابيين [في السبعونية] الذي يسميه بالاسم تحديدًا. وفي سِفْر دانيال يظهر الإسكندر على هيئة فَهدٍ له أربعة رؤوس، وتيسٍ ينطح كبشًا له قرنان ويتغلب عليه، وهذا ما قاد القديس جيروم إلى تفسير تبنّاه غيره من المفسرين اللاحقين. "حين يظهر الإسكندر على هيئة فهد ... فإن رؤوسه الأربعة ترمز إلى خلفائه الأربعة؛ وحين يظهر على هيئة تيسٍ فهو يهاجم داريوس، الكبش الذي يرمز قرناه إلى إمبراطوريتَيْه الميدية والفارسية، فيكسر شوكته." فبالإضافة إلى إشارةٍ لاحقة إلى ملك اليونان الذي يأتي ليدمر بلاد فارس، يكتسب هذان النصان التنبؤيان أهمية كبيرة جدًّا في التصور اللاهوتي عن الإسكندر، إذ لا يمكن تفسيرهما إلا كما فسرهما القديس جيروم، "لم تكن فتوحات الإسكندر بفضل قوته بل بإرادة الله."(8) أما الجزء الأول في سِفْر المكابيين فيستهل بوصفٍ موجز عن سيرة الإسكندر ووفاته، وصفٍ يشكل مقدمةً للحديث عن خليفته أنتيوخوس الذي تعرض اليهود في ظل حكمه للاضطهاد. وبسبب هذا النص، والتفسير اليهودي، أصبح المكابيون في رمزية العصور الوسطى نماذج للمؤمنين المسيحيين، أما أنتيوخوس فهو يرمز للمسيح الدجال. وفي الوقت ذاته، قادت أسطورة تبجيل الإسكندر في القدس ومعاملته اللطيفة لليهود إلى حكايات يهودية تزعم أنه كان يعبد إله بني إسرائيل. وهذه بدورها تركت أثرًا طيبًا في أقوال مفسري الكتاب المقدس اليهود ثم المسيحيين من بعدهم.

لقد رأينا من قبلُ أثرَ الإشارات التوراتية وتفسيراتها في قصة سليمان وملكة سبأ. أما هنا فلدينا مدرستان متناقضتان من الفكر الكنسي: واحدة ترى أن الإسكندر هو أداةٌ من أدواتِ الله، وأخرى ترى أنه المسيح الدجال، وهذه الأخيرة قادت في نهاية المطاف إلى مُماهاته بخطيئة

(8) Cary, George, *The Medieval Alexander*, Cambridge, 1967, p. 120.

الكبرياء الشيطاني. لكن كما أشرنا من قبل، لا تؤثر هذه الإلماحات الكهنوتية في أسطورة الإسكندر. بيد أن المزج بين الديني والأسطوري يحدث في الأَيْقَنة الكنسية، تمامًا كما حدث مع ملكة سبأ والصليب الحقيقي.

يمكننا أن نتتبع أثر هذا الأمر في القصص عن عُروج الإسكندر إلى السماء. فالنسخة الأرمنية للمخطوطة الكالِسثينية المزيفة، وهي أقرب ترجمة مقبولة ممكنة للأسطورة اليونانية-المصرية الأصلية، لا تلمِّح إلا تلميحاتٍ عابرةً إلى مغامراتٍ دُسَّت لاحقًا في النسخ المنقَّحة للأسطورة فصارت تُدرَج عمومًا في النسخ الأوربية. وكما أشرنا من قبل، كان أكثر فرعٍ للمخطوطة الكالِسثينية المزيفة إثمارًا هو ذلك الذي بدأ بكتاب ليو النابولي «تاريخ المعارك» الذي تُرجِم إلى كل اللغات الأوربية تقريبًا. ففي مجموعة الأساطير هذه يرد ذِكرُ عُروج الإسكندر إلى السماء، وهي قصةٌ عجيبةٌ ليس أعجبَ منها إلا رواجها. ولعلها نشأت من نصٍّ قصير في المخطوطة الكالِسثينية المزيفة الأم يروي عن مصادفة الإسكندر لطائرين هائلين لكل منهما وجه آدمي يسألانه، "لِمَ تريد العروج إلى السماء، وهو ما لا طاقة لك عليه؟" فتملَّكه الخوفُ والقشعريرة لما سمعهما.(٩) لا ندري إن كانت هذه الأسطر هي مصدر الإشاعة المذهلة عن طيران الإسكندر فعليًّا بمساعدة الطائرين، وهي الإشاعة التي اجتاحت الغرب فيما يزيد على أربعين كتابًا عن الإسكندر يرجع أصلها إلى ليو، وأكثر من ذلك في تصوير هذا العُروج في الكنائس والمخطوطات المُصوَّرة وغير ذلك. وقد صارت هذه الحادثة واحدة من أشهر الحوادث في حياة الإسكندر المعروفة في الغرب اليوم.

> إذا استثنينا المتخصصين، فإن الذين يعرفون أي شيء عن الإسكندر الأكبر بوصفه بطلًا أسطوريًا من العصور الوسطى يعرفونه طيارًا. فآلته الطائرة، التي تتراوح قوتها بين غِرْفينين إلى ستة عشر غِرفينًا، توجد لها رسومٌ في كل عصرٍ من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر، وفي كل وسيلة تقريبًا: على نقش رخامي في الجدار الشمالي لكنيسة القديس مُرقُص في مدينة البندقية، وعلى الألواح المنقوشة وتيجان الأعمدة في مدينة بال السويسرية، وكا الفرنسية، وماتريس الإيطالية، وعلى قطعة موزاييك مُرمَّمة كثيرًا في كاتِدرائية أوتراندو في إيطاليا، وعلى قطعة قماشية مزدانة بالرسوم من مدينة تورنيه البلجيكية موجودة في قصر دوريا في روما،

(9) Wolohojian, Albert M., *The Romance of Alexander the Great by Pseudo-Calisthenes*, New York, Columbia University Press, 1969, pp. 23-57.

وعلى مساند الصلاة في الكنائس الإنجليزية من وِلْز إلى بِفْرْلي، وفي المخطوطات اللاتينية والفرنسية والروسية والألمانية.[10]

وكالعادة تجري الحكاية كما يلي: يكتب الإسكندر إلى أمه عن أسفاره. وبعد ذكر تفاصيل كثيرٍ من الكائنات المتوحشة وأراضٍ غريبة، يصف بلوغَه مكانًا يظن أنه نهاية الدنيا حيث تنحني السماء. ولكي يتحقق من الأمر، يُجوِّع طائرين أبيضين ضخمين، وفي بعض الروايات غِرْفينين، لمدة ثلاثة أيام، ثم يربطهما إلى قفصٍ خشبي من صنعه. ثم يدخل القفص، ويأخذ رمحين يعلِّق في طرف كل منهما شيئًا من اللحم، ويضعهما في مُتناول الغرفينين إلا قليلًا. فحين يتجه الرمحان نحو الأعلى يطير الغرفينان، فيحملان القفص. تحذر هيئةٌ بشريةٌ مُجنَّحة الإسكندر وتنصحه بالعودة قائلة، "انظر إلى الأرض." فتبدو الأرض صغيرة كأنها قاربٌ في بحر كبير. ثم يطير الإسكندر إلى أعلى من ذلك، فيُؤمَر أن ينظر ثانيةً، فيبدو البحر الآن كأنه حِزامٌ، وتبين تُخومُه. وفي المرة الثالثة يبدو البحر كأنه بِركة صغيرة. يخاف الإسكندر ويرتعد، فيوجه الرمحين نحو الأسفل. يطير الغرفينان نحو الأسفل، وحين يهبط يجد أن بينه وبين معسكره مسيرةَ عشرة أيام.

يُعيد الطائران الأبيضان والخوف والارتعاد والتحذير إلى الأذهان المخطوطة الكالِسثينية المزيفة. فمشاهد العالم المتلاشي الثلاثة تمثل موتيفًا شائعًا في الطيران السحري في أساطير الشرق الأدنى، مثل عُروج البطل البابلي الأصل إتانا على ظهر نسرٍ، أو عروج ذي القرنين (الإسكندر ذاته) تحت جناح الملاك رافائيل كما يرد ذكره في نص عَجمي[11] من القرن الخامس عشر، أو كما يتردد في الحكايات الشعبية الدارجة شرق المتوسط إلى يومنا هذا. لكن لا بد أن تكون الفكرة الأساسية مأخوذة هنا من حكاية عربية (مأخوذة بدورها من الأصحاح العاشر من سِفْر التكوين) عن النمرود الذي أراد أن يهاجم الله فرفع نفسه إلى السماء في صندوقٍ حملته أربعة نسور فتية، مستخدمًا أيضًا الرماح واللحم كما في حكايتنا (لكنه سقط)، أو لعلها مأخوذة أيضًا من حكاية كاي كاوس، الملك الفارسي الأسطوري، الذي تُقنعه الشياطين فيقوم برحلة مماثلة، بيد أن النسور مقيدة بعرشه (لكنه يسقط أيضًا).

---

(10) Ross, D. J. A., "Alexander and the Faithless Lady: A Submarine Adventure," Inaugural lecture delivered at Birkbeck College, London, 7 November 1967.

(11) Michael, Ian. *Alexander's Flying Machine*, University of Southampton, 1974, pp. 14-15.
النص العجمي *aljamiado* هو نصٌ أعجمي اللفظ، عربي الخط، وقد شاع هذا النوع من الكتابة في الأندلس، حيث تبنى بعض الإسبان ويهود اللادينو الكتابة بالخط العربي. [المترجم].

ومن الطريف أن هذه المغامرة وصورتها، المستمدة من التراث العربي، صارت في العصور الوسطى أكثر ما يُحتجُّ بها بعد الكتاب المقدس للقول بأن الإسكندر هو أداةٌ للإله المسيحي. وما ساعد على تطور هذه الصورة هو أسفار الإسكندر إلى مَجاهِل الشرق الأقصى، وهذه بدورها أفسحت المجال أمام الشائعات والتقارير. لقد أراد الإسكندر التاريخي أن يطيل مدة حملته في الهند لعله يرى إن كان نهر الغانج يصب فعلًا في البحر الشرقي. لكن جنوده رفضوا أن يتزحزحوا قيدَ أَنمُلة، ربما لاعتقادهم أن نهاية الدنيا على شاطئ المحيط هي مكان مرعب. فرضخ الإسكندر لهذا 'التمرد.' (وهنا صاحوا بمرح أن ملكهم قهر العالم لكنه سمح لرجاله أن يقهروه). أعاد الإسكندر جنده إلى أوطانهم، وقد سلكوا الطريق الشمالي المعتاد. أما هو فقد احتفظ بقواتٍ خفيفة، وراح يستكشف طريقًا عبر الصحراء. وهكذا صار مسوغًا القول إن حملة الإسكندر إلى الهند "أتاحت الفرصة لإقحام عناصر أسطورية في ملحمة النثر الإغريقية-المصرية لاحقًا، وهو ما أدى إلى التخريجات الفنية المفصلة في أوربا في العصور الوسطى."(١٢) لكن من بين الأعاجيب والمخاطرات الكثيرة المدسوسة، لا يُصَوَّر سوى عروج الإسكندر إلى السماء في فن المنحوتات عُمومًا. ولعل هذا مردُّه إلى أن مخطط المشهد كما يُصوَّر عادةً يصلح جدًّا أن يكون شِعار نَبالة، إذ يعيد إلى الأذهان تلك الخواتم-الأختام الشرقية القديمة جدًّا التي تصور إما رجلًا وإما شجرة مقدسة يحيط بها من كل جانب غِرْفين أو أبو الهول. وكان هذا موتيفًا مفضلًا في اليونان ومصر وبلاد فارس والهند. ومن شأن المخطط وحده أن يستدعي رموزًا موغلةً في القِدَم للقدرة الإلهية. ففي كثيرٍ من هذه لا يكون الإسكندر في قفص بل جالسًا على عرشه مُتَوَّجًا، كأنه إله أو ملك، بل لعله كان يرمز بنظر المؤمنين في العصور الوسطى إلى صعود المسيح لا إلى عروج الإسكندر إلى السماء.

وفي العالم البيزنطي كانت هذه الصلات بالألوهية لافتة للنظر. فمن ناحية، كان من المأثور في الشرق الأدنى أن يُنسَب لعظماء الملوك السيطرةُ لا على مملكةٍ واحدة أو ممالك كثيرة فحسب، بل على الكون كله، وليس من أحدٍ كالإسكندر ينطبق عليه هذا التصور. وبالنسبة إلى البيزنطيين، كان العروج إلى السماء يرمز إلى أقصى درجات الانتصار. وبعد قيام المسيحية، جرى تَشَرُّب كل التمثيلات السابقة التي تدل على القوة ليُعاد تفسيرها. تشير سِتِس-فروغوني

(12) *Ibid.*, p. 11.

إلى أن قسطنطين مُوهِي بالإسكندر، وكلاهما مُوهِي بفكرة القِدِّيسية الإمبراطورية.(١٣) وقد تبنت الكنائس الروسية صورة العروج بوصفها رمزًا للمسيح الجالس على عرشه، وقد زُيِّنت بالإضافة إلى ذلك أشياء ملكية من متاع الدنيا الخالصة، كما يتضح ذلك في التاج الملكي في كييف، وقَدَح إنزْبروك، والمجاديف الذهبية القينيسية، وكلها ذات أصل شرقي. "لأن الإسكندر صار، على وجه التحديد، مثالًا للأباطرة البيزنطيين، فقد تحول هو ذاته إلى إمبراطور بيزنطي،"(١٤) ولذلك صار بحماية الله. وهكذا صار عروج الإسكندر إلى السماء في التراثين الديني والدنيوي في الإمبراطورية المسيحية الشرقية سببًا يعزز مكانته السامية بين البشر، وهذا اعتقادٌ ناشئٌ أصلًا من تفسير القديس جيروم للأصحاح الثامن من سِفْر دانيال، وقد عززت هذا الاعتقاد لاحقًا الأيْقَنة والنظرة الإسلامية له.

من جهة أخرى، بدأت سمعته في العالم المسيحي الغربي تتدهور ابتداءً من القرن الثاني عشر، ولا سيما في ألمانيا وفي *Historienbibeln* [أناجيل التاريخ]، إذ صار يُتَّهم بخطيئة الكبرياء، جريًا على عادة معظم أهل ذاك الزمان من الوعّاظ. وصار يُنظَر إلى عروجه على أنه أكبر دليلٍ على ذلك، بل يُضاهي برج بابل في صَلَفِه. وصارت الكنيسة تنظر إلى هذه الأسطورة الازدرائية كما لو أنها واردةٌ في الكتاب المقدس، ولذلك، فهي مكذوبة، وعلى هذا اجتمع رأيُ الكنيسة. ومن محَاسن المصادفات أن تماثيل شعارات النبالة ذاتها التي ترمز إلى العروج السماوي يُمكن أن تُستَخلَص منها العِبَر عن سقوط الكبرياء.

لقد عزز القرآن وتفاسيرُه الرأيَ القائل إن الإسكندر محروسٌ من الله، بل إنه شخص مقدَّس، وذلك حين ماهى بينه وبين شخصيةٍ جاهلية يُدعى ذا القرنين.(١٥) ولعل هذا البطل

---

(13) Settis-Frugoni, *Chiara, Historia Alexandri Elevati per Griphos ad Aerem*, Roma, Instituto Storico Italiano per il Medio Evo, Studio Storici, fasc. 80-82, 1973, p. 331.

(14) *Ibid*.

(١٥) في الحقيقة لا يُماهي القرآن الكريم بين ذي القرنين والإسكندر المقدوني، بل لا يذكر هذا الأخير إطلاقًا. وإنما جاء هذا الخلط في كتابات كثيرٍ من المفسرين، نقلًا عن مصادر فارسية وسريانية. على أننا لا نعدم بعض الآراء التي تُسفِّه مثل هذا الخلط. نذكر على سبيل المثال نشوان الحميري (ت ١١٧٨م) الذي ينفي في «خلاصة السير الجامعة» أن يكون الإسكندر هو ذو القرنين، بل يزعم، نقلًا عن عبد الله بن عباس، أن ذا القرنين رجل من حِمْيَر اسمه الصعبُ بن ذي المراثد. وفي «نهاية الأرب في فنون الأدب» يقول النويري مُسفِّهًا الخلط بين الإسكندر وبين ذي القرنين، "وما آفةُ الأخبار إلا رُواتُها." كما أن بعض المحدِّثين والمؤرخين العرب، كالطبري وابن كثير، يرون أن الإسكندر هو ملك عربي. وابن عباس نفسه يزعم، في رواية أخرى، أن ذا القرنين اسمه عبد الله بن الضحّاك، ولعل هذا الارتباك راجعٌ أيضًا إلى كون ذي القرنين لقبًا تكنّى به أكثر من واحدٍ من ملوك العرب، كالمنذر الأكبر بن ماء السماء، وملكين من ملوك حِمْيَر. [المترجم].

الجاهلي كان بالفعل هو الإسكندر، إذ غالبًا ما يُصوَّر لابسًا قرني كبش.(١٦) والمعروف تاريخيًا أن الإسكندر لم يلبسهما إلا بعد أن زار معبد زيوس-آمون في مصر زيارةَ الفاتحين، وهناك أُوحي إليه بما يقطع الشك باليقين أنه ابن آمون. ورأس الكبش، الذي يُمثَّل أحيانًا بصورة قرني كبش على رأسِ إنسان، كان السمة المميزة لآمون. ويُعتَقد أن أسطورةً سريانيةً نشأت في القرن السادس الميلادي هي سبب مماهاة القرآن بين الإسكندر وذي القرنين. وبحسب هذه الأسطورة قال الإسكندر لله، "أعلم أنك جعلت لي قرنين على رأسي لكي أسحق بهما ممالك الدنيا."(١٧) بيد أن القرون هي علامة قديمة على القداسة، ولعل تسمية هذه الشخصية العربية بذي القرنين تعكس هذا الاعتقاد، كما تعكسه منحوتة مايكِل أنجلو لموسى [عليه السلام]. ومنحوتة مايكل أنجلو هي أشهر مثالٍ للتصور العام في العصور الوسطى عن موسى، وهو تصورٌ ناشئٌ بدوره من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس إلى اللاتينية في القرن الرابع الميلادي، وهي الترجمة المعروفة باسم الڤولغاتا. وكان جيروم يحاول أن تكون ترجمته ترجمة حرفية قدر الإمكان، لذلك ترجم كلمة عبرية(١٨) بكلمة cornuta [ذو القرنين] ولكن الكلمة العبرية تعني أيضًا "المعظَّم" (حيث تُرجِمت هكذا في السبعونية [الترجمة الإغريقية القديمة للعهد القديم])— "انْقَرَنَ وجهُه بسبب حديثه مع الرب." وكما ذكرنا من قبل، فقد اقترنت القرون بالألوهية في مصر القديمة وغيرها. ثم جاء بعد ذلك حينٌ من الدهر انعكست فيه هذه الأيقنة الشرقية في صورة كلٍّ من موسى والإسكندر.

تدل الطريقة التي تتحدث بها السورة الثامنة عشرة [الكهف] في القرآن [الكريم] عن ذي القرنين والخَضِر على دِرايةٍ بالمخطوطة الكالِسثينية المزيفة. ففي إحدى مغامراته العجيبة، يُقال إن الإسكندر بحث عن ماء الحياة برفقة خادمه الخضر (وأحيانًا يُدعى الخادم أندرياس). وفي غياب الإسكندر، يريد الخضر أن يُعِدَّ طعامًا له ولسيده، فيغسل حوتًا مملَّحا في نبعٍ، فيعود الحوت إلى الحياة ويتخذ سبيله في النبع سَربًا. يقفز الخضر وراء الحوت وهكذا يكتسب الخلود. وعندما يعود الإسكندر ويسمع القصة، يبحثان عن النبع فلا يجدانه. وتقرن السورة ذاتها بين

(١٦) على الرغم من تعدد تفسيرات لقب الإسكندر بذي القرنين عند العرب وتضاربها، وهي التي يوجزها ابن منظور في قاموسه الجامع «لسان العرب»، لم أجد مَنْ فهمها فهمًا حرفيًّا. بل جاءت التكنية لأن ذا القرنين بلغ قرني الشمس (أي مشرقها ومغربها)، كما يقول نشوان الحميري (مصدر سابق)، أو لأنه مَلَكَ قرني الأرض (أي مشارقها ومغاربها) كما يقول محمد علي الصابوني، «صفوة التفاسير»، (بيروت وصيدا: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥)، ص ٦٧٩. [المترجم].

(17) Mittwoch, E., "Dhulkarnain," in *Encyclopedia of Islam*, Vol 1, Leyden, 1913, p. 962.

(١٨) العبارة العبرية المقصودة هي "قَرْنو پَناڤ" التي تعني "تهلَّل وجهه" (من نور الله). [المترجم].

الخضر والحوت وبين موسى الذي لا يذكر القرآن أن له قرنين.[١٩] كما تشير هذه السورة أيضًا إلى ذي القرنين وهو يبني سدًا حول جوج ومأجوج، بناءً على أوامر من الله. ويبدو أنه موكلٌ من الله بمعاقبة الكفار ومجازاة المؤمنين.

إذن، يمكن القول إن الإسلام والمسيحية اشتركا في اعتقادهما أن الإسكندر يُوحَى إليه من الله، وما الصفاتُ الإلهية-المَلَكية للأباطرة البيزنطيين إلا مثالٌ على ذلك. وأسطورة الإسكندر والحكايات الشعبية جعلت منه إنسانًا خارقًا للمألوف، بل شِبْه إلهٍ، تدل على ذلك الأفعال الخارقة العظيمة التي تُعْزى إليه. فحتى آريان، وهو أحد الكتاب الرومان الذين كتبوا له أول سيرة تاريخية علمية رصينة، يختتم ملخص سيرة الإسكندر بالنغمة ذاتها:

كان بارعًا في تنظيم جيشه، لا يُضاهيه أحدٌ في قيادة جنده ... يبدد مخاوفهم بكونه قدوةً لهم في مواجهة المخاطر ببسالةٍ لا تلين. وحيثما ساورتهم الشكوك جاء إقدامُه ليحسم المعركة لصالحهم ... وهو أحفظُ الناس لعهودهم، وأحرصُهم من خَتْلِ المخاتلين، وأقصَدُهم في بذل المال على نفسه، وأكرمهم في البذل على الآخرين. ولولا إرادة الآلهة خِصيصًا، ما كان له أن يظهر بين البشر الذين لا يُضاهيه أحدٌ منهم.

---

(١٩) ترد في هذه الفقرة مجموعة من الأباطيل والمغالطات تُنسَب إلى القرآن الكريم وهو منها براءٌ، وسأوجز الرد عليها فيما يلي. فالقرآن الكريم أولًا يتحدث عن ذي القرنين وليس عن الإسكندر. ثانيًا، القرآن ليس مسؤولًا عن الخلط الذي جرى لاحقًا بين هاتين الشخصيتين. ثالثًا، الخضر عليه السلام ليس خادمًا لذي القرنين/ الإسكندر، بل هو رجل صالح يقصده موسى عليه السلام ليتعلم منه، أما الخادم فاسمه في كتب الأحاديث النبوية يوشع بن نون، وهو خادم لموسى عليه السلام، يرافقه في رحلة بحثه عن الخضر. رابعًا، ليس الذي يعود ليبحث عن النبع هو ذو القرنين/ الإسكندر، بل يعود موسى عليه السلام إلى المكان الذي فقد عنده خادمه الحوت في البحر، حيث كان الله قد أوحى إليه أنه سيجد الخضر عند ذلك المكان. وفيما يلي قصة موسى والخضر كما وردت في الصحيحين: "عن أُبَي بن كعب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم(أنه قال: (إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عز وجل عليه، إذْ لم يرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله في مِكْتَل [زَنْبيل]، فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ، فانطلق موسى ومعه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا ... فقال فتاه: ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبًا﴾ ... فقال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغِ فارتدّا على آثارهما قَصَصًا﴾ قال: رجعا يقُصَّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلَّم عليه موسى فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام! قال: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما عُلمت رُشدًا ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبرًا﴾. يا موسى إني على علمٍ من علم الله لا تعلمه علَّمنيه، وأنت على علمٍ من علم الله علَّمكه لا أعلمه، فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا﴾ فقال له الخضر: ﴿فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحدث لك منه ذِكرًا﴾. نقلًا عن، محمد علي الصابوني، مصدر سابق، ص. ٦٧٨. [المترجم].

حكاية من الغرب: الملك جون ورئيس الرُّهبان

سأحكي لكم قصةً، نعم، قصةً في الحالْ ١
عن الملك جون، ذلك الأمير المِفضالْ.
لقد كان أميرًا، بل أميرًا ذا بأس شديد
به يَزْهَق الحقُّ ويعلو كلُّ جبّار عنيد.
وا دانه ودانه وادان دانه يا دانه وادان دانه.

سأحكي لكم قصةً تستهوي الشيبَ والوِلْدانْ ٢
عن كبيرِ كانْتِرْبِري، رئيسِ ديرِ الرُّهبان.
سأروي عن حُسْنِ تدبيره وصِيتِه السامِقِ
ذاك الذي أوصله إلى لندنَ ذاتِ البيارقِ.

"أتراهُ صحيحًا ما سمعتُ يا أبتاه ٣
أنك خيرٌ مني في التدبير وسِواه؟
فأنا أخاف على عرشي من خيانتكْ
بحُسنِ تدبيرك وما شاع عن سمعتِكْ!"

"آمل، ألا يَضيرَ مولاي ذا الجلال ٤
أنني أنفق ما أكسب من مالٍ حلال!"
"ما لم تُجبني على ثلاثٍ من المسائل
فرأسك عن رِمَّتِك لا بد زائل!

فحين أمتطي ظهر مطيتي ٥
أفرح وأمرح بين حاشيتي
وعلى رأسي تاجٌ من ذهبْ
فكم فِلسًا أُساوي، أيها الأب.

أما ثاني سؤالٍ فلا تتخذنَّ منه سُخْريّة: ٦
فكم يلزمني لأطوف الدنيا على هذي المطية؟
وثالث سؤالٍ فلا تزدريه:
بل تخبرني بما أفكِّر فيه."

وبينما كان الراعي ذاهبًا إلى قُطعانه ٧
رأى رئيس الدير مقبلًا على حصانه،
"ما وراءك، يا سيدي، وحمدًا لله على السلامة
وما هي الأخبار من مَليكِنا صاحبِ الفخامة؟"

"عندي من الأخبار، يا صاحبي، ما لا يَسُرُّ البال ٨
فلم يبق لي من العيش إلا ثلاثةٌ بالتمام والكمال
"فما لم أجِبْه على ثلاثٍ من المسائل
فرأسي عن رِمَّتِي لا بد زائل!

فحين يمتطي ظهر مطيته ٩
يفرح ويمرح بين حاشيته
وعلى رأسه تاجٌ من ذهبْ
فلا بد أن أقول كم فِلسًا به يُطلَبْ!

أما ثاني سؤالٍ فلا أَتَّخِذَنَّ منه سُخْريّة: ١٠
بل كم يلزمه ليطوف الدنيا على تلك المطية؟
وثالثَ سؤالٍ فلا أزدريه:
بل أُخْبِرُه بما يُفَكِّر فيه."

"أما سمعتَ قطُّ يا سيدي الصادقْ.................................. ١١
أن الحكيمَ يتعلَّم من الأحمقِ الفائق؟

فما عليك إلا أن تعيرني حصانك ورداءك
وسأسير إلى لندن الفيحاء لأُفْحِم خُصَماءك!"

"ها أنا أمتطي ظهر مطيتي ١٢
أفرح وأمرح بين كل حاشيتي
وعلى رأسي تاجٌ من ذهبْ
فكم فِلسًا أُساوي، أيها الأب."

"بثلاثين فِلسًا بيعَ يسوعٌ منقذُنا ١٣
بين يهود الزيفِ، هكذا أُخْبِرنا.
أما أنت فتسعةٌ وعشرون تكفيك
فإن بَخَسْناك فِلسًا، أليس يُرضيك؟"

"أما ثاني سؤالٍ فلا تتخذنَّ منه سُخْريّة: ١٤
فكم يلزمني لأطوف الدنيا على هذي المطية؟"
"انهضْ مع الشمس، وتَعَلَّقْ بأذيالها أنّى تسير
فإن أشرقتْ تاليًا، طُفتَ الدنيا بلا تأخير!"

"وثالثُ سؤالٍ فلا تزدريه: ١٥
بل تخبرني بما أفكِّر فيه."
"وما ذاك عليَّ عَسيرا،
وعليك سأُدخِلُ سُرورا.

ألست تظن أنني كبيرُ الرُّهبان في كانْتِرْبِري؟
بل أنا راعيهِ الفقيرُ، لو أنك أمعنتَ في النظرِ!
وقد أتيتُ لأطلب العفوَ عنه وعن عبدك المُفْتَقِر!"

فتلفَّت الملك حوله وقال متبسما، ١٦
"أنت رئيس الدير من الآن فصاعدا."
"لا، يا سيدي، لا أرى لذلك حاجةْ
فأنا لا أعرف القراءةَ ولا الكتابةْ."

"إذن، سأعطيك كل أسبوعٍ أربعًا من الليراتْ ١٧
جزاءً لما رويتَ لنا من ظريفِ الحكاياتْ.
وقل للراهب حين تعود إلى بلدك الميمون
أنك عُدتَ إليه من الملكِ بعفوٍ غيرِ ممْنون."

حكاية من الشرق: الملك والخزّاف

جمع الملك وزراءه ذات يومٍ وقال لهم، "سأسألكم بعض المسائل، فإن أجبتم عليها زدتُ جِرايَتكم وقُوَّتكم؛ وإن لم تفعلوا قطعت رؤوسكم. فأخبروني عن هذه الأشياء الثلاثة. أولًا، ما عدد نجوم السماء؟ ثانيًا، كم من المال تكسب الشمس كل يوم لقاءَ عملها عن كل فردٍ من البشر؟ ثالثًا، ما الذي يفعله الله جل جلاله كل يوم؟" ولما عجزوا عن الإجابة استمهلوا الملك بعض الوقت، فأمهلهم شهرًا كاملًا.

فكانوا يخرجون كل يومٍ خارج مدينة مَنْف، ويستظلّون بظل تَنّور خزّافٍ ويتشاورون. رآهم الخزافُ وسألهم عما يفعلون، فأخبروه خبرَهم. فقال لهم، "بإمكاني أن أجيب عن أسئلته، ولكنْ لديَّ تنورٌ ولا أستطيع تعطيله عن العمل. فاتركوا أحدكم يعمل فيه، وليُعطني واحدٌ منكم دابَّته أركبها، وزوِّدوني بكسوة." فأعطوه ما أراد.

وكان في المدينة أميرٌ، وهو ابنُ ملكٍ سابق، وقد لحقه حظٌّ عاثر. فاقترح عليه الخزاف أن يحاول استعادة عرش أبيه. فأجابه، "لا يُمكن إخراجُ صاحبنا هذا من المدينة." فقال له الخزاف، "أنا أُخرِجُه لك." فتجهز الأمير.

ثم ذهب الخزاف ووقف بين يدي الملك بولاه، وقال إنه مستعد للإجابة على أسئلة الملك. فقال له الملك، "أخبِرْني، إذن، عن عدد نجوم السماء." فأخرج الخزاف كيسًا من الرمل، وصبَّ ما فيه، وقال، "هذا هو عددها بالتمام والكمال." فسأله الملك، "وأنّى لك أن تعرف هذا؟" فأجابه الخزاف، "مُر أحدَهم أن يعدها، وسترى أنني مُحِق." فتابع الملك، "كم من المال تكسب الشمس يوميًا لقاءَ عملها عن كل فردٍ من بني آدم؟" فأجابه، "قيراطٌ واحد، لأن هذا ما يكسبه عامل النهار الذي يعمل من شروق الشمس إلى غروبها." فسأله الملك، "وما الذي يفعله الله جل جلاله كل يوم؟" فأجابه، "هذا ما سأُريكَه غدًا."

وفي صباح اليوم التالي ذهب الخزاف مع الملك إلى حيث كان الوزير يجلس مكانه. فقال له عندئذٍ، "هذا ما يفعله الله جل جلاله كل يوم: فهو يُذِلُّ من يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، ويُميت من يشاء. ولأبرهن لك على ما أقول، فهذا أحد وزرائك يعمل في تنور خزاف، بينما أنا الخزاف الفقير أرفُل بثياب المُلْك. بل إن هناك من أغلق أبواب مَنف دونك!"

التفت الملك على عَجلٍ، فإذا الأبواب قد أُغلِقت. عندئذ جاء الناس بقيادة الأمير، وقبضوا على الملك بولاه وخلعوه.

❊ كانت هذه الحكاية الشعبية موضع دراسة كلاسيكية قام بها ڤالْتَر أنْدِرسِن بعنوان Kai-ser unde Abt [القيصر ورئيس الرهبان] نشرها سنة ١٩٢٣ في مجلة FFC، العدد ٤٢. وأحد مراجع أندرسن هي قصة "الملك والخزاف" المأخوذة من كتاب «فُتوح مصر» لابن عبد الحَكَم، والتي أوردناها آنفًا، وقد ترجمها إلى الإنجليزية چارلز سي توري في دراسته The Egyptian Prototype of King John and the Abbot، [الأصل المصري لقصيدة الملك جون ورئيس الرهبان] التي نشرها في «مجلة جمعية الاستشراق الأمريكية» (المجلد ٢٠، سنة ١٨٩٩، ص ٢١٢-١٤). ويقول توري إن كتاب «فُتوح مصر» لا يعالج الفتح الإسلامي لمصر فحسب، بل للأندلس أيضًا، "لذلك يمكن الجزم بأن القصة كانت مشهورة، بل لعلها كانت واسعة التداول بين عرب الأندلس من القرن التاسع فصاعدًا." ثم يستنتج أن "الملك والخزاف" اشتهرت في إسبانيا، ومن إسبانيا انتقلت شهرتها إلى أوربا. يُعالج تحليلُ أندرسن ما يقرب من ٦٠٠ نسخة، من بينها ١٥١ نسخة أدبية، بما في ذلك النسخة التي بين أيدينا. ويتفق مع توري على أن منشأ القصة من الشرق الأدنى، لعله مصر، ويُرجِعه إلى القرن السابع الميلادي تقريبًا، ويتتبع مسيرتها التاريخية عبر ثلاثٍ وستين مرحلة. لمزيدٍ عن دراسة أندرسن، انظر:

Stith Thompson, *The Folktale*, New York, Dryden, 1964, pp. 162, 430 ff

عنترة وعَبْلة

تتصل سيرة عنتر (أو عنترة)، الذي عاش في القرن السادس الميلادي، بالتراث الغربي بطريقتين: فهي تنظر وراءها إلى عصر البطولات، وتنظر أمامها إلى الفارس البطل. وهي، كما قال عنها كلوستن قبل مئة عامٍ، "النموذج الأصلي لكل قصص الفروسية الأوربية."[1]

والقصص الشعبية تحتوي بطبيعة الحال على عددٍ من الأبطال. وأشهر هؤلاء بطل الخرافة الذي لا يمتاز بأي ميزة خاصة وليس له وجودٌ تاريخي، والبطل الشعبي الذي له وجود تاريخي، على الرغم من أن حياته تعكس موتيفاتٍ شعبيةً معروفةً وتتكيَّف معها، وعنترة واحدٌ من هؤلاء. قد تكون الموتيفات سمةً لعصر البطولات، وهذا مصطلحٌ أدبي يمكن أن يختلف من منطقة جغرافية إلى أخرى بآلاف السنين، شأنه في ذلك شأن المصطلحات الثقافية مثل العصر الحجري أو العصر البرونزي، ولكنه مع ذلك يَعُمُّ الكون كله، كما قد تكون هذه الموتيفات سمةً للقصص الشعبية الأحدث. إن المصدر الأساسي للموتيفات الشعبية الشرقية والغربية المشتركة هو ذلك الكنز البدائي، ذلك الخزان التراثي في الشرقين الأدنى والأوسط الذي مَتَح من قُدامى الإغريق وغيرهم، كما أمدهم بما لديه. وهذه القناة، التي تعني عمومًا 'التراث الغربي،' عبرت من الإغريق إلى الرومان، وعبر الرومان إلى أوربا اللاتينية، ومن ثَمَّ إلينا. وهذا الخزان نفسه لم ينهل من القَصَص المصري والهندي والفارسي والهِلِّيني والروماني المتأخر والشامي واليهودي والمسيحي والبيزنطي والعربي المبكر، وبوتقة البوتقات، القصص الإسلامي، فحسب بل اختلط به وأمدَّه. ولهذا فإن التشابهات بين كل من الأبطال الشعبيين في الثقافات الغربية وعنترة في الشرق أمر محتوم، على الرغم من أن مثل هذه التشابهات لم ينتبه إليها أحدٌ في غالب الأحيان.

تبدأ حياة البطل الشعبي مثل أي كائن حقيقي. ولكن في أثناء تحوُّله إلى بطل تبدأ حقائق حياته التاريخية، التي هي مسرح الحدث، بالتضخم تدريجيًّا مع مرور السنين بحيث تتطابق مع

(1) Clouston, W. H., Popular Tales and Fictions, Vol. 1, New York, 1887, p. 50.

الصور النمطية المألوفة سلفًا. وهذه الصور النمطية معروفةٌ للعامّة من التراث، وهي تكون مغلفة إما في الأساطير وإما الحكايات وإما الأغاني، وغالبًا ما تُجمَع في رواياتٍ شفوية طويلة تُدعى الملاحم (إن نُظِمت شعرًا) أو المآثر (إن دُبِّجت نثرًا). وعصرها هو عصر البطولات. أما أقدم الأبطال الشعبيين فيتحولون، وفقًا لعملية ثقافية مشابهة، إلى آلهة أو أشباه آلهة، وذلك في أساطير تصور السحر والأعاجيب الإلهية. وهذه الشخصيات المقدسة — أبطال الملاحم وأبطال الثقافة وأبطال الأساطير والآلهة — يُسمَّون أحيانًا أبطال التراث. فما كان حقيقيًا في الحقب الماضية تحول رُوَيْدًا رُوَيْدًا إلى أحداث مقدسة أو متجاوزة للتاريخ، وذلك وفقًا لمساراتٍ تنتظم البشرية جمعاء فيما يبدو، وهي مساراتٌ تعكس أحوال الأزمنة البدائية ومعتقداتها. فتعريف البطل عند البدائيين وعندنا هو ذلك المقاتل أو المحارب العظيم الذي يُحسِن إلى قومه. ولا شك أن الأحداث النمطية في حياة أقدم الأبطال والآلهة هي التي رسمت صورة البطل في أذهان الأجيال اللاحقة. أما كيف تشكلت في البداية تلك الأشياء التي تحولت إلى صور نمطية، فتلك مسألة لم تُسَوَّ. وقد اقتُرِحَت عدة نظريات حول نشأتها: كالسحر والطقوس البدائية منذ تَكَوُّن المجتمعات البشرية، أو الحوافز والإشباعات النفسية الأساسية التي لا تزال قائمة، وهلم جرّا. على أي حال، كانت النتيجة هي نشأة قصة البطل العالمية.

لذلك فإن صناعة البطل في أي زمان أو مكان لا بد أن تبدأ من عامة الناس، فهم الذين يقبلون الحكايات عن رجال بارزين أو يرفضونها، يتداولونها أو يطمُسون ذِكْرها. فيمكن أن تُقبَل القصص عن ملكٍ ما إما على مستوى القبيلة وإما على المستوى القومي (مثل الإسكندر، آرثر، شارلمان) وإما عن محاربٍ محلي أو فاعل خير (مثل [هَكِلْبِري] فِنْ، روبِن هود، ديڤي كروكِت). ولما كان عنترة واحدًا من أبطال الطبقة الأخيرة، فهو يبدو لافتًا للاهتمام لأن أسطورته تطورت على مدى خمسة قرون. إذ يمكننا مقارنة الجزء الأول من سيرة عنترة، التى سنسميها قصة عنترة وعبلة، مع الأجزاء الأخيرة لنرى كيف تنحو هذه السيرة نحو النمط البطولي العام. ولا شك أن قصته لا تزال تتنامى وتتبدل. من جهة أخرى، يبدو أن عملية صنع الأبطال في الغرب قد أصبحت شيئًا من الماضي، إذ توقف تطورها بسبب التعليم والإعلام الجماهيري. فعلى سبيل المثال، لم يتجاوز ديڤي كروكِت وإيب لنكِن المرحلة الأولى من مسيرتهما الشعبية؛ وروبِن هود بلغ مرحلة القصائد القصصية لكنه لم يبلغ مرحلة الملاحم.

وبخلاف البطل العالمي في القصص الشعبية، يمتاز بطل الفروسية بأنه نتاجٌ خاصٌ بعصر معين هو العصور الوسطى. فهو ينشأ من الأبطال الشعبيين والأبطال الملوك ويوجد

في أعمال تحكي عن محاربين أفراد، كما يوجد في كلٍّ من التقسيمات الثلاثة الكبرى في أدب العصور الوسطى: مادة الرومان التي ضمت موضوعاتٍ إغريقيةً أيضًا مثل حرب طروادة والإسكندر، ومادة الفرنسيين التي كانت تدور حول شارلمان وحاشيته، ومادة البريطانيين التي تتعلق بالملك آرثر وفرسانه. وعلى ضوء المعلومات التي استجدت عن إسهامات العرب في علوم الغربيين وآدابهم، يجدر بنا أن نضيف طبقة رابعة، وهي مادة العرب.(٢)

ينشأ البطل الشعبي من بين عامة الناس، وكما رأينا من قبل، كان لدى عامة الناس في الجاهلية معينٌ ثَرّ يمتحون منه حين يروون سيرة بطلٍ ما. باختصار، كان لديهم القصص الشعبي الذي يخص عالمنا المتحضر، أما غربيو ذاك الزمان فلم يكن لديهم ما لدى عرب الجاهلية. وفي حياة عنترة كان هناك تأثير مُلْهِمٌ آخر، وهو المساواة في الإسلام،(٣) حيث إن عنترة "قدَّم دليلًا على أن المولَّد ... يستطيع أن يسمو إلى مكانة العرب الخُلَّص."(٤) كما عرف الناس عنترة التاريخي من خلال شعره المشهور، الذي شكَّل "التيار التحتي لأسطورة حياته."(٥) وفي شعره ثلاثة موضوعات أساسية: التفاخر بأفعاله البطولية، وحبه لعبلة، وسعيه للفوز بها، وهي موضوعات تناسب ذلك الجزء من سيرته الذي يحكي قصته مع عبلة، ومذكورةٌ فيها. يظهر شعر رديء يُنسَب إليه، ولا سيما في الأساطير المتأخرة. وتقول إحدى الأساطير إن إحدى قصائده كانت من المذهَّبات السبع التي كانت تُعلَّق على الكعبة قبل بعثة محمد [صلى الله عليه وسلم]. وتُثني سيرة عنترة على هذا الفوز وتضعه على قدم المساواة مع مآثر عنترة الأخرى (مع أن هذا الثناء ليس من ضمن ما نقتطفه هنا من سيرة عنترة). وقد جمع الباحثون قصائده في القرن التاسع الميلادي في البصرة، ومن أشهرهم الأصمعي الذي كان من حاشية هارون الرشيد.

ولكن لا بد أن نقطة الانطلاق لعامة الناس كانت وقائع حياة عنترة الحقيقية. إذ معروفٌ أنه ينتسب إلى قبيلة عبس من [نجد في] أواسط الجزيرة العربية، من أبٍ عربي وأَمَةٍ سوداء. كان من المفترض أن يقضي شبابه عبدًا يرعى الغنم، إلا أن التناحر بين عبس والقبائل المجاورة أتاح له الفرصةَ لكي يُبرز فيها مهاراته القتالية. ويبدو أنه أبلى بلاءً حسنًا في حرب داحس والغبراء ولعله أُعتِق من جرّاء ذلك. ويُعتقد أنه مات وهو شيخ كبير في حوالي سنة ٦٠٠ للميلاد، في غارةٍ على قبيلة طَيْ.

(2) Metlitsky, Dorothee, *The Matter of Araby in Medieval England*, New Haven, Conn., 1977.

(٣) لعل المؤلفة تقصد هنا أن الإسلام كان، بأثرٍ رجعي، مُلهِماً لعامة الناس في رسم سيرة عنترة الشعبية بعد موته، إذ إن عنترة التاريخي ولد وعاش ومات في الجاهلية، لذلك لا يمكن أن يكون للإسلام تأثيرٌ ملهمٌ في حياته. [المترجم].

(4) Heller, B., "Sirat 'Antar" in *Encyclopedia of Islam*, Vol. 1, 1960, p. 521.

(5) Ibid.

يتبين لنا من هذا الملخص الموجز أن سيرة عنترة هي النتيجة المنطقية. فبما أنه شاعرٌ محارب عاش في القرن السادس الميلادي، فقد شرع الناس في نسجِ مأثرته من موتيفاتٍ مألوفةٍ عن الأبطال الشعبيين. فمن دون هذه الموتيفات، ما كان لأحدٍ أن يعرف أنه بطل، وما كان له هو أن يصبح بطلًا. وقد ظهرت طبقة كاملة من الرواة المحترفين ليس لهم شغلٌ سوى رواية القصص عن عنترة، ولذلك يُطلق عليهم لقب العَناترة. ولا تزال سيرة عنترة إلى يومنا هذا أكثر السيَر الشعبية الشفوية العربية رواجًا، ولا تزال تُحكى في البوادي والأسواق.

أما الشروع في تأليف سيرة عنترة منذ القرن الثامن فيتبين لنا من خلال حوار ديني باقٍ منذ ذلك العصر، إذ يتحاور راهبٌ ومسلمٌ، فيذكر الراهب أفعال عنترة. وفي ثنايا السيرة ذاتها، يقودنا ظهور بوهيموند الإفرنجي وجُفران (جودفري البويوني) إلى العصر التالي للحملة الصليبية الأولى، أي إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر. يلخص ب. هِلَر مراحل تأليف السيرة في مقالته الضافية عنها في «الموسوعة الإسلامية»:

> يُمكن إعادة تركيب عنترة الأصلي وفقًا لقانون الاحتمال الفِلولوجي. ففي المجلد الحادي والثلاثين، يستعرض عنترة مسيرته البطولية، وهو يودِّع الدنيا على فراش الموت. فيستذكر بفخارٍ بطولاته في الجزيرة العربية والعراق وفارس وبلاد الشام. ولكنه لا يذكر بيزنطة ولا إسبانيا ولا فاس ولا تونِس ولا بُرقة ولا مصر ولا الهند ولا السند ولا السودان ولا الحبشة. ولعل عنترة الأصلي نشأ في العراق (في ظل التأثير الفارسي أو ربما في محاكاةٍ للشعر الملحمي الفارسي). لا يذكر عنترة في قصيدته الوداعية أي أطفال، ولا يعترف إلا بعشقٍ وحيدٍ. لذلك يجب أن تُسمى سيرة عنترة الأصلي هذا سيرة عنترة وعبلة. وبناءً على رغبةٍ في تتبعِ الأنساب، تعثر الملحمة اللاحقة لعنترة على أسلافٍ من الملوك في السودان وذريةٍ من الملوك في الجزيرة العربية وبيزنطة وروما وأرض الفرنجة. ثم صار للحروب الصليبية في قصة عنترة صدىً وردُّ فعل. لقد جاءت الحروب الصليبية من أرض الفرنجة عبر بيزنطة وبلاد الشام. أما عنترة فيقود حملته بالعكس من بلاد الشام عبر بيزنطة إلى بلاد الفرنجة ويحرز النصر، إن لم يكن للإسلام، فعلى الأقل للمُثُل والثقافة العربية على المسيحية الأوربية.

وأفعال عنترة اللاحقة، وهي غير واردة في قصة عنترة وعبلة، تجعله يصاحب ملوك العراق وفارس وبلاد الشام. إذ يُعيَّن وصيًّا على ملك بلاد الشام الجديد لأنه قاصر، وبهذا

يصبح فعليًا هو الحاكم. وهنا يصبح على تماسٍّ مع الفرنجة، أحيانًا حليفًا وأحيانًا عدوًا، كما يتصل بالبلاط البيزنطي الذي تخضع له بلاد الشام. وهو يمد يد العون للمسيحيين في بيزنطة، فيستضيفونه ويكرمونه، ومن ثم يقودهم ضد الفرنجة والإسبان. وحين تتعرض روما للاضطهاد على يد بوهيموند الإفرنجي، يقتله عنترة ويحرر روما. وفي حملة انتقامٍ من السودان، يتوغل عنترة في إفريقيا إلى بلاد النجاشي، فيكتشف أن النجاشي هو جدُّ أمِّه زبيبة. كما يقود حملات قتالية في بلاد الجن. وعلى الرغم من أنه لا أولاد له من عبلة، إلا أن لديه عددًا من هؤلاء من زيجات سرية أو علاقات غرامية. ومن بين أولاده ولدان مسيحيان: واحد من زوجته أخت ملك روما، وهو المحارب الصليبي قلب الأسد؛ والثاني من زواجه من أميرة إفرنجية، وهو جودفري البويوني، قائد الحملة الصليبية الأولى. ولدى موت عنترة، الذي تصفه قصة عنترة وعبلة، يأخذ ولداه بثأره ثم يعودان إلى أوربا.

طُبِعت سيرة عنترة بالعربية في مطلع القرن التاسع عشر في اثنين وثلاثين مجلدًا صغيرًا، ينتهي كل واحد منها بتشويق القراء لمتابعة المجلد الذي يليه، تمامًا مثل حكايات «ألف ليلة وليلة». وقد ترجم تِرِك هامِلتِن ملخصًا للجزء الأول من السيرة، وهو ما نسميه قصة عنترة وعبلة، سنة ١٨١٩-١٨٢٠. وقد أدرج كلاوستون ملخصًا عن ترجمة هاملتن في كتابه «الشعر العربي للقراء الإنجليز»، إذن، فهو ملخص عن ملخص. وعمل كلوستن هو الأساس الذي نعتمد عليه في مقتطفاتنا التالية، علمًا أننا كثَّفنا بعض النصوص، وحذفنا بعضها، بما في ذلك كثيرٌ من القصائد.(٦)

عنترة وعبلة

ركب عشرة من أشهر فرسان عبس يريدون الغزو، فكانوا يسيرون في الليل ويختبئون في النهار. وحين بلغوا واديًا بين جبلين، أشرفوا على حيٍّ جديلة العامر. وبدلًا من أن يشنوا هجومًا مباشرًا، قصدوا المراعي حيث رأوا عددًا كبيرًا من الجمال ترعاها امرأة سوداء جميلة وولداها. فساق العبسيون المرأة وولديها والإبل أمامهم، وهزموا محاربي جديلة.

وعندما عاد العبسيون إلى مضاربهم، جلسوا لتقاسم الغنائم. وكان أحدهم، واسمه شدّاد قد وقع في غرام المرأة السوداء، واسمها زبيبة. فرضي من الغنائم بزبيبة وولديها جرير وشَيْبوب. وبعد مضي بعض الوقت، أنجبت زبيبة غلامًا أسود اللون، لكنه يشبه أباه فيما سواه. سُرَّ شداد سرورًا عظيمًا بولده وسماه عنترة. ساعد عنترة أمه في رعي القطعان، ولما اشتد

(6) Clouston, W. H., *Arabian Poetry for English Readers*, 1888, pp. 186 ff.

عوده اشتهر بالقوة والشجاعة. فلما كان في التاسعة قتل ذئبًا كان يُغير على الأغنام، وبُعيد ذلك قتل أسدًا. ثم أصبح فارسًا متمرسًا، وتعلم الرماية والتسديد بالرمح.

كان لدى زهير، ملك العبسيين، أولادٌ كثيرون، وكان لكل منهم مئتا عبدٍ. وكان أكبر أبناء زهير، وخليفة أبيه، يُدعى شاس، ولديه عبدٌ أثيرٌ يُدعى داجي، وكان هذا شديدَ البأس، متجبرًا. وفي يوم من الأيام ساق فقراء القبيلة من الأرامل والأيتام قطعانهم لتشرب من ماء غديرٍ [اسمُه ذات الإرصاد]. فوقف العبد داجي يسقي إبل سيده. فاستأذنته عجوزٌ ليدع غنماتها تشرب، فشتمها. فدنت عجوزٌ أخرى، فلطمها لطمة ألقت بها في الأرض وكشفت سوءتها، فسخر منها العبيد الآخرون. وعلى الرغم من أن عنترة لم يكن إلا صبيًا، فقد هجم على داجي وهو يقول له، "ويحك، أَتهتِك سِتْرَ حرائر العرب؟"

صفع داجي عنترة على وجهه. انتظر عنترة حتى استعاد وعيه، ثم انقض على العبد وطرحه أرضًا. ثم رفعه فوق رأسه وألقى به على الأرض كأنه جثة هامدة. زمجر عنترة غاضبًا كأنه أسدٌ هَصور. انقض العبيد الآخرون على عنترة، فدافع عن نفسه بأقصى ما يستطيع. ومن حسن الحظ أن الأمير مالك، ابن الملك، حضر فوعد بحماية عنترة. لذلك عندما سمع الملك زهير بصنيع عنترة، استحسنه وأثنى عليه، وقال، "إنه يذود عن العِرض، وسيصبح محاربًا كريمًا." وحين عاد عنترة إلى مضارب القبيلة ذلك اليوم، تجمعت النساء حوله وأثنين عليه، وكانت من بينهن عبلة، ابنة عمه مالك.

بِذرة الحب

كان لدى عنترة فرصٌ كثيرة لرؤية عبلة، حيث كان أحد واجباته أن يقدم لنساء أبيه وأعمامه حليب الإبل الذي كان من عادة نساء العرب أن يشربنه، بعد تبريده، كل صباحٍ ومساءٍ. دخل عنترة ذات يوم خيمة عمه مالك، فوجد أم عبلة تُسرِّح لها شعرها المتدفق الطويل، فامتلأت نفسه بصورة جمالها، ولما عاد عبر عن مشاعره على هذا النحو:

وَجْناءُ تَسْحَبُ شَعْرَها مِنْ طولِه ... وتَغيبُ فيــهِ وهو ليلٌ أَسْــحَمُ
فكأَنَّهــا فيــهِ نَهــارٌ طالِــعٌ ... وكأنــه قـــد بـــانَ ليــلٌ مُظْلِمُ
وكأنــه بَــدْرٌ بَــدا في تَمِّــه ... وبنــوره الوهاجِ تخفــى الأنجمُ
زادت محاسِــنُها على مَنْ حولَها ... فســعى لخدمتها الجميعُ ويَمَّموا

وتنعَّمــوا بجمالهــا وكمالهــا وتلــذذوا في حســنها وتنعموا
لا تعذلــوني في هواهــا إننــي مُضْنــىً وقلبي في هواهــا مُتَيَّمُ
إني ســأكتمُ حُبَّهــا في مُهجتي حتى أرى لي الســعدَ يومًا يخدمُ

وفي مناسبة أخرى يرى عنترة عبلة تلعب وتغني مع لِدّاتِها في مأدبةٍ، فيخاطبها بأبياتٍ بليغةٍ:

رمتِ الفــؤادَ مليحــة ٌ عذراءُ بســهام لحــظٍ مــا لهــنَّ دواءُ
مَــرَّتْ أوَانَ العِيدِ بَــيْنَ نَوَاهِدٍ مِثْلَ الشُّــمُوسِ لِحَاظُهُــنَّ ظِبَاءُ
فاغتالني ســقمِي الَّذي في باطني أخفيتــهُ فأذاعــهُ الإخفــاءُ
خطرتْ فقلتُ قضيبُ بانٍ حركت أعْطَافَــه ُبَعْــدَ الجَنُــوبِ صَبَاءُ
ورنتْ فقلتُ غزالــة ٌ مذعورة ٌ قدْ راعهَا وســطَ الفــلاة ِ بلاءُ
وَبَدَتْ فَقُلْــتُ البَدْرُ ليْلَــة َ تِمِّهِ قــدْ قلَّدَتْــهُ نُجُومَهَا الجَــوْزَاءُ
بســمتْ فلاحَ ضياءُ لؤلؤ ثغرِها فِيهِ لِــدَاءِ العَاشِــقِينَ شِــفَاءُ
سَــجَدَتْ تُعَظِّمُ رَبَّهــا فَتمايلَتْ لجلالِهــا أربابُنــا العظــماءُ
يَا عَبْــلَ مِثْلُ هَــواكِ أَوْ أَضْعَافُهُ عنــدي إذا وقعَ الإيــاسُ رجاءُ
إن كَانَ يُسْــعِدُنِي الزَّمَــانُ فإنَّني في هِمَّتــي لصروفــهِ أرزاءُ

وحين يتمكن الحب من نفسه، يصبح هدف عنترة من كل مآثره الحربية اللاحقة هو التسامي فوق ظروف مولده لعله يصبح جديرًا بابنة عمه. ولكن عنترة كان له أعداء أَلِدّاء كُثر لم يدخروا جهدًا لحرمانه من الحظوة لدى الملك زهير وابنه الأمير مالك ونزع حمايتها عنه. وذات يومٍ هامَ بعيدًا عن مضارب قبيلته، فتأمل حاله البائسة وعشقه لعبلة، فنظم الأبيات التالية:

أتــاني طَيْــفُ عبْلــة َ في المَنامِ فقبّلنــي ثلاثًــا في اللثــامِ
وودَّعنــي فأودعنــي لهيبًــا أســتّرُهُ ويَشْــعُلُ في عِظامــي
ولو أننــي أخْلــو بنفْســي وأطفي بالدُّموع جــوى غرامي
لُمتُّ أســى ً وكم أشْــكو لأني وأطْفي بالدُّموع جَــوى غَرامي
أيــا ابنــة َ مالكٍ كيفَ التَّســلّي وعهدُ هــواك من عهــدِ الفِطام

وكيفَ أرُومُ منْكِ القُرْبَ يوْمًا   وحولَ خباكِ آسادُ الإجام
وحقِّ هواكِ لا داوَيْتُ قلبي   بغيرِ الصبر يا بنتَ الكرام
إلى أن أرْتَقي درجَ المعالي   بطعنِ الرمح أو ضربِ الحسامِ

بوادر النبوغ الحربي

استدعى الملك زهير شدادًا، أبا عنترة، مع غيره من الفوارس ليرافقوه في إغارةٍ على قبيلة مجاورة، فاستبْقَوا عنترة مع النساء. وفيما يلي وصفٌ تصويري لمتع نساء العرب في تلك الأيام.

وحين غاب الفرسان، ظل الأطفال والنساء والعبيد والإماء في خيامهم. أقامت سمية، زوجة شداد، مأدبة فاخرة على غدير ذات الإرصاد. فذُبِحت النعاج، ودارت الكؤوس، وضربت الجواري بالمزاهر. وكان عنترة من بين الحاضرين، وهاجه الشوق لما رأى عبلة بين النساء. وقد كانت حقًّا مثل ظبية مُتيمة، يزدان جيدُها بأنواع القلادات. وحين كان عنترة يقوم على خدمتها، غرق في بحر عشقه، وأسَرَتْه غدائرُها الفاحمة السوداء. ثم جلسوا للطعام، ودارت الكؤوس. كان الوقت ربيعًا، فأشرقت الدنيا كلها ببهائها: كانت أغصان الكرمة تتدلى مزدهية الأوراق، وعبيرُ الأزهار يَضوع في الأرجاء، وكل رابية تتلألأ بجمال ألوانها، وحناجر الأطيار تصدح من بين الآجام بأعذب الألحان المتناغمة، فطربت الأسماع، وتجللت الأرض بالزهور والأعشاب، بينما البلابل تملأ الجو بأرقِّ الألحان.

"ثم عقدوا حلقة للرقص ونَضَوْا عنهم أثوابهم: كانت الفتيات يرقصن بينما الخدم يغنون وهم يطوفون بكؤوس الشراب. فتوردَّت الخدود وجاشت الصدور. انضمت عبلة إلى رفيقاتها في الرقص، وكانت تُبدي مفاتنها وتتضاحك. تطاير الشرر من العيون، واتحدت كؤوس الخمر برُضاب الشفاه. التهب خيال عنترة وغمرته أمواج القلق، وتردد في جعل يد الشوق تتطاول على حشمة العشق. وفجأةً لاحت سحابةٌ من غبار، وعلت جَلَبة هائلة، وبرزت في الحال كتيبةٌ من الخيّالة من حوالي سبعين فارسًا مُدرَّعًا وعلى رؤوسهم خوذاتٌ عادِّية، وكانوا يصيحون "يا لِقحطان" وهم يندفعون نحو النساء. وفي لحظة انقلب الفرح حزنًا، والابتسامات إلى دموع؛ وفي لحظةٍ أسر المغيرون النساء والعذارى، وأركبوهن خلفهم على ظهور الجياد.

ولكن عنترة ما كان له أن يقف متفرجًا بينما العدو يسبي الحِسانَ اللاتي في عُهدته. فاللحاقُ بالفارس الذي اختطف عبلة، وطرحُه جثةً هامدةً على الأرض، وسلبُه حصانَه

ودرعَه، كان بالنسبة إلى عنترة مجرد لهو صبيان. وبعد ذلك لحق ببقية الفرسان، وبيدٍ واحدة صنع الأعاجيب، فمن نجا من حد سيفه، ولّى هاربًا تاركًا وراءه غنيمته من النساء وغيرها.

وكانت هذه أولى مآثر عنترة شبه الحربية، وحين عاد الملك زهير وسمع بصنيعه، أثنى عليه على رؤوس الأشهاد، وخلع عليه خِلعة. ولم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى هزم عنترة ثُلَّةً كبيرةً من الأعادي، وكانوا قد طوَّقوا أبناء الملك وحاشيتهم. شعر الملك بالامتنان لعنترة على حُسن صنيعه، فأقام مأدبةً عظيمةً احتفالًا بنجاة أبنائه الأمراء، وأجلس البطل إلى جانبه، وأمر شدادًا ألا يرسل ابنه لرعي الإبل بعد اليوم، بل يجعله يتخذ مكانته بين فرسان القبيلة ومحاربيها.

عنترة وأم عبلة

اشتهر عنترة بأشعاره وشدة بأسه وبسالته، وبطبيعة الحال نجح في استمالة محبوبته عبلة. لكنه لم يكن الشخص المناسب في نظر عمه مالك، والد الفتاة، بل إن أمها سخرت من تشبيبه بابنتها في شعره. وفي يومٍ من الأيام، تطلب منه بازدراء أن ينشدها بعضًا من أشعاره التي قالها في عبلة، فيستجيب لطلبها:

أُحبك حبَّ كِرامِ الرجال ... وأقنعُ منك بطيفِ الخيالِ
وأنتِ مُحكَّمَةٌ في دمي ... ومالكتي فاسمحي بالوصال
فيا عبلة قد كلَّ مني اللسانُ ... بتعدادِ وصفك ذاتَ الدلال
فَقَدُّكِ غُصْنٌ كبانِ النقا ... قويمٌ لدى الميل والاعتدال
وثغرُك يحكيه دُرُّ النظام ... فكيف نُشَبِّهُه باللآلي
ولي في جبينك كلُّ الهدى ... وبالليل شَعرُك فيه ضلالي
ونهداك قد خُلِقا فِتْنَةً ... فيحفظك الله ربُّ الجلال
وعِقْدُك قد شدَّ عِقْدَ الصدور ... وحلَّ من الناس عقد الوصال
بخصرٍ نحيلٍ رقيق المعاني ... ويحمل جورَ الهوى وهو بالي
ومن دونك أُسْدُ البِطاح ... وبِيْضُ الضياء وسُمْرُ العوالي
ووجهُك يحكي هلالَ السماء ... قريبُ الصِّفاحِ بعيدُ المنالِ

وقد شاع عشـــقي وحبي لديك فهـــل لي مُعينٌ على ســـوء حالي
فديتُـــك إنســـانَ عـــينِ الفؤادِ وفيك تعلَّمـــتُ رعـــيَ الجِمال
وأعْجَـــبُ أن أصيـــدَ الأُســـودَ وتنقضـــي منكِ عـــينُ الغزال
وتخشى الضـــراغم من سطوتي وأخشـــى ملامَك بنـــتَ الموالي
عليـــكِ ســـلامٌ بطولِ الـــدوامِ فإني مـــدى العمر ما قطُّ ســـالي

عنترة يُغضِب أباه

تشرَّف عنترة بمرافقة ثلةٍ من سيدات عبس وحاشيتهن لحضور حفل زفافٍ في قبيلةٍ تربطها بعبس أواصر المودة، وكانت عبلة من بين هؤلاء النسوة. وفي الطريق، هاجمت قافلتهم ثلةٌ من قطاع الطرق، فصاح عنترة، "يا لعبسٍ، وأنا حبيب عبلة." ثم أعمل فيهم السيف، فمنهم من قُتِل ومنهم مَن هرب خائبًا. أتاحت عودة النساء من حفل الزفاف للبطل فرصة أخرى ليبرز شجاعته، فبعد مواجهة عددٍ من الأعداء وقتلِه عددًا من الفرسان المشهورين، يعود عنترة بنساء عبس سالماتٍ غانمات.

وبطبيعة الحال، تفاخر شداد باشتهار ابنه العبد، بل أعلن نيته في رفع مكانة عنترة. ولكن أخاه مالكًا ثَناه عن هذا الأمر حين هدد أن يعتزل القبيلة لو أن شدادًا رفِع مكانة عنترة فوق مكانة العبد. وذات ليلة، لعبت الخمرة برأس عنترة، فتجرأ على مواجهة أبيه والطلب منه أن يمنحه مرتبة الحُر. فغضب أبوه من وقاحته، وهدد بقتله. فطلب عنترة المشورة والحماية من صديقه الأمير مالك الذي أسف لأن عنترة أغضب أباه. وفي إجابة عنترة التالية قدرٌ كبير من نداء الفطرة، "مولاي، لا تستهِن بطموحي الذي يطير بلبي وحِلْمي في غالب الأحيان، فلولا أنني ثَمِلتُ لَمَا حدث كل هذا، وكان الأجدر بي أن أُخفي أمانِيَّ، وأصبر على بلائي حتى يدركني الموت. ولكنك أنت مولاي في كل حال. آهٍ، يا مولاي، كم أنقذتُهم من أعدائهم، وما أعانني أحدٌ منهم قط! واعلم، يا مولاي، أنني أحب عبلة ابنة عمي مالك، وحبها يُبعِد النوم عن جُفوني. وفي لياليَّ الأرِقة، أخلو بها في أحلام يقظتي، ولكن أبي شدادًا حطَّم آمالي، ومصائبي الجمّة تغلبني. فكل ما طلبته هو أن يعترف بي لعلّي أقترن بها. ولكن آمالي بنيل عبلة قد تحطمت جميعًا. لقد هجرتني الأفراح، واسودّت الدنيا في عيني. ولا مكان لي إلا بين الوحوش والزواحف!" وكانت الدموع تنهمر من عيني البطل وهو يتحدث عن عذاباته والْتياعِه. حاول الأمير مالك أن يخفف من لوعة عنترة بأن وعده بالتوسط له وحمايته، وبقي عنترة ليلته مع الأمير مالك.

كيف حصل عنترة على حصانِه الأبجر

تسلل عنترة عند الفجر من خيمة الأمير، فامتطى حصانه، وهام في الصحراء، وهناك التقى مصادفةً بأربعين فارسًا من عبس. انضم إليهم عنترة، وانطلق العبسيون إلى ديار قحطان، فرأوا "أنعامًا وخيلًا وقبابًا منصوبة، وخيامًا مضروبة، وكانت الخيول تعدو هنا وهناك، والجمال ترعى، وكان القوم لاهين غافلين عن تبدُّل الحظوظ من حالٍ إلى حال." ساق عنترة القطيع بينما انشغل أصحابه بنهب الخيام. ولما صار على مسافةٍ رأى عنترة فارسًا "يمتطي مُهرًا داكنَ اللون، مُكتنزَ اللحمِ، جميلًا، من سلالةٍ كريمةٍ (فأبوه واصِل وأمه حمامة). كانت حوافره كأنها نقدٌ مَسْكوك، وحين يصهل كأنه يوشك على الكلام، وكانت أذناه كأنهما إبرتا شيهَم." ولما رأى عنترة جمال الحصان وسرعته، تاقت إليه نفسه، فطارد الخيّال حتى مغيب الشمس حين توقف الفارس الغريب، وأقبل عليه عنترة، وساومه على شراء الحصان الجميل. ولكن الفارس ما كان ليفارق حصانه إلا لقاء القطيع الذي أُخِذ من قبيلته، فوافق عنترة بلا أناةٍ.(٧) وهكذا امتلك الأبجر، حصانه الشهير الذي أنجز على صهوته كثيرًا من مآثره العجيبة الكثيرة.

عنترة يهاجم موكب عُرس

في اليوم التالي صادف عنترة ورفاقه موكب عُرسٍ غفيرًا، وكان هودج العروس المزين بالديباج ويعلوه هلالٌ من ذهب تسير أمامه الجواري والعبيد بأثوابهم الملونة، ومن خلفه سبعون فارسًا. هاجم العبسيون الموكب وأسروا العروس. وبينما كان عياض [بن ناشِب العبسي] والآخرون يتخاصمون مع عنترة حول حصته من الغنائم، وصل والد العروس يزيد بن حنظلة، الملقب شارب الدم، ومعه ثلاث مئة محارب. "وسرعان ما قعقعت السيوف، وجاشت النفوس، وطارت الرؤوس كالكُرات والأيدي مثل أوراق الشجر. انقض الطائيون على معشر العبسيين، واستبسل شارب الدم وحرر ابنته من الأسر. ترك العبسيون غنائمهم، بعد أن تخاذلوا وخارت عزائمهم، وفزعوا إلى البراري." أراد عنترة أن يعاقب أصحابه الخسيسين، فراح يتفرج على المعركة، لكنه لما رأى العبسيين يتراجعون،

(٧) الفارس الغريب صاحب الأبجر اسمه الحارث بن عبّاد اليشكُري، وهو ليس من حيٍّ قحطان، بل كان ضيفًا عليهم نزل عندهم بعد اختلافه مع قومه. وما كان ليوافق على مقايضة مهره بغنائم العبسيين إلا ليردها إلى أهلها القحطانيين، فيرد بذلك إليهم جميل استضافته. انظر، رحاب عكاوي «ملحمة العرب: سيرة عنترة بن شداد» (بيروت: دار الحرف العربي، ٢٠٠٣)، ص ٦٧-٦٨. [المترجم].

انقض على الطائيين، وذبح بيده ثمانين من أشجع محاربيهم، بينما هرب الآخرون مع شارب الدم وابنته إلى السهول. وما إن عاد العبسيون من مطاردة الطائيين حتى وصل الناقد [بن الجلاّح]، زوج العروس، مع عدد كبيرٍ من الفوارس، ونشبت حربٌ ضروس بين الطرفين في الحال. غُلِب العبسيون، وكانوا على وشك التقهقر، حين قلب عنترة الموازين بملاقاته الناقد وقتله.

في هذه الأثناء كان الملك زهير قد أرسل عبدًا للبحث عن عنترة، فعاد ليخبره أنه مشتبكٌ مع قبيلة معن في معركة حامية الوطيس. فأرسل الملك من فوره ابنه الأمير مالكًا مع ثلةٍ من المقاتلين لنجدة عنترة، ولكنهم حين وصلوا، وجدوه قد تغلب على عدوهم. فعاد عنترة والأمير مالك إلى ديار بني عبس. خرج الملك زهير وشيوخ القبيلة لملاقاة عنترة وتهنئته بالعودة سالمًا. وبعد أن رحب الملك بعنترة أجمل ترحيب، ركض البطل إلى أبيه شداد، طالبًا منه الصفح، وكانت القبيلة كلها مذهولةً من شجاعته.

التآمر على البطل

لكن الشيخ مالكًا، عم عنترة، وحزبه عقدوا العزم أكثر من ذي قبل على منع زواج عنترة من عبلة. شعر مالك بالحسد من التكريم الذي لقيه عنترة من الملك، كما أغضبته جرأة عنترة في إذاعة حبه لابنته عبلة، فاقترح على ابنه عمرو أن يقتل عنترة. كما راح أعداءٌ آخرون أشدُّ بطشًا يخططون لهلاكه. فتنصحه أمه زبيبة، ببساطة قلبها، أن يعود إلى رعي القطعان وألا يُعرِّض حياته للخطر بعد اليوم. فيبتسم البطل ويقول لها إنه سيجعلها تفتخر به أكثر في القادم من الأيام.

يعترض الأمير شاس، الذي لم يغفر لعنترة قَتْلَه عبدَه المتغطرس، أمام أبيه من ازدياد حظوة عنترة لديه، ومن جراءته في طلب الزواج من عبلة. ولكن الملك زهيرًا يوبخ ابنه لما يُكِنُّه من مشاعر عدوانية تجاه البطل، فمن يدري لعل الله يُنعِم على عنترة ما لا نعلمه. فدخل عنترة الخيمة وقد سمع حديثهما فأنشد يقول:

هــذِه نــارُ عبلــة يــا نديمي قد جلتْ ظلمةَ الظّــلام البهيم
تتلظَّــى وَمثْلُهــا في فــؤادي نارُ شَــوْقٍ تــزْداد بالتَّضــريم
أَضْرمَتْهــا بيضاءُ تهْتــزُّ كالْغُصْـ ـــن إذا مــا انثنى بمرِّ النســيم

وكَســـتْهُ أنْفاسُـــها أرَجَ الـــن ـــــدِّ فَبِتْنا مـــن طيبِهـــا في نَعيم
كاعبٌ ريقهـــا ألذُّ من الشـــهـ ـــدِ إذَا مازجتْهُ بنْـــتُ الكُرُوم
كلما ذُقْـــتُ بـــاردًا مـــن لمَاها خِلْتُـــهُ في فمـــي كَنـــار الجحيم
سَرقَ البدْرُ حسْـــنَها واسْتعارَت ســـحرَ أجفانها ظباءُ الصَّـــريم
وغرامـــي بهـــا غـــرامٌ مقيـــمٌ وعـــذابي مـــنَ الغـــرام المقيم
واتّـــكالي عـــلى الذِي كلّـــما أبـ ـصـــرَ ذلّي يزيـــد في تعظيمـــي
ومُعينـــي عـــلى النَّوائـــبِ ليثٌ هـــو ذخْـــري وفـــارجٌ لهمومي
ملِـــكٌ تسْـــجُدُ الُملـــوكُ لذِكْرَا هُ وتُـــومي إليـــهِ بالتفخيـــمِ
وإذا ســـارَ ســـابَقَتْهُ المَنَايـــا نحوَ أعـــداهُ قبلَ يـــومِ القدوم

أجزل الملك شكره على قصيدة عنترة، واعترف بعجزه عن مجازاته جزاءً يفيه حقَّه عليه، "حتى لو أعطيتُك كل ما أملك. فمُلكي زائلٌ كأنه لم يكن. ولكن مدائحكَ باقيةٌ أبد الدهر." فأعطاه أَمَتَيْنِ من الأبكار جميلتين كالأقمار، وصفَّين من الجواهر النادرة، وبعض الطيب. ثم انسحب عنترة وأقبل على خيام بني قُراد، فلم يجد الرجال، وكانت النساء ينتظرن ليحكي لهن عن مآثره، وعبلة أكثرهن تَشَوُّقًا لسماعه.

رقَّت عبلة لِما بدا عليه من الأسى، وكانت تحبه لشجاعته وفصاحته. فسألته مُداعِبةً، "وأين نصيبي من غنائمك، يا ابن العم؟ أَصِرتُ الآن لا أساوي عندك شيئًا؟" فأجابها، "لقد أعطيتُها كلَّها لأبيك وأعمامِك." ثم أعطاها العبدتين والجواهر التي أهداها إليه الملك، أما الطيب فوزَّعه على عمّاته، وهو يقول لعبلة إنها لا تحتاج إلى الطيب لأن نَفَسَها أعذب من أي طيب.

عنترة يُنقذ أباه وأعمامه

لما علم عنترة أن أباه شدادًا وأعمامَه ذهبوا في إثر فارس اسمه قيس سلب بعض الماشية من قبيلتهم، ركب حصانه الأبجر وانطلق لنجدتهم. وإذا أبوه وأعمامه مقيَّدون أذِلّاء على ظهور خيولهم، وقد أسرهم قيس. فزجر قائلًا، "أيها الجبناء! هلُمَّ إلي، يا قيس!" وما إن سمع قيس التحدي، حتى لَكَز حصانه وأقبل على عنترة وهو يقول:

أنا ابن ضبيان تخـــشى ســطوتي العرب وأكـــشــف الكــــرب والهندي مختضب
والنقـــع قـــد ثـــار والأبطـــال صائلة والأرض مـــن شـــدة الأوهاج تنقلب
لا خـــير في المـــرء قـــد تدنـــو منيتـــه ومـــا لـــه همـــة تجْـلى بهـــا الكرب

فرد عنترة على أبياته الوقحة بقوله، "صَهٍ، ثكلتك أمُّك!"

إذا ما منادي الحيِّ نـــادى أجبْتُهُ وخيْلُ المنايـــا بالجـــماجمِ تَعْثُرُ
سَلِ المشـــرَفيَّ الهندوانيَّ في يدي يخـــبِّرْكَ عنِّي أننـــي أنـــا عنْتَرُ

وبعد أن ارتجل هذه الأبيات، سلَّ عنترة سيفه وضرب قيسًا بين عينيه، ففلق خوذته وحشوتها، وظل سيفه يفلُق جسد قيس حتى فخذيه، بل أصاب ظهر حصانه، ثم صاح، "أيها البائس، ما شفيتُ غليلي، وأنا حبيب عبلة!" ثم انقض على بني ذبيان، ففروا خائبين، تاركين وراءهم أسلابهم.

الفارس المازني المُتيَّم

يعود العبسيون منتصرين، فيخرج الملك زهير لملاقاتهم عند غدير ذاتِ الإرصاد، حيث يقيم مأدبة عظيمة للاحتفال بمآثر عنترة. وبينما الاحتفالات قائمةٌ على قدمٍ وساقٍ، يصل فارسٌ شهمٌ من قبيلة مازن، ومعه مئةٌ من أتباعه، فيتوسل إلى الملك أن يُنجده. إنه حصن، أخو الأمير مالك بالرضاعة. يخبر الملك أنه طالما عشق نعيمة، ابنة عمه نجم. ولكن زعيمًا ثريًا يُدعى عوف قد جاء ليخطب ابنة عمه الحسناء، وخشي أبوها من إهانة مثل هذا الفارس المغوار لو رفض طلبه. ولكن حِصْنًا سوّى الأمر بمواجهة عوف وإنزاله عن مطيته، وكان يَهُمُّ بقتله لولا شفاعة عمه نجم الذي ذكَّره بأن عوفًا قد أكل من خبزه وأنه في ذِمامِه، ولكن حِصْنًا يقص جديلةَ عوف ويُرسله إلى قبيلته صاغرًا ذليلًا. وحتى هذه اللحظة سارت الأمور على ما يُرام، ولكن حِصْنًا لا يملك من مهر ابنة عمه شَروى نَقير، فيخرج لتحصيله بالطريقة المعتادة، وهي الإغارة على إحدى القبائل. يعود حصن بثروة عظيمة ليجد أن زعيمًا أكثر ثراء من عوف، يُدعى عَسّاف، قد تقدم لخطبة ابنة عمه، ورفضه أبوها. لذلك جاء عساف الآن، ومعه كل محاربي قحطان، لمهاجمة القبيلة، ولهذا جاء يستنجد بالملك زهير في صد الغارة القادمة. وما إن أنهى حصن كلامه حتى هبَّ عنترة واقفًا، وعرض على حصن المساعدة بتلهُّف، وأذِن الملك زهير للأمير مالك أن يرافق البطل مع ألفٍ من خيرة المحاربين.

كيف وجد عنترة سيفه الظامي

فارتحلوا ثلاثة أيام، وفي الرابع ابتعد عنترة عن أصحابه قليلًا (لمجدٍ وخيرٍ اصطفاهما له ربُّ السماوات من دون سائر خلقه)، ونزل في وادٍ عميقٍ، فأبصر فارسين يتقاتلان قتالًا شديدًا. فلكز عنترة حصانه وأقبل عليهما وهو يقول، "توقفا، يا أخَوَيَّ العرب، ونبِّئاني عن سبب خصومتكما." وفي الحال تنحى أحدهما جانبًا، وأقبل على عنترة وقال، "يا فارس البوادي والحواضر، يا ابن الكرام، أجِرْني من أخي." فقال له عنترة، "وهو كذلك، وعهدًا عليَّ أن أحميك. لكن قُصَّ عليَّ خبرك، وما ساقكما إلى هذا القتال."

فقال الفتى، "اعلم، يا فارس الزمان، أن هذا الفارس أخي من أبي وأمي، وهو الأكبر وأنا الأصغر، وكان أبونا من سادات العرب واسمه عمرو بن الحارث بن قتيبة، وقتيبة جدُّنا الأكبر. وبينما كان في مجلسه ذات يومٍ، شرد واحدٌ من جِماله، وكان أثيرًا لديه، فسأل بعض الرعاة عنه، فقال له أحدهم، 'اعلم يا سيدي أن هذا الجمل قد شرد عن المرعى، فلحقتُه، وظل يجري وأنا أجري وراءه حتى أدركني التعب، فمددت يدي وتناولت حجرًا أسودَ، مثل صخرة قاسية، وكان براقًا يتلألأ. فضربت به الجمل، فأصابه من جانبه الأيمن وخرج من جانبه الأيسر، وخرَّ الجمل صريعًا على الأرض. وحين أقبلت على الجمل، وجدته يتمرَّغ في دمائه، والحجرُ مُلقى بجانبه.'

"ولما سمع جدي هذا الخبر، ركب حصانه، وأخذ الرعاة معه، وخرج ليستطلع المراعي. وظلوا سائرين حتى وصلوا الجمل الذي وجدوه ميتًا، وبجانبه الحجر. تناول جدي الحجر، وعاينه، فعرف أنه حجر سقط من السماء، فحمله وعاد به إلى دياره. ثم أعطاه لحداد، وأمره أن يجعل له منه سيفًا. لبى الحداد أمر جدي، فأخذه وراح، ثم عاد بعد ثلاثة أيامٍ بسيف طوله ذراعان وعرضه شبران. أخذ جدي السيف، وسُرَّ به سُرورًا عظيمًا لما رآه، فالتفت إلى الحداد وسأله، 'ماذا سمَّيته؟' فقال الحداد:

سيفُ حديدٍ ما له مَن يُغالِبُهْ   مَليحٌ، ولكن أين للسيف ضاربُهْ؟

"فلوَّح جدي بالسيف، وقال، 'أما عن ضارب السيف، فهو أنا' ثم أطاح برأس الحداد بضربةٍ من سيفه. ثم غلف السيف بالذهب، وسمّاه الظامي بسبب مضائه. ثم خبأه بين كنوزه، ولما مات ورثه أبي مع جملة ما ورثه من أسلحة، ولما أدرك أبي دُنوَّ أجله، طلبني للنجوى وقال لي، 'يا بني، إني أعلم أن أخاك متسلطٌ، عنيدٌ بطبعه، يُؤْثِر الظلم على العدل، وأنا مُدركٌ أنه

سيحوز ملكي لنفسه عند موتي.' فقلت له، 'وما العمل، يا أبي؟' فقال، 'خذ هذا السيف وخبئه، واكتم خبره، فإن غصب أخوك قطعاني ومالي، فارضَ يا بني بهذا السيف، فإنه سيُرضيك. فلو أخذته إلى أنوشِرْوان، ملكِ الفُرْس، لأسبغ عليك من كرمه ما يُعلي به شأنك، ولو قدمته لملك الروم لأغناك بالذهب والفضة.'

"وحين سمعت قوله، وافقت على ما طلبه مني، فأخذت السيف ليلًا، ودفنته في هذا المكان، وعدت إلى أبي ومكثت عنده إلى أن مات. ثم دفنّاه وعدنا إلى منازلنا، فاستولى أخي على مُلك أبي كله، ولم يُعطني ولو حبلًا باليًا. ولما بحث بين الأسلحة، افتقد الظامي وسألني عنه. أنكرت أي علمٍ لي به، فكذَّبني، وشتمني أقبح الشتائم، فاعترفتُ أخيرًا، وأخبرتُه أنني دفنته في هذا المكان، فجاء معي، وبحث عنه فلم يجده. فسألني مرة أخرى أين دفنته، ولما رآني ألوبُ لَوْبًا، انقضَّ عليَّ، وهو يصرخ بي، 'أيها التعس، أنت تعلم مكان السيف ولكنك تتظاهر بهذا لكي تخدعني.' فهجم علي يروم قتلي. وحاميتُ عن نفسي إلى أن وصلتَ، وأنا الآن في ذِمامِك.'

فلما سمع عنترة مقال الفتى، رقَّ له قلبه، والتفت إلى أخيه الأكبر وقال، "لماذا تظلم أخاك ولا تتقاسم معه تركة أبيك؟" فرد عليه هذا وقد استبدَّ به الغضب، "وما شأنك بيننا، يا عبدَ السوء؟ امضِ لشأنك ولا تتدخل تدخُّلَ صفيقٍ!" ثم عَطف على عنترة وهو يظن أنه من عامة الناس، ولكن عنترة لم يمهله حتى يستدير أو يشد لجام حصانه، بل سدد له طعنة من رمحه اخترقت صدره، وشقت ظهره مسافة عشرة أشبارٍ، فصرعه. ثم قال للفتى، "والآن أيها الفتى، عُد إلى أهلك واتَّخِذ مكانتك بين قومك، ولو تحرش بك أحد، أرسل في طلبي، وسآتي وأستل روحه من جسده." شكره الفتى، ولسانه يلهج بالشكر امتنانًا، ثم قال، "أمَا وقد مات أخي، فلم يعد لدي أعداءٌ." ثم عاد إلى دياره.

ولكن عنترة شكَّ رمحه في الأرض، وترجل عن الأبجر، وجلس ليستريح، وبينما كان يُنكث الرمل لامست أصابعه حجرًا، فأزاح الرمل من حوله، فإذا به يعثر على السيف الذي كان يبحث عنه الفتى. استلَّ عنترة السيف من الأرض، فإذا به يبلغ طوله ذراعين وعرضه شبرين من معدن المالك، كأنه حجرٌ قُدَّ من صاعقة. اقتنع عنترة أن كل شيء بتوفيقٍ من الله.

نَجْدَتُهُ بني مازن

في اليوم التالي واجه العبسيون خمس مئة فارسٍ مُدَرَّعٍ بقيادة عياض، وهو زعيمٌ متغطرسٌ كان عنترة قد قتل أباه من قبلُ في إحدى حملاته. وكان عياض يتقدم بقواته لمؤازرة

عساف في هجومه المُزمَع على بني مازن حين التقوا بفرسان عبس. التقى الجمعان، والتحم الفرسان بالفرسان، وفرَّ ضعفاءُ الجَنان، ولحق العار بأهل الخِذلان، ولم يثبت في الميدان إلا الأنداد والشجعان. اهتزت الأرض تحت سنابك الخيل، وتلبَّدت السماء بسحب النَّقع، وأُثخِن المحاربون بالجراح، واجتهدت السيوف في سبيل الموت، وحمي الوطيسُ، وشمَّر الكل عن ساعد الجِد. وامتدت المعركة حتى انتصف النهار حين التقى عنترة بعياض، فتمكن البطل العبسي بعد معركةٍ مستميتة أن يسدد لخصمه من سيفه الظامي ضربةً فَلَقَتْهُ وحصانه في آنٍ معًا.

هرب المحاربون لما رأوا مصرع زعيمهم، فجمع العبسيون الخيل والغنائم، وواصلوا مسيرهم حتى بلغوا مضارب بني مازن. وهنا كانت الحيرة والكآبة ضاربة الأطناب، فعساف وفرسانه كانوا منشغلين بسلب حيِّ النساء، فانقض عنترة، الذي لا يتوانى قط عن نجدة النساء، مع فرسانه على الجبناء، وفرق جمعهم شذر مذر، وهو يصول ويجول بينهم كأنه قضاءٌ حُمَّ عليهم.

بحث عنترة بلهفةٍ عن الريشة التي تعلو رأس عساف، ولم يتوانَ عن الكرِّ حتى وقف تحت الراية التي كان يقف عندها عساف بانتظار أن يأتي له أصحابه بأميمة؛ وما كان هذا ليتزحزح حتى صار عنترة أمامه وواجهه. ثم تلت ذلك مواجهة مريعة. دامت المعركة ساعة، ثم نَمِلَتْ يدُ عساف فلم تعد تقوى على القتال. رأى عنترة ما آل بخصمه، فاعتنقه، وتعارك معه، ثم استل سيفه من قِرابه، وسدد له ضربةً على رأسه، لكن عسافًا تحامى منها بترسه. هَوَت ضربة سيف عنترة على الترس ففلقته، وفلقت الخوذة، وراحت تشقه شقًّا حتى بلغت بين فخذيه، ثم فلقت ظهر حصانه، فخرَّ الفارس وحصانه في أربعة أوصال، فصاح عنترة، "وحقِّ عبس، وأنا حبيب عبلة، لا شفى الله غليلي!"

عندئذٍ عطف أتباع عساف خيلهم ولاذوا بالفرار بين صخور البيداء. وبعد أن طاردهم فرسان عبس ومازن، عادوا إلى الخيام، فأقام حصن الولائم لعنترة ورفاقه لسبعة أيام، وفي الليلة الثامنة تزوج محبوبته أميمة. وفي اليوم التالي عاد فُرسان عبس إلى ديارهم.

خاطبٌ آخر لِعَبلةَ

بينما كان عنترة ذاهبًا لنجدة بني مازن، حدث شيءٌ أفسد آماله في الفوز بعبلة، وأسفر عن عددٍ من المتاعب له ولأسرته، بل لقبيلة عبس برمتها. فقد خطب عبلةَ أحدُ سادات عبس واسمه عَمارة، وكان هذا شخصًا مغرورًا، شديدَ التأنق في ملبسه، مولَعًا بالعطور، يحرص على

ملازمة النساء والفتيات. فلما سمع هذا البدويُّ عن جمال عبلة الذائع الصيت، أرسل أَمَةً إلى مضارب بني قُراد لترى إن كانت عبلة جميلة كما يُحكى عنها. ولما عادت الجارية وهي تلهج بجمال عبلة، تملّكت عَمارة شهوة عارمة لها، فالأذن تعشق قبل العين أحيانًا. لذلك زار الشيخ مالكًا ليطلب ابنته للزواج ويعده بِمَهْرٍ عظيم. فيُسَرُّ مالك الغدار سرورًا عظيمًا أن يكون لديه صهرٌ مثل عَمارة، فيوافق من فوره، وكان يأمل أن يكون عنترة قد أصبح في هذه الأثناء طعامًا للغربان والنسور.

في اليوم التالي بينما كان عَمارة يسرع إلى والد عبلة يحمل إليه المهر وهدايا الزواج، وصل رسولٌ يقول إن عنترة قد عاد بصحبة الأمير مالك، فخرجت القبيلة بأكملها لاستقبالهما. بقي عنترة ليلته تلك مع والدته زبيبة التي أخبرته أن عبلة قد خطبها عَمارة، فاسودَّت الدنيا في عينيه. وفي الصباح يُطلِع عنترة صاحبه الأمير مالكًا على ما بَدَرَ من غدرِ عمه، فيعده الأمير بأن يحوز عبلة له وذلك بوضع اسمه عليها كي يُبعِد الخُطّاب عنها إلى أن تصبح زوجته. ثم يذهب الأمير مالك إلى شداد ويطلب منه أن يعترف بابنه رسميًا كي يأخذ مكانته بين سُراةِ القوم. ولكن ما كان لشداد أن يفعل ما لم يفعله أحدٌ من شيوخ العرب من قبل، وهو أن يرفع من مكانة ابنه العبد. فرد عليه الأمير مالك، "ولكن لم يكن لأحدٍ منهم ولدٌ مثل عنترة. ولتكُن أنت قدوةً للعرب، فالبدعة الحسنة يرضاها الناس ولو كانت جديدة." ولكن الأمير لم يُفلح إلا في انتزاع وعدٍ من شداد أنه سينظر في الأمر.

في هذه الأثناء يلتقي عنترة بمنافسه عَمارة المتعجرف وهو خارج من زيارته لخيمة الشيخ مالك، فيخاطب عَمارة عنترة بتعالٍ ووقاحةٍ، فيمسك عنترة بالأحمق المغرور ويطرحه أرضًا، فينقض أتباع عَمارة، ويكادون أن يفتكوا به لولا وصول الأمير مالك الذي كان عائدًا من عند شداد، فينقذه وهو يصيح، "إن عنترة دُرّة نادرة بين قومٍ لا يعرفون قيمته! هيّا يا عنترة، عليك بآل زياد!" وراح يُعمِل فيهم سيفه إلى أن وصل الملك وفصل بين المتحاربين.

ومع أن عَمارة المغرور استحق العقاب الذي لقيه من عنترة، إلا أن رفع عبدٍ يدَه في وجه سيدٍ من سادات عبس ذنبٌ لا يُغتَفر في نظر أعداء البطل، مما اضطر شدادًا لأن يُعيد ابنه إلى مهنة رعي الغنم والإبل. وقد حزَّ في نفس عنترة أن يرى محاربي عبس وهم يتأهبون لصد هجومٍ مُزمَعٍ من قبيلة طيء. ولكن أمه زبيبة تأتيه برسالة حب وعزاء من عبلة الوفية تقول، "هدئي من روعِ ابن عمي عنترة، وقولي له: حتى لو جعل أبي قبري مُستراحي، لَمَا رغبت إلا فيه، ولَمَا اخترت أحدًا سواه."

معركة قبيلتي عبس وطَيء

التقى جمعُ العبسيين مع الطائيين، فانهزم العبسيون، وتراجع شجعانهم، وسُبيتْ نساؤهم. واستذكر زعماء عبس في محنتهم شجاعة عنترة الذي أدى حسدهم وحقدهم عليه إلى حطِّ منزلته من منزلة أشجع محاربي زمانه إلى منزلة راعٍ للغنم والإبل، فيرسلون إليه رسولًا يستنجده. ارتدى عنترة درعه وامتشق سيفه الظامي وامتطى الأبجر والتحق بسادات عبس. أقسم شداد أغلظ الأيمان أنه سيعترف بابنه إن هو استطاع ردَّ النساء والأسلاب، كما أقسم عمه مالك أنه سيزوجه عبلة إن هو استطاع إنقاذها. وعلى هذه الشروط وافق عنترة على أن يسترد كرامة القبيلة.

كان همه الأول هو أن يهاجم الخيّال الذي سبى عبلة. طعنه عنترة في خاصرته برمحه، وتلقّى عبلة بين ذراعيه كأنها عصفورٌ خائف، لكنها لم تُصَب بأذى. ثم انقض على العدو كأنه إعصارٌ لا يُقاوَم، وأعمل فيهم سيفه الظامي، فأطار الرؤوس والأطراف كأنها أوراق شجرٍ مبثوث. يتجمع العبسيون مرة أخرى ويهجمون على الطائيين الذين يفرون من سيف عنترة بعد سقوط زعيمهم الربيع، ثم يعود العبسيون إلى منازلهم بعد دحر العدو، يتقدمهم عنترة الذي كان يُنشد أنشودة النصر:

عَتَبْتُ الدَّهرَ كيفَ يذلُّ مثلي ... ولي عزمٌ أقدُّ به الجبالا
أَنا الرجلُ الذي خُبِّرْتَ عنه ... وقد عاينْتَ مَعْ خبري الفِعالا
غداةَ أتتْ بنو طيٍّ وكلبٍ ... تهزُّ بكَفِّها السُّمرَ الطِّوالا
بجيشٍ كلما لاحظتُ فيه ... حسبتُ الأرضَ قد مُلئتْ رجالا
ودَاسوا أَرْضَنا بمُضَمَّراتٍ ... فكان صَهيلُها قِيلًا وقالا
تولوا جفَّلاَ منَّا حيارى ... وفاتوا الظعن منهم والرِّحالا
وما حملتْ ذَوُو الأَنسابِ ضَيمًا ... ولا سمعتْ لداعيها مَقالا
وما رَدَّ الأَعِنَّةَ غيرُ عبْدٍ ... ونارُ الحربِ تشتعلُ اشتعالًا

عنترة يُتوَّج بطلًا لعبس

وأخيرًا يأخذ البطل مكانته معززًا مُكرَّمًا بين محاربي عبس. يقيم الملك زهير وليمةً احتفالًا بهزيمة الطائيين، ويقدم لعنترة ثوبًا مُوشّىً بالذهب، ويُوَشِّحه بسيفٍ متين، ويضع في يده رمحًا خَطيًّا، ويُركِبه على حصان عربي أصيل، ثم يُسميه بطلَ عبسٍ وعدنان. وبهذا زالت فيما يبدو

العقبة الأساسية من طريق اقتران عنترة بعبلة؛ كما أن والد الفتاة قد حلف يمينًا معظَّمًا لَيُزوجنَّ ابنته لعنترة إن هو أنقذها من الطائيين. ولكن مالكًا الغدار لم يكن ينوي الوفاء بوعده. ولما كان عنترة ذا حُظْوةٍ لدى الملك، لم يكن بوسع مالك إلا أن يُبدي استعداده لإعطاء ابنته لمنقذ القبيلة. ولكن الشيخ مالكًا كان حاذقًا في فنون المكر والخداع، فابتكر خطةً تُعَرِّض حياة عنترة لموتٍ مُحقَّق. فطلب منه مهرًا لعبلة ألفًا من الإبل العصافيرية التي يملكها المنذر بن ماء السماء، ملك العرب، وتُبَّع كسرى الفرس أنوشِروان. فلو غامر عنترة إلى بلاد شيبان، يقول مالك لشركائه في المؤامرة إنه لن يعود قط لإزعاجنا ثانيةً. ولكن جائزةً مثل عبلة تستحق أن يخوض من أجلها عنترة الأهوال، ولهذا لم يتردد في الإقدام على مغامرته تلك.

عنترة والإبل العصافيرية

سرى عنترة ليلًا مغادرًا مضارب بني عبس قاصدًا بلاد العراق. وقد رافقه في رحلته هذه أخوه الأمين وتابعه الموثوق شيبوب الذي طالما قدم خدماتٍ جليلةً للبطل من خلال مهارته في الرماية، وهو الذي أكسبته سرعة عَدْوِه لقب أبي الرياح. ظلا يقطعان البراري والقفار عبر دروب خفية لا يعرفها إلا شيبوب تمامَ المعرفة إلى أن قدما ذات يومٍ على خيمة منعزلة بجانب نبعٍ وبقربها شيخ كبيرٌ أثقلت كاهله السنون:

وشيخٍ فوق ظهر الأرض يمشي	ولِمَّتُــه تُعــادل رُكْبَتَيْــهِ
فقلت لــه: لمــاذا أنــت محنيٌّ	فقــال رافعًــا نحــوي يديــهِ
شــبابي في الثرى قــد ضاع مني	وهــا أنــا دومًــا أســعى إليهِ

تابع عنترة وشيبوب مسيرهما حتى وصلا بلاد الحِيْرة، حيث وجدا مدنًا عامرة بالسكان وسهولًا تفيض منها الجداول، وتزخر بأشجار النخيل، والأزهار العذبة الرائحة. بدت البلاد كأنها نعمةٌ تُحيي القلب السقيم، وكانت الإبل تسرح وتمرح في الأرض. كل شيء كان يوحي بالغنى والجاه، فأرسل عنترة أخاه ليبحث عن الإبل العصافيرية بينما بقي هو ليُريح الأبجر.

تنكر شيبوب بزي عبدٍ، وقصد خيام العبيد الذين يرعون الإبل، وقال لهم إنه قد أَبِق من سيده، ثم تظاهر بالمرض وأمضى يومه كله معهم. وعندما نام العبيد تسلل هاربًا والتحق

بعنترة، وأخبره عن عدد الجِمال ورعاتها من العبيد. عندئذٍ نصَّب عنترة شيبوبًا بقوسه على الطريق إلى الحيرة، ثم خَزَلَ ألفًا من الإبل العصافيرية، وأجبر بعض العبيد على سوقها نحو بلاده. ولكن الملك المنذر أدركه مع الطلب، فاستبسل في قتالهم جميعًا إلى أن كبا الأبجر وسقط عنترة عن ظهره. وحين رأى شيبوب أخاه يسقط، ظن أنه مات، فانطلق عائدًا إلى دياره لا يلوي على شيء.

ولكن عنترة لم يمت، بل أُسِرَ وجيء به مقيدًا إلى الملك المنذر الذي أراد أن يعرف من أين هو. فقال عنترة إنه من قبيلة عبس. فسأله الملك، "أَمِن محاربيها أم عبيدها؟" فأجابه عنترة، "إن الفَخارَ عند الكرام يا مولاي طعنٌ بالرمح وضربٌ بالسيف وصبرٌ في ساحِ الوغى. فأنا طبيب عبسٍ حين يعتلّون، وحاميهم حين يَذِلون، وحامي نسائهم حين يتأزّمون، وفارسهم حين يُغيرون، وسيفهم حين يتسلحون." ثم يقص على الملك مناسبة مغامرته التي باءت بالفشل. فيستغرب الملك من تعريضه نفسه للمخاطر من أجل فتاةٍ من العرب.

فأجاب عنترة، "أجل، إن الحب يدفع بالمحب إلى ركوب المخاطر والأهوال، وليس هناك ما هو أخطر من نظرةٍ من تحت طرف خِمارٍ." ثم تابع وقد خطرت بباله مفاتن عبلة وما آلت إليه حاله، "فطرفُ فاتنةٍ من تحت الخمار أمضى من وقع الحسام المهند."

وبينما كان الملك يتعجب من بلاغة الأسير وجَلَده، ثار صخبٌ عظيمٌ بين أتباعه بعد أن هجم أسدٌ ضارٍ من الصحراء وراح يفترس أشجع محاربي الملك. عرض عنترة على الملك أن يقتل الأسد إن فُكَّ القيد عن يديه فقط، بينما تبقى رجلاه في الأصفاد، فأُعطي سيفًا ودرعًا. فتمكن من قتل الأسد وسط إعجاب الجميع، ورأى فيه الملك خيرَ مُعينٍ له في خطته للاستقلال عن أنوشِروان، ملك الفرس.

كان المنذر موضعَ تَنَدُّرٍ في البلاط الفارسي حين راح يأكل تمرًا بِنَواه على العشاء، تقليدًا للملك وحاشيته وهو يظن أنهم كانوا أيضًا يأكلون التمر، بينما كانوا في الحقيقة يأكلون اللوز والبرقوق المُحلّى الذي أُعِدَّ لكي يشبه التمر. ولدى عودته إلى دياره عزم على الثأر لكرامته، فراح يُحرض عددًا من القبائل العربية على نهب المدن الفارسية. أمر كسرى أنوشروان المنذر أن يعاقب هؤلاء الناهبين، ولكن المنذر تجرأ على أن يبعث رسالة مع رسول كسرى يقول فيها إنه، بعد الإهانة التي لحقت به في البلاط الفارسي، لم يعد له سلطانٌ على القبائل العربية، وأن على كسرى أن يعتني بشؤون مملكته بنفسه. وكان المنذر ينتظر نتيجة جوابه على كسرى حين وقع عنترة بين يديه.

إرسال المَرْزُبان خُسْرُوان لتأديب المنذر

فَوْرَ تلقيه رسالة المنذر الجريئة، أرسل ملك الفُرس مرزبانَه خُسروان (وهو أُسُّ المشكلة أصلًا) على رأس جيشٍ كبيرٍ لتأديب تابِعِه العربي. ولدى اقتراب الفُرس، حشد المنذر كل بُطون بني شيبان وجموع العرب ليحارب خسروان، ولكنه خسر خسارة مدوية. في هذه المحنة خطر في بال المنذر أسيره، قاتل الأسد، فأمر بفك قيده، وجيء به إليه. فقال البطل، "أنا الآن في قبضتك، ولكني أطلب منك مَهر عبلة، ابنة عمي: أعِد إليَّ سيفي ودرعي وأسلحتي وألفًا من الرجال ليحموني من الخلف، وسترى عجائب إقدامي وقوتي في أعدائك." أقسم المنذر بالكعبة المشرفة إنه إن نجح عنترة في تدمير الجيش الفارسي سيضع كل إبله تحت تصرفه، وأمر أن يُعاد إليه حصانُه وأسلحته.

باكَر العربُ الفُرسَ، بقيادة عنترة، الذي هتف، "وحقِّ عينيك، يا عبلُ" واستقبل هجوم العدو كما تستقبل الأرضُ العطشى أولَّ الغيث. وبسيفه الظامي راح يحصد أرواح الفرس الذين استبدَّ في قلوبهم الرعب من صوته الذي كان يُجلجِل كالهزيم، وكانت ضرباتُ سيفه تتوالى أسرع من وميض البرق، وانتصر جيش المنذر.

مبارزة بين عنترة وخُسْرُوان

استعد الطرفان في صباح اليوم التالي لمعاودة القتال، ودعا عنترة خسروان للمبارزة لحسم المعركة، ولما كان الأبجر قد جُرح في اليوم السابق فلم يعد صالحًا للقتال، فامتطى مُهرًا واندفع بين المقاتلين وهو يقول:

نَفِّســوا كَــرْبي وزيلــوا عِلَلي ... وابْــرِزوا لي كل ليــثٍ بَطَــلِ
وانْهَلــوا من حد ســيفي جُرَعًا ... مُــرَّةً منهــا نقيــعُ الحنظــلِ
وإذا المــوت أتــى في جحفــلٍ ... فدعــوني ولقــاء الجحفــل
يا بنــي الأعــمام مــا بالُكمو ... عــن لقائــي كلكم في شُــغُل
أيــن مــن كان لقتــلي طالبًــا ... رامَ يَسْــقيني شرابِ الأجَــلِ
قَسَــمًا يــا عبلــةُ يــا مُنْيَتــي ... بثنايــا كالــزُّلال العَسَــل
إنني لــولاك ما ذُقــت الكرى ... كــي أرى الطيــف به يــا أملي

يا تُـــرى ريـــحُ الصبـــا تخبرها   باشـــتياقٍ لربـــوع المنـــزل
وتبلغهـــا ســـلامًا كلما شـــق   ذبـــل الليـــل صبحًـــا ينجلي؟

وما إن فرغ عنترة من قوله، حتى برز له خسروان راكبًا حصانًا طويل الذيل، وهو موسومٌ بهلالٍ على جبهته، وعلى جسده مَزْرودةٌ متينةٌ حسنة الحبك من صنع داوود، وعلى رأسه خوذةٌ إمبراطورية وفي يمينه سيفٌ يُبرِق، وتحت فخذيه أربعة نبال صغيرة كأنها ألسنةٌ من لهب.

وحين أقبل على ساحة المعركة زمجر احتقارًا للعرب. فهجم عليه عنترة، وارتفع الغبار حولهما حتى غابا عن الأنظار. وبدا من شجاعتهما الأمر العجيب: فكانا يفترقان، ثم يلتحمان، تارةً يتمازحان وتارةً يتحامسان، تارةً يقتربان وتارة يبتعدان، وظلا على هذا السجال حتى انتصف النهار، وقد بلغ الجهد منهما مبلغًا شديدًا. وكلما حاول خسروان أن ينقض على عنترة ويضربه بقضيب شائك، كان له عنترة بالمرصاد لا تفوته نية خصمه. ولهذا انطلق كالسهم مبتعدًا وراح يصول في الميدان كي يستعرض براعته وحيله.

ولكن عنترة ظل يُشاغِله، حتى أنهكه ومنعه من تنفيذ مآربه، فحنق المرزبان أشد الحنق. فأخذ أحد نباله، وهزه وقذف به نحو عنترة، فطار من يده كأنه برقٌ يُعمي الأبصار أو قَدَرٌ نازل. صمد عنترة في مكانه، وحينما اقترب منه السهم، صده بترسه فارتدَّ عنه وارتمى بعيدًا. استل خسروان سهمًا آخر وسدَّده نحو عنترة، ولكن عنترة قفز مبتعدًا عن مرماه فمر بسلام. سدد ثالثًا، ولكن عنترة أفسد مقصده برشاقته ومثابرته. رمى السهم الرابع، فلقي أيضًا مصير النبال الثلاثة السابقة.

لما رأى خسروان كيف صد عنترة النبال، راح يتميز من الغيظ. فأخذ قضيبه الشائك مرة أخرى، وزأر كما يزأر الأسد، ثم استطال بجسده للأمام ورماه، وأتبع الرمية بصرخةٍ رددت السهول والأجواء صداها. ألقى عنترة برمحه، وواجه القضيب، ثم تلقَّفه بيده اليمنى وهو في الهواء؛ ثم صوَّبه نحو خسروان وصاح، "خُذ هذا، يا ابنَ ديوثٍ بألفي قرن، وأنا حبيب عبلة وأنا، ولا أحد سواي، عنقاءُ الدنيا!" رأى خسروان عنترة وهو يُمسك بالقضيب وهو في الهواء، وارتعب رعبًا شديدًا وخارت عزائمه. فتراجع وحاول أن يفر من خصمه، بعد أن أيقن الآن من هلاكه. ثم أدار ترسه ليضعه بين كتفيه، وأحس بدنو أجله، وأصاب القضيبُ ترسه بقوة أكبر من قوة حجر مِقْلاعٍ، وارتطم بظهر الزعيم الفارسي ارتطامًا عنيفًا، وقذفه من سرج حصانه مسافة اثني عشر ذراعًا، فانكسرت أضلاعه وانقصم ظهره.

أُصيب جميع المحاربين بدهشة عظيمة لهذا العمل المفاجئ، وأصاب الذهول جموع الفرس، فانقضّوا على عنترة وألم المصيبة يعتصر قلوبهم، وعرّضوا أنفسهم لموتٍ محقَّق، فتلقاهم العرب البواسل برؤوس رماحهم، وكانت أرواحهم قد أنعشتها أفعال عنترة. هجم الجيشان وسَنابكُ خيلهم تُدُكُّ الأرض دكًّا. تلاقت الفرسان وبطون العشائر، وتكاثفت فوق رؤوسهم سحب الغبار، وحَمِي الوطيس حتى صار المتحاربون كموج البحر الهائج. وكانت الرماح تبقُر القلوب والخواصر، والرؤوس تتطاير، والدم يفور، وتخاذل الجبناء، وامتلأت قلوب الشجعان بلهيب المعركة، وكان ملك الموت يُدير على القوم كأس المنون، ومضى فيهم حُكم الله جلَّ جلاله.

عنترة في بلاط كسرى

تشجع المنذر إثرَ نجاحه فعزم على إعلان الحرب رسميًا على كسرى، لكن عمرًوا وزيره العجوز الحكيم أشار عليه بتأجيل الأمر، وتعهد له أن يذهب بنفسه إلى عاصمة الفرس ليرى وقع نبأ مقتل خسروان هناك. وجد عمرو حاشية كسرى في حَيْص بَيْص جراء وصولِ فارسٍ مشهور يُدعى بَدْرَمُوط، وكان هذا بطل إمبراطور اليونان الذي حلَّ في الآونة الأخيرة في بلاد الفرس للجهاد في سبيل الدين المسيحي ضد فرسان الفرس. كان الإمبراطور يستعد لإرسال الجزية السنوية إلى كسرى حين قَدِمَ إلى بلاطه بَدْرَمُوط من بلاد الشام التي طالما اشتهر فيها بشجاعته الحربية. ثار غضب البطل المسيحي لمرأى كل هذه الثروة المخصصة لأميرٍ لم يكن على دين الحق. فاقترح بَدْرَمُوط أن يسلِّم الجزية بنفسه على شرط أن يغلبه فارس فارسي في المبارزة. قبل الإمبراطور عرضه، فتوجه البطل إلى بلاد الفرس على رأس خمس مئة فارس. علم وزير المنذر أن بَدْرَمُوط صار له منذ خمسة عشر يومًا يبارز خيرة فرسان الفرس، وتغلب عليهم جميعًا. كاد القنوط أن يأكل قلب كسرى: فما لم يتمكن أحد من فرسانه من التغلب على بطل الإمبراطور، فقد زال سلطانه. تحايل عمرو، من خلال صديقٍ له في البلاط، لتعريف كسرى على عنترة أسد الأبطال الذي قتل مرزبانه في الآونة الأخيرة وهزم محاربيه الذين أُرسِلوا لتأديب المنذر، فأرسل إلى الحيرة يطلب عنترة.

في هذه الأثناء تمكن بَهرام، فارس الديلم المشهور، من الصمود في وجه بَدْرَمُوط مدةَ يومين متتاليين. وفي صباح اليوم الثالث، وبينما كان البطلان يستعدان لمعاودة القتال، طلع على السهلِ الملكُ المنذر وعنترة، ومعهما مئةٌ من فرسان العرب. كان الملك العربي والبطل العبسي قد قابلا كسرى، وقد حيّاه المنذر وفقًا للأصول، ثم تقدم عنترة وخاطب ملك الفُرس شعرًا:

كفـــاكَ الله نائبـــةَ الزمـــانِ وعِشْـــتَ من الحـــوادثِ في أمانِ
ولا زالـــت نجومُـــك زاهراتٍ بســـعدٍ ثابـــتٍ أعـــلى المـــكانِ
ودُمْـــتَ مُبادِيًـــا في كلِّ عِـــزٍّ وحُكْمُـــكَ نافِذٌ أقصـــى وداني
أيا ملـــكًا لقـــد حـــاز العطايا وبَـــذْلَ الجودِ ثـــم عُلُوّ شـــانِ

تعجّب كسرى من فصاحة البطل، كما تعجب من شكله العجيب، فخطر له أنه قد جاء أخيرًا من يهزم بَدْرَمُوط. فأمر عندها أن يُعامل المنذر وعنترة بكل حفاوةٍ وتكريمٍ. وعندما أُمر بنصب الخيام لكي يرتاحا حتى اليوم التالي، أعلن عنترة أنه لن يرتاح حتى يقتل البطل الرومي، واستعد للقتال فورًا. وحين أُخبِرَ بَدْرَمُوط عن البطل الجديد الذي سيُنازله، دخل الحلبة متلهفًا، فتقدم نحوه عنترة وهو يقول:

اليوم أنْصُـــرُ للمليـــكِ المنذرِ لِيَعْلم كســـرى قُـــوَّتي وَتَجَبُّري
وأَهُدُّ رُكْنَ الـــرومِ جَمْعًا في الوغى وأَجُـــزُّ رأسَ البَدْرَمـــوطِ بِأَبْتَرِ
يا أيهـــا النذلُ الـــذي رامَ الوغى مُســـتهزئًا متكـــبرًا بتَجَـــبُّرٍ
إن كنت أنت البدرمـــوط فإنني من آل عبسٍ ليثُ غابٍ قَسْـــوَرِ
ولئن قهرتُ جيوش كسرى في الوغى فلسوف أَقْهَرُ في المجال القيصـــري
فأنا الذي شَـــهِدَت له يومَ الوغى كلُّ الفـــوارس من زبيـــدٍ وحِمْيَرِ
سيفي أنيســـي في الظلام وذا بِلى والمهرُ مـــع رُمْحٍ مَديدٍ أســـمرِ
والليـــل لوني والصبـــاح فعائلي والشـــمس إقبـــالي بغـــيرِ تَنكُّرِ
وفعائلي تُـــزري بأنـــوار الضيا وسُـــمِّيتُ في يوم القِـــراعِ بعنترِ
فَابْـــرُزْ لتلقى شرحَ مـــا قد قلتُه واعلم بأني واحدٌ في الأَعْصُـــرِ

ثم انقض على بطل الروم، وتلت ذلك معركة عجيبة. أدرك بَدْرَمُوط في الحال أن خصمه لم يكن محاربًا عاديًّا، فكانت مهارته وشجاعته غير ذات نفعٍ إزاء خفة عنترة وقوته الذي كان يتفادى أعتى طعنات رمحه بمنتهى السهولة. كان بَهرام، فارس الديلم، يتفرج على القتال والحسد يأكل قلبه، فأدرك أن عنترة سيحرز النصر الذي حُرِم منه، فاستل بِخِسته سهمًا وأطلقه

نحوه بينما كان المتبارزان يلفهما غبارٌ كثيف. ولكن عنترة ما كانت عينه لتغفل عن مثل هذا الغدر، فأمسك بالسهم حين دنا منه، وقذفه نحو بَدْرَمُوط بقوة، فاخترق صدره وخرج من ظهره، وسقط الرومي عن ظهر جواده ولقي حتفه.

كان بِودِّ عنترة أن ينتقم انتقامًا عظيمًا من الغدّار بَهرام لولا أن كسرى حال دون ذلك حين أرسل مَرزُباناته ليُحضِروا البطل إليه، وبعد أن خلع عليه خلعة ملكية، أمر كسرى أن يُساق إلى عنترة كل الذهب والجواهر والإماء الجميلات اللاتي جاء بهن بَدْرَمُوط. وفي اليوم التالي، استعملت الإماءُ كل ما أُوتين من مهارات المداهنة والتملُّق لتسلية عنترة، ولكن هيهات؛ فقد كانت صورة عبلة لا تُفارق مخيلته. ولما لاحظ المنذر هذا الأمر، سخر من تعلُّق البطل بفتاة عربية غائبة، وذكَّره أنه الآن أحرز مجدًا يحسده عليه كل سادات العرب. فرد عنترة بأن كل ما يُحيط به من أُبَّهة لا قيمة له في عينيه، ولا شيء يُنسيه بلاده ومحبوبته عبلة.

وعلى الرغم من شدة شوقه لبلاده، إلا أن عودته تأجلت من يومٍ إلى آخر بسبب رغبة كسرى في إكرامه امتنانًا لصنيعه. رافق عنترة الملكَ في رحلةِ صيدٍ، ولكن بَهرام الذي كان الحسد لا يزال يعتمل في صدره لقتل عنترة البطل الإغريقي حاول أن يغدُر به. ولكن عنترة تفادى ضربته، وألقى به صريعًا على الأرض. انقضَّ أتباع بَهرام الأوفياء على البطل، ولكنه دافع عن نفسه حتى وصل كسرى وأمر مَرزُباناته أن يُمسِكوا بالجبناء ويقطعوا رؤوسهم. فأُخِذ هؤلاء وقُيِّدوا، ولما رأى عنترة ما لحق بأتباع بهرام من عارٍ، ترجَّل عن الأبجر، وتقدم نحو الملك العظيم، وقبَّل الأرض أمامه ورجاه أن يعفو عنهم قائلًا، "إن العفو، يا مولاي، أجدر بك وألْيَق، وها أنا أقبِّل يديك الشريفتين راجيًا أن تغفر لهم جريمتهم هذه. فأنا عائدٌ إلى بلادي غدًا، بعد أن تحققت أمانيَّ تجاهك، ولا أود أن أُذْكَر بعد رحيلي إلا بفضائل أفعالي، ولا أريد أن يُقال عني إنني ذهبت إلى قومٍ وتركتُ فيهم أمرًا شائنًا، متسربلين بالعار." أُعجِب الملك بشهامة عنترة، فلبّى طلبه وأطلق سراح أتباع بهرام.

وفي اليوم عينه حضر عنترة وليمةً عظيمةً أقامها كسرى في سُرادقٍ مهيب نُصِب في الحدائق الملكية. وكان السرادق قصرًا فخمًا مثل سرادق خرافي من الرخام والعقيق الأحمر، طوله تسعون ذراعًا، وعرضه سبعون. وكانت تتوسط السرادق فِسْقِيَّةٌ مملوءةٌ بماء الورد والمسك المصفّى، وفي وسطها عمودٌ من الزُّمُرُّد يعتليه صقرٌ مصنوعٌ من الذهب اللاصف، وكانت عينا الصقر من حجر التوباز ومنقارُه من اليَشَب، ومن حوله طيورٌ منوعة تنثر من مناقيرها على كسرى والحاضرين المِسكَ والعنبر. وكان الصرح بأكمله تضوع منه روائح العطور، وكانت

أسقف القصر تتلألأ بالذهب والفضة. وكان القصر إحدى عجائب زمانه، ومعجزة العصر.

حثَّ كِسرى البطل على شرب ما طاب له من النبيذ والاستمتاع بألحان المغنيات، ولكن على الرغم من كل هذه الأُبَّهة الملكية كان قلب عنترة بعيدًا في أرض الشَّرَبّة، فأنشد قائلًا:

فُؤادٌ لا يُسَلّيهِ المدامُ ... وجِسْمٌ لا يُفارقهُ السَّقامُ
وأجفانٌ تَبيتُ مقرَّحاتٍ ... تَسيل دمًا إذا جنَّ الظَّلامُ
وهاتفةٌ شَجَتْ قلبي بِصَوْتٍ ... يلذُّ بهِ الفؤَادُ المستَهامُ
شُغِلْتُ بذكْرِ عَبلَةَ عنْ سِوَاها ... وَقُلْتُ لِصاحبي هذَا المَرامُ
وفي أرضِ الحِجازِ خِيامُ قَوْمٍ ... حَلالُ الوصلِ عندهم حرامُ
وبينَ قبابِ ذاكَ الحيِّ خَوْدٌ ... رداحٌ لا يُماط لها لِثامُ
لها من تحت برْقُعِها عيونٌ ... صِحاحٌ حَشْو جَفْنيها سَقامُ
وبينَ شِفافها مِسْكٌ عَبيرٌ ... وكافورٌ يمازجهُ مُدامُ
فما للبدر إنْ سفرتْ كَمالٌ ... وما للغصنِ إنْ خطرتْ قوامُ
يلذُّ غرَامُها والوجدُ عِندي ... ومنْ يعْشَقْ يلَذ له الغرامُ
ألا يا عبلَ قد شَمِتَ الأعادي ... بإبعادي وقد أَمِنوا وناموا
وقد لاقيتُ في سفري أُمورًا ... تُشيّبُ منْ له في المَهْدِ عامُ
وبعد العُسْر قد لاقيْتُ يُسرًا ... ومَلِكًا لا يُحيطُ به الكلامُ
وسلْطانًا لهُ كلُّ البرَايا ... جنودٌ والزّمانُ لهُ غُلامُ
يفيضُ عطاؤه من راحَتيْهِ ... فما ندري أبَحْرٌ أم غَمامُ
وقد خلَعَتْ عليه الشَّمْسُ تاجًا ... فلا يَغْشى مَعَالِمَهُ ظلامُ
جَواهرُهُ النُّجومُ وفيه بدرٌ ... أقلُّ صِفاتِ صورتِه التّمامُ
بَنُو نَعْشٍ لمجلسه سريرٌ ... عليها والسَّماواتُ الخِيامُ
ولولا خوفُهُ في كلِّ قطرٍ ... من الآفاق ما قَرَّ الحُسامُ
جميعُ النَّاس جِسْمٌ وهْوَ رُوحٌ ... به تَحيا المَفاصِلُ والعِظامُ
تُصَلِّي نحَوَهُ من كلِّ فَجٍّ ... ملُوكُ الأَرْض وهْو لها إمامُ
فَدُمْ يا سيِّدَ الثَّقَلَيْن وابقَ ... مدى الأَيّام ما ناحَ الحمامُ

سُرَّ كسرى سرورًا عظيمًا لهذه الأبيات الجميلة، فخلع عن جبينه عِصابة مرصَّعة بالجواهر وقدَّمها لعنترة هديةً لعبلة في يوم زفافها. ثم أهدى إليه أيضًا مظلةً من الفضة الخالصة مرصعةً بأندر الجواهر. انتهز عنترة الفرصة ليتشفع لصديقه الملك المنذر الذي عفا عنه كسرى عفوَ الكرام وأعاده إلى عرشه.

اغتاظ رُستم، مُصارع كسرى الشهير، من هذه المَكرُمات الملكية التي خُلِعت على رجلٍ غريبٍ، فدعا عنترة لمصارعته أمام كسرى. ولكن عنترة تَلَكَّأ في قبول التحدي خشية أن يُقال إنه قتل أحد رعايا الملك في حضرته بعد أن نال عطاياه، لأنه إن تصارع مع رستم الذي كان يروم قتله فلا بد أن يقتله. نصح الملك رُستمَ أن يتراجع عن تحديه، ولكن المصارع أصر على المبارزة، فأعطى أنوشِروان إذنه بذلك. فتجرد رستم من ملابسه، أما عنترة فقد اكتفى بتشمير طرف ثوبه ووضعه في حزامه، وتقدم نحو خصمه.

انحنى رستم حتى تقوَّس ظهره، وبدا كأنه لهبةٌ مشتعلةٌ. ثم انقض على عنترة بكل ما أُوتي من قوة، وكان يظن أن عنترة إنسان عادي، ولم يكن يعلم أن عنترة، حتى في صباه، كان يتصارع مع الإبل في السهول وعلى الصخور. فتماسكا بالأيدي، وتناطحا بالرأس، وتعاركا كأنهما أسدان أو فيلان. عندئذٍ مد رستم يده إلى حزام عنترة محاولًا أن يرفعه بيديه، فوجده ثابتًا مثل صخرة في بُرجٍ، وترنَّح أمامه. ثم ندم على ما فعل وعلى استفزازه عنترة. فأرخى قبضته وجال حوله ساعة في حضرة كسرى وحاشيته. ثم قفز وراءه، ودسَّ رأسه بين ساقيه، وحاول رفعه برقبته ليلقي به أرضًا. ولكن عنترة كان يعرف ما يُضمِرُه له، فأطبق على رقبة رستم بين رجليه حتى كادت عيناه أن تخرجا من مِحْجَريهما، وكادت روحه أن تُزهَق. خاف رستم وتمنى أن يهرب من بين رجلي عنترة، ولكن هيهات. كان عنترة لا يتزحزح كأنه جبل صخري في الصحراء. أمسك به عنترة ورفعه بيديه كأنه عصفور بين مخالب طائر مفترس، وسار به بين الحشود لأنه كان يريد أن يصارعه بهدوء أمام الملك. ولكن رستم الذي أدرك أن حياته بين يدي عنترة، كأنه طفل صغير، خجل خجلًا شديدًا أمام المحاربين والمَرزُبانات والملك العظيم. فجمع قبضته ولَكَمَ بها عنترة على أذنه. استفاق عنترة من اللكمة في الحال، فعاد إلى عتبة القصر، وألقى به على الأرض، وحطمه تحطيمًا. عندئذٍ، أعلن الملك أن رستمَ قد نال جزاءه العادل جراء خرقه قوانين المبارزة، فأعطى كل تركة رستم من مالٍ وممتلكات لعنترة.

وبُعَيْدَ انقضاء اليوم المشهود، عاد المنذر وعنترة إلى مكان إقامتهما، فانضم إليهما في الحال الموبيذان، كبير كهنة عَبَدة النار الذي لبّى إلحاحَ البطل، فأدخله إلى معبد النار. وهناك رأى صرحًا

بَهيًّا من النحاس الأصفر مرفوعًا على أعمدةٍ من فولاذ، مرصعةً فُرجاتُه بالأحجار الكريمة. لقد كان أعجوبة الزمان التي تُدهِش أحكم الرجال. كان المعبد مؤلفًا من ثلاثة طوابق، ولكل طابق ثلاثة أبواب، وعلى كل بابٍ يقف عبيدٌ وخدم. حدق عنترة في هؤلاء الرجال ذوي الأزياء البراقة، وكانت تلتف على خصر كل منهم أغطية جلدية على هيئة سراويل قصيرة، وكانوا يقفون على أبواب المعبد، بعضهم قريب وبعضهم بعيد. كانوا يحملون في أيديهم مَساعِر من فولاذ يُذكون بها النار، وهم غافلون عن إله العالمين، وكانوا يرتلون كلماتٍ مجوسيةً تخلب الألباب، بينما كان شيخهم الجالس على مقعد من جلد يرتل بلسانه الخاص. شبَّت النار أمامه، وكان وقيدها من خشب الصبر، وكان الجميع يسجدون لها ويقولون، "أنا وأنت نُسبِّح الإله المعبود."

وأخيرًا، نال عنترة موافقة أنوشروان على العودة إلى بلاده، فخلع عليه الملكُ هدايا الوداع، وكانت كمية كبيرة من نفائس الذهب والفضة والجواهر الثمينة، وألف ثوب من المخمل المطرز، وألف صِدارٍ من الحرير الثمين، وأربع مئة عبدٍ أبيض، وأربع مئة عبد أسود قوي جاهزٍ للقتال، مع أحصنتهم وجَهازهم، وأربع مئة جارية جُرجانية، وأربع مئة عبدٍ قبطي، وأربع مئة عبدٍ فارسي، وأربع مئة عبدٍ من طيبة، وكل عبدٍ على ظهر بغل عليه صندوقان من الحرير النفيس.

وهكذا غادر عنترة مع ثروة عظيمة. ركب الملك العظيم يتبعه الموبيذان والمرزُبانات لوداعِ عنترة. وحين ابتعدوا عن المدائن، وأوغلوا في الصحراء القاحلة، ترجل عنترة عن الأبجر، وتقدم نحو الملك، وقبَّل قدميه في رِكابِها، وتوسل إليه أن يعود وحاشيته، وخاطبه هكذا:

يا أيهـــا الملـــكُ الـــذي راحاتُهُ ... قامَتْ مَقـــامَ الغيْـــثِ في أزمانِهِ
يا قِبْلَـــةَ القُصَّادِ يا تـــاجَ العُلا ... يا بـــدْر هذا العصـــر في كيوانه
يـــا مُخجِلًا نَـــوْءَ السَّـــماء بجُودهِ ... يا مُنْقِـــذَ المحزونِ مـــنْ أحزانه
يا ســـاكِني ديـــارَ عبْـــسٍ إنني ... لاَقيْتُ منْ كِســـرى ومنْ إحْسانه
ما ليْس يوصَـــفُ أو يُقَدَّرُ أوْ يَفي ... أوْصافَـــهُ أحدٌ بوَصْفِ لســـانه
ملكٌ حـــوى رتبَ المعـــالي كلّها ... بســـموِّ مجـــدٍ حـــلَّ في إيوانـــه
مولى بـــه شرفَ الزَّمـــانُ وأهلهُ ... والدَّهْـــرُ نالَ الفَخْـــرَ من تيجانه
وإذا ســـطا خافَ الأنامُ جميعهم ... منْ بأْســـهِ واللّيثُ عنْـــد عِيانِه

المظهــرُ الإنصــافَ في أيّامــهِ بخصالــهِ والعــدلَ في بلدانــهِ
أمســيتُ في ربعٍ خصيــبٍ عندهُ متنزِّهًــا فيــه وفي بسْــتانهِ
ونظَــرْتُ برْكَته تَفيــضُ وماؤها يَحْكــي مواهِبَــه وجــودَ بنانه
في مَربَــعٍ جمَــعَ الرَّبيــعَ بربْعهِ مــن كلِّ فــنٍّ لاحَ في أفنانــه
وطُيــورُهُ منْ كلِّ نوْعٍ أنْشَــدَتْ جهرًا بــأنَّ الدَّهرَ طــوعُ عنانه
ملــكٌ إذا ما جالَ في يــوم اللّقا وَقَــفَ العــدُّو مُحيَّرًا في شــانه
والنَّصْـرُ من جُلَسائِهِ دونَ الورى والسَّــعد والإقبالُ مــن أعوَانه
فلأشــكرنَّ صنيعــه بــينَ الملا وأُطاعِــنُ الفُرْســانَ في مَيْدانِهِ

فهتف الملك وقد زادت بهجته، "لا تظنَّنَ أنّا جازيناك حقَّ جزائك، فما أعطيناك إياه هالكٌ، ككل شيء بشري، ولكن ثناءك لنا باقٍ." ثم قبّل عنترة بين عينيه، وودعه، وخلع عليه ثوبًا ثمينًا عربونَ امتنان، ورجاه أن يزوره مرارًا، ثم ارتحل.

ارتحل الملك المنذر وعنترة حتى وصلا إلى الحيرة، حيث كُرِّم البطل تكريمًا عظيمًا لبعض الوقت، وحين أوشك على الرحيل، منحه المنذر ألفًا من الإبل العصافيرية وهدايا أخرى كثيرة قيمة. عندئذ انطلق عنترة في رحلته، يرافقه جيشٌ من العبيد الذين أُهدوا إليه من أنوشروان والمنذر. وبينما كان يقطع الفيافي والقفار، راح يتأمل مغامراته والمخاطر التي خاضها من أجل عبلة، وحين دنا من أرض الحجاز، فاضت مشاعرُه شعرًا:

نسيم رُبى أرضِ الشّــرَّبَّة أحياني وأحيا فؤادي أم نســيمٌ من البان؟
وهاتيكَ نــارٌ أُوقِــدت لعبيلة أم الــبرقُ من هاتيك يَغْشــاني؟
فيــا دارُ مــا زال ربعُك آنسًــا بأترابهــا مع كل أهــلي وجيراني
تُرى، ســهرتْ عيناكِ يا عبلُ ليلةً كما سهرتْ من أجل بُعدِك أجفاني؟
ترحَّلتُ عن مَغْناكِ عن غير ما قِلى ولكنْ بغى عَمّــي عليَّ وأقصاني
رَمــاني إلى بحر المنايــا فَخُضتُه بأبيضَ مــاضٍ في الحروب يَماني
وَعُدْتُ بمالِ الكُسرويِّ وقيصرٍ ونوقٍ وأصنــاف الخيول وغِلماني
هُمو طلبوا بالغــدرِ قتلي وما دَرَوا بــأن المنايــا في ذِباب سِــناني

محنة عبلة في غياب عنترة

بعد أن أُشيع أن الشيخ مالكًا قد دبرَّ مكيدة لإرسال عنترة لجلب الإبل العصافيرية مهرًا لعبلة، صارَ مالك محط احتقار القبيلة وازدرائها، فعزم على الرحيل سرًّا مع خمسة عشر فارسًا في حملة إغارة، وعلى ألا يعود حتى تُنسى الفضيحة. وبدلًا من سلب الآخرين، وقع مالك وجماعته في أسر واقِد، وهو فارس مشهور من بني كنانة. ولما علم واقد من أمه أن مالكًا لديه ابنةٌ جميلةٌ اسمها عبلة، طلبها للزواج، فوافق مالك فورًا وعلى أن يذهب ويحضرها بنفسه. وعلى هذا الشرط أطلق واقد سراح مالك وابنه عمرو، فذهب هذان فورًا إلى أرض الشربَّة. ولدى اقترابهما من منازل القبيلة، وجدا الناس في حِدادٍ على موت عنترة المزعوم. تجهَّم الرجلان حتى وصلا خيامهما، فوجدا عبلة لابسةً السواد، وجالسةً بجانب قبرٍ جديد، وهي في غاية الحزن. عندئذٍ دخل مالك خباء زوجته التي أخبرته أن شيبوبًا أبلغهم بموت عنترة، كما أخبرته أن القبيلة كلها حمَّلته مسؤولية مقتله. حاول أن يطيب خاطر عبلة التي رفضت أن تقبل العزاء فيه، بل نعتته بأنه قاتل ابن عمها، ثم زار أخاه شدادًا، فوجده شديد الجزع على فقد ابنه البطل.

وجد مالك البائس أن الأمور على وجه العموم لا تسر البال في أحسن الأحوال، وأنه ليس أمامه إلا الرحيل مع أسرته عن القبيلة. فقرر أن يُبقي الأمر سرًّا لئلا يطَّلع عَمارة، الذي كان قد خطب عبلة من قبل أيضًا، على ما بيَّته، فيحول دون رحيله. ولكن عَمارة قرر أن يطالب بعروسه بعد أن انزاح منافسه المرعب من طريقه، فارتحل إلى اليمن ليأتي بمهرها (من طريق النهب طبعًا)، يرافقه عُروة بن الورد وعشرة فرسانٍ آخرين. انتهز مالك غياب عَمارة ليرتحل بأهله. وحين أبلغ عبلة بأنه قد وعد أن يزوجها لواقد، ردت بأنها لن تكون عروسًا لا لعَمارة ولا لواقد، لأن قلبها قد دفن في قبر عنترة.

ولكن مالكًا أمر بتقويض الخيام، على الرغم من دموع عبلة وآهاتها، وهجر القبيلة عند منتصف الليل، وتوجه مع أسرته نحو ينابيع الزبّاء، حيث يكمن واقد ورفاق مالك الذين أخذهم رهائن. وما إن وصل مالك حتى أطلق واقد سراح رهائنه، فعادوا إلى ديارهم، وانطلقت جماعة واقد ومعهم أسرة مالك عائدين إلى ديارهم. وفي اليوم الرابع من مسيرهم هجمت عليهم مجموعة من قُطّاع الطرق يقودهم زعيمٌ يتفاخر بلقب "طارقة الليالي." أراد واقد أن يتباهى بشجاعته أمام عبلة، فواجه هذا اللص الرهيب، ولكن طارقة الليالي قتله وأسر مالكًا وابنه عمرًوا وقيدهما. وبينما كان اللصوص منشغلين مع أتباع واقد، حررتهما عبلة وأمها، وهربوا إلى الصحراء، فالتقوا بعَمارة وجماعته عائدين سالمين غانمين من أرض اليمن.

وبينما كان مالك يروي لعَمارة ما جرى لهم من مِحَن، ظهر لهم طارقة الليالي وعصابته الذي جاء للحاق بالهاربين بعد أن هزم الكنانيين ووجد هودج عبلة فارغًا. استعد عَمارة وعروة لمقاومة العصابة، ولكنهما سرعان ما غُلبا وقُيِّدا، فوقعت عبلة الجميلة وأسرتها مرة أخرى في قبضة طارقة الليالي الرهيب. وبعد أن استراحوا في تلك البقعة تلك الليلة، أرسل طارقة الليالي عند الفجر خمسةً من عبيده ليأخذوا عبلة إلى مكانٍ يُدعى ذات المناهل، وأمرهم بنصب الخيام لأن الخسيس كان ينوي أن يمكث ثلاثة أيام مع غنيمته الحسناء.

عنترة ينقذ عبلة وأهلها

واصل عنترة مسيره نحو بلاده، ووصل ذات المناهل بُعيدَ وصول العبيد الخمسة الموكَّلين بعبلة إلى هناك وضربهم الخيام، فسمع امرأة تستنجده وهي في هودجها وتقول، "الويل لهؤلاء العبيد الجبناء! أين عيناك يا عنترة لِتَرَياني؟" تأكد عنترة أن المرأة التي تستغيث ليست إلا حبيبته عبلة، فحمل على العبيد برمحه، فقتل ثلاثةً منهم، وفرَّ اثنان ليبلغا سيدهم خبر ما جرى. بطبيعة الحال، ذُهلت عبلة لمرأى طيف حبيبها المقدام يظهر أمامها فجأةً، وقد ظنته قد مات منذ فترة طويلة، ولكنها استفاقت من ذهولها في نهاية الأمر. ثم أخبرت عنترة كيف نَعاه لهم شيبوب، وعن كل ما حدث لها خلال غيابه؛ وبدوره قصَّ عليها عنترة عن مغامراته وعن الأهوال التي تعرض لها منذ أن ترك أرض الشرِبّة ليأتي بالإبل العصافيرية مهرًا لها.

وبينما كان العاشقان يتحدثان شاهدا طارقة الليالي مُقبلًا، بعد أن أخبره العبدان اللذان هربا عن طِعان عنترة بالرمح وعن استماتته البطولية في إنقاذ عبلة منهم. ركب عنترة الأبجر، وحمل على اللص برمحه وهو يصيح، "يا لِعبسٍ، يا لِعدنان، وأنا حبيب عبلة!" ثم طعنه في صدره فوقع صريعًا على الأرض. ثم سارع عنترة لتفريق أتباع طارقة الليالي وتحرير السجناء، وبينما كان يعبر عن سعادته بلقاء عمه مالك، ذكَّره بأن كل المحن التي مر بها في الآونة الأخيرة كانت جزاءً عادلًا لتصرفه في الماضي.

ثم ضُربت الخيام، وأعد عبيد عنترة وليمةً عظيمةً، وأمتع البطل أصحابه برواية مغامراته في العراق والتكريم الذي لقيه من الملك أنوشروان. وبعد انتهاء الوليمة، انضم عنترة إلى عبلة التي رمت نفسها في حضنه وقبَّلته مرارًا، وحين أخبرها عن الهدايا الثمينة التي جاء بها، قالت له، "سلامتك أهم عندي من كل ما وصفت، فلا سعادة لي إلا بوجودك." تبسم عنترة وامتلأ صدره سعادةً لنقاء حبها.

القبيلة تستقبل بطلها

وعند الفجر أمر البطل عنترة أن تُحمَّل الجِمال استعدادًا لمواصلة رحلة العودة إلى الديار. ألبسَ عنترة عبلة أثوابًا فاخرةً مرصعةً بالجواهر، ثم وضع على رأسها تاج كسرى، وأجلسها مع أمها في المِحَفَّة الفضية، وأمر العبيد أن ينطلقوا بها أمامه ويحموهما في رحلتهما. وحين جلست عبلة في المحفة، أضاء وجهها وأشرق، وابتسمت ابتسامةً جميلةً زادت مفاتنها، وانطلقت من رموشها نبال اخترقت قلب قاتل الرجال والأبطال. فلا عجبَ إذن أن يتميز الأحمق المغرور عَمارة من الغيظ والحسد حين رأى عروس عنترة!

وقبل مضارب عبس بمسيرة يومٍ، استبق مالك وابنه عمرو وأم عبلة بقية القوم ليبلغ الملك زهيرًا خبرَ عودة عنترة. فخرج جميع محاربي عبس، يتقدمهم الملك زهير، للقاء البطل، ولم تعرف القبيلة قط يومًا حاشدًا مجيدًا كهذا. أحاط به سُراة القوم من عبس، وحكى لهم عن مغامراته بناءً على طلبٍ من الملك زهير. بكت أمه وأخواه وتصايحوا من نشوة اللقاء وفرط السعادة بعد كل ما مضى من خوف وعذاب. بعد ذلك وزع عنترة هدايا ثمينة على زهير وأبنائه وأشراف الفرسان من عبس؛ ولأبيه شداد أعطى ذهبًا كثيرًا وفضة وعبيدًا عُتاة، ثم ساق البقية، مع الإبل العصافيرية، إلى عمه مالك. ثم أوى كل واحد بعد ذلك إلى خيمته. وحين أناخ عمرو، أخو عبلة، الإبل التي حملت أخته، ورفع ستار المحفة، وجد أن عبلة قد اختفت!

حزن عنترة على فقد عبلة

الدهرُ يُعْلي ويَخْفِض، وكأس السعادة الطافحة سقطت في لحظةٍ من يد عنترة جَرّاء اختفاء عبلة الغريب، وهي التي ركب لأجلها الأهوال، وعَبَر الفيافي والقفار، وصارع سباع الفلا، ونازل الأبطال. لقد كانت تلك نازلةً لم يتهيّأ لها ابنُ شداد البطل، فقد نزلت عليه بقوةٍ كادت أن تُفقِده صوابه. حاول الملك الطيب زهير أن يخفف عنه بطمأنته أنه سيحل اللغز قريبًا، ولكن هيهات! لام العاشقُ المحزونُ نفسَه، إذ جعله تَلَهُّفُه للقاء الملك يترك محبوبة قلبه في عهدة عبيدٍ لا يعرفون قَدْرَها. أرسل الملك جماعاتٍ تستطلع البلاد طولًا وعرضًا، ولكنهم عادوا جميعًا بلا خبرٍ عن ابنة مالكٍ الجميلة. أما عنترة فقد شلَّتِ النازلةُ عزيمتَه التليدة من كثرة التفكير، ولم يعد قاتل الأبطال صالحًا لنطاح الخطوب. فأرسل أخاه شيبوبًا ليبحث له عن عروسه المفقودة، وظل ينتظر عودته بفارغِ صبرٍ أطار النومَ من عينيه.

شيبوب يأتي بأخبار عن عبلة

قضى عنترة أيامًا وأسابيع في عذاب الانتظار، ليس له سلوةً إلا من صحبة الملك زهير، وظل حاله هكذا إلى أن عاد شيبوب بأخبار عن عبلة. قال شيبوب، "بعد أن مررتُ بعدد من مدن اليمن، جئت إلى صنعاء وعدن، ولقيت مصاعب جمة حتى وصلت إلى قبيلة طي. وهناك وجدت عبلة في قبضة مُفرِج، ترعى إبله وأغنامه، وقد ألبسها ثيابًا من الجلد الحافي، واستخدمها في أحقر الأشغال ليلًا ونهارًا. وأمه كذلك تتوعدها وتقسو عليها بالكلام. ولذلك تبكي عبلة في قيامها وفي قعودها. وهي تنادي باسمك، تطلب منك النجدة المرتجاة في العشيِّ والآصال."

قال عنترة والدموع تنهمر من عينيه، "حسنًا، يا شيبوب، ولكن كيف وقعت في قبضة مفرج؟ ولماذا تملَّكها هو من بين كل الناس؟" شرد شيبوب، "يا ابن أمي، إن السبب في كل هذه هو عَمارة الذي استوطن الشر والمكر في عقله. لقد أكل الحسد قلبه حين رأى ثروتك الهائلة، فانتحى جانبًا من الصحراء؛ ولكن شغفه العارم بعبلة جعله يتتبع أثرك ويراقبك حين تركتها في الصباح، فتمكن منها القَدَر، وسباها عَمارة. كان يريد أن يغتصبها، ولكن مُفَرِّجًا لحقه في الصحراء، وانتزعها منه، وهزمه شر هزيمة."

فسأله عنترة وقلبه يتفطَّر لسماع حكايته، "وكيف حصلت على هذه المعلومات يا أخي؟" فقال شيبوب، "اعلم يا أخي أنني عندما غادرتك درتُ حول كل قبيلةٍ وجمعٍ، وسألتُ كل من قابلته، راكبًا أم راجلًا، إلى أن وصلت إلى جَبَلَي أجأ وسلمى، ومياه الطائيين. فكنت أقضي ليلةً مع كل أسرة لعلّي أعلم شيئًا بالصدفة. وفي آخر ليلةٍ من إقامتي، نمت في منزل مفرج، وكانت منامتي قريبةً من منامة أحد عبيده، ويُدعى مُبَشِّرًا. فدعاني لمحادثته، وكان لطيفًا جدًا معي، وحين سألني عن أقاربي، قلت له، "يا ابن خالتي، أنا ابن خزرج من بيت سعد من قبيلة الجَهمة، وهي عائلة حاتم طي." فأنعم عليَّ وأكرم.

"ولكن حين انفض السامر ونام الجميع، تناهى إلى مسامعي صوت عبلة. كانت تنتحب بصوتٍ عالٍ وتصرخ في هدأة الليل، 'لله دَرُّ الجبل السعدي وأرض الشربَّة!' وكانت تأسى لفراق الخلان والأوطان وتقول، 'يا حامي حِمى عبسٍ، كم ناديتُك! كيف السبيل إلى إبلاغك خبري وتلقاني؟ أوّاه، يا ابن عمٍّ، طال عذابي وتقرحت عيناي من النحيب. لقد ظفر أعداؤك وكانت عيونهم ترقُبُك لحظة لقائنا يوم عدتَ من العراق، فأعقبَ تلاقينا الفراقُ، وتناثرنا مرة أخرى في فِجاج الأرض! ويحَ قلبي من نصيب الآهات والدموع. بئس اللباس لباس الجلد

الحافي، وبئس الحال حال الحزن! فَعَجِّل القُدومَ يا ابن عمٍّ، وأنقذني يا مَن لا منقذ لي سواك، يا قاتِل سباع الفَلا. أسمِعْني صرخاتِك في ساح الوغى بين رمّاح وسيّاف!'

"وبعد هذا البوح الحزين، يا أخي، راحت تنشج وتئن أنينًا ممرورًا كأنها تحتضر وكأن روحها تخرج. فالتفتُّ إلى العبد الذي كنت أستلقي بجانبه، وقلت له 'يا ابن خالتي، علامَ تنوح هذه الفتاة؟ ألا تنام؟ هل تُمضي لياليها عادةً هكذا؟' فأجابني العبد، 'أيها الفتى، إنها أسيرة غريبة، وهي على هذا الحال كل صباح ومساء. واسمها عبلة بنت مالكٍ العبسي.'

"وسرعان ما عرفت منه القصة كاملةً: كيف التقاها مفرج هي وعَمارة مصادفةً، وكيف أسر عَمارة وحملها معه إلى دياره، وحين طلب منها ما يطلبه الرجل من المرأة صبّت عليه أقذع الشتائم، وتوعَّدته بابن عمها، سبع الفلا، الذي رفع نفسه من منزلة العبد إلى منزلة السيد، وكيف أساء مفرج معاملة عَمارة بالمثل، فقيَّده وصفَّده إلى أن يفتدي نفسه بالمال والحلال، فأرسل إلى الربيع ليخلصه من البؤس.

"وحين سمعت هذا، يا ابن أمي، هجر النوم اللذيذ عينَيَّ، وانتظرت بزوغ الفجر بفارغ الصبر كي أستعجل وآتيك بالأخبار. ولكني صادفتُ في طريق العودة آلَ زيادٍ مقبلين على تلك القبيلة، فانحرفت عن الطريق لكيلا يروني. فهذا ما سمعت ورأيت خلال غيابي."

عنترة ينقذ محبوبته

ولما أكمل شيبوب قصته، بدا عنترة كأنه ذاهلٌ من الغضب والحزن، وحين عاد إليه صوابه، قال، "سأنتقم من آل زيادٍ، وسأحرمهم لذيذَ النومِ." ثم أسرع إلى صديقه الأمير مالك الذي رافقه إلى الملك، فروى له عن عَمارة الذي ردَّ له جميلَ تحريره من طارقة الليالي بالغدر. اشتد حنق الملك زهير على فعلة عَمارة الشنيعة، وأقسم أنه سينتقمنَّ من آل زيادٍ جميعًا. ولكن عنترة أبلغ الأمير مالكًا أنه لن يكدِّر خاطر الملك بسببه، بل سينقذ عبلة بنفسه. ولكن صديقه أصر على الذهاب معه، واستغل غياب أبيه في الصيد، فجمع فرسانه، ودعا عنترة أباه شدادًا وعمه مالكًا وابنه عمروًا. ولم تكد الشمس تبزغ حتى انطلق مئتا محارب لردِّ الإهانة التي لحقت بآل قُرادٍ وقبيلة عبسٍ بأكملها. وفي الطريق التفت عنترة نحو الأمير مالك وقال له، "من السخف يا مولاي أن أهبَّ لمساعدة أعدائي. وحالي أبأس حال، فمع أنني أعلم أنهم ينتصرون بفضلي، إلا أنهم لا يتركونني بحالي. ولكنني أقدِم على هذا الأمر من أجل عبلة."

في هذه الأثناء، ركب الربيع على رأس مئتي فارس لإنقاذ أخيه عَمارة. ولكن مفرجًا قد علم بمقدمهم مسبقًا، فهجم عليهم، وهزم جمعهم، وأخذ منهم ثلاثين أسيرًا، فتقهقر الربيع مع بقية أتباعه إلى التلال الرملية. ولكنهم لاقوا الأمرَّيْن من قلة الماء هناك، فأرسل الربيع رسولًا إلى مفرج يطلب منه أن يدخلوا في ذِمامِه كي يستسلموا ويأتوه بالفدية، أو، إن لم يشأ وقف إراقة المزيد من الدماء، على الأقل أن يزودهم بالماء. فكان جواب مفرج أنه سيزودهم بالماء على شرط أن يُلقوا أسلحتهم وأن يأتوه راجلين؛ حينها سيحلق لِحاهم، ويجدع أنوفهم وآذانهم، وبعد ذلك، وحقِّ اللات والعُزّى، سيشنقهم أجمعين. فلما أُسْقِط في يده، نزل الربيع وأتباعه وشنوا هجومًا آخر، لكن العطش قد أضناهم، فأسرهم الطائيون جميعًا.

لم يمض إلا جزءٌ يسير من الليل حين ثَمِل مفرج. كان الناس قد أووا إلى خيامهم وناموا حين خطرت عبلة على بال مفرج. راح يفكر في طريقة تبلِّغه مبتغاه، فذهب إلى أمه وقال لها، "أريدك أن تأتيني بتلك الفتاة العبسية، وإن لم توافق فسأعاملها أشنع معاملة، وأضاعف مِحَنَها، وأقتِّل قومَها." أسرعت أمه إلى عبلة وقالت لها، "اذهبي إلى سيدك في الحال لعلّه يرقُّ لك ولقومك، وإن واظبتِ على عنادكِ ولم تستسلمي له، فعليكِ أن تَرهَبي غوائله." فصاحت في وجهها عبلة، "أيتها الشمطاء اللئيمة، حتى لو قطَّع ابنُك أوصالي بسيفه، وأباد العبسيين عن بكرة أبيهم، بل كل ما تُشرق عليه الشمس، فلن يتملكني أبدًا، ولن أرضخ له! وإن كان يتمنى موتي، فسأقتل نفسي بيدي لا بيده." فصرخت العجوز قائلة، "ما أتعسكِ وأبأسكِ،" ثم لطمتها بيدها، وأمرت الجواري بأن يسحلْنها، وهي تصيح، "يا لعبس، يا لعدنان! مَن يُغيثني؟ مَن يُنجدُني؟ من يخلصني من هذا الأسر؟ واحسرتاه، أما مِن مُغيثٍ يخلصني من هذا البلاء؟"

وفي تلك الليلة باغت عنترة وفرسانه الطائيين في خيامهم، وهم يصيحون، "يا لعبسٍ، يا لعدنان!" ولم يرحموا صغيرًا ولا كبيرًا. وبينما كان الفرسان منشغلين بقتل الطائيين أو أسرهم، حرر شيبوب الربيعَ وأصحابه، ثم راح يخطر بين الخيام بحثًا عن عبلة، حتى وجدها أخيرًا بين جثث القتلى وهي تئن مثل أمٍّ ثكلت أبناءها. احتضن شيبوب عبلة وأخذها إلى عنترة الذي ضمها إلى صدره وقبَّلها بين عينيها، وهو يقول لها، "ما أتعسني حين تُكابدين كل هذه النوائب وأنا على قيد الحياة! ولكنها نوائب الدهر التي لا ملاذَ لإنسانٍ منها." ثم قال لأخيه أن يأخذها إلى خيمة مفرج (الذي هرب إلى التلال الرملية)، وهناك اكتشف شيبوب كل مقتنيات عبلة من أثوابٍ ثمينةٍ وجواهر، فأعادها إليها. وهكذا ارتفع عنها البلاء والعذاب، وانتعشت آمالُها وأمانيها.

وبينما كان العبسيون يتجهزون للعودة إلى بلادهم، جاء الربيع وعَمارة إلى عنترة، وتوسلا إليه بكل تذلُّل أن يغفر لهما أفعالهما المشينة. رثى عنترة لحالهما وعطف عليهما نظرًا لقرابتهما، فعانقهما وهو يقول، "رغم أنني مذمومٌ لسوادي، غير أن أفعالي أفعال الكرام." وبينما كان العبسيون عائدين من أرض قحطان، تصادموا مع قبيلتي جديلة ونبهان في معركة حامية الوطيس، فانتصروا عليهما. وحين جمعوا كل الغنائم، عادوا إلى خيامهم، يسبقهم عنترة.

ابتهجت عبلة لشجاعته واستبساله، فابتسمت، وحين رأى عنترة ابتسامتها، قال لها، "يا ابنة عمٍّ، أتبتسمين لِما رأيتِ اليوم من فِعالي في الذبح والقتال؟" فأجابته، "وحَقِّ ما آمنت به العرب، لقد زاغ بصري حين رأيتُ جَزْرك لأولئك التعساء!" فكان لكلماتها في قلبه وَقْعٌ كوقع الماء الزُّلال على ذي الغِلَّة الصادي. وحين انتصف الليل، ركب العبسيون مطاياهم، وكانوا قد تقاسموا الغنائم، واستأنفوا مسيرهم إلى ديارهم. وحين بدأت أشعة الشمس تبدد الظلام، رأوا الطائيين يطاردونهم بقيادة الملك مُلجِم بن حنظلة وأخيه شارب الدماء. ولما رأوا عدد العدو، رغبوا في الهرب، لكن عنترة بث فيهم الشجاعة، واندفع وسط الطائيين، وأعمل فيهم سيفه الظامي، فأذاقهم الموت والهلاك. في هذه الأثناء، وصل مَدَدٌ أرسله الملك زهير لنجدة عنترة، فهُزم الطائيون وقُتِل منهم مَقْتَلَةٌ عظيمة.

وفي اليوم التالي، عَمِل أبو عبلة بنصيحة الربيع وطلب من الأمير شاس أن يأخذ عبلة في ذِمامِه كي يمنع عنترة من تَزوُّجِها، فوافق شاس على ذلك. ثم بعث إلى عنترة وألمح له أنه من الآن فصاعدًا صارت عبلة في ذِمام زوجته، ثم وبَّخه على سعيه وراء امرأةٍ لا تَحِلُّ له. ترقرقت عينا البطل بالدموع وقال إن عمَّه مالكًا هو الذي ألهب عاطفته، فكلما وقعت عبلة في الأسر، توسل إليه ليحررها، وعندما تكون في مأمنٍ، يناديه بالعبد ابن العبدة:

يُنادُونني في السِّـــلم يا ابْنَ زَبيبةٍ   وعندَ صِدامِ الخيلِ يا ابْنَ الأطايِبِ
ولولا الهوى ما ذَلَّ مِثْــلي لِمِثْلِهم   ولا خَضعتْ أُسْـــدُ الفَلا للثَّعالبِ

ثم ذهب عنترة بعد ذلك إلى صديقه الأمير مالك، وأطلعه على خطة عمه لمنعه من الاقتران بعبلة. فوعده الأمير أنه سيحملها إليه، وطلب منه أن يُمهله حتى يعود الملك زهير وسيُحِقُّ الحق. ولكن البطل آثَر ألا يُثقِل على صديقه بكُروبه أو أن يكون سببًا في انشقاق القبيلة، فعزم على أن يذهب إلى مكة ليشكو بَثَّه وحزنَه إلى رب العالمين.

ذهابُ عنترة إلى مكة

في هدأة الليل، ركب عنترة حصانه الأبجر، وارتحل إلى البيت الحرام، يرافقه أخوه شيبوب. ولم تحفل رحلتهما بأي طارئٍ حتى اقتربا من مكة، فقال شيبوب لأخيه مستغربًا أنهما لم يصادفا شيئًا في طريقهما. فرد عنترة قائلًا إنه ملَّ ركوب المخاطر وسئم قلبُه القتال.

ولكنهما سمعا في الحال امرأةً مَكروبةً تصرخ في هدأة الليل، فأرخى عنترة لِجامَ حصانه، وراح يعدو باتجاه الصوت. وهناك وجد امرأةً أخبرته أنها زوجة الأشعث بن عُباد من قبيلة كِندة، وأن مجاعةً قد أصابت بلادهم، فتوجهت أسرتهم إلى بلاد بني الحارث بقصد الاستقرار عند ابنتهم المتزوجة هناك، فهاجمهم فارسٌ من الصحراء يُدعى الصُّدام بن سَلْهَب مع أربعين من الأعراب، فقتلوا أولادها الثلاثة، وجرحوا زوجها، وأسروها وبناتها الثلاث، وأن اللصوص كانوا على وشك أن يأخذوهن إلى جبال الطُّوَيْلة ليبيعوهن بيعَ الإماء. أوكل عنترة أمر النساء إلى أخيه، واستلَّ رمحه، والتفت لملاقاة الصُّدام الذي رآه مُسرعًا نَحْوَه مع أتباعه. هاجم البطلَ عددٌ من اللصوص في آنٍ واحدٍ، لكنه أثخن فيهم من كل جانب، فانبرى له الصُّدام أخيرًا، ولكن عنترة عاجَله من سيفه الظامي بضربةٍ شقَّت صدره، فخرَّ على الأرض صريعًا، مُضرَّجًا بدمه.

تجمَّعت البنات وأمهن حول مُنقذهن، ورحن يقبلن يديه ويشكرنه لإنقاذهن من العار. طلب عنترة من النساء أن يتنقَّبن، وضمّد جراح الشيخ، وجلس ليستريح من عناء القتال. شعر الشيخ بالامتنان لصنيع عنترة، فعرض عليه أن ينتقي إحدى بناته الثلاث ليتزوجها، ولكن عنترة ردَّ العرض ردًّا جميلًا، ثم توجَّه إلى الفتيات بقوله:

لو كان قلبي معي ما اخْتَرْتُ غيرَكُمُ ... ولا رضيتُ سِوَاكُمْ في الهَوى بَدَلا

لكنَّـــهُ راغـــبٌ في مَـــنْ يُعَذّبه ... فليسَ يَقْبَـــلُ لا لَوْمًا ولا عَذَلا

وبعد أن رافق عنترة الشيخَ وعائلته إلى ديار بني الحارث، ودَّعهم وتوجَّه إلى مكة برفقة شيبوب. ثم نزل في الوادي المقدَّس، وسكن هناك. كان يقضي أيامه في الصيد ليُسرّي عن نفسه كَرْبَها وعذاباتِها، ولياليه مع شيبوب يرويان قصصًا قديمة ويستعيدان أحداث الماضي.

الأمير شاس في الأسْر

انزعج أصدقاء عنترة لرحيله، وبحثوا عنه في كل اتجاه، ولكن عمه كان راضيًا لأن رحيل

عنترة تركه مطلقَ الحرية، حسب ظنه، ليتخلص من عبلة. وهكذا خطب عَمارة عبلة من أبيها مرةً أخرى، وتعاقدا على ذلك بالمصافحة. ولكن الأمير مالكًا آلمه ألمًا شديدًا أن يُفعَل هذا بصديقه الغائب، فأقسم أنه لن يسمح لعَمارة أن يتزوج عبلة ما دام حيًّا، وأنه سيفسد خططه الشريرة وخطط أبيها الماكر، كما توقع أن يصيب أخاه شاسًا مكروهٌ لدوره في هذه الصفقة المشينة.

حين وصل العبسيون غدير ذات الإرصاد، أوغل الأمير شاس في الصحراء بحثًا عن الظباء، وهناك التقوا بمجموعة من المحاربين يقودهم ميسور بن زياد من عشيرة الخزرج، وهم فرعٌ من بني الحارث. قُتِلت جماعة العبسيين الصغيرة ما عدا الأمير شاسًا الذي أُسِر، فعامله ميسور معاملة همجية لأن الأمير كان قد قتل أخاه في المعركة.

وصل الأمير مالك والآخرون سالمين إلى منازل القبيلة، وغضب الملك لمّا علم كيف دها أبو عبلة بعنترة. ثم وبخه توبيخًا قاسيًا لسلوكه المشين وأمر أن يُجلَد عَمارة لخطبته عبلة وهو يعلم أنها مخطوبة لعنترة وأن أباها قد أخذ مهرًا ثمينًا جاء به البطل من العراق. سبَّب غياب الأمير شاس قلقًا كبيرًا للملك. وقد زاد ألمه حين أرسل الفرسان يطلبونه في الصحراء، فعادوا خائبين، فأعلن أنه إذا قُتِل شاس لَيَجُزَّنَّ رأس عَمارة ويشنقنَّ مالكًا بن قُراد، لأنهما هما مَن حرضا ابنه على التعامل بِخِسَّة مع عنترة.

في هذه الأثناء، كان شاس أسيرًا في بلاد بني الحارث، وكان ميسور يعذبه كل يوم، وذلك بحصره بين أربعة قضبانٍ من الحديد، وقد وكَّل به مجموعة من العبيد يحرسونه، وكان كلما خرج ركله، وكلما دخل لَكَمه بقبضته. ولما سمع زعيم القبيلة بهذه المعاملة المشينة بحق واحدٍ من سُراةِ العرب، أرسل في طلب ميسور ونصحه أن يخفف من قسوته على أسيره، فاستجاب على هذا النحو: أسرع إلى شاس، ففك القيد عن يديه، وقيَّد رجليه، ثم رفسه في قفاه، وأجلس عبدًا فوقه.

استدعاء عنترة من مكة لإنقاذ شاس

ولكن الأمير شاسًا وجد عزاءً في العجوز الكِنْدية التي أنقذها عنترة مع عائلتها من الصُدام حين كان ذاهبًا إلى مكة. لقد تعلم شاس من المحن درسًا مفيدًا، فندم على ما فات منه بحق البطل، فأكد للعجوز أنه إن نال حريته لَيُصادقنَّ عنترة ويمكِّنه من الزواج من عبلة. ولما أدركت العجوز ما سيؤول لعنترة من خيرٍ إن صادقه شاس، أرسلت زوجها الأشعث إلى مكة ليطلع البطل على حال شاس.

قطع الشيخ السهول إلى مكة بأقصى ما يستطيع، وسأل عن عنترة، فدلُّوه على مسكنه، وعرَّفه بنفسه، ثم قص عليه ما جرى لشاس وما آلت إليه حاله. فقال شيبوب، "لا أنجاه الله من الكَرْب أو الموت، إذ لا يوجد بين العبسيين مَن يُعادي أخي مثله!" فقال عنترة، "لا تحمل الحقدَ، يا أخي، على إنسانٍ،" ثم أنشد قائلًا:

لا تحملِ الحقدَ يا شـــيبوبُ اترُكْهُ ... فلا ينالُ العُلا في الناس مَنْ حَقَدا
والبغيُ شُــؤْمٌ فلا تأمَـــنْ عواقبَه ... وَاعْلَمْ بأن لا يُفـــادي يومَه بِغدا
دَعْني أحمِّـــل نَفْســـي كلَّ نائبةٍ ... فإن سَـــلِمَتْ وإلا مُـــتُّ مجتهدا

ولما انتهى عنترة، دُهِش العجوز من حُلُمه إزاء أعدائه، وهو القوي القادر. فاستراحوا تلك الليلة، وفي الصباح الباكر قال عنترة للأشعث، "لِنَرتحل أيها الشيخ قبل أن يُبتلى مولاي شاس ببلائه الأخير ويموت." فركب عنترة والشيخ، وانطلق شيبوب أمامهما، فأفزعَ الوحوش والظباء.

ولكن ميسورًا كان قد قرر أن يشنق شاسًا قبل أن يأتي عنترة لينقذه، فأعانته العجوز الكِندية على الهرب وهو متنكر في زي عبدٍ، وقد نصحته أن يسلك درب مكة. وبعد أن استراح الأمير ليلًا في أحد كهوف الجبال، تابع مسيره عند بزوغ الفجر، فصادف جماعة من قبيلة الريان، فظن أحدهم أنه عبدٌ سرق حصانه قبل مدة قريبة. فأخبرهم أنه شاس بن زهير، ولكن آسريه كانوا لسوء الحظ على عداء مع قبيلته، وهمّوا بقتله حين أبصروا رجلًا يعدو نحوهم بسرعة الريح يتبعه فارسان. وهؤلاء هم شيبوب وعنترة الكريم والأشعث. راح البطل يُعمِل فيهم سيفه الظامي بينما كان شيبوب يطلق عليهم نباله، وسرعان ما عضَّ جميع المحاربين التراب، ما عدا واحدًا هرب على قَلوصٍ ناجيةٍ.

أبدى الأمير شاس ندمه على ما فعل في الماضي، ووعده أن يعوضه عما فات. وبعد أن قدم عنترة للأشعث الخيل والغنائم، استأذن الشيخَ وانطلق إلى بلاده، أما البطل والأمير شاس فقد قصدا بلاد الحجاز، ودليلُهما شيبوب الأمين. وفي اليوم الخامس وصلوا إلى مياه بني الأخرم، حيث استراحوا ليلتهم.

البطل يُلاقي روضة ذاهبًا لخطبة عبلة

ظل شيبوب يجوز بأخيه والأمير شاس بأمانٍ خلف القبائل المعادية، وفي اليوم الحادي عشر وصلوا إلى البلاد التي تُدعى ذات الأعلام. وفي وسط السهل التقوا بستة هوادجِ على

ستة جِمالٍ، وعلى كل هودجٍ هلالٌ من الذهب المصقول، وستائر من القطيفة الفاخرة، وكانت مجموعة من العبيد الأشدّاء الراكبين يحيطون بالهوادج، وهم مسلحون بالدروع والسيوف الصارمة. وكان يتقدم القافلة فارسٌ باديةٌ عليه علامات البأس والشجاعة. كان ضيق اللثام، عريض المنكبين، وكان يلبس على جسده درعًا يغطي كل أطرافه، ويعتمر خوذةً عادِّية كأنها ظُلَّةٌ مرتفعة، ويتمنطق بسيفٍ مَسْقِيٍّ جيدًا، ويحمل رمحًا متناسقًا، ويمتطي حصانًا أبيض من أجود السلالات، وكان يسير أمام الهوادج والجمال مثل أسدٍ هَصور.

وكان الفارس هو روضة بن منيع، وقد وقع في غرام ابنة مالك، مثل عَمارة، من الأوصاف التي سمعها عن جمالها، فكان الآن في طريقه إلى قبيلة عبس، حاملًا هدايا ثمينةً لعلبة، ترافقه أمه وأخواته الخمس. وكان الفارس يتلهَّف للقاء عنترة أو أي فارس آخر مشهور يعترض سبيله من أجل عيني عبلة.

نشب صراعٌ بين عنترة وروضة، تمكن فيه البطل العبسي من قلبِ خصمه عن ظهر حصانه، ولكنه صفح عنه وأطلق سراحه بشفاعة أمه وأخواته. أُعْجِب روضة بشهامة عنترة، فتوسل إليه، من باب العرفان بالجميل، أن يقبل الهدايا التي جلبها لعبلة، ثم عاد إلى بلاده.

وأخيرًا، وصل الأمير شاس وعنترة إلى منازل قبيلتهما، فاستقبلهما الملك زهير وأشراف المحاربين من عبس استقبالًا حافلًا. يهنئ العمُّ المتقلِّب ابن أخيه البطل على عودته سالمًا، ويعلن أن عنترة سيتزوج من عبلة في تلك الليلة. أما شداد فقد شعر أن الدنيا لا تتسع لفرحته لعودة ابنه، وقبَّلت زبيبة ابنها وقالت، "لو أنك بقيت ترعى الجِمال معي، لارتاح قلبي من كل هذا العناء." فابتسم عنترة وطمأنها. ثم أقام الملك وليمة عظيمة، احتفالًا بعودة شاس وعنترة، فأعلن جميع أبناء زهير ولاءهم للبطل.

عنترة يُغامِرُ مرةً أخرى من أجل عبلة

وهكذا انزاحت، مرةً أخرى، آخر عقبة من طريق زواج عنترة من عبلة، بيد أن عمه الغدار كان في الحقيقة لا يزال على عناده القديم، فابتكر حيلةً جديدةً عسى أن يهلك فيها عنترة. لذلك أوصى ابنته عبلة بدهائه أن تطلب من عنترة أن يكون زفافها لا يقل هيبةً من زفاف الجيداء ابنة زاهر التي حين زُفَّت إلى ابن عمها، خالد بن مُحارب، قادت زِمام بعيرها ابنةُ معاوية بن نزّال. فوعد عنترة عبلة أن يجعل الجيداء نفسها تقود زمام بعيرها يومَ زفافها، بينما رأسُ خالد يتدلى من عنقها. فتظاهر والد عبلة أنه يعارض هذا الأمر بشدة، ولكن عنترة

أصر، كما توقع عمُّه، فانطلق عنترة من ليلته في مغامرته الخطرة ليرضي رغبات حبيبته عبلة وهو يقول:

أطْوي فَيافِي الفَلاَ واللَّيــلُ مُعْتكِرُ   وأقطعُ البيــدَ والرَّمضاءُ تَســتعرُ
ولا أرى مؤنِسًــا غيرَ الحسامِ وإنْ   قلَّ الأَعادِي غدَاةَ الــرَّوع أَوْ كَثُروا
فَحاذِري يا ســباعَ الــبَرِّ منْ رجلٍ   إذا انتضــى ســيفَهُ لا ينفعُ الحذرُ
ورافِقيني تَــريْ هامًــا مفلَّقةً   والطــيْرَ عاكِفــةً تُمســي وتَبْتكِرُ
ما خَالِــدٌ بعدما قــدْ سِرْتُ طَالبَهُ   بخالــدٍ لاَ ولاَ الجيــداءُ تفتخــرُ
ولاَ ديارهُــمُ بالأَهــلِ آنِســةٌ   يأوي الغرابُ بهــا والذئبُ والنمرُ
يا عبــلَ يُهْنِئْكِ ما يأْتيــكِ منْ نِعَمٍ   إذا رمــاني عــلى أعدائــكِ القدرُ
يا مَنْ رَمتْ مهْجتي من نَبْلِ مُقلتِها   بأســهمٍ قاتــلاتٍ برؤُها عســرُ
نعيمُ وصْلِــكِ جنَّــاتٌ مزَخْرفةٌ   ونــارُ هجْــرِكِ لا تُبقــي ولا تَذَرُ
ســقتكِ يا عَلَمَ الســعديَّ غاديةٌ   منَ الســحابِ وروى ربعكِ المطرُ
كم ليلةٍ قــد قطعنا فيــكِ صالحةٍ   رغيــدةٍ صفوها مــا شــابهُ كَدَرُ
مع فتيــةٍ تتعاطى الــكأس مترعةً   منْ خَمــرةٍ كلَهيــبِ النَّــار تَزْدهرُ
تُديرُهــا منْ بناتِ العُــرْبِ جاريةٌ   رشــيقةُ القــدِّ في أجفانهــا حَوَرُ
إنْ عِشْتُ فهيَ التي ما عِشْتُ مالكتي   وإنْ أمــتْ فالليــالي شــأنُها العِبَرُ

قصة الجيداء وخالد

كان محارب أبو خالد وزاهر أبو الجيداء أخوين، وكان محارب شيخ بني زبيد، وكان زاهر مستشارَه. لكن الأخوين اختصما، فاقتلع زاهر خيامه، وألقى بحظوظه مع قبيلة سعد التي بينها وبين قبيلته نسبٌ. قال زاهر لزوجته لما حملت إن وضعتْ غلامًا، فأهلًا وسهلًا به، وإن وضعتْ بنتًا فعليها أن تُخفي الحقيقة وأن تعلن للناس أنها وضعت غلامًا لكيلا يشمت به أخوه. وفي الوقت المعلوم، وضعت زوجة زاهر بنتًا، فسمّاها الجيداء في السر وجُؤذر في العلانية، وذلك لكي يُظَنَّ أنها غلام. وفي الوقت ذاته تقريبًا، وُلِد لمحارب ولد سمّاه خالدًا.

نشأت ابنة زاهر نشأةَ الصبيان، وتعلمت ركوب الخيل، وسرعان ما اشتهرت بفنون القتال، فكانت ترافق أباها إلى المعارك، وكانت دومًا تؤدي فيها دورًا بارزًا. وكان خالد أيضًا من ألمع فرسان عصره، يشهد له الكل بالشجاعة والبطولة.

زار خالدٌ عمه بعد موت أبيه، وقد بلغته شهرة ابنِ عمه جُؤذُر (الجيداء)، فأمضى عشرة أيامٍ يتقارع بالسيف مع فرسان القبيلة. هامت الجيداء بخالدٍ هيامًا شديدًا، وحين علمت أمها بالأمر كشفت أمرها لأم خالد، واقترحت عليها أن يتزوج هذان. ولكن حين علم خالد من أمه أن جؤذرًا ما هو إلا امرأة اسمها الجيداء، حزن حزنًا شديدًا، واستخفَّ بحبها له، وعاد مسرعًا إلى قبيلته. ولما رأت الجيداء نفسها مُهانةً على هذا النحو، عزمت على أن تنتقم لنفسها، فتنكَّرت وانطلقت إلى ديار زبيد. وحين وصلت إلى هناك دخلت خيمةً للتسلية، مقنَّعةً بخوذتها، على أنها فارسٌ من الحجاز. وبعد أن أثبتت تفوقها على خيرة الفرسان في الميدان، تبارزت هي وخالد مدة ثلاثة أيامٍ على التوالي من دون أن يتغلب أحدهما على الآخر. وحين كشفت نفسها لابن عمها، انقلب كرهه لها فجأةً إلى محبة. ولكن الجيداء رفضته وعادت إلى ديارها.

أسرع خالد إلى عمه وخطب الجيداء منه. وافقت ابنة عمه أخيرًا على شرط أن يذبح يوم زفافها ألف بعير من إبل غشم بن مالك الذي يُكنّى باسم مُلاعِب الأَسِنّة. وقد حاز خالد هذه بالإغارة على بني عامر، ولكنه حين عاد اشترطت عليه الجيداء شرطًا آخر، وهو أن تقود جملَها ابنةُ أميرٍ أسيرةٌ. فانطلق خالد مرةً أخرى مع فرسانه، فهجم على آل معاوية بن نزال، وأسر ابنته أُميمة، وتزوج الجيداء فور عودته. وحين أمسكت ابنة معاوية بزمام الجمل، علا شأن الجيداء فوق شأن جميع النساء والرجال.

عنترة في بلاد زَبيد

ولما وصل عنترة إلى بلاد زبيد، وجد خالدًا قد ذهب للإغارة، والجيداء ممتطيةً حصانَها، ومتدرعةً بسلاح الفرسان. واجهت السيدة المحاربة عنترة بكل جرأة، ولكنه هزمها وأسرها. جمع الملك زهير رجاله وانطلق في إثر عنترة، وفي هذه الأثناء انتهز أبو عبلة الفرصة ليهجر القبيلة مرة أخرى، وهكذا غادر مالك مع أسرته، يرافقه الربيع، إلى بني عامر. ولكن النحس ظل يرافقه، فما إن وصل هناك حتى هاجم خالد وأتباعه العامريين، ووقع مالك والربيع في الأَسْر. ولما عاد خالد إلى دياره، التقى بالعبسيين، ونشبت معركة حامية الوطيس، قُتل فيها كثيرون من كلا الطرفين. وفي الليلة التالية، قام كلٌّ من عنترة وخالد بحراسة قبيلتيهما، ثم تقابل

الزعيمان، وقتل عنترة خالدًا، فقطع شيبوب رأسه ليزين به عرس عبلة. في هذه الأثناء، نشبت معركة عظيمة انتصر فيها العبسيون انتصارًا ساحقًا. وبعد أن عاد فرسان عبس من مطاردة العدو وجمعوا الغنائم، بحث عنترة عن الجيداء فلم يجدها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مالك وعبلة. أمضى عنترة ليلةً لم يغمض له فيها جفن، وهو يندب خسارته لمحبوبته عبلة مرةً أخرى. وعند بزوغ الفجر، توجه سُراة عبسٍ المحاربون إلى ديارهم، وحين اقتربوا من منازل القبيلة، خرج الناسُ صغارهم وكبارهم لملاقاتهم، وكان يومًا عظيمًا للجميع. وحين رحَّب كلُّ خِلٍّ بخِلِّه، انسحب كلٌّ إلى خيمته، وبقي عنترة واجمًا يتأمل أطلال عبلة، فاتّكأ على رمحه، وأنشد بصوتٍ حزين هذين البيتين اللذين يُشكلان مطلع معلَّقته:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أمْ هلْ عَرَفْتَ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ

يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي ... وَعِمي صَباحًا دارَ عَبلَةَ وَاسْلَمي

أبو عبلة يفشل مرة أخرى في تزويج عبلة

بعد عدة أيامٍ عاد شيبوب، الذي أرسله بطلنا المحزون ليأتيه بأخبار عن عبلة، حاملًا إليه رسالةً حب من عبلة، وخبرًا مشؤومًا مفادُه أن والدَ عبلة، القاطنَ في بني شيبان الآن، قد وعد أن يُزوِّج عبلةً لبُسطام ابن الأمير قيس، وأن مهرها هو أن يأتيه برأس عنترة. وهكذا قصد بُسطام منازل عبس، والتقى بعنترة الذي تغلب عليه. فجاء شيبوب وأعلن أن جميع نساء بني شيبان قد سبتها بنو تميم. وعرض بُسطام على عنترة أن يساعد في إنقاذ عبلة، فأطلقه عنترة، وانطلقا معًا لينتقما من المغيرين، وتمكن البطل من إنقاذ عبلة مرةً أخرى من الأسر.

تباكى عمه مالك أيضًا وجدد عهده بأن يزوجه عبلة. ولكن الماكر المحتال أقنع عنترة بأن يعود إلى دياره لأمر افتعله. وسرعان ما هرب مع ابنته بعد ذهاب عنترة، ولكن عنترة علم بالأمر، فلحق به. ولكن مالكًا استجار بعمرٍو ملكِ كندة، وأعطى عبلة لابن أخيه مَسحِل.

شيبوب متنكِّرًا في مضارب الكِنْدِيّين

قُبيل اليوم المحدد لزواج عبلة، حلَّ عنترة بجوار القبيلة. تنكَّر شيبوب بزي امرأةٍ، وحمل قِرْبة ماءٍ على كتفه، واندسَّ في مضارب الكنديين. ألفى شيبوب الخيام خاليةً من الفرسان الذين خرجوا إلى السهول، وكانت الأُسَر مشغولةً بالاحتفالات. وكانت الفتيات العازبات يمرحن،

ويضربن بالصنّاجات والمزاهر، وكان العبيد يلوحون بسيوفهم ودروعهم، ووجوههم طافحة بالفرح. ولما رأى شيبوب ذلك، تقدم نحوهم، واختلط بهم، ثم قصد خيمةً كان ظاهرها مضاءً بمصابيح وشموع. فأيقن أن هذه الخيمة هي سرادق الزفاف، فأحدث ضجة كبيرة، وراح يلعب، واختلط بالنساء والجواري، وراح يرقص حتى شد انتباه جميع الحاضرين، فتجمعوا حوله، وراح يغني وهو موقنٌ أن صوته سيصل إلى عبلة:

يا ظبيةَ قنّــاصٍ، صَيْدُكِ قد أتى فَلْتبْشـري بالنصـر من سيف الفتى
ولتفرحي بالقــرب يا كلَّ المنى ولا تقولي ما أتــى، بل قد أتى
فلتفهمــي ما قلتُــه من قصتي إلى متى هــذا الْوَنــا إلى متى
قد حلَّتِ الأفــراحُ في حَيِّكِمُو في دائمِ الأوقاتِ صيفًا وشِــتا

كانت عبلة في تلك اللحظة تستمع إلى الموسيقى من الخيمة، فأعربت عن رغبتها في الغناء والرقص مع الفتيات الأخريات، فخاطبت شيبوبًا هكذا:

أيهــا الصائلُ مــا بــين الخِيَم قد أتى يرقــصُ ما بــين الخَدَم
بَشِّــر القناصَ والسـبعَ الذي رابــضٌ ما بــين كُثبــانِ الأكَمْ
هــا غزال الحــي ما بــين الظِّبا ترتجي الأفراحَ من فُرْطِ السَّــقَمْ
هــذه أوقــاتُ أفراحــي بِكِمْ كي يــزولَ الهمُّ عني والســقم
وسروري قُرْبَكــم يــا ســادتي وبُعــادي قد أتــاني منــه غَم
هــذِهِ الخيــلُ لســادتي أتَــتْ فاســمحوا بالقــرب إني في عَدَم

ولما سمع شيبوب كلماتها، تظاهر بالإعياء، فجلس بجانب الخيمة. وفي هذه الأثناء أيضًا ظهرت عبلة ونظرت إليه وهو في ملابس النساء وقالت، "لا يمكن أن تكون هذه الجارية كِنْدية. لا بد أنها من بنات شداد." وراح قلب شيبوب يخفق، ولكنه التفت إليها، وهدّأ روعَها، وكشف لها عن وجهه، فعرفته. "أوّاه، يا شيبوب! أين ابن عمي عنترة؟" فأجابها شيبوب، "إنه قريبٌ من هنا مع صديقه عُروة ومئة فارس. لقد وصلنا إلى هنا الليلة الماضية، وقد جئت لأستطلع أخبارك. سأعود وأخبره." فقالت له، "لقد بقيت ثلاثة أيام يا شيبوب

على زواجي من مسحل بن طراق. وليكن ذلك وسيلةَ فراقنا. عُد إليه في الحال وأخبِرْه عني. وانصحه بألاّ يهاجم القبيلة، بل يتربَّص إلى أن آتيه، وعندها دعْه يندفعْ ويقتلْ كلَّ مَن معي. وأنت خُذ بزمام بعيري لنعود إلى ديارنا، بعد أن يُذيقَ عنترة الكلَّ طعمَ الموت، ولا يرحَمَنَّ حتى أبي."

وبعد سماعه كلامَ عبلة، عاد شيبوب إلى عنترة، وقصَّ عليه ما أخبرته عبلة، فوضع عنترة خطته وفقًا لذلك. فكَمن لموكب العرس، وذبح مسحلًا، وأسَر عمه مالكًا. هاجم بُسطام الكِنْديين، ووصل العبسيون بقيادة أبناء الملك زهير لنجدة عنترة. لامَ الأمراء عنترة على مغادرتهم ووبخوا عمه على سلوكه المشين. لم يطلب عنترة من عمه سوى أن يعود هو وابنته إلى ديار عبسٍ، على ألاّ يزوجها إلى شخص آخر. وهكذا أُجْبِر مالك على العودة مع ابنته إلى قبيلته، فقرر عنترة أن يُمضي بعض الوقت عند صديقه في بني شيبان. ولكن شوقه لابنة مالك سرعان ما شدَّه إلى ديارها.

وجد عنترة عمه مُلقىً في الصحراء ومُثخنًا بجراحه بعد أن هاجمه أنس بن مُدركة الخَثعمي وأسر عبلة وعمرًوا، فعاد عنترة بأسرة عمه إلى ديار عبس.

مُحاولة اغتيال عبلة

دبَّر الربيع، أخو عَمارة، مكيدةً جديدةً ليحبط زواج عنترة. استخدم الربيع أَمَةً لتستدرج عبلة إلى الغدير ذات مساءٍ بحجة أن عنترة يود لقاءها، وهناك اختُطِفَت وخُبِّئَت عند بني شيبان. ولكن الأَمة سرعان ما كشفت المكيدة، فاضطر الربيع لمغادرة القبيلة. توجه إلى بني شيبان، حيث وجد صديقه، مُفرِّجًا، الذي أودع عنده عبلة يرتعد من خوفه من عنترة إذا عرف عن دوره في المكيدة. فقررا أن يقتلا عبلة ويدفناها في كثبان الرمال لكيلا يبقى لها أثر. وهكذا حمل عبدٌ اسمه بشارة، حمل عبلة إلى الصحراء، ولما هَمَّ بطعنها بخنجره، طلع عليه رجلٌ فجأةً وطعنه بخنجره بين كتفيه، فسقط الغادر مضرجًا بدمه.

وكان الذي أنقذ عبلة هو شيبوب الذي اتفق مروره من هناك حين كان يبحث عنها. لكن بشارة لم يمت، بل أصيب إصابةً شديدةً. أفشى بشارة لشيبوب أسماء الكائدين، ثم وضع عبلة في رعاية أمه، بعد أن وافق شيبوب على ذلك. وهكذا عاشت في مكان بعيد إلى أن أُتيحت لعنترة الفرصة ليُطلعَ الملك على جُرْمِ الربيع.

البطل يهجُر قبيلته

لما صار حب عنترة لعبلة سببًا في كثيرٍ من الشقاق بين أفراد القبيلة، طلب منه الملك أن يرحل، فارتحل البطل النبيل، مع أبيه وأعمامه، عن ديار عبس. وبعد أن نهب آلُ قُراد، بقيادة عنترة، الفزّاريين، غزوا بني شيبان قبل أن يهجموا على مفرج الذي كان قد أخفى عبلة عن عنترة وأسرَها.

النُّعمان ملك الحيرة يشن حربًا على الملك زهير

لم يَطُل المقامُ بالملك زهير حتى تمنى لو كان بطلُ عبسٍ وعدنان بينهم. فحين رفض زهير أن يُزوِّج ابنته للنعمان، ملك الحيرة، أرسل هذا أخاه الأمير الأسود على رأس جيشٍ عَرمرم ليُحيل ديارَ عبس إلى صَفْصفٍ خاويةٍ. دفعت الحمية عنترة لينتصر لمليكه وصديقه القديم في صدِّ الغزاة. وقد هلك جيش الأسود بحيلةٍ من شيبوب الذي تمكن من الوصول إلى قِرَب الماء التي مع العدو، فخرقها، وهرب منها الماء. فلما أنهكهم الظمأ، تمكنت قوة صغيرة جدًا من العبسيين أن تتغلب عليهم، فأسروا بعضًا منهم، من بينهم الأمير الأَسْوَد.

في هذه الأثناء، انطلقت المحاربة الشهيرة الجيداء، التي كان عنترة قد أسرها ثم هربت بعد ذلك، انطلقت من بلادها لتثأر بموت خالد. لكنها لم تجد عنترة، بل هاجمت جماعةً من العبسيين، فأسرت مالكًا وعبلة، وساقتهما إلى العراق وسلمتهما إلى النعمان الذي أعلن أنه سيشنق عبلة إلى جانب عنترة، وأنه سيفني قبيلة عبس عن بكرة أبيها. ولكن عندما سمع بانتصار عنترة على جيش أخيه العظيم، أرسل إليه أحد قادته ليعرض عليه مقايضة عبلة وغيرها من نساء عبس مقابل الأَسْوَد وأصحابه. فرد عنترة على رسول الملك أن على الملك أن يُعيد عبلة وكل مجوهراتها قبل أن يطلق الأمير الأَسْوَد، ولما سمع النعمان من رسوله عن مآثر عنترة وشجاعته، خاف ورضخ لشروط البطل. وما إن عادت عبلة وأبوها إلى القبيلة، حتى شرع عنترة بإطلاق الأسرى، ومن بينهم مَعْدِي كَرِب، وهو ابن عم الجيداء.

وبعد أن صاروا في الجبال، أمر عنترة شيبوبًا أن يُطلِق الأمير الأَسْوَد وأصحابه، ففعل شيبوب. ولكن عنترة جزَّ شعر معدي كرب بيديه، وهو يقول له، "هذا جزاءُ إهانة الجيداء لابنة عمي عبلة، يا معدي كرب." ثم أمر العبيد ومرافقيه أن يُسرِّحوا الأسرى حفاةً، عُراةً، حاسِري الرؤوس. وبينما كانوا ينفذون أوامر عنترة، صاح الأَسْوَد، "أما تستحي، يا ابن شداد، أن تسوقنا على هذه الحال، وليس لدينا مطيةٌ واحدةٌ نركبها، ولا نملك ما نأكله أو نشربه؟" فرد عليه عنترة، "وحقِّ ما آمنت به العرب، لا تؤاخذني على ما بدر منيٍّ تجاهكم، فأنا أعلم أنكم

ستتعاضدون عليَّ جميعًا، وستأتون ثانيةً لمحاربتي، وأعلم إن أعطيتم خيلًا فسأقاتلكم لأستردها منكم. أما عن الطعام، فستجدون على طريقكم أعشابًا خضراء يمكنكم أن ترعوها، واشربوا من مياه الغُدران؛ أما نحن فقبيلةٌ متحصنةٌ بين الجبال تكفيها مؤونة قليلة يومَ الطِّعان. أجل، إن أكثركم يقول إن عنترة عبدٌ أسود وابنُ زِنا. هذا ما تتفوهون به عني أنتم وغيركم، وسيظل هذا دأبكم حتى لو أطلقتُكم ألف مرة. وخيار الرأي عندي أن أقتلكم جميعًا في الحال، لذا فَلْتَحمَدوا الله على نعمة الحياة." فقال الأَسْوَد، "لا تفعل بنا هذا، يا أبا الفوارس، فأنا حقًّا لا أستطيع المشي ولو لربع ميلٍ. لذا أعطني مطيةً تحملني، أو اقتلني فورًا، وخلِّصني من هذا العار."

نادى عنترة على شيبوب، "إليَّ يا أبا الرياح، بناقةٍ يركبُها ويغْرُب عن وجهي، وإلاّ لحستُ رقبته بسيفي." انطلق شيبوب الحكيمُ الداهيةُ، وانتقى ناقةً متهالكةً، عرجاء عمياء منذ ولادتها، كَلولة مَربُوَّة الصدر، مبحوحةُ الصوت، مُتَهَدِّلة الشفتين، دَرْداء الفم، مَصْلومة الأذنين، متورمة العراقيب. فلما قُدِّمت للأمير، استشاط غضبًا، فصاح به شيبوب، "هيا اركب، أيها الأمير، بينما أمسك لك بزمامها، فإني أخشى أن تطير من يديك، فهي من سلالة الإبل العصافيرية المعروفة." فصاح به الأمير، "لعن الله البطن التي حملتك! أبعِدْها عني، لا أريدها،" واندفع من الجبال، وهو يلعن النار.

حين سمع أنوشِروان ملك الفُرس بصنائع عنترة مع تابِعه النعمان، ملك الحيرة، أرسل مَرْزُبانَه وَرْدِشان على رأس جيشٍ عَرَمْرَم لإذلال بطل عبس. فنشبت معركة حامية الوطيس بين الفُرس والعبسيين في وادي السيل، قُتِل فيها وردشان، مثل سابِقه خُسْرُوان، وانهزم الفُرس شرَّ هزيمة.

لكن الجيداء، عدوةَ البطلِ الجميلةَ، كانت لا تزال تتحرَّق للثأر بمقتل زوجها خالد، فدخلت الميدان على رأس جيش من محاربي زبيد. وأطلق الزبيديون زعقةً ارتعدت لها الجبال، وحين تذكروا موت خالد، انقضّوا على عنترة، فحسروا رؤوسهم وتخففوا من ملابسهم، وكان عددهم خمسة آلاف، ولحق بهم حوالي ألفين من قبيلتي لَخْم وجُذَم، فهجموا جميعًا بقيادة معدي كرب، وكان يزأر كالأسد. ولكن عنترة صد هجومهم، وهزم السبعة آلاف جميعًا، وفرَّت الجيداء ومعدي كرب، كلٌّ يطلب النجاة.

بعد أن هزم عنترة الكريم ومحاربو الأُسود جيشًا آخر أرسله النعمان لمحاربة العبسيين، صار هذا مَيالًا للسلم، وجدد طلبه ابنةَ زهير للزواج. كان عنترة مُمْتنًّا للنعمان لأنه أطلق والده شدادًا حين وقع في الأسر، فنصح الملك زهيرًا بالموافقة، فأُعلِن السلام، وتزوج النعمان ابنة زهير.

ولكن سلوك الأمير الأسود كان مغايرًا لسلوك أخيه النعمان في الحرب الأخيرة لأنوشِروان، فخلعه هذا، ونصَّب الأسود مكانه، وأرسل ابنه خُوداوَند على رأس خمسين ألف محارب فارسي للقضاء على العبسيين. وفي الوقت ذاته، جاء الكِنديون وزعيمهم حَجّار لتخريب بلاد العبسيين. ولكن عنترة علم من أخيه اليقظ شيبوب بتحركاتهم، فقاد جيشًا من ثلاثة آلاف فارس من فرسان عبس، تاركًا الأمير قيسًا مع جماعةٍ لحماية النساء وممتلكات القبيلة في الجبال، وتقدم لسيتقبل العدو استقبالًا لائقًا. وقد عبر البطل المغوار عن تأملاته بخصوص هذا الزحف [بأبياتٍ من الشعر تعبر عن عذاباته جراء حبه لعبلة، ويتوعد فيها حجّارًا، ويذكِّره فيها ببطولاته التي شهدها حجَّارٌ نفسه في وادي السيل].(٨)

أسر عنترة حجّارًا وانتصر جيشه الصغير. أما الآن فقد أقبلت جحافل الفُرس بقيادة خُوداوَند، ونشبت معارك طاحنة بينهم وبين العبسيين، فأبلى فيها عنترة بلاءً حسنًا. ظن خُوداوَند أن العبسيين سيرضخون لأي شروط، فجعل وزيره يكتب رسالةً إلى الملك زهير يعرض عليه الصُّلْح إن هو اكتفى بتسليمهم ذلك العبد الزنيم عنترة. وقد أرسل رسالته هذه مع أحد مَرْزُباناته، ورافقه عشرون فارسًا ومترجمٌ يُدعى عُقاب بن تَرْجَم. ولما وصلوا مُعَسكَر العبسيين، اتفق أنه لم يكن على جواده إلا عنترة وزعيمٌ آخر.

كانا يتحادثان حين تقدم منهما المرزبان، فلم يُحيِّهما، بل سأل عن الملك زهير. قال المترجم، "إنه يسأل عن الملك زهير الذي يحمل إليه رسالةً من خُوداوَند." فقال له عنترة، "لقد قرأنا رسالتك، يا أخا العرب، قبل وصولها؛ ففيها يأمرنا أميرُك أن نستسلم بلا قتال." ثم التفت إلى شيبوب وقال له، "أَنْزِل هذا المرزبان عن حصانه، وكذلك افعل مع البقية. صادِر ممتلكاتهم، وإن تجرّأ أحدهم على مقاومتك، فافعل معه هكذا،" فمدَّ يده، ومزّق صدر المرزبان برمحه وأخرجه من ظهره، فأرداه صريعًا على الأرض. ولما رأى أصحابه ما فعل عنترة، صرخوا طالبين الرحمة، واستسلموا لشيبوب الذي كتَّفهم سريعًا. أما المترجم فقد ارتعد وهو يقول، "جزاك الله خيرًا، فقد أجبتنا قبل أن تَقرأ الرسالة! وإذا كانت هذه خِلعَتك للمرزبان، فلا تجعل مثلها للترجمان، فلدي أطفالٌ وعائلة، وما أنا إلا رجل مسكين. وما اتَّبعتُ هؤلاء الأعاجم إلا بأمل الكسب الزهيد، ولم يَدُر في خَلَدي أنّي سأُشْنَق، وسيتيتّم أطفالي إن مُتُّ." فناح وأعوَل، وهو يقول:

(٨) تورد المؤلفة ثمانية أبياتٍ شعرية من سيرة عنترة، غير أني لم أجد هذه الأبيات في سيرة عنترة البالغة حوالي ٤,٠٠٠ صفحة (في ثمانية مجلدات). لذلك آثرت أن ألخص فكرة هذه الأبيات بدلًا من سد الفراغ بأبيات غير التي استشهدت بها المؤلفة. وهذا، للأسف، ما فعلته المترجمة د. نبيلة إبراهيم في الصفحتين ١٧٢-١٧٣ من ترجمتها. [المترجم].

يا فارسَ الخيلِ والأبطالُ تصطدمُ　　وليثُهـــا وهي مثل البحـــرِ تلتطمُ
ذلّت لهيبتـــك الأبطالُ وانخذلتْ　　لمـــا رأوكَ وذلّت بعدهـــا العجَمُ
ولو دنَوْا منـــك أو مَدّوا رماحَهم　　إلى لِقـــاك فما عادوا ولا سَـــلِموا
فارحمْ، فديتُكَ، شيخًا قَلَّ ناصرُه　　عند المشـــيب وذلّت بعده الحرمُ
مولاي ذنبي عظيمٌ فاعتذرتُ به　　فانظـــر إليَّ فقد ضـــنَّ بيَ العَدَمُ
فما طِعانُ القنا والحربُ من شِيَمي　　ولا النـــزالُ ولا في صارمٍ سَـــلَمُ
اســـمي عقابٌ ولكن ما أنا بطلٌ　　والسيفُ في راحتي تصطادني الرَّخَمُ

سخر عنترة من أشعار عُقاب، وخلّى سبيله، وقال له، "عُدْ إلى عائلتك، ولا تعد إلى الأعاجم بعد اليوم، وإلا خاطرتَ بحياتك. فإن رأوْكَ سالمًا اتّهموك، وربما قتلوك." فقال عقاب، "وذِمَّةِ العرب، لو كنت أعلم أن هؤلاء الأعاجم سيُهزمون هكذا، لما تركتُك، ولربما استطعت أن أحوز شيئًا مما يملكون وعدت بها إلى أهلي." فقال له عنترة، "لقد باء أمرُكم بالفشل، أيها الشيخ، فتعالَ خُذ أسلابَ هذا المرزبان، وعُد إلى أهلك ولا تُمْسِ ميتًا." أسرع عقاب إلى المرزبان وجرَّده من أسلابه، فوجد على خاصرته مِنْطَقَةً وسيفًا، ولما رأى كل هذا الغنى، أصابته الدهشة، ولما انتهى من نهبه، قال لعنترة، "لن أفارقك بعد اليوم، يا سيدي. ليتك تأخذني إلى مليكِك لأقبِّل يده وأضع نفسي في خدمته، وعندها سألتصق بفريقك، فكلما ذبحتَ مرزبانًا، سلبتُه." فضحك عنترة من كل قلبه.

نشبت معركة دامت سبعة أيام، انتهت على الرغم من بطولات عنترة بإرباك العبسيين الذين ظلوا يُناوشون العدو بين كُثبان الرمال وشِعاب الجبال. وقد جُرح عنترة نفسه في ثلاثة مواضع، ولكن نفسه لم تتخاذل، على الرغم من كثرة المِحن من حوله. وفي هذه الأزمة، تمكن الملك النعمان من مقابلة خوداوَند، وبرّأ نفسه من تُهَم أخيه الزائفة، فَجُرِّد الأسودُ من منصبه، وأُعيدَ النعمان إلى عرشه، وأُعلن الصلح بين المتحاربين، وعاد العبسيون فرحين إلى ديارهم. رافق عنترة ونخبةٌ من أصحابه الملكَ النعمان إلى الحيرة، حيث أقيمت لهم الاحتفالات المبهرة، وقبل عودتهم إلى بلادهم، أرسل كسرى أنوشِروان خلعةً لعنترة وهدايا ثمينةً تعبيرًا عن تجديد صداقته، وكان أنوشروان قد سمع من ابنه خوداوَند كيف أنقذ عنترة العبسيين بشجاعته التي لا تُقْهَر.

الأمير الحارث عاشقًا

كان الأمير الحارث، وهو واحدٌ من أبناء الملك زهير، يصطاد ذات يومٍ حين ابتعد عن أرض الشربَّة في أحد الوديان، فرأى مجموعة من نساء زَهران، وكانت بينهن لُبنى، ابنة شيخ القبيلة الجميلة. أحبّا بعضهما بعضًا من النظرة الأولى. احتال شيبوب لخطف الفتاة وحملها إلى عشيقها، ولكن أباها أقسم على الثأر، فطاردهم مع محاربيه. وقع الحارث في الأسر، ولكن شيبوبًا سرعان ما حرره، فوقع هو في الأسر بدوره. في هذه الأثناء عاد عنترة من الحيرة إلى دياره، فأنقذ أخاه، وعاد كلٌّ من لبنى والحارث إلى بعضهما بعضًا.

الملك زهير وأخوه أُسَيْد

في أثناء غياب الأمير الحارث وانشغاله بما جرى له جرّاء عشقه، ذهب الملك زهير للقاء أخيه أُسيد، وكان هذا رجلًا عالِمًا في ذلك العصر الجاهلي، يقضي جُلَّ وقته في البيت الحرام عند بئر زمزم. كان رجلًا فاضلًا، كريمًا، يحب العدل والإحسان، ويمقت الظلم والعدوان. وكان أسيد يزور قبيلة عبس مرةً في السنة. وفي هذه المناسبة، قابل زهير أخاه، برفقة ثلاث مئة فارس، وكانا قد جعلا لذلك موعدًا في مكان يُدعى وادي الطَّرْفاء. لم يتفاجأ الملك كثيرًا حين سمع أخاه العالم الرزين يشير إلى سرٍّ غرامي من أسرار شبابه، فأراد الملك معرفة بعض التفاصيل، فروى له أُسيد الحكاية التالية:

"اعلم، يا أخي، أنني في السنة التي حجَّ فيها أبونا الملك جُذيمة قد رافقته في تلك الرحلة، ولما فرغنا من الحج، وعدنا إلى ديارنا، اتفق أن مررنا بهذا المكان الذي رأيت فيه عددًا كبيرًا من الوحوش والظباء. واصل أبي رحلة العودة إلى الديار، وتخلفت أنا بغرض الصيد. وبقيت منشغلًا بهذا الأمر حتى غلبتني شمس الظهيرة، وازدادت حرارة الجو، فعدت أقتفي أثر أبي. واتفق أنني مررت بهذه الشجرة، وعندما بلغتُها، وجدتُ شيخًا كبيرًا تحتها، ومعه عدد هائل من الجِمال، وابنته التي كانت ترعاها في المراعي. وكانت جميلة، هيفاء القد، وقد حييتُه فور وصولي، فسألني، 'ما الذي تبغيه أيها الشاب؟' فقلت له، 'ألا تقبل ضيفًا يَحُل عليك؟' فأجابني، 'أهلًا بك ضيفًا عليَّ، في الصيف والشتاء. ولكن اعلم أيها الشاب أن لكلِّ امرئٍ وِسْعَه وطاقَته.'

"وحين سمعت ما قاله الشيخ، صممتُ على الترجُّل عند البحيرة لكي أشرب أنا وأسقي حصاني. ولكن الشيخ منعني، ونادى ابنته، فأتتني بحليب نوقٍ لأشربه، وسقتْ

حصاني. وقد لاحظتُ حُسن الفتاة، وأدركتُ أنها ترفُل بأثواب الجَمال. ولما رأى أبوها تَساوُقَ حصاني، وثيابي الفاخرة، أتاني بشيء من الطعام، وهو يقول، 'أعذِر قلة حيلتي، فأنا رجلٌ فقيرٌ، والكريمُ السموحُ يصفح حين يرى صدق المعذرة.' فقلت له، 'أيها الشيخ، هذا هو غاية الإحسان؛ ولكن إن أردت تلبيةَ أمانيَّ وتحقيقَها، فاقبل خطبتي لابنتك، وتعال معي إلى قبيلتي. إني أتلهَّف لأن تقبلني زوجًا لها، وأن تذهب معي إلى دياري وأهلي. هيّا حدِّثني وامنحها لي. إني أستحلفك بالذي خلقها وسوّاها أن تأخُذ كل ما معي جزءًا من مهرها.' ثم نَضَيْتُ عني قِراب سيفي، وزينة حصاني، وكانت كلها من الذهب.

"اندهش الشيخ لرؤية هذا وسُرَّ سُرورًا عظيمًا، واتجه نحوي بلا تردد، موافقًا على زواجي من ابنته، ثم ساق جِماله وقطيعه، وذهب إلى منزله، فتبعتُه، ولدى وصولنا ذبح كل النعاج التي لديه، وبعض النوق، واحتفى بي كما لم يحتفِ بي أحدٌ من قبل، وزوجني ابنته في تلك الليلة. مكثتُ معهما ثلاثة أيام، ثم قلت لهما من أنا. بقيت معهما بعد ذلك مدة أطول، ثم غادرتهما وقلبي معلَّقٌ بهما، وكنت أنوي الرجوع إليهما بمال وفير.

"وعندما وصلت إلى دياري، والتمَّ شملي بأهلي، أنفذتُ عبدًا ليأتيني بزوجتي، وقد أرسلت معه عددًا كبيرًا من الإبل والأغنام إلى هذا الوادي وهذه الصحراء. وبقيت أنتظرهما ببالغ الشوق حتى عاد عبدي خائبًا، وأعاد إلي كل حلالي. سألته عن الأمر، فقال، 'لم أر أحدًا هناك، يا مولاي.' بقيت على هذا الحال مدةً، وأرسلت الرسل إلى كل قبائل العرب، وأنفقت الكثير من الذهب والفضة، لكني لم أوفق في الحصول على خبرٍ عنها. وما زلت أحمل ذكراها في قلبي، يا أخي. وبسببها تعلقت بمكة والبلد الحرام، وحين رأيتُ هذه الأشياء التي تذكرني بها، تجددت أحزاني، وحين تأملت الماضي، حرصتُ على أن تأتي معي إلى هذه البقعة لأجدد العهود التي قطعتُها منذ سنين بعيدة مضت."

بعد أن فرغ أُسَيْد من رواية قصته الحزينة، أمر الملكُ العبيدَ أن يفرشوا السجاد تحت أشجار الأثل، ولما عاد القناصون بصيدٍ وفيرٍ من الأرانب والغزلان، أُعِدَّت مأدبة عامرة على الفور. قضى الفريق ليلتهم في ذات المكان، وعند بزوغ الفجر باغتتهم ثلةٌ من فرسان قحطان، بقيادة فارسٍ شابٍّ يُدعى نازح، وأسرتْهم، وعاد منتصرًا إلى قبيلته مع أسراه من أصحاب المقام العالي حين لقيه عنترة. هجم البطل العبسي على نازح بكل عنف وقلبه عن ظهر حصانه. قيَّد شيبوب نازحًا تقييدًا مُحكمًا، ثم أسرع إلى إطلاق الملك وأخيه. اقترح عنترة أن يقتل نازحًا ورفاقه، وحين راح يُجرِّد الزعيم الشاب من ملابسه، وجد على معصمه سِوارًا من العقيق

رُسِمَت عليه صورٌ لِلاَّت والعُزّى. أدرك أُسيد أن هذه الحِلْية تُشبه واحدةً كان قد وهبها لعروسه في وادي الطرفاء. وحين سأل أُسيدٌ الزعيمَ الشابَ عن نَسَبه اكتشف أنه ابنه، وأخيرًا اجتمع شمله مع عروسه التي طال فقدُه لها.

موت الأمير شاس والملك زهير

في حوالي هذا الوقت، قُتِل الأمير شاس قتلةً شنيعةً على يد صيادٍ اسمه ثعلبة، بينما كان شاس يرتحل في بلاد العامريين. فهرب مرافق الأمير لينقل الخبر للملك زهير الذي جهز محاربيه وانطلق بهم للثأر بمقتل ابنه. ولما كان خالد، زعيمُ العامريين، غائبًا في العراق، خشي العامريون من مواجهة العبسيين، فعرضوا على الملك زهير أن يؤدوا إليه عشرة أضعاف الدِّية المتعارَف عليها. رفض الملك أن يساومهم على دم ابنه، ولكنه خُدع بعد مهاجمة القبيلة، ومنح العامريين هُدنةً استغلها هؤلاء للتحصُّن في الجبال، حيث ظلوا هناك في أمان عدةَ أيام إلى أن دخل شهر رجب المحرَّم الذي يتوقف فيه كل العرب عن التحارب. ولكن ما إن انقضى الشهر المحرم حتى تجددت المعارك، وفي هذه الأثناء كان خالد قد عاد من العراق، وواجه الملك زهيرًا، الذي سدد له أحد أتباع خالد، ويُدعى جَندح، طعنةً غادرةً أردتْه قتيلًا، فعاد العبسيون إلى ديارهم بعد أن هُزِموا.

الملك قَيْس يثأر بموت أبيه

تولّى قَيْس، أكبر أبناء الملك زهير على قيد الحياة، زِمام الحكم، وانطلق مع محاربيه ليثأر بموت أبيه. لكنه لم يصطحب معه عنترة بناءً على نصيحةٍ من أعداء البطل. هاجم العبسيون بني عامرٍ، ولكنهم انهزموا. فأرسل الملك قيس رسالة إلى عنترة يرجوه فيها أن يأتي لنجدتهم. في هذه الأثناء، تبارز الزعيم الشاب نازح، ممثِلًا عن العبسيين، مع الحارث بن ظالم، ممثل بني عامر، وكان هذا فارسًا مرتزقًا، مبارزةً شرسة. كاد نازح أن يستسلم لخصمه حين طلع على الناس فارس غريب يركب حصانًا هزيلًا أعرج، وكان مسلَّحًا تسليحًا ضعيفًا. هجم هذا البدوي المتجول على الحارث وأسره، ثم تغلب على جندح الذي قتل الملك زهيرًا، وكان الملك قيس أول من عرف أن هذا البطل الرثَّ الهيئة هو عنترة ذاته. عندئذ قطع الملك رأس جندح بالسيف ذاته الذي كان قد قتل به الملك زهيرًا. وبعد فترة من المهادنة، شن العبسيون حربًا أخرى على العامريين، فهزموهم شرَّ هزيمة.

عنترة ينقذ أبا عبلة وأخاها مرة أخرى

على الرغم من الاحترام الذي يُكنُّه الملك قيس ومحاربو عبسٍ الشرفاء لعنترة، لم يكن عمه مالك ليرضى بزواجه من عبلة. ففي إحدى المرات، دبَّر الناكرُ للجميل هجومًا غادرًا يقوم به جماعةٌ من فزّارة على عنترة وهو يلهو منفردًا في خيمته. ولكن عنترة الذي علم بالمؤامرة من خادمة عبلة أفشل مكيدة عمه الغادرة. عزم مالك على الرحيل مرةً أخرى بعد أن فشلت خطته فشلًا مُخزيًا، ولكن عبلة رفضت هذه المرة أن ترافق أباها وأخاها، فلم يكن أمام هذين السيدين من خَيارٍ إلا أن يتركاها برعاية شداد أبي عنترة.

وبعد بضعة أيام من رحيل مالك وابنه عن القبيلة، عزم عنترة على البحث عنهما ليسترضيهما للعودة، وهكذا انطلق مع شيبوب ورفيقين موثوقين. ولما علموا أن مالكًا وعمرًوا قد أسرهما رابِح، زعيم قبيلة جَبهان، انطلقوا إلى هناك بأقصى ما يستطيعون. وعندما بلغوا خيام رابح، تنكَّر شيبوب وعنترة، وحمل كل منهما حُزمةً من الحطب، واقتربا من منازل الزعيم.

كان الظلام قد بدأ يُخيِّم حين دخلا الخيام، وراحا يعبُرانها ويراقبان كل شيء من حولهما حتى بلغا خيام رابح، وهناك وجدا مالكًا وابنه مقيدين مع الكلاب في أبأس حال. قال شيبوب لعنترة، "انظر إلى عمك واشْفِ غَليلك." ألقى عنترة حزمة الحطب عن رأسه، وكذلك فعل شيبوب، ولكنهما لم يتوقفا إلى أن خرج رابح، زعيم بني جبهان، مع حاشيةٍ من عبيده، ووضعوا له صُفَّةً يجلس عليها. ثم راح يكلم رُعيانه الذين كانوا يعرضون أمامه خيوله وماشيته، وكان يسألهم عن الحبوب والمراعي.

فقال أحد العبيد، "لقد رأيت اليوم يا مولاي أغرب مشهد، فبينما كنت في وادي المروج أرعى الماشيّة، صعدتُ إلى الطريق، وإذ بفارسٍ يصطاد الظباء. كان يمتطي حصانًا أسود، وكان رجل يمشي بين يدي الفارس، متوشِّحًا بقوسٍ عربي، وعلى خاصرته كِنانةٌ مليئة بالنبال. وكانا يتعقبان ظبيًا يرومان صيده. توقفت لأنظر إليهما، وإذ بالراجل يغلب الراكب، فيتخطف الظبي من قرنه الأيسر، بينما تخطفه الفارس من قرنه الأيمن، ولما نظر في وجهه، قال شعرًا. وما إن فرغ من قول الشعر، يا مولاي، حتى خلّى سبيل الظبي، فراح يتقافز فوق القفار، ثم انضم إليهما فارسان آخران." فسأل رابح، "وما الغرابة في كل هذا؟ أظن أنهم من قبيلة قحطان وقد داهمهم المساء، وسيبيتون في دياري ويرتحلون في الصباح."

ولكن مالكًا الذي سمع هذا الحديث عرف أن الراجل الذي تحدث عنه العبد هو شيبوب، وأن الفارس العطوف هو عنترة، وأنهما آتيان لإنقاذهما، وقد صدق. ففجأةً ثارت

ضجةٌ عظيمةٌ بين الخيام، فقطع البطل الضرغامُ رأس الزعيم بسيفه الظامي، وبعد أن حرروا مالكًا وابنه عادوا جميعًا إلى ديار عبس.

سباق داحِس والغبراء وما نَجَمَ عنه

لما أرسل الملك قيس بعض عبيده ليأتوا له بخبرٍ عن عنترة، جاءه أحدهم بخبرٍ باهرٍ عن فرسٍ رائعةٍ تُدعى داحس كان قد رآها خلال رحلته. ولم يكن لهذه الفرس مثيلٌ في جمالها وسرعتها في كل بلاد العرب. ساوم الملك مع صاحب داحس، وسُرَّ سرورًا عظيمًا حين اتفقا على ثمنها. ولم يمض إلا وقتٌ قصيرٌ حين حضر قِرْواش، وهو من أبناء عُمومة قيس، وليمة عظيمة أقامها حُذيفة، وحين دار الحديث عن الخيل، تبجَّح قِرواش بقدرة داحِس على السباق. فتراهن حذيفة وقِرواش على عشرين بعيرًا، وحُدِّد يومٌ للسباق. ولكن الملك تولى الأمور، فزار حذيفة، ليحددا شروط السباق.

قال قيس لحذيفة، "أما الرهان الأول، فإني أفسخه، وأضع لك غيره، وهو ثلاثون بعيرًا." فقال حذيفة، "بل أربعون." فقال قيس، "خمسون." فقال حذيفة، "ستون." وظلاّ يتلاجّان ويزيدان في الرهان، حتى صار مئة من النوق، وأوكلا العقد إلى رجلٍ يُسمّى سابق بن وهب، والتمَّ حولهم جمع من الشيب والشبّان. فسأل حذيفة الملك قيسًا، "وما هي المسافة التي نتسابقها؟" فقال قيس، "أربعون غَلْوَةً.(٩) ولدينا رامٍ اسمُه إياس بن منصور." ولم يكن بين العرب رامٍ مثله، حتى صار مَضرَب الأمثال. وكان الملك قيس يرغب في سباق أطول، وذلك لمتانة حصانه، فكلما طالت المسافة، زادت هِمتُه. قال قيس لحذيفة، "حدِّدْ، إذن، موعد السباق." فقال حذيفة، "أظن أننا نحتاج إلى أربعين يومًا لتضمير الفرسين." اتفق المتراهنان على أن تكون مدة الإضمار أربعين يومًا وأن ميدان السباق سيكون عند غدير ذات الإرصاد، وأن الفرس الذي يأتي في المقام الأول هو الفائز. وافق الملك قيس على هذه الشروط وعاد إلى منازله.

بدأ السباق في المكان المحدد، وكادت داحس أن تفوز لولا مكيدةٌ من حذيفة أدت إلى إصابة الفرس قبل أن تصل إلى هدفها، ونتج عن ذلك حرب الأربعين عامًا المشهورة بين قبيلتي عبس وذبيان، والتي اشتهرب باسم حرب داحِس والغبراء.

---

(٩) الغَلْوة: مقدار رمية سهم. [المترجم].

زواج الأمير مالك وموته

بينما كان الأمير مالك يصطاد، مثل أخيه الحارث، وقع في غرام فتاة جميلة من بني غُراب، فخطبها من أبيها، وكان هذا شيخًا كبيرًا، فوافق بعد شيء من التلكُّؤ بسبب فقره على تزويجه إياها. وفي اليوم التالي، أرسل الأمير مالك للشيخ نوقًا وجِمالًا وثيابًا مختلفة وأنعامًا وجواهر ثمينة وهوادج مزينةً بقطيفةٍ رائعة وخدمًا وعبيدًا وخيولًا وأغنامًا، وأمرهم أن يُعجلوا في سَوْقِ المهر، وذلك لما كان في قلبه من شوقٍ لعروسه، وقد حدد ساعةً معينةً في اليوم السابع. وعندما وصلت هذه العطايا إلى بني غراب، فرح الشيبُ والشبّان، وأمضوا تلك الأيام في أسعد حالٍ، وذبحوا النعاج والإبل، وملؤوا كؤوس الراح، وذهب عنهم الغمُّ وحل محله السرور والبهجة.

ولم يمضِ إلا وقتٌ قصيرٌ حتى لبس الأمير مالك ثياب الملوك، ففاق جماله البدر المنير. وقد رافقه في رحلته هذه عنترة، مخافة أن يتربَّص به بعض الأعداء، فأخذ معه عشرة فرسان وخمسةً من إخوانه. ساروا بين أحياء العرب حتى وصلوا بني غراب، فترجل الأمير مالك عند خيمة العرس، ونزل إخوته حول الخيمة. وبدأ الاحتفال فورًا، فكانت الفتيات يُطوِّحْنَ بالصنّاجات وكان الفرسان يُشهرون سيوفهم، وارتفعت صيحات الفرح، ودارت الأقداح، وظلوا حتى انقضى يوم المرح وزُفَّت العروس إلى الأمير مالك. ولكن من كان يدري أن ليلة السعد هذه سيعقبها صباحٌ مُرعبٌ، وأن ليلة زفاف الأمير مالك المِفضال ستكون آخر ليلةٍ في حياته؟ ففي الصباح انقلبت أفراحهم أتراحًا وتساقطت عليهم نبال ما لها طبيب؛ فالدهر لا يعطي بل يسلب، لا يقف بل يدور، لا يُفرح بل يُحزِن، لا يهب بل ينهب، لا يحلو بل يُمِر.

في فجر اليوم التالي، هاجم حذيفة مع رهطٍ من أقاربه ضيوف العرس. وكان عنترة أول من هبَّ للنجدة التي طلبها العبيد، فقفز على ظهر الأبجر، وهبَّ لملاقاة العدو، وما هي إلا لحظات حتى هاج بنو غرابٍ وماجوا، وتقدم حذيفة نحو خيمة العُرس. وهبَّ الأمير مالك من نومه، وثيابه معطرة بالمسك والزعفران، وامتطى جواده، وصاح، "أنا مالك بن زهير!" ولكن حصانه كَبا وقذفه عن ظهره. وبينما كان مالك يحاول النهوض، عاجله حذيفة بضربة مميتة من سيفه على رأسه، ثم التحق بأصحابه خوفًا من انتقام عنترة، وهربوا جميعًا. وعندما عاد عنترة من القتال وجد صاحبه يحتضر مجللًا بدمائه بجانب حصانه. فتح الأمير المحتضِر عينيه وهَمَّ بالحديث لكنه لم يستطع، ثم تنهَّد وفاضت روحه الرقيقة. لفَّه عنترة بثيابه، وشدَّه على حصانه، واتجه به إلى ديار عبس.

وذات ليلةٍ، زار عنترة طيفُ الأمير مالك في المنام، فأومأ له وقال، "أتنامُ، يا أبا الفوارس، ولم تثأرْ بي؟ أنسيت عهدَنا القديم؟ لقد أوفى كثيرون قبلك لأصدقائهم، فكن وفيًّا أنت أيضًا لِمَن قُتِل بالأمس." ثم رحل الطيف. وفي جوف الليل البهيم، امتطى البطلُ الأبجرَ، وقصد ديار فزّارة، يرافقه أخوه شيبوب. وهناك ذبح عوفًا، أخا حذيفة، وكان هذا أول قُربانٍ يقدمه إكرامًا لصديقه القتيل.

عَمارة تسخر منه الصبايا

عاد عنترة إلى قبيلته، واعتزل الناس في خيمته، حزنًا على صديقه الأول والوفي. وذات يومٍ حملت إليه خميسة، خادمة عبلة، رسالةً من حبيبته تطلب فيها أن يحرسها وصويحباتها عند الغدير ذلك المساء. سُرَّ البطل بهذا التكليف، ووعد عبلة بحمايتها من طُرّاق الليالي.

انطلقت الفتيات نحو الغدير في الوقت المعلوم، وتبعهن عَمارة وهو متنكر بزي امرأة. وحين وصلن الغدير، انقض عَمارة على عبلة كأنه نسرٌ كاسِر. ولكن كان لعبلة مَن يُنْجِدُها وعمّا قريب. كان عنترة مختبئًا وراء كثبان الرمال، فسمع صرخات عبلة، فانقض على عَمارة كالأسد الهَصور، وأمسك به وكاد أن يُجْهِز عليه، ولكنه خلّى سبيله، وراحت الفتيات يسخرن منه ويهزأن به.

انتشر خبر عَمارة مع عبلة، فراحت النساء والرجال والفتيات والصبيان والعبيد والجواري يسخرون من عَمارة، ويُنشدون هذه الأشعار على مسمعٍ منه، وكانت النساء والراعيات يغنينها وهن يغزلن، وكانت بين العبسيين فتاةٌ تنظم الأشعار. وقد كانت فصيحة جدًّا، وراحت تردد عن عَمارة الديّوث هذه الأبيات التي حفظتها النساء والفتيات:

عَــمارة، دعْ هوى الجُــرْدِ الملاحِ ... ودع عنــكَ التعــرضَ للمِلاحِ
فإنــك لا تكُــفُّ يــدَ الأعادي ... ولســتَ بفارسٍ يــومَ الكفاحِ
فــلا تطمــعْ بعبلــة أن تراها ... ترى الأهوالَ من ليــثِ البطاحِ
فــدعْ عنــك اللجاجَ لهــا وإلا ... سُــقيتَ من أجلها سُــمَّ القراحِ
ولمّــا أن أتيــتَ أتــاكَ ليــثٌ ... تَخِرُّ له الأُســودُ لــدى الكفاحِ
ومــا أبقى عليك ســوى احتقارٍ ... لِقَــدْرِك إذا رجعْتَ كمســتراحِ

وعنـــترةُ الفوارسِ ليــثُ غابٍ يصول وفي العصا بحرُ الســماحِ
وأنـــتَ أذلُّ مَن رَكِــبَ المطايا وأبخلُ ســائرِ القومِ الشِّــحاحِ
ونحـــنُ كأننـــا زهـــرٌ زكـــيٌّ كأنفـــاسِ البنفســـجِ والأقاحي
وعبلـــةُ بيننـــا غصـــنٌ نـــديٌّ عَـــلاه البدرُ أو شـــمسُ الصباحِ
فَمُت كَمَـــدًا وإلا عِـــشْ ذليلًا فليـــس لحدِّ هَجْري فيكَ ماحي

زواج عنترة وعبلة

قام عنترة بكثير من المآثر العجيبة الأخرى في تصديه لأعداء عبس، فقد سقط محاربون صناديد كثيرون بضربةٍ من سيفه الظامي الذي لا يُفَلُّ قبل أن يحقق أمنية قلبه الأولى. فامتنانًا لما قدمه عنترة من خدمات جليلة، عزم الملك قيس على تزويج عنترة من حبيبته عبلة في الحال، فوافق عمه مالك على ذلك بلا إكراه. ولم تشهد البلاد زفافًا آخر بروعته. فقد أتى من أقاصي البلاد فرسانٌ مشهورون ليباركوا لابن شدادٍ المشهور وابنة مالكٍ الجميلة زواجهما، وقد جلبوا لهما هدايا ثمينة ونفيسة. وقد ألقى كل من هؤلاء السادة الأشراف قصيدةً تُثني على شجاعة عنترة وتهنئه على زواجه. وكان ذلك في فصل الربيع، حين كانت الأرض تزهو ببهاء الأزهار الوليدة. وظل الفرسان يتقارعون برماحٍ كليلةٍ عدةَ أيام. ثم حلَّت ليلة الزواج.

كانت عند العرب في ذلك الزمان عادة غريبة، وهي أنه ليلةَ زفاف العريس إلى عروسه يُحضِر الناس عددًا من سُروج الإبل، ويضعون بعضها فوق بعض، ثم يزينونها بملابس فاخرة، وكانوا يضعون العروس فوق هذه الكومة من السروج، ثم يقولون للعريس، "هيّا، دونك عروسك!" وكان فتيان القبيلة يصطفون عن اليمين والشمال ليضربوا العريس بالعصي والحجارة حين يندفع ليحمل عروسه، لعلهم يمنعون وصوله إليها. فإن كُسِر له ضلعٌ أو ما شابهه في هذه الأثناء، فليكن؛ وإن قُتِل، فذلك نصيبه. أما إن وصل إلى عروسه سالمًا غانمًا، فيتركه الناس ولا أحد يتعرَّض له. بَيْد أن الملك قيسًا أمر بأن يُعفى عنترة من هذه العادة الغريبة، مخافةَ أن يتعرَّض له بعض أعدائه ويؤذوه في تلك المعمعة.

وبعد أن تناول العرب المحتفلون بعرس عنترة عشاءهم، دارت كؤوس الشراب عليهم. واختلط الرجال بالنساء، وجاءت الصبايا، وكانت الإماء يستمتعن بلحظات الفرح هذه، وصاحت الأيامى والعذارى، "لن نحتجب في عرس عنتر!" ثم نضين عن أنفسهن خُمُرهن، وأضاءت البدور، وكشفن أذرعةً مثل الأماليد من فرط السعادة، وكان ذلك يومًا مشهودًا لهن.

ثم قالت الأيامى والعذارى، "وحق ذمة العرب، لن نحتجب وراء هذه الحُجُب، ولن تُغلق علينا الأبواب، بل سنرى عبلة في بهائها، وسنمشي في موكبها، وننثر عليها وعلى عنترة أُعطياتِنا، ولن نُبقيَ لأنفسنا درهمًا ولا دينارًا، إذ لن تأتيَ ليلةٌ أسعد من هذه، ولا يضيعها إلا مجنون."

فلما سمعت نساء بني قُراد هذا الكلام، خشين الفضيحة واللوم، فعزمن على إنهاء حفل الزفاف، ثم ألبسنها أفخر الثياب وأبهى العقود، ووضعن على رأسها تاج كسرى، وعصبن جبينها بالعصائب، فأشرق وجهها جمالًا وروعةً، وأحاطت بها وصيفاتُها، وطلبن من عنترة أن يسمح لعبلة أن تخرج بأُبَّهتها. فوافق، بينما كان إخوته وعبيده يحيطون بالسرادق بسيوفهم ورماحهم وأسلحتهم. نفذوا أوامره، فأشعلوا شموعًا برّاقة معطرة أمامها، ونثروا روائح الصَّبِر والكافور، والمسك والعنبر في كل حدب وصوب، وكانت الشموع تحملها حوامل من الذهب والفضة، وكانت المشاعل تلتهب، وبينما كانت النساء تزغرد، والصفير والصياح يتعالى، خرجت عبلة بأبهتها. كانت تحمل في يدها سيفًا مسلولًا يُبهِرُ بريقه الأبصار. فصاح جميع الحاضرين، أما الخبثاء والحُسّاد فقالوا، "ما أضيعَ أن تُزَفَّ هذه الحسناءُ الجميلة لهذا الأسود!" وهكذا بعد كل المحن والمخاطر، تزوج ابن شدادٍ المشهور حبيبته عبلة، فأعرب عن سعادته لّما تحققت أمانيه، فقال:

صَحا من سُــكْرِه قلبــي وفاقا	وزار النــومُ أجفــاني اسْــتِراقا
وأسْــعَدني الزمانُ فَصارَ سَعْدي	يَشُــقُّ الحُجْبَ والســبْعَ الطِّباقا

موت عنتر

من بين المآثر التي قام بها عنترة في حياته وزعامته لقبيلته أنه تغلَّب على فارسٍ يُدعى وِزْر، وكان هذا راميًا مشهورًا، فأراد أن ينتقم عنترة منه لاعتداءاته على قومه، فاقتلع عينيه، ثم عفا عنه، وأطلق سراحه، بل رفعه بين قومه. راح وِزْر بن جابر يفكر سِرًّا في الانتقام، وعلى الرغم من أنه فقد بصره في كلتا عينيه، إلا أنه لم يفقد مهارته في الرماية. فكفى بأذنه دليلًا ليده ومُرشدا، وهي التي تمرست على تتبع حركات الوحوش من وقع خطواتها حتى لم يكن سهمه يخطئ هدفه. كانت جذوة الحقد المتقدة دومًا تقتنص أخبار عدوه التي تسير بها الرُّكبان. فقد علم أن عنترة قد عاد إلى اليمن من حملة بعيدة موفقة إلى حدود الفُرس، وقد آبَ مكللًا بمجدٍ ومحملًا بغنائمَ أكبر من تلك التي نالها من قبل من بلاط كسرى، وأنه على وشك أن يَجوزَ الصحراء الملاصقة

لمنازله. جعلت هذه الأخبار وِزْرًا يبكي من الحسد والغيظ، فنادى عبدَه نجمًا وقال، "مرت عشر سنوات منذ أن أطفأ عنترة النور في عيني، ولمّا آخذ بثأري بعد. ولكن حانت أخيرًا اللحظة التي أُطفئ فيها ظمأ النار التي في قلبي بدمائه. يقولون إن عنترة يُخيِّم على ضفاف الفرات، وأود أن أبحث عنه هناك. وسأحتجب في قصب الفرات إلى أن تُسْلِمَه السماء بين يديَّ."

أمر وِزْر عبده أن يأتيه بناقته التي تغلب النعامة في السباق، فملأ جعبته بالأسهم المسمومة. أناخ نجمٌ الناقةَ، وأركبَ سيده على ظهرها، وأمسك بطرف رَسَنِها، ليقودها إلى ضفاف الفرات البعيدة. وملأ المحاربُ الضريرُ الصحراءَ نُواحًا ووعيدًا. وبعد مسيرة يومٍ طويلٍ عبر بيداء لا ماء فيها، وصل وِزْرٌ وعبده إلى ضفاف الفرات الذي تحيط بمجراه خُضرة الأشجار والأعشاب من كل جانب. فسأل وزرٌ عبدَه، "ماذا ترى على الصفة الأخرى؟"

ألقى نجم نظرة على الضفة الأخرى، فرأى خيامًا فاخرة الزينة، وقطعانًا عديدة، وإبلًا تجوب السهول جماعاتٍ جماعاتٍ، ورماحًا مغروسة في الأرض عند أبواب الخيام، وخيولًا مُسرَجة ومربوطة من أقدامها أمام منازل أصحابها. وكانت تنتصب غيرَ بعيدٍ عن النهر خيمةٌ أشدُّ فخامة، وينتصب عند بابها رمحٌ حديدي طويل كأنه سارية، وإلى جانبها حصانٌ أشد سوادًا من الليل البهيم. فعرف نجم أن هذا هو الأبجر، حصان عنترة الشهير، وأن الرمح هو رمحه الرهيب. فأوقف ناقة سيده خلف الأجمة والقصب ليحتجبا عن الأنظار، وانتظرا حلول الظلام.

وعندما حل الظلام على ضفتي الفرات، قال وِزْر الضرير لعبده، "لنهجرْ هذا المكان، فالأصوات التي تأتينا من الضفة الأخرى أبعد من مَرمى نبالي. قرِّبْني من حافة النهر، فقلبي يُنبئني أن طعنةً نَجلاء من يدي ستخلِّد اسمي وانتقامي." قاد نجمٌ الرجلَ الضريرَ من يده، وأدناه من الماء، وأجلسه قُبالةَ خيمة عنترة، وناوله قوسه وجُعبته. انتقى وِزْر أمضى نباله، وأصلاه في الوتر، ثم جلس منصتًا ينتظر ساعة الانتقام.

في هذه الأثناء كان عنترة في أحضان حبيبته عبلة التي لم تفلح عشر سنوات من الزواج من تخفيف لوعة شوقه إليها، فكان ينسى تحت سقف خيمته الإرهاقَ ووعثاءَ الحرب، حين ألقى نباحُ كلابٍ كئيبُ الشؤمَ في قلبه. فنهض وخرج من الخيمة، وكانت السماء غائمة مُدلهِمّة. فراح يتجوَّل ويتلمس طريقه في الظلام، وشدَّته أصوات الكلاب النابحة إلى النهر. وقاده مصيره إلى سرير النهر. أحس بوجود عدو على الضفة الأُخرى، فنادى أخاه بصوت عالٍ أنِ ابحثْ في الجانب الآخر.

وما إن تردد صدى صوته المُجَلجِل في خُواء وادي الفرات، ودوّى في الآكام والجبال، حتى أصاب سهمٌ خاصرته اليمنى واخترق أحشاءه. وعلى الرغم من الألم، لم تصدر عنه صرخةٌ أو أنَّةٌ لا تليق بالأبطال، بل استلَّ النَّبْل بيدٍ ثابتة. فصرخ عنترة بصوت عالٍ مخاطبًا عدوه المستتر، "أيها الغادر الذي لم يجرؤ على مهاجمتي في وَضْح النهار، لن تنجُوَ من انتقامي، ولن تحصد ثمرة غدرك!"

حين سمع وِزْرٌ الضريرُ صوتَ عنترة ظن أن سهمه أخطأ هدفه، فأُغمي عليه عند ضفة النهر خوفًا من بطش عنترة به، وظن عبده أن سيده قد مات، فتركه حيث هو، وانطلق على ناقته لا يلوي على شيء. عبر شيبوب النهر سباحةً، فتعثَّر بجسدٍ ظنَّه جثةً هامدة، فحمله على كتفيه، مع القوس والنبال، إلى المخيم.

استلقى عنترة في خيمته وسط أصحابه، وكان يُعاني الأمرَّيْن من عذابات الألم، وكانت عبلة الحنون تُرقِئ الدم، وتُغرق الجرح بدموعها. ولما أحضروا جسد القاتل ورمحه ونباله إلى الخيمة، تعرف عنترة على سيماء عدوه المُشوَّه، فلم يعد يُخامره شكٌّ أن السهم مسمومٌ. فهجر الأملُ قلبَه، وتراءى له الموت بين عينيه.

قالت عبلةُ مخاطبةً عنترة بحنانٍ، "لِمَ القنوط، يا ابن العم؟ أَيفزع مَنْ أُثْخِن جسدُه بجراح السيوف وطعن الرماح ولاقى كل هذا بلا وَجْلٍ، أيفزع من جرح سهمٍ طفيف؟"

فأجابها عنترة، "يا عبلُ، لقد دنت ساعةُ الأجل. انظري إلى قَسَمات ذلك الوجه: إنه وِزْر، وسهم الغادر مسموم." ولما سمعت عبلة هذه الكلمات، أحْيَتِ الليل بالنحيب، وشقَّت ثيابها، ومزقت شعرها الطويل، وراحت تَحْثو التراب على رأسها، ورددت كل نساء الحي نُواحَها.

فقال عنترة لعبلة، "ومن يحمي شرفك وحياتك، يا زوجتي العزيزة، خلال مسيرتك الطويلة بين أعدائنا قبل أن تبلغي أرض أبيك؟ فلا أحد يستطيع أن ينقذك من براثن العبودية إلا زوج آخر. ومن بين كل محاربي الصحراء، ليس هناك مَن هو أقدرُ على صون حياتك وحريتك من زيدٍ وعامرٍ، فاختاري أحدهما، وعِديه بالزواج." ولكن عبلة لم تُجِب إلا بدموعها على هذه الخاطرة المرعبة.

فرد عليها عنترة بقوله، "لتعودي إلى ديار بني عبس، وتضمني سلامتك عبر الصحراء التي تفصلك عنها، الْبِسي أسلحتي واركبي حصاني الأبجر. ففي هذا الزي، لا خوف عليك، إذ سيظن أعدائي أنني ما زلت حيًّا. ولا تردّي تحية من يُحيّيك في الطريق. ستكفي رؤية أسلحة عنترة وجواده لإخافة أشجع الشجعان."

ثم أمر عنترة بالرحيل، فهدّوا الخيام، وطووها، وحمّلوها على الإبل. وامتثلت عبلة، باكيةً، لأمر عنترة، فلبست درعه الثقيلة. ثم تمنطقت بسيفه، وامتشقت رمحه القويم، وامتطت حصانه الأبجر، أما عنترة المحتضِر فقد حمله العبيد في هودج عبلة الذي كانت تسافر فيه أيامَ سعدها حين كانت تجوب الصحارى كملكةٍ من الملكات.

وما إن غابت عن ناظرهم ضفاف الفرات الخضراء ليوغلوا في الصحراء، حتى تراءت لهم من بعيدٍ خيامٌ كأنها نقاط مظلمة في الأفق أو لطخةٌ سوداء على صفحة السماء الزرقاء. كانت تلك الخيام لقبيلةٍ جبارةٍ كثيرةِ العدد، فتقدم ثلاث مئة فارس لينقضّوا على القافلة، ولكنهم حين اقتربوا منها عرفوا الهودج والحصان. فتهامسوا بينهم، "إنها قافلة عنترة وعبلة! انظروا، تلك أسلحته وحصانه الأبجر وهودج عبلة المهيب. هيا نَعُد إلى خيامنا لئلاّ نعرض أنفسنا لغضب هؤلاء المحاربين الذي لا يقهرهم أحد."

وحين أدار الفرسان الشباب رؤوس خيولهم، قال لهم شيخٌ كبير أكثر خبرةً ودرايةً بالأمور منهم، "يا بَني عمّي، إن ذلك حقًا رمح عنترة، وتلك خوذته، وتلك درعه، وذاك حصانه الأسود سوادَ الليل، ولكن لا تلك قامته العالية ولا جِلسته الرجولية. فتلك قامةٌ تشي بامرأةٍ خائفةٍ تنوء أطرافها الضعيفة تحت وطأة الحديد. وإن صدق ظني، فإمّا عنترة قد مات أو أن مرضًا مميتًا منعه من امتطاء حصانه؛ وأما هذا المحارب الزائف الذي يحمله الأبجر فهو عبلة، وقد انتضت أسلحة زوجها لإخافتنا، ولعل عنترة يحتضر في هودج امرأته." داخَلَ الشكُّ نفوسَ الفرسان بعد حديث الشيخ، فقفلوا راجعين، يتأثرون القافلةَ من بعيد، دون أن يجرؤوا على مهاجمتها.

كلَّت ذراع عبلة الضعيفة من ثقل الرمح الحديدي، فناولته لأخي زوجها الذي كان يسير إلى جانبها. وحين بلغت الشمس أوج السماء، واشتعلت رمال الصحراء من حرِّ الهجير، أماطت عبلة، التي أضناها الكَبَد والإرهاق، اللثام عن وجهها لتمسح عن جبينها العرقَ المتصببَ، فلمح الأعرابُ المتربصون بقافلتها بياضَ وجهها، وصاحوا، "إنه ليس الأسود!" وانقضّوا على قافلة عبلة الصغيرة بأقصى ما تستطيعه جيادهم من سرعة.

وحين سمع عنترة ضَبحَ العاديات وراءه وصهيل الخيل، ولما تناهت إليه استغاثة عبلةَ، أطل برأسه من بين السُّجُف، وهو يُعاني سَكَرات الموت في هودجه، صاح صيحته الحربية الرهيبة الأخيرة المعهودة في كل الصحراء، فاشرأبّت أعناقُ الخيل، وحملت فرسانها الذين تجمدَّت أوصالهم من الخوف. فقالت الأعراب، أعداء عبس، "الويل لنا! إن عنترة حيٌّ لم

يمُت! هذا فخٌّ نصبه لنا ليعلم أي القبائل تطمع في حليلته وماله من بعده.“ ولم تثابر على تعقُّب القافلة من بعيدٍ إلا ثُلَّةٌ صغيرةٌ ظلت تثق بكلام الشيخ الكبير.

وعلى الرغم من الوهن، أركبَ عنترةُ عبلةَ في الهودج، ثم لبس سلاحه، وامتطى الأبجر، وسار إلى جانبها بتثاقل. وفي نهاية النهار وصلوا إلى وادٍ غيرِ بعيدٍ من ديار بني عبس، يُدعى مسارح الظباء، وتحيط به جبالٌ وعرة، ولا يمكن لأحدٍ أن يدخله من جهة الصحراء إلا عبر شِعْبٍ ضيِّقٍ مُلتوٍ لا يكاد يتسع لثلاثة فرسان يسيرون جنبًا إلى جنب. توقف عنترة عند مدخل الشِّعْب، وجعل القطعان تمر أولًا، ثم عبيده، ثم الناقة التي تحمل هودج حبيبته عبلة. وحين صارت القافلة في مأمن في الوادي، عاد ليحرس مدخل الشِّعْب الذي يواجه السهول والأعراب الذين يتعقبونه من بعيد. في هذه الأثناء ازدادت مكابداته مع الألم، واندلقت أحشاؤه، فكانت كل خطوة من جواده تجعله يكابد آلامًا كأنها نارُ الجحيم. غزا الموت أطرافه، ولكنه سالمَ روحه التي لا تهاب الموت. ثم وقف وجهًا لوجه إزاء الأعراب على ظهر جواده، بعد أن غرس رأس رمحه في الأرض، واتَّكأ على عُوده، مثل محاربٍ يرومَ إراحة جواده، ساكنًا لا يتزحزح عند مدخل الشِّعب.

ولما رآه المحاربون الثلاثون الذين تعقَّبوا قافلته حتى الآن، توقفوا مترددين على مسافة مئاتٍ من الخطوات. ثم قال بعضهم لبعض، ”لقد لاحظ عنترة أننا كنا نتعقّبه، لذلك قرر أن ينتظرنا هنا ليُجْهِز علينا جميعًا، فَلْنَستَتِر بظلام الليل علّنا ننجو من سيفه ونلتحق بإخوتنا.“ ولكن الشيخ الكبير أصر على رأيه، فأبقاهم في أماكنهم، وقال لهم، ”يا بني عمي، لا تستمعوا لمشورة المُرجِفين. فما سكون عنترة إلا رقدة الموت. ألا تعرفون شجاعته الحامية؟ هل ينتظر عنترة عدوه؟ لو كان حيًّا، أما كان ينقض علينا انقضاض النسر على فريسته؟ هيا، تشجعوا! أما إن كنتم لا ترغبون بالمجازفة بأرواحكم، فعلى الأقل انتظروا حتى يبزغ الفجر وتنجليَ شكوكُكم.“ أفلح الشيخ في إقناع الثلاثين فارسًا إلى حدٍّ ما، فقرروا البقاء حيث هم، ولكنهم كانوا يرتعدون لأدنى غبرةٍ تثيرها حوافر الأبجر، فأمضوا الليل كله على ظهور الجياد، ولم يسمحوا لأعينهم ولو بإغماضة.

وأخيرًا، راح الفجر ينبلج ويطوي سُجف الظلام التي كانت تلف الصحراء. وكان عنترة لا يزال في وقفته ذاتها عند مدخل الشِّعْب، وحصانه ساكنٌ مثل سيده، وطائعٌ لما يجول في خاطره. جعل هذا المشهد الغريب الفرسان المشدوهين يتشاورون طويلًا قبل أن يحزموا أمرهم. كان ظاهر الأمور جميعًا يُنبيهم أن عنترة قد مات، لكن لم يجرؤ أي منهم على الدنو

منه ليتأكد من جَلية الأمر، ولم يكن من السهل زحزحة عادة الخوف التي زرعها البطل في النفوس. فأراد الشيخ أن يقطع الشك باليقين قبل أن يولّي الأدبار أو يتقدم، فترجل عن فرسه، وألقى بلجامها، ثم وخز وركها برمحه المدبب، وساقها نحو مدخل الشِّعب. وما إن اجتازت حد الصحراء المُحاذي للمغارة، حتى صهل الأبجر وانطلق خلف الفرس التي لا فارس لها. ولما قفز الأبجر، هوى الرمح الذي كان يتكئ عليه عنترة فتهاوى مثل طودٍ عن ظهر حصانه، ودوّى ترسه في الشِّعب.

ولما تهاوت الجثة الهامدة على الأرض، هبَّ الفرسان الثلاثون وتجمعوا حولها وهي ممددة عند أقدام خيولهم. وتعجبوا كيف يموت مَن بثَّ الرعب في كل الجزيرة ويصبح جثة هامدة، ثم راحوا يقيسون بأعينهم أطرافه الهائلة وقامته. وبما أن عنترة قد فوَّت عليهم إمكانية الهجوم على قافلة عبلة، إذ أتاح لها فرصة الوصول إلى خيام بني عبس خلال الليل، فقد اكتفى الفرسان بسلب أسلحة البطل ليحملوها إلى قبيلتهم تذكارًا للفارس الذي قهره الموت. وقد حاولوا عبثًا أن يمسكوا بالأبجر. فحين شعر الأبجر الوفي أن سيده قد مات، أحس أنه لا يوجد فارسٌ يستحقه بعد عنترة، فهرب منهم بسرعة البرق واختفى من أمام أعينهم، وأوغل في الصحراء.

ويقال إن الشيخ رقَّ لمصرع البطل الذي ذاع صيته بفضل مآثره الكثيرة، فبكى عند جثته، وواراها الثرى، وخاطبه قائلًا، "لله دَرُّكَ، يا فارس العرب، حميت أهلك حيًّا وميتًا. عاش ذِكرُك للأبد، وسقى الله هذه الأرضَ التي شهدت آخر مآثرك."

***

إن أول موتيف شعبي شائع نجده في سيرة عنترة وعبلة هو تلك الظروف غير المؤاتية لنشأته. كان الإسلام، الذي نشأت في ظله قصة عنترة، ينظر إلى المحظيات من الإماء نظرة عدم استحسان، ولذلك كان أبناء هذه المحظيات في أسفل السلم الاجتماعي. علاوةً على ذلك، كان عنترة أسودَ اللون في وقتٍ لا يزال أهل الجزيرة العربية يتذكرون فيه غارات الحبشيين وتهديداتهم بالسيطرة عليهم. ولعل من أشهر الأمثلة على الطفولة غير الواعدة تلك التي نجدها في حكايات سِندريلاّ التي ليس فيها بطل حقيقي، بالإضافة إلى تلك الموجودة في قصص التراث. وفي هذه الأخيرة، يتعرض الطفل للخطر عند مولده، لكنه يجد من ينقذه ويتبناه، وفي النهاية يتبيَّن أنه ابن ملك. ولا تظهر مثل هذه النهاية إلا في النسخ المتأخرة من سيرة عنترة، إذ يكتشف أنه ابن أميرة إثيوبية أو سودانية، ولكن ما يُشير إليه هذا الأمر هو أن

سيرته أصبحت في نهاية المطاف متطابقةً مع نمط السير الشعبية. ومن الأبطال الذين يتعرضون لشتى أنواع المهانة نذكر يوسف [عليه السلام] عندما بِيع بَيْع العبيد، وآرثر الذي يخضع لعسف أخيه بالرضاع كاي، وغارِث، صبي المطبخ، الذي تُهينه لينيت، وأيب لِنكِن الذي ذاق الأمرَّين جرّاء الفقر ودَمامة الوجه.

ومن صفات البطولة لدى عنترة أيضًا شدة بأسه وضخامة جسمه منذ طفولته، وما يدل على هذا قتلُه للذئب والأسد والعبد المُتَنَمِّر. كما ترد في سيرته أحداثٌ أخرى (مع أننا لم نذكرها في تلخيصنا) مثل تمزيقِه أمتن الأقمطة وهو رضيعٌ وقتلِه كلبًا ضخمًا وهو في الرابعة من العمر، تمامًا كما فعل كوخولين الذي اكتسب اسمه كلبُ كوخولين بسبب ذلك. كما يُماثله في ذلك هيراكليس الذي خنق حيَّتين ولمّا يبلغ السنةَ من عمره، والرضيع پول بَنْيَن الذي كان مهده الهائل يثير الأمواج في خليج فَندي، وديڤي كروكِت الذي "قتل لنفسه دبًّا وهو في الثالثة فقط."

كما أن أسلحة البطل وعدة حربه تقليدية كذلك. فعنترة يفوز بحصانه الأبجر، والإسكندر يُروِّض الحصان بوكيفالوس، ويشتهر كوخولين بحصانه الحربي المعروف باسم أشهب ماخا. وعند عنترة سيفه الظامي، ولدى آرثر سيفه إكسكاليبَر، ورولان عنده ديورانداِل. كما يحمل فيرغَس وسيغورد وشارلمان وسيغفريد وأوجييه سيوفًا ذائعة الصيت. يأتي الظامي إلى عنترة تحت رمال الصحراء بطريقة تكاد تكون سحرية، وهو في هذا لا يختلف عن إكسكاليبَر الذي لا يُطاوع إلا آرثر أو غْرام الذي لا يُطاوع إلا سِغموند. وبينما ينفخ كل من رولان وروبن هود في بوقٍ مشهور، يُطلق أخيل وكوخولين وكروكِت وعنترة صيحاتِ حربٍ مرعبة.

كما يشترك الأبطال في عادةٍ أخرى هي التفاخر أمام الأعداء. ونضرب مثالًا على ذلك مفاخرة عنترة أمام المرزبان خُسروان قبل أن يتقاتلا في أحد السهول:

نَفِّســوا كَــرْبي وزيلــوا عِلَلي ... وأبْــرِزوا لي كل ليــثٍ بَطَــلِ
وانْهَلــوا من حد ســيفي جُرَعًا ... مُــرَّةً منهــا نقيــعُ الحنظــلِ
وإذا المــوت أتــى في جحفــلٍ ... فدعــوني ولقــاء الجحفــل
يا بنــي الأعــمام مــا بالُكمو ... عــن لقائــي كلكم في شُــغُل
أيــن مــن كان لقتــلي طالبًا ... رامَ يَسْــقيني شرابَ الأجَــلِ
قَسَــمًا يــا عبلــةُ يــا مُنْيَتي ... بثنايــا كالــزُّلال العَسَــل
إنني لــولاك ما ذُقــت الكرى ... كــي أرى الطيــف به يــا أملي

أو ما أنشده لاحقًا قبل مبارزته مع البطل الرومي بَدْرَموط:

اليوم أنْصُـــرُ للمليـــكِ المنذرِ ... لِيَعْلم كســـرى قُـــوَّتي وَتَجَبُّري
وأَهُدُّ رُكْـــنَ الرومِ جَمْعًا في الوغى ... وأَجُـــزُّ رأسَ البَدْرَمـــوطِ بِأَبْتَرِ
يا أيهـــا النذلُ الـــذي رامَ الوغى ... مُســـتهزئًا متكـــبرًا بتَجَـــبُّرِ
إن كنت أنـــت البدرموط فإنني ... من آل عبسٍ ليثُ غابٍ قَسْـــوَرِ
فَابْـــرُز لتلقى شرح مـــا قد قلته ... واعلم بأني واحد في الأعصُـــرِ

قارن هذه الأبيات السامية لعنترة مع هذه الأسطر الهابطة من المسرحية الأمريكية المفقودة «أسد الغَرْب» (١٨٣١). والأسد المقصود هو العقيد نِمْرود الذي استُلهِمت شخصيته من ديفي كروكِت.[١٠] فحين يوشك أن يهزم مراكبيًا متبجِّحًا من سكان الأدغال النمطيين في المسيسبّي الذي يّدعي أنه يستطيع، من بين أشياء أخرى، أن يهزم مِقدار وزنه من القطط المتوحشة، يصرخ فيه نِمْرود، "ألستُ أنا الزهرة الصفراء في الغابة؟ ... اسمي نِمرود نارُ الهشيم، وأنا نصفُ حصانٍ ونصفُ تِمساحٍ وبي رجفةٌ من رجفات الزلازل، وعندي أجملُ العشيقات، وأسرعُ حصانٍ، وأقبحُ كلب في كل المنطقة، وأستطيع أن أغلب أي رجل في كل كينتَك [كِنْتَكي] في الجري والقفز، أو أطرحه أرضًا أو أجرجره." وما يشترك فيه الاثنان هو التشبُّه بالأسد، وإشارةُ كلٍّ منهما إلى امتلاكه عشيقةً وحصانًا وإلى ما يمتاز به كل بطل من مواهب قتالية، وصرخة الحرب والمبالغة. وما يُكمل الرسالة خطابٌ يُفترض أن كروكِت قد ألقاه في الكونغرس وقد بدأه بصرخة حرب:

هُو.. هُو.. هُوب.. باو.. واو.. واو.. يُو. دعني أخبرك، يا سيادة الرئيس، أنني نَقَعْتُ لكم هذا الخطاب طيلة الأشهر الستة الماضية... أنا رجل صيّاح، وحصاني أخشن حصانٍ يُخلِّع أوصال راكبه، وعندي أجمل فتاةٍ، وأفضل بندقية في التسديد، وأقبح كلب في المنطقة. يستطيع أبي أن يهزم أي رجل في كِنْتَكي وأنا أستطيع أن أهزم أبي. ويمكنني أن أسابق أي متحدثٍ في هذا المجلس حتى لو بدأ كلامه قبلي بساعتين. ويمكنني أن أعدو أسرع من أي فتى في هذه الجهة للمستنقَع الكبير وأن أغوص أعمق منه وأبقى تحت الماء أطول منه وأخرج أقلَّ

(10) *Sketches and Eccentricities of Col. Davy Crockett*, New York, Harper, 1883, pp. 141-45.

بللًا منه... يمكنني أن أمشي مثل ثورٍ، وأعدو مثل ثعلب، وأسبح مثل سمكة، وأصرخ مثل هندي، وأقاتل مثل شيطان، وأنفث مثل زلزال، وأمارس الحب مثل ثورٍ جامح، وأبتلع مواطنًا بأكمله من غير أن أختنق لو دهنتَ رأسه بالزبدة وثبتَّ أذنيه للوراء.(١١)

على أن السمة التي لا غنى عنها في البطل الشعبي هي استبساله في المبارزة. فحتى حين يقاتل ضمن جيش، فهو يقاتل أعداءه كلًا على حِدة. ومن صفاته أيضًا أنه دومًا يفوز؛ فهو أبدًا صاحب الصولات الذي لا يُقهر، على الأقل حتى النهاية. ولكن حين تدنو المنية، فهو، كالعادة، يتبع النمط الشعبي: فهو يموت إما مغدورًا وإما مسمومًا، ولكنه يموت ميتة الأبطال، وغالبًا ما يظل يذود عن قومه حتى بعد المات. فأخيل يُصاب في كعبه غير المحمي إصابة غادرة، ورولان يموت بسبب خيانة غانيلون، وآرثر بسبب خيانة موردْرِد، ويُستَنْزَف روبن هود غدرًا حتى الموت، وحين يحتضر الإسكندر، مسمومًا، يخصص آخر ساعاته لجنده، وحين يُطعَن ديڤي كروكِت في معركة ألامو من الخلف، يظل يدافع عن الحِصْن حتى في مماته. وأكثر الأبطال شبهًا بعنترة هو كوخولين الذي يربط نفسه إلى صخرة قائمة، فيتمكن من صد الأعداء إلى أن جاءت غربانٌ وحطت عليه ففضحت أمر موته. وكما فعل الأبجر الذي لم يسمح لأحدٍ أن يقترب منه بعد موت عنترة، كذلك فعل أشهب ماخا، حصان كوخولين، الذي حَمَل على أعداء سيده المتوفّى وهرب.

ويبدو أن هناك روابط خاصة بين عنترة وكوخولين، وهذا أمرٌ لافِت نظرًا لأن بواكير الأدب الإيرلندي لم تكن عمومًا من الروافد الإغريقية الرومانية اللاتينية للثقافة الأوربية الغربية المذكورة آنفًا، بل كانت تُعَدُّ مع أدب الجزر البريطانية الأخرى وآيسلاندا مستقلةً عن التيار الرئيسي لهذه الثقافة.(١٢) ولعل بعض هذه الروابط ناجمٌ عمّا يبدو من تشابه في البنية المجتمعية في شبه الجزيرة العربية وأيرلندا، على الرغم من أن العرب أكثر تنظيمًا، وأرقُّ طبعًا، وأكثر تقدمًا، وبطبيعة الحال أقرب عهدًا إلى زماننا من الأسطورة الإيرلندية المنتمية إلى أواخر العصور القديمة.

فلو نظرنا إلى نمط الحياة في سيرة عنترة وعبلة، لرأينا بيئة الفروسية والتميُّز الطبقي وتبجيل النساء، وهذه هي المكونات الثلاثة للفروسية الأوربية لاحقًا. ومع أن المجتمع العربي كان من

(11) *Davy Crockett's Almanack*, Vol. 1, 1837, p. 40.
(12) Chadwick, H. M. and N. K., *The Growth of Literature*, Vol. 1, Cambridge, 1968, p. 1.

الناحية القانونية أقل إقطاعيةً من نظيره الأوربي، إلا أنه ظل قائمًا على أُسَرٍ محلية ثرية يُدان لها بالولاء. وفي سيرة عنترة، يمثل المنذر هذه الطبقة. فهو ابن ملك ملوك العرب وزعمائهم المحليين ولكنه خاضع بدوره لملك الفُرس. بيد أن ولاء القبائل العربية يكون لزعيمها المحلي أو ملكها الإقليمي الذي يرث منصبه في بعض الأحيان وليس دومًا. فعامل الحسم هنا يتمثل في زعامة رجل كفوء من طبقة الفرسان. وهكذا ينتمي المنذر وأسرته إلى أرقى الطبقات، لكن يؤازرهم زعماء القبائل، وقوة الزعماء وثروتهم مصدرهما فرسانهم المسلحون، ويحظى هؤلاء الفرسان بامتيازات لا تتوفر لغير المقاتلين من أفراد المجتمع، ويأتي الفقراء بعد هؤلاء، والعبيد هم أدنى السلَّم الاجتماعي.

ومن الناحية الاقتصادية تقوم الحياة، كما نراها في سيرة عنترة، على الماشية الضرورية للمعاش كالخيل والإبل والأغنام والماعز، وكذلك على العبيد وما يُغنَم بين الحين والآخر من أسلحة وجواهر وذهب وألبسة ثمينة. وهذه تُغنَم بالإغارة ويُحامى عنها بالإغارة كذلك، ولكن نمط الحياة البدوية لا يؤدي إلى تراكم الثراء. فحين تنشأ الحاجة للثروة يذهب فارس أو مجموعة من الفرسان ويحصلون عليها. لذلك من الطبيعي جدًّا أن يجد كلٌّ من عنترة وعَمارة، مثلاً، المهر المطلوب منه بهذه الطريقة، كما نسمع في القصة كذلك عن مُهورٍ أخرى سُلِبت مع العروس وجهازها. كما أن الفرسان يقومون بحملات عسكرية إما لنجدة أبناء قبيلتهم، وإما لمؤازرة حلفائهم، وإما للهجوم على أعدائهم. كان لقبيلة عبس، كغيرها من القبائل البدوية الأخرى، موطن يبعد عن المدينة [المنورة] حوالي مئة ميل. وفي هذا الموطن لديهم حقوق مُشاعة في الرعي والماء والسكن. بيد أن الملك زهيرًا وأبناءه لديهم من المُلْك (مئتان من العبيد لكل منهم) ما يُخوِّلهم من حقوق المَشاع أكثر مما للبقية. أما الفقراء والأرامل والأيتام (الذين يُدرَجون في مجموعة واحدة) فلا ينالون هذه الحقوق، على الرغم من كونهم من العرب الخُلَّص، إلا بفضل عُرفٍ يحمي بموجبه الأقوياء الضعفاء. والأقوياء هم الفرسان الذين بغاراتهم يصبحون العناصر المنتجة في القبيلة.

ومن الطريف أن نمط الحياة هذا يُشبه نمط الحياة في إيرلندا كما وصفتْه ملحمة «سَوْقُ قطعان كولي» التي بطلها كوخولين. يُعتَقد أن القصة نشأت خلال القرون الأولى من زماننا لكنها دُوِّنت في النصف الأول من القرن الثامن. ويُعْترف بها على أنها واحدة من مصادر حكايات آرثر. ولكن سيرة عنترة تتشابه مع ملحمة «سَوْقُ قطعان كولي» في عدد من العناصر القصصية إلى حد التطابق.

وما يدل على ذلك هو أن الماشية هي مصدر المعاش. وما ملحمة «سَوْقُ قطعان كولي» إلا واحدةٌ من عدد من المآثر الإيرلندية التي تحكي عن الغارات على القطعان. وكما في «سيرة عنترة وعبلة» تُصوَّر هذه الغارات على أنها نمط العيش الوحيد، والشغل الشاغل للجميع، حيث توضَع الخطط تحت قيادة زعيمٍ أو ملك (أو ملكة في هذه الحال)، وتُخاض المعارك للاستيلاء على القطعان. لا نفع من إطالة الجدل حول ما إن كانت هذه المعارك حربًا أو رياضة أو تجارة، لأنها كانت الشغل الشاغل للناس على الدوام، ولا بد أن قطعان إيرلندا كانت دومًا هزيلة ككلاب الصيد من كثرة الجري.

وكما يحمي الأقوياء الضعفاء في «سيرة عنترة وعبلة» فكذلك الأمر في حكايات الأبطال الإيرلندية. والطبقات الاجتماعية تحددها القوة القتالية التي هي حُكمًا القوة العاملة، حيث يتولى زعماء العشائر مناصبهم بالانتخاب من ضمن الأُسَر الحاكمة، وتحظى النساء بالاحترام. بل إن منهن من تصبح حاكمة مثل مِدْب أو رياضيةً مثل سْكاتاك. وهن رفيقات الرجال وأندادٌ لهم، ويتمتعن بهويتهن وبتحقيق إمكاناتهن وبشتى أنواع التحرر الأخرى، لكنهن بخلاف عبلة لا يُعشَقن عشقًا شغوفًا.

وهذا فرق أساسي بين الشرق والغرب قبل أواخر القرن الحادي عشر حين تغلغلت الرومانسية إلى جنوب فرنسا من إسبانيا الإسلامية. لقد كان للعرب اهتمام شهواني بالنساء واعترافٌ بالحب الجنسي لم يعرفه الغرب. إننا نرى هذا عند يوسف لا عند جوزيف، في أولمبياس ونِكْتانيبوس، وفي الطرائف [التي جمعها ألفونسوس في] «عُهدة النُّسّاك»، كما في حكايات «ألف ليلة وليلة» وفي الحكايات والنوادر المذكورة في الأدب الأوربي في العصور الوسطى والآتية أصلًا من شرق المتوسط. كان الغرام واحدًا من أوجه الحياة الراقية التي تبناها الغرب بكل سرورٍ من الحضارة العربية المتفوقة، مع ما أُخِذ من أحواض الاستحمام والسجاد والقماش المطرز والمخمل والحرير والبرتقال والسكَّر والتوابل والشطرنج والزجاج الملوَّن والمرايا الزجاجية والألوان الجديدة (الأرجواني الفاتح والقرمزي) وشعارات النبالة وفناءات البيوت والأحذية المدببة والرقصات المورِسْكية والموسيقيين والغيتار والعود والربابة والتروبادور. لقد تحول الغرام في أوربا إلى الهوى العفيف.

يتشابه العرب والإيرلنديون في نماذج الفروسية الأصيلة لديهم من خلال أبطالهم الشعبيين أمثال عنترة وكوخولين. ويمكننا أن نضيف إلى هذه التشابهات تلك التفاصيل المتعلقة بروايات القرون الوسطى. وما لا يذكره كلاوستون في ملخصه هو أن عيْني عنترة

كانتا تجحظان ويتطاير منهما الشَّرر عند الغضب؛ وكان بإمكان كوخولين حين يُحَمِّس نفسه للمعركة أن يجعل إحدى عينيه تغور في رأسه بينما يجعل الأخرى تجحظ كالمِرْجَل. ومن جملة مآثر شبابهما التي أشرنا إليها آنفًا هو أن كلًا منهما درَّبته امرأةٌ في يَفاعته (زبيبة وسكاتاك)، ولكن بسبب قوتهما الخارقة مُنِحا السلاح من أحد أقاربهما الذكور (والد عنترة وخال كوخولين). وعنترة يُوعَد بالزواج من عبلة إن هو حارب أعداء أبيه، وتُوهَبُ فاند لكوخولين إن هو قاتل أعداء زوج أختها. تصف «سيرة عنترة وعبلة» لقاء أبٍ بابنه من غير صِدامٍ حين يتعرف الأب على ابنه من خلال سوارٍ (قصة أُسَيْد ونازح)؛ أما كوخولين فيلتقي ابنه كونلا ويقتله في المعركة قبل أن يعرفه من خاتمه.

وكل هذه الموتيفات العربية والإيرلندية موجودة أيضًا في الأساطير البريطانية. فمن سمات الغيلان والعمالقة الرهيبة عيونُها الحمراء الجاحظة؛ كما تقوم النساء على تنشئة پيرسيڤال ومن ارتبط به من الفرسان في صباهم؛ وتُوهب إحدى القريبات للمقاتل مكافأةً له (كما في حكاية غارِث وليونيز)؛ وتمثل المعركة بين الأب وابنه أو تَعَرُّف أحدهما على الآخر، وهذه مما عرفه العرب منذ زمن بعيد كما في المعركة المميتة في قصة رُستُم وزُهراب، الذروة في اثنين من حكايات آرثر (كما في لقاء آرثر مع [ابنه] مودْرِد، أو لقاء لانسلوت مع [ابنه] غالاهاد)، وتدخل في حكايات أخرى مثل لقاء غاوين بلايونيل، ولوت بغاوين، ونوك بآيْدَر، إذ يصبح الخاتم وسيلة التعرُّف. فإذا أشرنا إلى أن التقاليد الإيرلندية تُعَدُّ المصدر الأساسي للأساطير البريطانية وإلى أن ملحمة كوخولين تمثل جزءًا كبيرًا من هذا الدَّيْن، فنحن نعقد أيضًا مقارنةً بين قصة عنترة والفروسية الغربية في المرحلة السابقة على نشوئها [وتكريسها رسميًّا].

ولعله يجدر بنا أن نطلق على هذه المرحلة تسمية مرحلة الفرسان التي كانت في الغرب الإرهاصَ الفعليَ والأساسَ الذي قام عليه نظام الفروسية ومُثُلها العليا وقصصها. وهكذا فإن «سيرة عنترة وعبلة» تلتقي مع التراث الأوربي في عدد من العناصر الشائعة في حكايات الأبطال الشعبيين الذين لم يرتقوا بعد إلى منزلة الأبطال الفرسان، كما يشتركان في بعض أوجه الفروسية.

نشأت طبقة الفرسان في أوربا من تضخم سلاح الفرسان في عهد جَستِنيان الذين شكلوا بفضل تسلحهم بالرماح والأقواس العمودَ الفقري للجيش الروماني. ولكنهم كانوا يتسمون بالبطء والتقاعس وعدم الكفاءة في صد غزوات البرابرة، إذ كان هؤلاء الغُزاة الرُّحَّل المسلحون بالقوس والنشّاب فقط يعتمدون على الضربات السريعة والهرب. ولكن

الغرب في القرن التاسع بدأ يستخدم خيالة مُدرَّعة تدريعًا ثقيلًا، وهذا الأسلوب أخذه الغرب عن الفُرس الساسانيين (من القرن الثالث إلى القرن السابع) الذين تعلموه بدورهم من البارثيين بعد أن دفعوا في ذلك ثمنًا باهظًا. فاستطاع الخيالة والخيول المدرعون من صدِّ مناوشات البرابرة والغزوات المحلية، وهكذا توقف تقدُّم البرابرة. انتقل الأسلوب الجديد من الفُرس إلى بيزنطة ومن بيزنطة إلى أوربا الغربية حيث نشأت في كل منطقة طبقةٌ من الخيّالة الأرستقراطية المُدرعة وصارت القوة الأساسية للدفاع عن الذات. والفارس الأوربي هو من يُقاتل على ظهر حصانه في الحرب، وفي السلم يقتطع له سيده أرضًا ينتفع بها نظيرَ خدمته الحربية. وكان مطلوبًا منه أن يوفر لنفسه الحصانَ وعُدَّته. وبحلول القرن الثامن شملت عدةُ الحصان الرِّكاب الذي جاء أصلًا من أقاصي الشرق واستخدمه الفُرْس منذ أوائل القرن السابع. وفائدة الرِّكاب، بطبيعة الحال، هي أنه جعل القتال بالرماح على ظهور الخيول ممكنًا، وهو ما صار نمط قتال الفرسان ثم رياضتهم من بعد ذلك في المبارزة. وكان الفارس يُكافَأ في البداية بمنحه لقب فارس في البلاط أو أحيانًا في أرض المعركة، لكن هذا الأمر صار بالوراثة بحلول القرن الثالث عشر. كان النبلاء هم الفرسان، أما الآن فصاروا بالوراثة، وكانوا يمتلكون الأراضي، وبهذا اقتصرت ملكيتها على طبقة واحدة فقط. صارت الخدمة العسكرية الشخصية شيئًا من الماضي، وبدلًا من ذلك صار الفارس يرتبط بسيده الإقطاعي بصكٍّ قانوني، فصار الفارس بموجب ذلك إداريًّا وجنديًا ومالكًا للأرض، وكان ذلك سبيله إلى بلاط الملوك في فرنسا وإلى البرلمان في إنجلترا.

وبحلول منتصف القرن الثالث عشر، صارت طبقة الفرسان الأساس الذي قامت عليه أخلاق الفروسية التي تُلْزِم الفارس بالولاء للنظام الاجتماعي الذي يؤازرها، وتحديدًا، الأرستقراطية والمَلَكية والكنيسة. ومن جملة متطلبات الفروسية كذلك أن يكون مَنبَت الفرسان اختبارًا للنبالة، وأن خِسَّة المَنْبَت تعني خِسَّة في الدافع، وقد ترتب على هذين المتطلبين الأخيرين تحيزٌ ضد من يتزوجون ممن هم أدنى منهم منزلةً. ومن متطلبات الفروسية أيضًا المشاركة في الحملات الصليبية، والسياحة في البلاد بحثًا عن المغامرة، والحب العفيف. وكانت شِرعة الفروسية تتطلب الولاء والكياسة (التي تشمل احترام النساء والدماثة) والجُود (الجود بالمال وأريحية النفس)، أي، الشهامة والصرامة والجرأة.

تمثل «سيرة عنترة وعبلة» بالفعل النموذج الأصلي لكثيرٍ من هذه المتطلبات. فوضاعة مولده تخلق له الكثير من الأعداء (مثل [عمِّه] مالك وشاس وعَمارة وربيعة وغيرهم) الذين

يشعرون أنه لا قيمة له بسبب مولده. بينما محاربو عبسٍ، في الوقت ذاته، يتفاخرون بنقاء أنسابهم الذي يُعطيهم الحق في الفروسية. والولاء المطلق للقبيلة أمرٌ لا مَحيدَ عنه، ويتجلى كل يوم تقريبًا في مناوشاتهم وغزواتهم. بل إن عنترة يُنفى في يومٍ من الأيام مخافةَ أن يكون سببًا في شقِّ قبيلة عبس، فيتفهم الأمر ويقبله ويصفح عنه. وتبرز شهامته مرةً بعد أخرى حين يصفح عن والد عبلة وعن أبيه، بل حتى عن ألدِّ أعدائه مثل عَمارة وربيعة حين يطلبون العفو. وكان يؤكد على هذا الأمر حين يلفت انتباههم إلى أن هذه الأفعال لا يمكن أن تصدر إلا عن حُرٍّ نبيلٍ. ويوبخ شيبوبًا حين لا يوافقه ابن أمه الوفي هذا على ما أبداه من شهامةٍ مع شاس. وفي المعارك، يعفو عن خصومه الأفاضل مثل روضة، وإذا عاقب زعيمًا، فإنه يعفو عن أتباعه.

أما عن حمايته للنساء فإن مسيرته تبدأ وتنتهي بها. كما يتضح أن حبه لعبلة، وهو ما يصرح به في قصائده، هو دافعه للنبل في حياته الذي يلهمه للقيام بعظائم الأمور التي تسمو به فعلًا في نهاية المطاف. كما أن فوزه بالزواج منها لَمِمّا يلفت الأنظار كونه أدنى منها منزلةً في الأصل. لقد كان عنترة مثال اللباقة في رفضه عرض الفارس المُسِن أن يزوجه إحدى بناته بعد أن أنقذه عنترة، ومثال الطُّهْر والتعفُّف حين يتجنب الفتيات الراقصات في بلاط أنوشروان المهيب ويصدح متغنيًا بعبلة. وبمفرده يُحامي عن نساء عبسٍ وينقذهن حين يتعرضن لهجوم وهن عائدات من عرسٍ، وهو الذي يهبُّ للدفاع عن مضارب النساء في قبيلة مازن التي ينهبها عساف. وهو الذي ينقذ العبسيات حين يأسرهن الطائيون. وهو الذي ينقذ عبلة مرارًا. وترى النساء فيه حاميًا لهن، حتى إن إحدى الفتيات تُنشده أنشودةَ ثناءٍ له، وجميع النساء يُصفِّقن له حين يصفع عَمارة.

ويمثِّل عنترة أيضًا الأنموذجَ الذي يُحتذى في شجاعة الفروسية وممارستها. فحين يقتل عسافًا، فهو يشقه مع حصانه شقين، فيسقطان في أربعة أجزاء، وهذه مأثرة تسبق ما فعله غاي الوارِيكي الذي شق كلًا من كولبراند وحصانه إلى نصفين حين قتلهما. وكذلك يضرب الملك آرثر عملاقًا يمتطي صهوة حصان فيقسمه قسمين يتدليان على جانبي حصانه. كما أن إعتاق المنذر لعنترة نظيرَ مساعدته ضد خُسروان يصبح موضوعًا يتكرر في حكايات الفروسية. ففي حكاية غاي الوارِيكي، يأسر أحد الملوك السير هيرود. وحين يعلم أن في حوزته فارسًا مشهورًا، يطلق سراحه مقابل خدمته. وفي كلتا الحالتين، البطل هو الذي يقلب الأمور لصالحه. ومن الحيل التي تتكرر في حكايات آرثر هو تَنكُّر البطل في زي فارسٍ بائسٍ مغمورٍ ليتغلب على الجميع في نهاية المطاف، تمامًا كما يفعل عنترة حين ينقذ نذيرًا من بني عامر. ومن عناصر

حكايات الفروسية زيارة الأماكن المقدسة والأضرحة. وفي السيرة يذهب عنترة إلى الكعبة في مكة المكرمة ليتضرع إلى رب العالمين. وبعيدًا من حكايات الكأس المقدسة التي تدور فيها القصة حول هذه الزيارات، تسجِّل حكايات العصور الوسطى أمثلة لا حصر لها من ملازمة الزُّهاد وغيرهم من الأولياء الصالحين. أما موضوع المُحارِبات الذي تمثله الجيداء في سيرة عنترة فلا يماثل دور مِدْب في ملحمة «سَوْقُ قطعان كولي»، إذ إن مِدْب شخصية مركزية وحاكمة وقائدة عسكرية، بينما الجيداء فارسةٌ من بين فرسان عديدين. ولكن الجيداء رائدة النساء المحاربات اللواتي يرافقن الفرسان ويعشقنهم في ملاحم عصر النهضة، ولا سيما برادامانتي في ملحمة «أورلاندو الغاضب»، أو كلوريندا وجِلْدِبِّي في ملحمة «القُدس المُحرَّرة»، أو بريتومارت في قصيدة [إدموند سپنسر] «ملكة الجِن».

وهناك تشابه آخر في الفقرة الموجَزة عن المترجم العربي الذي يأسره عنترة مع الفُرس. فحين يسخر عنترة من وعد صاحبنا المضحك ("كلما ذبحتَ مرزبانًا، سلبتُه")، فهو يذكرنا باستمتاع الإسكندر بالفكاهة وتُومِي قِبَلًا إلى الملك في العصور الوسطى ونديمه.

وكثيرٌ من مغامرات عنترة هي مغامراتِ فارسٍ متجولٍ، ويتضح ذلك في تعقبه الفارس الذي يركب الأبجر حتى يحوزه لنفسه، وفي قتاله من أجل المنذر، وفي عثوره على سيفه الظامي. ومما يتصل بهذا منحهُ الهبات: فعنترة يمنح الهبات كأيٍّ من ملوك العرب أو الفُرس. وتجوُّل الفرسان بحثًا عن المغامرة حقيقةٌ تاريخيةٌ شرقًا وغربًا. يذكر كلاوستون اسم فارس فارسي اسمه رَزْم خاه، أي الباحث عن المغامرات، كما يذكر فارسين جوّالين عربيين مشهورين من القرن الثامن هما أبو محمد البطّال وجعفر الصادق.(١٣)

وهناك عناصر أخرى لها ما يُماثلها في القصص الغربية في القرون الوسطى. على سبيل المثال، يُهان المنذر في البلاط الفارسي حين يأمر خُسروان بأن توضع له ولحاشيته في التمر نوى زائفة قابلة للأكل، كي يأكلوا التمر بِنواه، أما المنذر الذي يفعل مثلهم من باب التأدب فيأكل التمر بنواه الحقيقية. وحين تنكشف الخدعة، يخرج المنذر عن طاعة كسرى، ويُقتَل خُسروان على يدي عنترة. كما نجد طُرْفةً مماثلة في الحكاية الحادية والعشرين من «عُهدة النُّسّاك». ففي مأدبة يقيمها أحد الملوك، يضع مُهَرِّجٌ كل العظام عند قدمي مهرِّجٍ آخر ويتهمه بأنه أكل كل شيء. فيجيب المتَّهَم، "لقد عملتُ بفطرتي، فطرة البشر، فأكلت اللحم ورميت العظم، أما صاحبي فقد عمل بفطرته، وهي فطرة الكلاب بلا منازع، إذ أكل اللحم والعظم معًا." ومحاولة الإهانة هذه قديمة

(13) Clouston, W. H., op. cit., *Arabian Poetry*, p. 445.

قدم جوزيفوس فيما يرويه عن هيركانوس[١٤] ونُسِبت لكثيرين من بعده، لكنها ارتبطت أخيرًا بدانتي في بلاط كان غراندي دِلا سكالا، إذ اتخذ الشاعر من كلمة "كان" التي تعني "الكلب" جوابًا لاذعًا.

والشبح الذي يطالب بالثأر من قاتله نجده لاحقًا في مسرحية «هاملِت»، وسخرية النساء من الغندور المتأنِّق عَمارة موضوعٌ قديم قِدَم مشاحنة هِلِن مع باريس في ملحمة «الإلياذة». ولما كان البدرموط بطلًا شاميًّا يُصارع باسم ملك الروم في المبارزات، فإن هذا يرتقي بالصراعِ المسيحي-الإسلامي في القصة إلى مستوى عالمي.

ومع أن هذه الأحداث هي من عناصر حكايات الفروسية لا من عناصر الحب العفيف، فإن «سيرة عنترة وعبلة» تقترب من الحب العفيف في وجهين. يتجلى الأول في كون عنترة شاعرًا مشهورًا يتغنى بمحبوبته وبسطوة العشق. وأشعاره تسبق أغاني التروبادور في القرن الثاني عشر وما تلا ذلك من شعر غربي. فعلى سبيل المثال، نظرات عينيها سهامٌ تقتل الأبطال، ووجهها كالشمس أو كالقمر، وابتسامتها مثل خمرٍ وعسل، وقوامها ممشوق كالطرفاء أو الغزال. وتُسْتَدعى القُمرية كمثالٍ على اكتمال الحب أو حزنًا على فراق الأحِبَّة. ولا تزال الأغاني الشعبية تردد صدى ذلك إلى يومنا هذا:

وعلى صدري قُمريةٌ من السما
تشهد أني فيها مُتُّ مُتَيَّما.

وهذه واحدة من الصور القديمة التي تنتقل تلقائيًا من أغنية إلى أخرى في الأغاني الشعبية الغربية. ويؤذن العندليب بمقدم الربيع والعاشق. وهناك قصيدة لعنترة وأخرى لعبلة تنادي كل منهما الريحَ الغربيةَ بوصفها رسول الحب. ولعله نسلت من هاتين القصيدتين تلك الرباعية المجهولة المؤلف التي تحمل في ثناياها تلميحاتٍ غريبةً وتُعَدُّ واحدةً من أكثر قصائد الحب الإنجليزية بقاءً على مَرِّ العصور:

ألا يا رياحَ الغرب متى تهبِّين
وتتساقط زخّات المطر؟
ربّاهُ، لو كان حبيبي بين ذراعيَّ
ولو كنت في فراشي ثانية!

(14) Cited by Schwarzbaum, Haim, in 'Petrus Alfunsus' *Disciplina Clericalis,* '*Sefarad* (XXII), 1962, pp. 43-49.

وبما أن الحب العفيف تراثٌ يشترك فيه الشرق والغرب فهو موضوع العديد من المجلدات. أما في سيرة عنترة، فقد مررنا عليه مرور الكرام ولكننا في هذا الحقل السجالي ركزنا على مظهرين لقيا قبولًا لدى الباحثين.(١٥) والشعر هو أحد هذين المظهرين. لقد أخذت أوروبا القافيةَ من الشعر العربي عبر إسبانيا. وكانت الصيغ العربية هي أساس الخرجات المستعربة، وهكذا صارت إرهاصاتٍ لأغاني التروبادور. وفي الفصل الخاص بالأدب الإسباني، يرفع مرجع أساسي هو The Reader's Advisor (دليل القارئ) هذه المسألة التي طال الجدل حولها إلى مصافِّ الحقيقة المألوفة.

> [ففي عام ١٩٤٨] اكتشف إس إم ستيرن في كنيسٍ يهوديٍّ في القاهرة عشرين قصيدة مكتوبة بالعبرية، وكانت آخر أبياتها بالإسبانية ويعود تاريخها إلى حوالي سنة ١٠٤٠. ومنذ ذلك التاريخ اكتُشِفت خمسون قصيدة أخرى، وهي تشكل أقدم أشكال الشعر الغنائي بأي لغة رومانسية. وهذه الأشعار المجهولة المؤلف وليدة امتزاج الثقافات العربية والعبرية والإسبانية، وهي تمثل بداية مناسبة للأدب الإسباني الذي يتسم بجذوره الشعبية وعمق تأثره بثمانية قرون من الاحتلال العربي. علاوةً على ذلك، فإن موضوعات هذه القصائد كبكاء فتاةٍ حبيبَها الغائب ونبرة الشوق فيها تجعل من الحب موضوعًا مهمًا في الأدب الإسباني.(١٦)

والتشابهات التي شاهدناها بين أشعار عنترة والشعر الغربي تشير إلى هذا. وحين استخدم دانتي أغاني التروبادور نموذجًا للأسلوب الجميل الجديد، فهذا يعني أن العرب تغلغلوا بنجاح إلى قلب الأدب الأوربي الغربي.

وثاني إشارة إلى الحب العفيف نجدها في طلب عبلة أن تُكرَّم في زفافها كما كُرِّمت الجيداء في زفافها. وهذا مثالٌ على المخاطرة التي على المحب أن يقوم بها إرضاءً لنزوةِ حبيبته، وهي خدمة يَسْعَدُ العاشق بإنجازها أو أن يهلك دونها. وهذه المهمة هي جزءٌ من المظهر الإقطاعي للمرأة المتنفذة في المجتمع، وهذا من العناصر المهمة في الحب العفيف. وفي حالة عنترة، تنشأ الكثير من المصاعب والمعارك. وخضوع عُشّاق التروبَادور مقترنٌ بنظام التبعية الإقطاعي، وهناك أمثلة عديدة في شعر التروبادور تُخاطَب فيها السيدة بلقب "مولاي." ولكن التعبير ذاته قد استُخدِم من قبل في الشعر العربي. فقد رأينا كيف كانت العقوبات

(15) Boase, Roger, *The Origin and Meaning of Courtly Love*, University of Manchester, 1977.
(16) *The Reader's Advisor*, Vol. 2, (12th ed.) New York, Bowker, 1977, p. 312.

تُفرَض في حالة عنترة من قِبَل عبلة أو من أجلها ضمن النظام الطبقي لقبيلة عبس. ومع أن مكانة عنترة كانت تخفف من وطأة العبء، إلا أنها تدل على الوضع الإقطاعي الذي تصوره التروبادور لاحقًا، تمامًا كما كانت قصائد الحب لدى عنترة باستعاراتها من الطبيعة والربيع بشائر للشعر الغنائي.

وهكذا يصلح أن يكون عنترة في الغرب النموذج الأمثل لا في البطولة فحسب بل في الشعر كذلك.

حكاية من الغرب: ترويض الشرسة

كان في أيام الرُّوّاد شابة سيئة الطباع، وكان جميع الفتيان يخشونها. ولكن أحد سكان الغابات كان بحاجة إلى زوجة، فجاءها ممتطيًا حصانه وتزوجا. ثم أردفها خلفه وعادا إلى موطنه. وكان ينوي أن يلقنها درسًا.

وفي أثناء مسيرهما تعثر الحصان العجوز، فنظر الرجل إلى رأس حصانه نظرة استياء وقال له، "هذه الأولى!" ثم تابعا مسيرهما، وبعد مسافة مرقت من أمامهم أرنب، فَحَرَن الحصان. نظر إليه الرجل نظرةَ استياءٍ مرةً أخرى وقال، "وهذه الثانية." ثم وصلا إلى مخاضة في نُهَيْرٍ، فتوقف الحصان العجوز تمامًا. فنظر إليه الرجل، وقال له، "والآن هذه الثالثة!" ثم أمر زوجته أن تترجَّل، وترجَّل هو، ثم حلَّ السرج عن ظهر الحصان ووضعه على الأرض. ثم تراجع عدة خطوات، وسدَّد بندقيته بن عيني الحصان العجوز وأطلق عليه رصاصةً أردته قتيلًا.

فراحت زوجته تصرخ وتُوَلْوِل لقتله الحصان العجوز المسكين. وظلت تصيح وتصيح ثائرةً، وهو صامتٌ يُلَقِّم بندقيته القديمة التي تُلَقَّم من فوهتها. وأخيرًا أنهكت الزوجة نفسها تمامًا وهدأت، فنظر إليها وقال، "والآن هذه الأولى!" ثم قال لها، "يجدر بنا أن نتابع مسيرنا، على ما أعتقد. فاحملي ذلك السرج وهيّا بنا." ترددت الزوجة، فنظر إليها زوجها ثانية وقال لها، "وهذه الثانية." فحملت السرج على كتفها، وتابعا مسيرهما إلى منزلهما، وصارت زوجة صالحة.(١٧)

(17) Brunwand, Jan H., *The Study of American Folklore*, New York, Norton, 1968, p. 308.

حكاية من الشرق: زيجة غير موفقة

كان رجلٌ مغربيٌّ يحظى باحترام كبير، وكان لديه ابنٌ واعدٌ من خيرة شباب الدنيا. وكان هناك مغربيٌّ آخر، لكنه أغنى بكثير من الأول، وكانت لديه ابنة وحيدة وسيئة الطباع ينفر من زواجها كل الناس. ولكن الشاب كان يطمح أن يغتني بالزواج منها. وهكذا تزوجا وحُمِلت العروس إلى بيت زوجها، وكان أصدقاؤه وأقرباؤه متلهفين لِما يحدث بينهما بعد ذلك.

جلس العروسان الشابان للعشاء، وحين رأى العريس كلبه الضخم قال له، "أحضر لي ماءً كي أغسل يديَّ." ولكن الكلب بطبيعة الحال لم يكترث لأمر سيده، فنهض الشاب وهو غاضبٌ غضبًا شديدًا، فاستل سيفه، وهجم على الكلب هجمةً عنيفةً واحتز رأسه. ثم عاد إلى المائدة غاضبًا، ملطخًا بالدماء، ورأى قطًّا، فقال له، "أحضر لي ماءً أغسل به يديَّ." لم ينتبه القط إلى ما أمره به سيده، فصاح به، "ألم تر، أيها الخائن المزيف، ما فعلته بالكلب لعصيانه أمري؟ إن لم تفعل ما آمرك به هذه اللحظة، فستلقى المصير ذاته!" ولكن المخلوق الصغير المسكين لم يتزحزح قيد أنملة، فأمسك به الشاب من قدميه، وخبطه بالحائط. وكان لا زال يتميز من الغيظ حين رأى حصانه ونادى عليه بغلظة أن يأتيه بالماء. ولما لم يستجب له الحصان، صرخ قائلًا، "ماذا دهاك؟ أتظن لأنك حصاني الوحيد أنه بإمكانك أن تعصي أوامري؟" ثم احتز رأسه.

ثم جلس إلى المائدة وهو يُقسم أنه سيقتل ألف حصان أو رجل أو امرأة إن عصَوْه. ثم التفت إلى زوجته وأمرها أن تأتي له بالماء. فنهضت في الحال وأتته به. وهكذا مضت الليلة: كانت العروس تلبي جميع أوامر عريسها من غير أن تفتح فمها بكلمة. وبعد أن تركها تنام هُنيهةً، أيقظها قائلًا، "انهضي واحرصي على ألاّ يُنَغِّص نومي مُنغِّص."

وفي صباح اليوم التالي جاء الأقرباء خِلْسةً إلى الباب، فتوجهت نحوهم بحذر وهي تقول، "أيها الخَوَنة، ماذا تفعلون؟ اخرسوا ولا تتكلموا وإلا متنا جميعًا." ذُهِل الجميع، وحين علموا بما جرى علا مقام الشاب بينهم عُلُوًّا كبيرًا لأنه أحسن صُنعًا في تدبير شؤون أسرته منذ البداية. ومنذ ذلك اليوم صارت زوجته مُذعنةً، مطيعةً، فعاشا عيشةً سعيدةً جدًّا.

وبعد ذلك ببضعة أيام، ذبح حَمُوُّه حصانًا لعلَّه يخيف زوجته، لكنها قالت له، "لقد فات أوان البدء الآن، يا صاحبي. ولن ينفعك حتى لو قتلت مئة حصان. فكلانا يعرف صاحبه جيدًا."(١٨)

(18) Juan Manuel, *op. cit.*, pp. 200-205. Abridged.

عُهدة النُّسّاك

من بين الكتب العربية التي كان لها بالغ الأثر فينا يبرز اثنان على وجه التحديد. وكلاهما أدخل بعضًا من قصص العرب إلى الغرب، وكانت هذه القصص جديدة وساحرة إلى درجة مذهلة وقابلة للتطور في المستقبل. الكتاب الأول، وهو الأقرب إلى زماننا، هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي تُرجِم أولًا إلى الفرنسية سنة ١٧٠٤، وهو كتابٌ يعرفه الكل تقريبًا. لكن مَن منا سمع بكتاب *Disciplina Clericalis* (عُهدة النُّسّاك)؟[1] ومع ذلك، فقد تُرجِم هذا الكتاب إلى اللاتينية بُعيد ١١٠٦ وكان لقصصه أثر أكبر من الأثر الذي تركته حكايات «ألف ليلة وليلة».

وكان جامع هذا الكتاب، بُطرس ألفونسوس، رجلًا استثنائيًا، ومتعدد الاتجاهات الفكرية والظروف المعاشية. فإلى هذه الظروف أولًا. فقد وُلِد سنة ١٠٦٢ في ويسكا في مملكة أراغون، وكان في الأصل يهوديًا اسمه موشيه سِفاردي. تلقى تعليمه بالعبرية واللاتينية والإسبانية، كما درس العلوم العربية المزدهرة في ويسكا التي ظلت خاضعة للحكم الإسلامي حتى سنة ١٠٣٥. كان باحثًا احتل مكانة مرموقة في أوساط العلماء، وطبيبًا ملكيًّا أولًا لملك أراغون، ألفونسو الأول، ثم لملك بريطانيا، هنري الأول، فاحتل مكانة سامية بين حاشية البلاط. وفي قمة مسيرته، اعتنق المسيحية سنة ١١٠٦، واتخذ اسم عرّابه ألفونسو الأول. وبُعيد ذلك هاجر إلى إنجلترا

(١) وردت في ترجمة الدكتورة سهير القلماوي والدكتور محمود علي مكي لهذا العنوان تسمية "محاضرات الفقهاء" في كتاب «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠)، ص ٧٠. وهذه ترجمة غير دقيقة، كما أنها مُضلِّلة، إذ تقودنا كلمة "الفقهاء" إلى التفكير بفقهاء المسلمين، وهذا غير صحيح. فالعنوان اللاتيني من وضع بطرس ألفونسوس نفسه الذي أراد أن يثقف علماء الدين والدنيا. ويبدو أن القلماوي ومكي أرادا أن يستدركا الخطأ في الطبعة الثانية للكتاب (١٩٨٧) فاستبدلا بترجمتها السابقة ترجمةً أخرى (أقل دقة في الواقع) هي "مجالس المتعلمين" حسبما تنقل عنهما د. نبيلة إبراهيم في ترجمتها (انظر ص ٣٤١)، وهي الترجمة التي اعتمدتْها. ولكنني، تحرّيًا للدقة ما أمكن ذلك، أفضِّل ترجمة ضياء حميو "عُهدة النُّسّاك." [المترجم].

التي كتب فيها «عهدة النساك». ولهذا كان في وضع مثالي لنقل التراث العربي إلى الغرب عامةً، وإلى إسبانيا وإنجلترا خاصةً، ولقد تحقق له ذلك بسبب ما كان يتمتع به من مواهب فكرية فذة.

كان اليهود هم الوحيدون في كل أوربا الذين يعرفون العربية واللاتينية. ولم يكن ممكنًا انتقال أي نوع من أنواع المعارف إلا عبر اللاتينية، لغة عموم أوربا، ومنها إلى مختلف اللغات العامية. لقد بيّن جوزيف بِدييه[2] وكثيرون من بعده الدور الفريد الذي قام به اليهود العاملون في بلاط الملوك الإسبان في عملية النقل هذه إبّان الحكم العربي. وهكذا كان بطرس ألفونسوس رجلًا أساسيًا في هذه العملية، إذ كان علاّمة عارفًا بأحوال الدنيا، وقارئًا بعددٍ من اللغات، ويتمتع برعاية ملكية حميمة لكونه طبيبًا. قادته معرفته بالعلوم العربية إلى جذب علماء اللاتينية إلى الأزياج [الجداول] الفلكية العربية (الجديدة حينها) ليرسموا مسار علوم الكون الجديدة. ورسم هو نفسه خرائط مناخية تبرهن صحة هذه العلوم، وحاضَر في بريطانيا حول عددٍ من الاكتشافات العربية: "كتعيين الحدود الحقيقية الفاصلة بين الشرق والغرب، والنقطة التي يمكن من خلالها رسم خطوط الطول، واختلاف الزمن وفقًا للنقطة التي يُرصَد فيها هذا الزمن، والتطابق بين ظهور علامات البروج وملاحظة الكسوف والخسوف، وكيف أن المناطق الاستوائية صالحة للسكن، بخلاف معتقدات ذاك الزمان."[3]

ومن جملة اهتماماته أيضًا اللاهوت والفلسفة، وهي الاهتمامات التي أدت إلى اعتناقه المسيحية وشرحها في كتابه *Dialogi cum Judeo* (حوار ضد اليهود)، وهو مقارنة ومقابلة بين المسيحية واليهودية. وكتابه هذا يصف بشكل عابر جنة المسلمين بأنها جنةٌ للمتعة، وبما أن هذا الوصف هو أول وصف لاتيني، فقد صار مصدرًا للكتابات الغربية اللاحقة عن الموضوع.

ولكن صيته ذاع بسبب "كُتيِّب" اسمه «عُهدة النُّسّاك»، إذ يصبح الباحث والطبيب والعالم والفيلسوف المُتنصِّر أيضًا قصّاصًا لحكايات شعبية يقصها بأسلوب شَيِّق بليغ. وكما يقول هو فيه، فقد استمد مادة كتابه "من قصص الفلاسفة وتحذيراتهم، وبعضها من أمثال العرب ونصائحهم وحكاياتهم وأشعارهم، وبعضها من حكايات الحيوان والطير." وكان يأمل صراحةً من انتقائه لتلك القصص من التراث العربي التي توضح الأمثال والنصائح أن يشد قراءه وسامعيه إلى المغزى المغلف بالمتعة ويُبعد عنهم الملل لعلّهم يسمعونها ويحفظونها.

(2) Bedier, Joseph, *Les Fabliaux*, Paris, 1925, p. 84.
(3) Milas, J. M., cited in Gonzalez Palencia, Angel (Ed.) *Disciplina Clericalis*, Madrid, 1948, pp. ix-x.

وفي كل هذه الأشكال المستخدمة في كتابه «عُهدة النُّسّاك»، كان بطرس ألفونسوس يقتفي أثر الأنماط الأدبية العربية القائمة، وهذا ما سنأتي على ذكره بمزيد من التفصيل.

ولكن ابتكاره يكمن في كونه أول كاتب أوربي يَعمد إلى استيراد الثقافة العربية. لقد كان رائدًا حين جعل الصيغ الأدبية والقصص الشرقية في متناول الغرب، وذلك بترجمتها إلى اللاتينية التي كانت اللغة الدولية للمثقفين الأوربيين. وبما أن كلمة cleric تعني مثقفًا عاديًا أو عالم دين، فلعلَّه جعل كتابه «عُهدة النُّسّاك» موجهًا للاثنين معًا. فالمثقف العادي يجد في كتابه مجموعة من خيرة القصص التي انتقاها خبيرٌ عارف، وعالم الدين يجد فيه مَعينًا ثَرًّا من المبادئ التي تُبينها الحكايات القصيرة أو الأُمثولات التي يمكن أن يستخدمها الكهنة في مواعظهم. ولهذا يمكن ترجمة كلمة disciplina بطرق متعددة. فكلمة "تهذيب" تصلُح إلى حدٍّ كافٍ، ولكن كلمتي "نُصْح" و"دليل" استُخدمتا أيضًا. ولعل أفضل ترجمة لها هي كلمة "شِرْعة" أو "مَنْهَج." منهجٌ للقراء؟

لقي الكتاب نجاحًا هائلًا، ولا تزال ثلاث وستون مخطوطة مبكرة من الكتاب باقيةً إلى يومنا هذا. فسرعان ما التُقط الكتاب ونُسِخ وتُرجِم إلى اللغات الدارجة، واستُخدِم في المواعظ بهذه اللغات، وقُلِّد في شتى أنحاء أوربا. ومنه نسلت سلسلةٌ طويلةٌ من كتب الأمثولات التي صارت أشهر الأنواع الأدبية في العصور الوسطى، وبهذا حققت المواعظ المُعَلَّبة إنجازًا لم يكن مُستغرَبًا حينها كما هو الآن. وبما أن الحكايات الواردة في كتاب «عُهدة النُّسّاك» وما تناسل عنه كانت دنيوية الطابع في المقام الأول، إذ انتُقِيت لتضفي حيويةً على الدروس التي تشرحها، فمن الطبيعي أن يكون لها انتشارٌ واسعُ النطاق في الكتابات غير الدينية. وقد أحصى شوڤان، المُستعرِب الفرنسي[٤] العظيم منذ أكثر من مئة عامٍ، حوالي خمسين كاتبًا وعملًا أساسيًا استعاروا من بطرس ألفونسوس.[٥] ومن جملة الكُتّاب: بانْدِلّو، بوكاچيو، چوسَر، سِنْثِيو، جيرالْدي، غاوَرْ، هِيبْل، لِدْغيت، ماري دو فرانس، شعراء الحب الألمان، دوڤيل، پولي، هانز زاكْس، سيركامبي، سْترابَرولا، تِيمونيدا، ڤنسان دو بوڤيه، ثِربانتس، غوبيوس، وشكسپير. ومن جملة الكُتُب: *fabliaux* [الحكايات الشعرية الهزلية]، *Gesta Romanorum* [صنائع الرومان]، *Islandzk Aeventyri* [المغامرة الآيسلندية]، *Kaatspel* [لعبة قطط]، *El Conde Lucanor* [حكايات الكونت لوكانور]، *Il Novellino*

(٤) في الحقيقة، كان ڤِكتور شوڤان مستشرقًا بلجيكيًا وليس مستعربًا فرنسيًا، إذ كان أستاذًا للعربية والعبرية في جامعة لييج. [المترجم].

(5) Chauvin, Victor, *Bibliographie des Ouvrages Arabes* … 1810-1885, Vol. IX, Liège, 1905, p. 44.

[الغِرّ]، *Palmblätter* [سعف النخيل]، *Scala Coeli* [العُروج إلى السماء]. يقول غونزالِس بالَنسيا الذي حقّق «عُهدة النُّسّاك»، "إن هذه الأسماء، بالإضافة إلى عدد المخطوطات الباقية من الكتاب لَبرهانٌ كافٍ على أثره في القصص العالمي."(٦) ولعله يكفي أن نقول إن الحكايات التي استُخدمت كأمثولاتٍ تحولت لاحقًا إلى أقصوصاتٍ في إيطاليا وحكايات شعرية هزلية في فرنسا، وإلى أدب إنجليزي في إنجلترا.

لم يَحتوِ كُتيب «عُهدة النُّسّاك» على قصص جيدة فحسب، بل أضفى عليها احترامًا فوريًا. لقد برهن الكتاب أن هذه الطرائف غير الدينية، الهزلية أحيانًا والدنيوية أحيانًا أخرى، يمكن أن تُحكى بلا حرجٍ حتى في الكنائس إن هي رُويَت بقصد الوعظ الأخلاقي. ولكن هذا أيضًا اكتشفته البلدان الإسلامية من قبل.

ولكن الأبكر من هذا وذاك في الشرق الأدنى هو ما يُعرَف بأدب الحكمة الذي ضمَّ أقوال الحكماء وتعاليمهم. يمكننا أن نسمي الوصايا العشر أدب حكمة، ولكن هناك من الأقوال المأثورة في مصر القديمة وبابل ما هو أقدم من ذلك. لقد حظي أدب الحكمة بإعجاب المسلمين، وهو ما كان يُعزى إلى شخصياتٍ إسلامية من العهد القديم مثل [النبي] سليمان، أو إلى شخصيات إسلامية من الفلسفة الإغريقية مثل سقراط وديوجينيس وأرسطو، أو إلى شخصيات عربية من العصر الجاهلي مثل إدريس ولقمان. وكانت صيغة هذا الأدب دائمة تعليمية، وفي أغلب الأحيان على هيئة حورات قصيرة من سؤال وجواب، أو بين أستاذ وتلميذه، أو بين أب وابنه. ثم نشأت بعد ذلك ما بين القرنين الثامن والتاسع حركةٌ في الفنون القَوْلية العربية تُسمّى الأدب، وهذه الحركة حررت الكتابة من قضايا العلوم الدينية الصرفة. قُسِّم الأدب إلى عشرة أصناف، وكان أفضلها الصنف العاشر، ألا وهو "معرفة القصص التي يتداولها الناس في مجالس أُنْسِهم." ومنذ ذلك العصر، لم يعد الكتّاب بقيادة الجاحظ (٧٧٦-٨٦٥ ميلادية)، مؤسس فن الأدب، يجدون حرجًا في استخدام الطرائف التي يستخدمها عامة الناس في أحاديثهم لتوسيع نطاق أدب الحكمة. وبهذا المعنى يمكننا أن نعزو للعرب فضلَين: ابتكار الأدب القصصي وترسيخ شكل القصص العالمي.

كما أن القصص الإطارية نشأت منذ بدايات الآداب الشرقية في الهند. وهذه القصص الإطارية هي عبارة عن حكايات مُطوّلة تضفي شيئًا من الاستمرارية على العمل برمته، حيث يمكننا بحسب رغبتنا أن نزُجَّ ضمن الحكاية الإطارية بحكايات قصيرة لا يربط بينها إلا كون

(6) Gonzales Palencia, *op. cit.*, p. xxxiii.

كلّ واحدة منها تمثل نصيحةً أو تحذيرًا. ويتجلى النموذج الأصلي لهذا الأسلوب القصصي في حكايات جاتاكا أو قصص مولد بوذا من القرن الثالث قبل الميلاد، إذ تضم في إطارها أشعارًا وعظية تُنسب إلى بوذا. ويكفي أن نشير إلى أشهر مثال على ظهور القصة الإطارية، وهو حكايات پانچاتانترا الهندية العظيمة المؤلفة في القرون الخمسة الأولى بعد الميلاد التي يتعلم فيها أولاد الملك الجهلة أصول الحكم بالوصية والأمثولة. وقد تُرجمت حكايات پانچاتانترا من الفهلوية (الفارسية الوسيطة) إلى العربية في القرن الثامن تحت عنوان «كليلة ودمنة». ولم تنتشر هذه الحكايات انتشارًا واسعًا جدًا في الشرق والغرب إلا بنسختها العربية، ولا سيما في فترة المدّ الإسلامي. وفي الوقت ذاته والمدرسة ذاتها، تُرجِمت حكايات جاتاكا وسواها عن حياة بوذا الأسطورية من الفهلوية إلى العربية، علمًا أنه جرى تهذيبها من السنسكريتية أولًا، تحت عنوان «بِلوهَر ويوداساف» (وفي الغرب سُمِّيت «برلام وجوزافات»). وفي هذه المجموعة يعظ الزاهد الورع بِلوهر ابنَ الملك من خلال حكايات رمزية. تُرجِم «كتاب السندباد» أيضًا إلى العربية في القرن الثامن، فصار مع نسخه العديدة المعدَّلة أشهر الكتب الشعبية تفصيلًا في موضوع زوجة فوطيفار [عزيز مصر]، حيث يتجادل مستشارو الأمير وزوجة الأب بضرب الأمثال عن غدر النساء ووفائهن. وكالعادة، تصبح القصة الإطارية مسوغًا للجمع بين عددٍ من القصص الجيدة وخاضعةً لكل حكاية على حِدَة.

ومن هذه الناحية، يسير كتاب «عُهدة النُّسّاك» أيضًا على شاكلة أصوله الشرقية. ويكاد يكون الإطار بلا أهمية، إذ يعظ أبٌ عربي ابنه أو معلمٌ تلميذه عن مصاعب الحياة وشرور الدنيا. وغالبًا ما يجيب الابن، مع شيءٍ من التعليق، ثم يسأل سؤالًا يؤدي، إن عاجلًا أو آجلًا، إلى وصية أخرى أو حكاية رمزية أخرى، وهذا هو أسلوب التشويق ذاته في «ألف ليلة وليلة». وهكذا يمكن أن يكون هناك عددٌ من الاستطرادات بين الأمثولة والأخرى: فهناك ستة وعشرون مقطعًا من الأقوال المأثورة غير المُرَقَّمة، بينما هناك أكثر من ثلاثين قصة مُرَقَّمة يتألف منها متنُ الكتاب.

وعلى الرغم من أن الحكاية الإطارية ليست بذلك الأمر اللافت للأنظار، إلا أنها دخلت أوربا عبر مجموعة «عُهدة النُّسّاك»، إذ كانت شكلًا قصصيًا رائجًا وجديدًا على أوربا. وبمرور الزمن، نضجت الحكاية الإطارية وأنتجت أكثر قصصنا الغربية شيوعًا مثل «ديكاميرون» و«حكايات كانتبري» وروايات العَيّارين والشُّطّار، وصولًا إلى شيرلوك هولمز وپوارو وجيڤز والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية.

وهكذا نقلت مجموعة «عُهدة النُّسّاك» إلى الغرب أربعة أنماط أدبية جديدة عبر الأدب العربي: ١) مجموعة الأمثولات بوصفها جنسًا أدبيًا؛ ٢) العِبرة الواعظة؛ ٣) المُلْحَة بوصفها مثالًا أو إيضاحًا للعِبْرة الواعِظة؛ ٤) القصة الإطارية.

اقتصرت معالجتنا حتى الآن على الشكل، أي على تلك الحيل البنائية الجديدة التي أتت بها مجموعة «عُهدة النُّسّاك» إلى الأدب الغربي من الأدب الشرقي. ولكن الأهم من ذلك هو مضمون هذه القصص. ومع أن هذه الحكايات كانت أيضًا جزءًا من أعمال عربية مكتوبة، إلا أنها كانت في الأصل، وظلت كذلك، حكاياتٍ شعبيةً عربيةً، أي أنها تُروى مُشافَهةً. وقد وُثِّقت مصادر بعض هذه الحكايات من كتبٍ عربيةٍ كانت معروفة لبطرس ألفونسوس. ومن بين هذه المصادر «كليلة ودمنة»، وهي عملٌ أساسه «الپانچاتانترا» السنسكريتية وقد تُرجم من الفارسية إلى العربية في القرن الثامن، و«كتاب السندباد» (وعنوانه بالعربية «الوزراء السبعة») وقد تُرجم أيضًا في القرن الثامن، ومجموعة أدبية من القرن التاسع لحُنَين بن إسحاق بعنوان «كتاب أدب الفلاسفة».(٧) ومن الممكن أيضًا أن أصل «ألف ليلة وليلة» الذي يعتمد على حكايات «هَزار أفْسانه» (ألف حكاية) الفارسية كان في مُتناوله باللغة العربية، حيث إن هذا الأصل يُشار إليه في إسبانيا في القرن الثالث عشر. ولعل هناك أعمالًا أخرى ضاعت الصلة بينها وبين ألفونسوس، ولكن المعروف هو أن هناك مصادر شرقية أبكر من ذلك؛ ولعله لم يقرأ بعض الحكايات بل سمعها في شبابه من عامة العرب في أسواق ويسكا. ولكن الحكايات التي استخدمها، وكانت جديدة على أوربا غير المسلمة، أُخِذت من مخزون الفُلكلور العالمي العريق: الهندي والفارسي والسرياني والعبري والهلنستي والعربي. ولأن بعض هذه الحكايات كان متداوَلةً مشافهةً لوقتٍ طويلٍ في العالم الإسلامي، فلا بد أنها صارت جزءًا من التراث الشفوي قبل عصر بطرس ألفونسوس في أماكن الاتصال [بين الثقافتين العربية والغربية] مثل إسبانيا وپروڤانس وإيطاليا. وبعض القصص من المخزون ذاته لا تزال في الحقيقة يتداولها الناس في الشرق والغرب كحكايات شعبية. ولكن هذا الفُلكلور عمومًا دخل الأدب الغربي من خلال كتاب «عُهدة النُّسّاك»، وبذلك صار جزءًا مما اصطلحنا على تسميته 'الرصيد الأولي' للثقافة الغربية، ثم أخذ هذا الرصيد يتنامى وينتشر مع مرور السنين في أدب العالم السائر على خُطا الغرب والفلكلور الأوربي على حدٍّ سواء. فبينما كانت حكايات «عُهدة النُّسّاك» تُتَداول

(7) Schwarzbaum, Haim, "International Folklore Motifs in Petrus Alfunsus' *Disciplina Clericalis,*" *Sefarad* (XXI), 1961, pp. 270 ff.

في الكتابات الأدبية، كان الوُعّاظ أيضًا في الوقت ذاته يستخدمونها بمثابة حكاياتٍ رمزيةٍ في مواعظ لا حصر لها، وهكذا انتقلت وتكاثرت على المستوى الشعبي. وهذا الانتشار المزدوج هو السبب وراء أثرها الهائل.

لا تقتصر ملكيتنا في الغرب اليوم على الشكل المألوف لمجموعة «عُهدة النُّسّاك»، بل تتعداه إلى المضمون كذلك. وقلّما نقبل أن كثيرًا مما نظن أنه تراثٌ خاصٌّ بنا قد أتانا أصلًا من الشرق، وعلى الأخص مثلًا تلك التأثيرات الهائلة التي مصدرها الكتاب المقدس، وهو كتابٌ كل أشخاصه وكُتّابه شرقيون. فليس غريبًا أننا لا ندرك كم من أنماط تفكيرنا وتقاليدنا ومُدرَكاتنا التي لا نظن أنها ثابتة إلا في الجينات الغربية قد قولبها الفلكلور الشرقي. والفلكلور العالمي للشرق الأدنى هو في الحقيقة الفلكلور المشترك للعالم المتمدِّن، وكان لبطرس ألفونسوس الباعُ الأطول في جعله كذلك.

وعَوْدًا على بدء، قد لا يكون اسم «عُهدة النُّسّاك» معروفًا اليوم، ولكن حكاياته، على العكس من ذلك، من نُدمائنا القدامى. فنحن نعرف هذه الحكايات بمعزلٍ عن بعضها وبمعزلٍ عن الكتاب. وهي جزءٌ مما يُؤْثَر عن بيئتنا الغربية من حكمةٍ وقصصٍ ونُكاتٍ يوميةٍ. فنظرة عابرة على الكتاب تبين أن ثمة صلةً بيننا وبين كل حكاياتها الرمزية تقريبًا. فعلى سبيل المثال، تُدلل القصة الأولى "النصف صديق" على القول المأثور إلى يومنا هذا أن المرء لا يعرف أصدقاءه إلى أن يجربهم. في «عُهدة النُّسّاك» ينصح أبٌ عربي ابنه أن يختبر أصدقاءه الكُثُر الذين يدّعي صداقتهم قائلًا له، "أنا أكبر منك بكثير ولم أكتسب إلا نصف صديق." فيضع الابن عجلًا مذبوحًا في كيس ويخبر 'أصدقاءه' أنه قتل رجلًا، فيرفضون جميعًا أن يساعدوه. ولا يهُبُّ إلى نجدته ويحفر قبرًا ليتستَّر على الجريمة المُدّعاة إلا نصفُ صديق أبيه! ولعل كثرة تكرار هذه القصة في الفلكلور العربي وغيره يعود إلى انتشارها كإحدى القصص الرمزية في مجموعة «بارلام وجوزافات» التي كانت في متناول بطرس ألفونسوس، كما رأينا من قبل، في الترجمات العربية منذ القرن الثامن فصاعدًا.

والحكاية الثانية هي أمثولة "الصديق المخلص" وهي مأخوذة كذلك من الفُلكلور العربي الذي تضمه المجموعات الأدبية للقصص المشهورة. حين يزور تاجرٌ صديقه الوفي في مصر، يقع في غرام خطيبة المصري المحبوبة. وبدافع الصداقة الصرفة، يتخلى المصري عن فتاته لصديقه. وبعد ذلك يفقد المصري كل ثروته، فيصبح تعيسًا حتى أنه يسلم نفسه للقضاء بحجة أنه قاتل. ولكي ينقذ صديقه يأتي التاجر ويعلن أنه هو المذنب. يتأثر القاتل

الحقيقي بصداقتهما الخالصة فيعترف بجريمته. وكل من هذين الموضوعين (التخلي عن الخطيبة والتضحية بالنفس من أجل صديق) شائع جدًا في القصص العربي. لقد جرى تتبع أثر الموضوع الثاني إلى أوائل الكتاب الإغريق والرومان مثل چچَرو، وذلك في قصة دامون وپيثياس السيراكيوزي حيث يرهن أحدهما حياته لضمان حياة الآخر، ويتشوَّق كل منهما للموت لكي ينقذ حياة صديقه مما يحدو بالطاغية دايونايسوس للعفو عن الجاني. ولكن حكاية الصديق الوفي شاعت في الغرب بصيغتها الشرقية عبر كتاب «عُهدة النُّسّاك»، وليس كما رواها چچَرو أو وردت عنه، ذلك لأن بوكاتشيو استعار القصة من «عُهدة النُّسّاك» وكانت معالجته مؤثرة في شكل القصة لاحقًا. وقد ذاعت القصة تحت عنوان "تيتو وجوسِپي" ذيوعًا لم تحظَ به أي من قصصه الأخرى. وقد وُثِّقت خمس وثلاثين نسخة مُعدَّلة ومحاكاة على الأقل لنسخة بوكاچيو في الكتابات الأوربية سنة ١٩١٠،[8] ولا شك أن قصصًا كثيرة أخرى قد ظهرت منذ ذلك التاريخ (هذا ناهيك بالمؤلفين الأوائل غير بوكاچيو ومن تفرَّع عنهم). وبعد عصر النهضة وإعادة اكتشاف الكتاب الرومان، صارت قصة تيتو وجوسِپي ومتفرعاتها مضرب الأمثال ولا تزال. فعلى سبيل المثال، هناك نادٍ قوميٌّ للأُخُوَّة في أمريكا يبلغ تعداد أعضائه مئات الآلاف يطلق على نفسه اسم "فُرسان پيثياس." كما أصبحت حكاية "الصديق الوفي" من الأمور المألوفة في الآداب الأوربية.

ولكننا نرى أُلفة حكايات ألفونسوس بطريقة أكثر إثارة حين نقابل ما نسل عنها من حكايات غربية مع أصلها [الشرقي]. ولأن الحاجة للوعظ قد تلاشت مع مرِّ القرون بطبيعة الحال، تحول ما كان يُستخدَم أُمثولةً في الماضي إلى حكايةٍ تُروى بكل بساطةٍ بقصد الإمتاع في الوقت الحاضر. ولكن حكاياته الرمزية الجدية لها أيضًا تفرعاتٌ في وقتنا الحالي في أغلب الأحيان. وإليكم بعضًا من هذه الحكايات بثوب حديث، نُتبِعها بكلمات بطرس ألفونسوس نفسه.

خبز المَنام

كان إسكوتلندي وإيرلندي ويهودي يسافرون معًا حين نفدت مؤونتهم من الطعام، ولم يتبق عندهم إلا رغيف خبز واحد. فقرروا أن من رأى أجمل حلم في منامه له رغيف الخبز وحده، ثم ناموا. وعندما استيقظوا قال الإسكوتلندي، "حلمتُ أن الملائكة قادتني إلى النعيم،

(8) Jones, F. N., *Boccacio and His Imitators*, Chicago, 1910, p. 10.

وانفتحت بواباتها لي!" وقال الإيرلندي، "حلمت أن الملائكة أخذتني إلى بوابات الجحيم وأدخلوني فيها!" فقال اليهودي، "حسنٌ، لما رأيت أحدكما في النعيم، والآخر في الجحيم، نهضت وأكلتُ الخبز."

الأمثولة التاسعة عشرة

حَضَريّان وريفي

التقى حَضَرِيّان وريفي في طريقهم إلى مكة للحج. كانوا يأكلون معًا حتى اقتربوا من مكة ونفدت مؤونتهم، ولم يتبق معهم إلا قليلٌ من الطحين يكفي لصنع رغيفٍ صغيرٍ فقط.

ولما رأى الحضريان ما جرى، قال أحدهما للآخر، "مؤونتنا من الخبز قليلة، وصاحبنا يأكل كثيرًا، وعلينا أن نحتال للحصول على حصته من الخبز ونأكلها نحن الاثنين."

واتفق الثلاثة على الخطة التالية: أن يعجنوا الرغيف ويخبزوه، وبينما يتركونه لينضج، يخلدون هم للنوم، وأن من رأى منهم أغرب حلم كان الرغيف من نصيبه. قال الحضريان هذا الشيء ليخدعا به الريفي ظنًّا منهما أنه سيصدق هذه الحيلة بغبائه. فعجنوا الرغيف، ووضعوه على النار، واستلقوا للنوم.

كان الريفي مدركًا للخديعة فأخذ الرغيف من النار، قبل أن ينضج، وأكله بينما صاحباه نائمان، ثم عاد للنوم.

استيقظ أحد الحضريين كأن كابوسًا أفزعه، ونادى صاحبه. فرد عليه الحضري الآخر، "ما خطبك؟"

فقال الأول، "لقد رأيت حلمًا رائعًا: لقد تهيأ لي أن ملاكين فتحا لي أبواب الجنة، وأخذاني وأوقفاني بين يدي الله."

فرد صاحبه، "هذا حلم رائع، ولكنني حلمت أن ملاكين اقتاداني وفتحا لي الأرض وأُلقيتُ في الجحيم."

كان الفلاح يسمع كل هذا وظل متظاهرًا بالنوم، ولكن الحضريين المخادعَيْن ناديا الريفي ليوقظاه بعد أن خدعهما. فأجابها بمكرٍ كأنه فزعٌ، "من الذي يناديني؟"

فقالا له، "نحن، رفيقيك."

فقال لهما، "وهل عدتما؟"

قالا له، "وأين ذهبنا لنعود؟"

فقال الريفي، "حلمت أن ملاكين أخذا أحدكما وفتحا له أبواب الجنة وأوقفاه بين يدي الله، وأن ملاكين آخرين أخذا الآخر وفتحا له الأرض وألقياه في الجحيم. وعندما رأيت ما جرى لكما، ظننت أنه لن يعود أي منكما، فنهضت وأكلت الخبز."[9]

صَفِّر للكلب، يأتِك بالأخبار

كان شيخٌ مُسنٌّ يجلس أمام الموقد ذات ليلةٍ، فراح يتساءل في نفسه عن حالة الطقس. فقال لزوجته، "اخرجي يا ما وانظري إن كانت السماء تمطر." ولكن العجوز لم تتزحزح، بل قالت، "لا داعي لكل هذا العناء. ما عليك إلا أن تصفِّر للكلب، وتتحسس ظهره."

الأمثولة السابعة والعشرون

طرائف العبد ميمون

أمر ميمونًا سيدُه ذات ليلةٍ أن يغلق الباب، لكنه بسبب كسله لم يستطع النهوض، فقال إنه قد أغلقه سلفًا. ولما أصبح الصباح، قال سيده، "افتح الباب، يا ميمون."

فأجاب العبد، "لقد عرفت يا مولاي أنك تريده مفتوحًا اليوم، لذلك لم أغلقه ليلة البارحة."

حينها أدرك السيد أن ميمونًا لم يغلق الباب من كسله. فقال له، "انهض لعملك، فقد طلع النهار وارتفعت الشمس."

فرد العبد، "إن ارتفعت الشمس، يا مولاي، فأعطني ما آكله."

فأجابه سيده، "أتريد أن تأكل ولمّا يَبْزُغِ النور، يا أبأس عبدٍ؟"

فقال العبد، "ما دام النور لم يَبْزُغْ، فدعني أنَمْ."

وفي مناسبةٍ أخرى قال له سيده ذاتَ ليلةٍ، "انهض يا ميمون، وانظر إن كانت السماء ممطرة."

ولكن ميمونًا نادى الكلب الذي كان مستلقيًا خارج الباب، وحين أتى الكلب تلمَّس أقدامه فوجدها جافة، فقال، "إنها لا تمطر يا مولاي."[10]

(9) Jones, J. R. and J. E. Keller, *The Scholar's Guide*, Toronto, Pontifical Institute of Medieval Studies, 1969, pp. 78-80.
(10) *Ibid.*, p. 100.

هكذا سارت الأمور

منذ وقت طويل ذهب صاحب مزرعة في كارولاينا الجنوبية إلى نيويورك أو مكان آخر في الشمال في زيارة طويلة. وحين آبَ واقترب من منزله، التقى بأحد خدمه، واسمه سامْ، على الطريق في الغابات، وهما لا يريان المنزل.

فسأل السيد خادمه، "قل لي يا سام، كيف هي الأمور؟"

قال سام، "ليست على ما يُرام، حسب ظني."

"ليست على ما يُرام؟ ماذا تقصد؟"

"حسنٌ، لقد مات كلبك الطيب، جو العجوز."

"مات؟ ماذا جرى له؟"

"لقد احترق."

"كيف حصل هذا؟"

"لقد كان في الشونة حين احترقت."

"وكيف احترقت الشونة؟"

"لقد نشبت بها النار من المنزل الكبير."

"هل تقصد أن البيت الكبير احترق؟"

"نعم، يا سيدي."

"وكيف احترق؟"

"لقد نشبت به النار من إحدى الستائر المُخَرَّمة."

"وكيف شبت النار بالستارة؟"

"من شمعة."

"وما الذي أتى بالشمعة إلى الستائر؟"

"أُشعِلت الشموع حول تابوت حماتك، فهبت الريح وطوَّحت بإحداها، وشبَّت بها النار."

سأل صاحب المزرعة من غير انزعاجٍ ظاهر، "تقصد أن حماتي ماتت؟"

"نعم، يا سيدي."

"ماذا جرى لها؟"

"حسنٌ، يا سيدي، لقد جرت الأمور على النحو التالي. لقد هربت زوجتك مع مراقب العمال، فانتابت أمَّها نوبةٌ من التوتر والانفعال فماتت."[11]

(11) "Two Versions of a Hard-Luck Story," *North Carolina Folklore*, Vol. 2, 1954, pp. 16-17.

الأمثولة السابعة والعشرون

طرائف العبد ميمون

كان سيده عائدًا من السوق وهو مسرورٌ لأنه ربح ربحًا عظيمًا، فخرج ميمون للقائه. قال له سيده محذرًا، "إيّاك أن تنقل إلي أخبار السوء."

فوافق العبد.

"ولكن كلبنا الصغير بيسبلا مات."

سأل السيد، "وكيف مات؟"

فقال العبد، "انتاب بغلَنا الفَزَع فقطع لجامه، وحين هرب دهس الكلب."

سأل السيد، "وماذا حدث للبغل؟"

"سقط في البئر ومات."

قال السيد، "وما الذي أفزع البغل؟"

"لقد سقط ابنك من الشرفة ومات، ففزع البغل."

قال السيد، "ماذا فعلت أمه بنفسها؟"

أجاب العبد، "ماتت حزنًا على ولدها."

سأل السيد، "ومن الذي يعتني بالبيت؟"

قال العبد، "لا أحد، لأن البيت احترق بما فيه."

سأل السيد، "وكيف احترق؟"

قال العبد، "حين ماتت السيدة في تلك الليلة، نسيت الخادمة التي كانت تجلس بجانب الجثمان المُسجّى شمعةً في المَخدَع، وهكذا أتت النار على البيت برمته."

سأل السيد، "وأين الخادمة؟"

قال العبد، "حاولت إطفاء الحريق، فسقطت على رأسها عارضةٌ خشبية، فماتت."

قال السيد، "وكيف نجوت أنت الموصوف بكسلك الشديد؟"

قال العبد، "لقد هربتُ حين رأيت الفتاة ميتة."

وبمناسبة الحديث عن طرائف ميمون، التي لا تزال مثل قصة "خبز المنام" ساريةً في الأدب الغربي والنكات الشهيرة، فإن هناك نسخةً أخرى تشهد على تجدد حيويتها في الفُلكلور العربي. فبخلاف النسخ المبسطة أعلاه، فإن هذه النسخة لم تأتِ من كتاب «عُهدة النُّسّاك»، بل دُوِّنت سنة ١٨٠٠، أي بعد ٧٠٠ سنة من ذلك. وحين نقارن بين هذه الحكاية العربية المتأخرة

الأكثر تطورًا وتوازنًا مع ما بين يدينا من نسخٍ في الغرب فإنه يصبح بمقدورنا أن نرى كيف اشتُقَّت من حكايات بطرس ألفونسوس.

كان رجلٌ من العرب يسافر في الصحراء وكان جائعًا، فصادف رجلًا يأكل، وقد مدَّ سُفْرته بجانب الطريق. فحياه العربي وجلس آملًا أن يدعوه صاحبه لمقاسمته زاده، وقال له إنه آتٍ من قريته.

"هل رأيت منزلي؟"

"نعم، وإنه لَمُتْقَن البناء وجميل."

"وهل رأيت كلب أغنامي؟"

"نعم، وإنه لَنِعْمَ الحامي لقطعانك."

"وهل رأيت ابني خالدًا؟"

"بلا شك، وكان في مدرسته يواظب على قراءة القرآن."

"وكيف أم خالد؟"

"إنها على ما يسرُّك، ولا يوجد في كل بلاد العرب من هو خيرٌ منها تدبيرًا أو أحسن حديثًا أو أشهر منها في الخير والإحسان."

"هل رأيت بعيري؟"

"نعم، وإنه لَفي أحسن حال وعافية."

سُرَّ الرجل بكل هذه الأخبار المُفرحة، فتابع أكله بشهية عظيمة، ولكنه لم يدعُ العربي الجائع للطعام، فقال هذا في نفسه، "عليَّ أن أخاطب هذا البخيل الشره بطريقة أخرى." وفي تلك اللحظة بالذات مرَّ كلبٌ، فقال الرجل الجائع:

"لو كان كلبك المسكين حيًّا، لَهَزَّ ذيله بالطريقة ذاتها تمامًا."

"واحسرتاه، وهل مات كلبي؟ وكيف مات؟"

"من شُرْبه بولَ بعيرك."

"وهل مات بعيري كذلك؟"

"لا، ولكنهم ذبحوه لأجل وليمة العزاء لأم خالد."

"واحسرتاه، وهل ماتت أم خالد؟"

"نعم."

"مِمَّ ماتت؟"

"لقد خبطت رأسها بقبر المسكين خالد فماتت من الكدمات."

"وهل مات ابني خالد؟"

"نعم، للأسف. لقد حطم زلزالٌ عنيفٌ بيتك، فمات تحت الأنقاض."

ولمّا سمع الشره السيئ الطباع كل هذه الأخبار، عافت نفسه الطعام، فخلّف كل شيء وراءه، وانطلق إلى دياره مسرعًا، فجلس العربي السعيد، ليمتع نفسه بطعام صاحبه.[١٢]

وبالالتفات إلى أمثولات كتاب «عُهدة النُّسّاك» الأكثر جدية، نجد نموذجًا آخر من الأدب الأوربي في العصور الوسطى يُعرف باسم *Ubi sunt* (أدب الاعتبار)، أي، "أين الذين ... خَلَوْا من قبلنا؟" لا يمكننا أن ندّعي أن بطرس ألفونسوس هو من أدخل هذا الجنس الأدبي إلى أوربا، لأن الاعتبار بمن سلف موضوع كوني في الفلسفة المسيحية، ولكن ما انتقل إلينا من خلال نسخة ألفونسوس هو تلك المسحة الشرقية لأدب الاعتبار، وهي التي شكلت لاحقًا أساسَ كثيرٍ من النسخ باللغات العامية. لنتأمل نص أمثولته الرابعة والثلاثين، وهي بعنوان "زاهدٌ يعظ نفسه." يقول الزاهد، "أين الملوك؟ أين الأمراء؟ وأين الأغنياء الذين كانوا يجمعون الكنوز ويتباهون بثرائهم؟ هاهُم الآن كأنهم لم يكونوا قط؛ هاهُم الآن أمواتٌ كأنهم لم يعيشوا قط؛ هاهم الآن مثل زهرة سقطت عن شجرة ولم تعد إليها قط." والأمثولتان الثانية والثلاثون والثالثة والثلاثون تتصلان بهذه أيضًا. فالأولى تحكي عن شاهدة قبرٍ خُطَّت عليها هذه الكلمات، "يا مَنْ تمُرّ من هنا ولا تقول حتى كلمةَ وداعٍ، توقف واحفظ عني هذه الكلمات: أنا الآن ما ستؤول إليه." أما الثانية فتصف أقوال الفلاسفة عند تابوت الإسكندر الذهبي التي تقارن بين سلطانه ومجده بالأمس وبين التراب الذي آلَ إليه اليوم. وكلتا الأمثولتين تعكس التراث السامي، وقد صارت الثانية جزءًا من سيرة الإسكندر عبر كتاب *Historia de Proeliis* (تاريخ المعارك)، أما الموضوع الثاني، أي النقش على شاهدة قبرِ أميرٍ مات منذ زمن غابر، فيرد كثيرًا في الكتابات والفلكلور العربي (ولا سيما في «ألف ليلة وليلة» التي يرد فيها عدة مرات)، إذ القبور دومًا إما في صحراء وإما في مكان بعيد. والتحدي الذي تشكله الشاهدة لمن يمر بها أمرٌ مألوف لنا في الشعر الإنجليزي من خلال قصيدة ييتس "شاهدة قبر" البارعة والمشتقة من قصيدة ساخرة لبايرون بالعنوان ذاته، وكان بايرون بطبيعة الحال على اطلاعٍ على الأنماط السائدة عند اللاتين وكُتّاب شرق المتوسط.

(12) Scott, *op. cit.*, pp. 341-44.

وأفضلُ تلخيصٍ للخيوط المتشابكة التي أنتجت أدب الاعتبار ولدور بطرس ألفونسوس في نقله إلى الغرب قولُ [دوروثي] مِتْلِتْسكي:

لقد وصل أدب الاعتبار الكلاسيكي إلى كتاب «عُهدة النُّسّاك» من المصادر العربية التي تأثرت بدورها بأدب الكنيسة الشرقية التي عالجت هذا الموضوع. فقد اقْتُفي أثر التنويعات على هذا الموضوع في الشعر العربي إلى شعر عَدّي بن زيد في الحقبة الجاهلية (حوالي ٦٠٠ ميلادية). وأدب الاعتبار بمن سلف من الملوك الذي يستهل به بطرس ألفونسوس مجموعته القصصية هي عبارة مأخوذة بحذافيرها من قول شعري يُنسب في التراث الإسلامي إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عن زوال سلطان الدنيا، كما يرد في خطبةٍ للخليفة الأول أبي بكر. وشعراء العصور الوسطى الذين طوروا هذا الموضوع في إنجلترا في القرن الثالث عشر كانوا يمتحون بلا شك من نصٍ يتأمل في الموت وَصَلَهم من المصادر الكلاسيكية من طريق بويْثيوس والمصادر العربية عبر بطرس ألفونسوس والأندلس بلغة تكاد تكون متطابقة تمامًا.(١٣)

وكان من شأن الترجمات الفرنسية في العصور الوسطى لكتاب «عُهدة النُّسّاك»، والتي كانت تقتفي أثر كلمات بطرس ألفونسوس بحذافيرها، أن أثرت بدورها في قصيدة لا تزال مشهورةً إلى يومنا هذا في كل العالم، وهي قصيدة فرانسوا فِيّون التي عنوانها "ولكن أين هي ثلوجُ الماضيات من السنين؟" أما بالنسبة إلى أطفال المدارس الناطقين بالإنجليزية فالرسالة العربية تأتيهم اليوم عبر «عُهدة النُّسّاك» من خلال قصيدة "أوزيمَنْدياز" [للشاعر الرومانسي] شِلي:

قابلتُ رحّالةً من بلاد قديمة فقال:
في الصحراء تنتصب ساقان هائلتان
لا جذعَ لهما، من الحجر منحوتتان.
وقريبًا منهما يقبع وجهٌ محطَّمٌ غارَ نصفُه في الرمال
بيد أن عبوسه وشفته المتغضِّنة وسخرية أمره الفاتر
تشي بأن النحّات أجاد قراءة تلك العواطف
المُخلَّدة على هذي الجوامد، فبقيت

(13) Metlitzki, *op. cit.*, p. 105.

وفَنِيَت اليدُ التي حاكتها والقلبُ الذي غذّاها:
وعلى قاعدة التمثال نُقشت هذه الكلمات:
"أنا أوزيمَنْدياز، ملكُ الملوك
فلتنظروا أيها الجبابرة إلى أعمالي ولْتَيْأسوا!"
لا شيءَ باقٍ غيرها.
حَوْل ذاك الحطام الهائل البالي
تمتد وحيدةً إلى أبعد مدى
رمالٌ جرداءُ مستويةٌ لا حدودَ لها.

ومن بين أكثر أمثولات «عُهدة النُّسّاك» شُهْرةً وطرافةً بكل تأكيد تلك التي تتعلق بالنساء. ولا بد أن هذه الأمثولات أضحكت القراء الذكور إذ ذكَّرتهم بحكاياتٍ طريفةٍ قد سمعوها من قبل. ويكمن سحر الأدب تحديدًا في هذا المدلول الخفي للأمثولات. كانت هذه القصص جزءًا من مجموعة «كتاب السندباد»، أي القصص المعادية للنساء. وهذا موضوعٌ إن لم يكن الأقدم في الفلكلور العالمي، فهو من أقدمها وأكثرها انتشارًا. ويبدو أن فكاهة بطرس ألفونسوس نفسه عن النساء تكمن في الالتباس حول الحرية التي تتصنع الجِدية ويسمح بها الأدب. فهو يتعمد القول في مقدمته، "لِتكُن هذه القصص المجموعة هنا وسيلةً لتذكير أهل المعرفة بما نسوه." ففي الحكاية التالية يُبْدي ألفونسوس مهارةً ممتعةً في التورية الثاقبة التي لا يمكن أن تكون عفوية.

الأمثولة العاشرة

غطاء الكتان

يُحكى أن رجلًا كان يعتزم الارتحال في رحلة طويلة فأودع زوجته عند حماته. وكانت زوجته تعشق رجلًا آخر، فأعلمت أمها. تساهلت الأم مع ابنتها وشجعتها، ودعت العشيق. جلست هي وهو وابنتها يأكلون. وبينما هم كذلك، عاد الزوج وطرق الباب. نهضت الزوجة، وخبأت العشيق، ثم ذهبت لتفتح الباب لزوجها.

وما إن دخل حتى طلب أن تجهزا له فراشه، لأنه كان متعبًا وبحاجة للراحة. ارتبكت المرأة، فلم تعرف ماذا تفعل، ولما رأت الحماة ارتباك ابنتها، قالت لها، "تريَّثي ولا تستعجلي في تجهيز الفراش لزوجك حتى نريه غطاء الكتان الذي صنعناه."

أخرجت العجوز غطاءً كتانيًّا ورفعت أحد طرفيه إلى أقصى ما تستطيع وأعطت طرفه الآخر لابنتها لترفعه. وهكذا تمكنتا من إلهاء الزوج إلى أن هرب العاشق المختبئ من وراء الغطاء الممدود.

عندئذٍ قالت المرأة لابنتها، "افرشي هذه الغطاء الذي صنعناه أنا وأنت بأيدينا على فراش زوجك."

قال الزوج لحماته، "وهل تعرفين يا سيدتي كيف تصنعين مثل هذا الغطاء؟"

فأجابته، "بل فعلتُ كثيرًا مثل هذا يا ولدي."(١٤)

انتقلت هذه الحكاية من «عُهدة النُّسّاك» إلى الحكايات الشعرية الهزلية وإلى ثِربانتس. وقد استمرت شعبيتها في الفُلكلور العربي حتى العصر الحديث، إذ توجد نسخة منها في التراث الشفوي المصري تعود إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر. وفيها تخبئ الزوجة عشيقها خلف قطعة من القماش، وبأخرى تعصب عيني زوجها الغيور، ثم تخبره ضاحكةً ضحكًا عنيفًا قصةَ زوجةٍ تفعل ما تفعله هي. لكن زوجها لا يرى ولا يسمع أي شيء بسبب ضحكها المُدَوّي وصراخه ومحاولاته البائسة للتفلُّت منها. ثم تواصل سرد قصتها وتقول إن الزوجة تنادي على عشيقها المختبئ، "انجُ بنفسك، أينما كنت! والنبي، انجُ بنفسك!" يفهم العاشق الحقيقي الإشارة ويهرب. وحين تُحل العصابة عن عيني الزوج أخيرًا، تسأله وهي لا تزال تضحك، "هل أعجبتك قصتي؟ انظر وراء القماش، لا يوجد شيء."(١٥)

إن قول الحق الذي يُراد به الباطل موضوعٌ شائع في الحكايات الشرقية المعادية للنساء. ففي أحد النماذج تروي الزوجةُ القصة الحقيقية كما لو كانت محضَ خيالٍ، كما في هذا المثال المصري، ولكن بينما العاشق مختبئ في صندوق. ويوجد في مجموعة «عُهدة النُّسّاك» مثالٌ على نموذج آخر يأتي مصاحبًا لحكاية "غطاء الكتّان." تروي الأمثولة التاسعة عن جانٍ للعنب يأتي إلى بيته فجأةً بسبب إصابةٍ في إحدى عينيه، فتغطي زوجته عينه السليمة بحجة أنها قد تفقد بصرها أيضًا ما لم تُحْمَ. وهكذا يتمكن عشيقها من المغادرة من غير أن يُرى. وبمعنى ما تجتمع هاتان الخدعتان المتشابهتان في الحكاية المصرية: فالزوجة تغطي عيني

(14) Jones and Keller, *op. cit.*, pp. 57-58.
(15) Artin Pacha, S. E. Y., *Contes populaires inédits de la vallée du Nil traduits de l'Arabe parlé*, Paris, 1895, pp. 195-200.

زوجها في واحدة، وتحجب رؤيته بوساطة القماش في الأخرى. ولعلهما كانتا في الأصل حكاية شعبية واحدة.

لا شك أن حكاية "غطاء الكتان" كانت معروفة لبطرس ألفونسوس من خلال ترجمةٍ لكتاب «هيتوپاديسا» [الهندي] الذي صار جزءًا من «كليلة ودمنة». وكان كلا العملين في متناول يده.

وأمثولات ألفونسوس الأخرى عن النساء مصدرها مجموعة «كتاب السندباد» التي تضم ما تفرع عنها من حكايات مثل «الحكماء السبعة»، «الأربعون وزيرًا»، وغيرها. وهذه الأمثولات هي "السيف" (الأمثولة رقم ١١)، "البئر" (الأمثولة رقم ١٤)، "الكلبة الباكية" (الأمثولة رقم ١٣). أما مصدر الأمثولة رقم ٣٥ عن الزوج الأعمى والعشاق المختبئين في شجرة الكُمَّثرى فلم يُحدَّد، ولكنه لم يتفرع عن الأصل الهندي لهذه القصة بل جاء من شرق المتوسط. وكل هذه صارت شائعة في الغرب كما هي في الشرق، وذلك بفضل مجموعة «عُهدة النُّسّاك». أما حكاية "السيف" فلنا معها لقاءٌ آخر في «ألف ليلة وليلة». وقصتا "السيف" و"البئر" أُعيد سردهما في مجموعة «ديكاميرون» (١٣٥٣) التي اعتمدت على ترجمة ألفونسوس، وهكذا دخلتا في صلب الأدب الأوربي منذ وقت مبكر. ومع أن "الكلبة الباكية" هي أصلًا جزءٌ من «عُهدة النُّسّاك»، إلا أن لها سيرةً مستقلةً في إنجلترا حيث تُعرَف باسم "السيدة سيرِث" وهي أقدم قصة شعرية ساخرة في الإنجليزية الوسيطة.

تبين القصص الثلاث التالية كيف تطورت أمثولات ألفونسوس القصيرة الموجزة المتماسكة فصارت قصصًا كلاسيكية مألوفة لدينا في الغرب. الأولى هي أمثولة البئر (رقم ١٤) التي أعاد صياغتها بوكاچيو، والتي يمكن للمرء أن يضيف إليها العديد من الحكايات المماثلة بما في ذلك تقرير صحفي من القرن التاسع عشر عن حادثة يُزعَم أنها حدثت حقيقةً في بلدة لُوْوِس في مقاطعة صَصِكْس الإنجليزية؛[١٦] والثانية هي أمثولة "الكلبة الباكية" (رقم ١٣) و«"السيدة سيرِثْ»؛ وأخيرًا، أمثولة "الأعمى والزُّناة الشباب" (رقم ٣٥) عن العشاق الذين يختبئون في شجرة الكمثرى، وهي الأمثولة التي تفرعت عنها قصة چُوسَر الشهيرة المشابهة "حكاية التاجر."

(16) Baring-Gould, *op. cit.*, 140-44.

الأمثولة الرابعة عشرة

البئر

كان هناك شابٌ كرَّس كل جهده وتفكيره ووقته لتعلم مكائد النساء الكثيرة، ولما كان له ذلك قرر أن يتزوج. ولكنه ذهب أولًا لطلب المشورة من أحكم حكماء تلك المنطقة، وسأله عن أفضل طريقة يحمي بها المرأة التي يريد أن يتزوجها.

ولما سمع الحكيم سؤاله نصحه أن يبني دارًا ذات أسوارٍ حجريةٍ عاليةٍ، وأن يضع زوجته فيها، وأن يعطيها كل يومٍ كفاف يومها من الأكل والملابس، وألا يجعل للدار إلا بابًا واحدًا ونافذة واحدة يمكنها أن تنظر من خلالها، وأن تكون النافذة من الارتفاع والهيئة ما يحول دون دخول أحد أو خروجه. أخذ الشاب بنصيحة الحكيم ونفذها بحذافيرها. فكان يقفل الباب حين يغادر منزله صباحًا وحين يعود؛ وحين ينام كان يضع المفاتيح تحت وسادته. وظل على هذه الحال زمنًا طويلًا.

ولكن الشاب ذهب إلى السوق في يومٍ من الأيام، فذهبت زوجته إلى النافذة كعادتها لمراقبة القادمين والذاهبين. وبينما هي عند النافذة رأت شابًا ممشوق القوام، بهيَّ الطلعة، فوقعت في غرامه فورًا. صارت المرأة تتلظى بنار الغرام، ولأن عليها حراسةً شديدةً، كما ذكرتُ من قبل، راحت تفكر في حيلة تمكنها من التحدث مع عشيقها الشاب. ولأنها ذكية وماكرة قررت أن تسرق المفاتيح من زوجها وهو نائم، وهكذا فعلت.

فصارت في كل ليلةٍ تسقي زوجها خمرًا حتى يسكر وتتمكن هي من الذهاب إلى عشيقها وتفعل ما تشاء. كان الشاب قد تعلم من الحكماء أن جميع أفعال النساء فيها مكرٌ ومكيدةٌ، فراح يتساءل لماذا تسقيه زوجته خمرًا كل ليلة. ولكي يراقبها تظاهر بالسُّكْر. لم تكن الزوجة تدرك ذلك، فنهضت وخرجت من السرير، وتوجهت نحو الباب، وفتحته، وخرجت لملاقاة عشيقها.

نهض الزوج بصمتٍ في الظلام، ثم أغلق الباب بالمفتاح، وتوجَّه إلى النافذة وظل ينتظر إلى أن رأى زوجته عائدةً بثياب نومها. وحين رجعت ورأت الباب مغلقًا انتابها قلقٌ شديدٌ، لكنها مع ذلك طرقت الباب. تظاهر زوجها بأنه لا يعلم شيئًا، مع أنه كان يراها ويسمعها، فسأل: من الطارق؟ توسلت إليه ليصفح عنها ووعدت ألا تعود إلى فعلتها ثانية، ولكنها باءت بالفشل إذ ردَّ عليها زوجها غاضبًا بأنه لن يُدخلها بل سيُعْلِم والديها بفعلتها. ولكن بكاءها تعالى وهي تقول إن لم يفتح لها الباب ستلقي بنفسها في البئر القريبة من البيت وتُنهي حياتها،

وعليه حينئذٍ أن يُعَلِّل سبب موتها لمحبيها وأهلها. بيد أن الزوج تجاهل تهديداتها ولم يسمح لها بالدخول.

التقطت المرأة الذكية الماكرة حجرًا وألقته في الجُبِّ، وحين سمع زوجها سقوط الحجر في الماء ظن أنها ألقت نفسها في الجب. فعلت هذا واختبأت وراء الجب.

حين سمع الزوج الغارُّ الغافلُ ارتطام الحجر بماء الجب ظن أنه فعلًا سمع زوجته تسقط في البئر، فاندفع من فوره من المنزل قاصدًا البئر. أما الزوجة الماكرة فحين رأت الباب ينفتح، دخلت المنزل، وأغلقت الباب بالمفتاح، وذهبت إلى النافذة.

ولما رأى الزوج المخدوع ما جرى، قال لها، "أيتها الماكرة مكرَ إبليس، أدخليني وسأغفر لك كل ما فعلته بي."

راحت زوجته تكيل له الشتائم والإهانات، ورفضت إدخاله، قائلةً، "أيها الخائن الماكر، بما أنك تتسلل كل ليلة وتتركني لتزور المومسات، فسأفضح شرَّ أعمالك لوالديك." وهذا ما فعلته حقًا. فوبَّخه والداه توبيخًا شديدًا إذ صدَّقا قولها. وهكذا تمكنت بمكرها أن تجعل اللوم الذي تستحقه هي يقع على زوجها الذي لم يجنِ شيئًا من حرصه الزائد على زوجته. بل خسر الشيء الكثير، إذ حدثت له الكثير من المصائب: فقد ارتأى كثيرون أنه يستحق ما جرى له، وهكذا تسبب افتراء زوجته عليه في حرمانه من ماله وضياع كرامته وخراب سمعته، فأُقيم عليه حدُّ الزنا.(١٧)

ديكاميرون

(الليلة السابعة، الحكاية الرابعة)

كان في مدينة أريتسو رجل غني يُدعى توفانو، فتزوج سيدة جميلة جدًا تُدعى الآنسة غيتا، وصار يغار عليها غيرةً شديدةً لا يعرف لها سببًا. وحين علمت الزوجة بهذا الأمر امتعضت أيما امتعاض، فسألته مرة بعد أخرى عن سبب غيرته، لكنه عجز عن إعطائها أي سبب إلا في إطار العموميات، ولذلك خطر لها أن تُهلكه بالمرض الذي يخشاه بلا مُسوِّغ. ولما كانت تعرف أن هناك شابًا تعجبه ويعجبها، شرعت في التوصل إلى تفاهم سري معه، وهكذا تطورت الأمور بينهما إلى حدٍّ يتطلب أن تتحول فيه الأقوال إلى أفعال، فراحت تبحث عن وسيلة لتحقيق ذلك. وكما مر معنا من قبل، كان من بين مساوئ زوجها الأخرى

(17) Jones and Keller, *op. cit.*, pp. 64-66.

أنه كان يُكثر من الشُّرب، فراحت تشجعه، بل صارت في غالب الأحيان تتحايل عليه لتجعله يَسْكر. صارت هذه عادةً لديه حتى أنه كلما طاب لها، سقته حتى الثُّمالة، وكانت تضعه في فراشه كلما سَكِر. كانت في البداية تلتقي بعشيقها سِرًّا. وبمرور الوقت شجعها سُكْرُ زوجها على دعوة زِيْرِها إلى البيت، لا بل راحت تمضي جزءًا كبيرًا من الليل في بيته الذي لم يكن بعيدًا من بيتها.

ظلت السيدة الولهانة على هذه الشاكلة إلى أن انتبه زوجها البائس الذي لاحظ أن زوجته كانت تشجعه على الشُّرْبِ بينما هي لا تشرب. فساوره شكٌّ أنه ربما كانت تدفعه للسُّكْر كي تفعل هي ما يحلو لها في أثناء نومه، وكان شكُّه في محله. لذلك أراد أن يتيَّقن من الأمر، فتظاهر ذات أمسية لم يشرب فيها أنه أثملُ رجلٍ على وجه البسيطة، قولًا وفعلًا. وضعته زوجته في سريره وانصرفت هي إلى بيت عشيقها. وما إن علم توفانو أن زوجته غادرت المنزل حتى نهض وأغلق الأبواب من الداخل. ثم راح يراقب من النافذة لعله يراها حين تعود ويخبرها بأنه مُطَّلِعٌ على صنائعها، وظل رابضًا في مكانه إلى أن عادت. وحين عادت الزوجة ووجدت الباب أُغلق دونها انتابها كَرْبٌ شديدٌ وراحت تحاول فتح الباب بالقوة، فتركها توفانو على هذه الحال ساعةً من الزمن، ثم قال لها، "إنك تُرهقين نفسك بلا طائل، يا زوجتي، لأنك لن تعودي إلى هذا المكان مرة أخرى أبدًا. عودي إلى حيث كنت حتى الآن، واطمئنّي أنك لن تعودي إلى هنا حتى أكون قد أديتً إليك، بخصوص هذا الأمر، ما يليق بك من واجب التكريم بحضور أهلك وجيرانك."

راحت الزوجة تتوسل إليه أن يفتح لها الباب كُرْمى لله وتقول له إنها لم تكن حيث يظن، بل كانت عند إحدى جاراتها التي تتهجَّد معها ليلًا، حيث إن الليالي طويلة لا تستطيع أن تقضيها كلها في النوم ولا أن تصلي قيام الليل وحيدةً. غير أن توسلاتها راحت سُدىً، إذ قرر زوجها المتوحش أن يُطْلِع الأريتسيين على فضيحتها التي لم يعلم بها أحد حتى الآن. وحين رأت الزوجة أن توسلاتها لم تُجْدِ، لجأت للوعيد قائلة، "إن لم تفتح الباب لي، فسأجعل منك أتعس إنسانٍ على قيد الحياة." فسألها توفانو، "وماذا يمكنك أن تفعلي لي؟" ردت السيدة تيسا التي كان العشق قد شحذ عقلها بمشورته، "بدلًا من أن أتحمل العار الذي تريد أن تُلحقه بي زورًا وبهتانًا، سأُلقي بنفسي في البئر القريبة من هنا. وحين أموت لن تجد من يُصَدِّق أنك لم تُلقني في البئر وأنت ثمل، وحينها ستضطر للهرب وتخسر كل ما تملك وتعيش في المنفى أو يُقطَع رأسُك لأنك قاتلي، وهذا ليس افتراءً."

ولكن هذه الكلمات لم تفلح في جعل توفانو يتراجع عن نيته الجهنمية، فقالت له، "أصغِ إليَّ الآن: لم أعد أحتمل مضايقتك لي، عفا الله عنك. انظر، إنك تدفعني لأن أترك مغزلي هنا." كان الظلام دامسًا لا يستطيع أحد أن يرى غيره في طريقه، فتوجهت نحو البئر، وأخذت حجرًا كبيرًا، وصاحت "غُفرانَك، يا رب،" ثم ألقت الحجر في الماء. وحين وقع الحجر في الماء أحدث ارتطامًا عظيمًا ظن توفانو لما سمعه أن زوجته ألقت بنفسها في البئر. فالتقط الدلو والحبل واندفع من المنزل نحو البئر لينقذها. ولكن السيدة التي كانت تختبئ قريبًا من الباب ما إن رأته يعدو نحو البئر حتى تسللت إلى المنزل وأغلقت الباب، واتجهت نحو النافذة، وهي تقول له، "عليك أن تخفف خمرك بالماء قبل أن تشربه، وليس لاحقًا ولا ليلًا." ولما سمع توفانو قولها أدرك أنه دُهِي به وعاد إلى الباب، ولكنه لم يستطع فتحه، وراح يأمرها أن تفتحه. ولكنها تركته وهي تتمتم بصوت خافت، كما فعلت حتى الآن، بيد أنها راحت تصرخ وتقول، "قسمًا بالمسيح وصليبه، إنك لمُخَبَّل مُضجِر، ولن تدخل البيت هذه الليلة، إذ لم أعُد أُطيق أفعالك هذه، لذلك عليَّ أن أُري حقيقتك للناس وفي أي ساعة تعود إلى البيت ليلًا." من جهته، اسشاط توفانو غضبًا وراح يشتمها ويصرخ. ولما سمع الجيران هذه الضجة استفاقوا وجاؤوا إلى النافذة رجالًا ونساءً ليستطلعوا الأمر. فقالت السيدة باكيةً، "إن زوجي التعيس هذا يأتيني ثملًا كل مساء أو ينام في الحانات ثم يعود إلي في هذه الساعة، وقد عانيت من هذا الأمر طويلًا، ولكنني لم أعد أطيق صبرًا، حيث لم يُجدِ الصبر، لذلك قررت أن أفضحه وأن أغلق الباب دونه لعله يصطلح أمره."

أما توفانو فقد أخبرهم، كالمغفَّل، بحقيقة الأمر، وتوعد بأن يُشبعها ضربًا، لكنها قالت للجيران، "تفضلوا وانظروا أي رجل هذا! ماذا كنتم تقولون لو رأيتموني أنا في الشارع مثله ورأيتموه هو في البيت مثلي؟ قسمًا بالله ودينه، لا أظن أن أحدًا منكم يصدق أنه قال الحق. ولكم أن تحكموا على عقله من خلال هذا الأمر: لقد اتَّهمني بما أظن أنه قد فعله هو. لقد ظن أنه يمكن أن يخيفني بقذف شيء لا أعلمه في البئر، وإنني أتمنى من الله لو ألقى بنفسه فعلًا وأغرق نفسه لعله بماء البئر يخفف الخمر الذي شربه حتى الثمالة." وراح الجيران، رجالًا ونساءً، يلومون توفانو ويُخطِّئونه ويوبخونه على تُهَمه للسيدة. ولم يمض إلا وقت قصير حتى انتشر الخبر من جارٍ إلى آخر حتى وصل أخيرًا إلى أسماع أهل السيدة الذين جاؤوا وسمعوا الأخبار من هذا الجار وذاك، فأخذوا توفانو وأشبعوه ضربًا حتى تكسر كل عظم في جسده. ثم دخلوا البيت وأخذوا أمتعة السيدة وأخذوها معهم، وهم يتوعدون توفانو بالويل والثبور

وعظائم الأمور. وحين وجد توفانو نفسه في أسوأ حال، ورأى أن غيرته أوصلته إلى مآلٍ سيئ، ولما كان يحب زوجته من كل قلبه، جلب عددًا من الأصدقاء ليتشفعوا له، وهكذا تصالح معها وصارت معه في بيته مرة أخرى، وقد وعدها ألا يغار أبدًا ثانيةً. بل سمح لها أن تفعل ما يحلو لها شريطة أن تتكتّم على الأمر بحيث لا يتناهى إلى علمه منه شيءٌ. وبهذه الطريقة تصالح المغفَّل المعتوه مع زوجته بعد أن لاقى الأمرَّين. لذلك، عاش الحب، والموتُ للحرب وأهلها![١٨]

الأمثولة ١٣

الكلبة الباكية

يُحكى أن رجلًا نبيلًا كانت عنده زوجةٌ جميلة وعفيفة جدًّا، فأراد أن يذهب إلى روما للصلاة في الأماكن المقدسة، ولم يكن يريد أن يترك حاميًا لزوجته سوى نفسها، إذ كان يثق بأخلاقها الطاهرة وشرف استقامتها. وحين أصبحت الحاشية جاهزة، غادر وبقيت الزوجة تعيش عيشة عفيفة وتتصرف بتعقُّل في كل الأمور.

واتفق أن احتاجت شيئًا، فغادرت منزلها وذهبت إلى منزل مجاور. وحين انتهت من شغلها وعادت إلى بيتها، رآها شابٌّ وهام بها عشقًا جنونيًا. وراح يذوب شوقًا إليها ويرغب في أن تبادل حبه بحبها له، فصار يرسل إليها رسائل عديدة. ولكنها رفضت رسائله وصدَّته تمامًا.

مرض الشاب مرضًا شديدًا لما أضناه الحزن ورأى نفسه منبوذًا محتقَرًا من قِبَلها. لكنه ظل يتردد على المكان الذي رأى سيدته تغادره لعله يلتقيها، ولكن من غير جدوى. فصار يبكي من الوجد، وقابل عجوزًا تلبس ملابس راهبة، فسألته عن سبب شقائه. لكن الشاب لم يكن متحمسًا ليُفصح عمّا يشغل باله.

قالت له العجوز، "كلما تأخر المريض في الإفصاح عن مرضه للطبيب، طالت معاناته من المرض."

ولما سمع قولها، قصَّ عليها ما جرى له وأخبرها بسره.

فقالت له العجوز، "بعون الله، سأجد علاجًا لِما أخبرتني به."

ثم تركته وعادت إلى بيتها. وكانت عندها كلبةٌ صغيرة، فجوَّعتها مدة يومين. وفي اليوم

(18) Boccaccio, Giovanni, *The Decameron*, trans. John Payne, New York, 1931, pp. 333-35.

الثالث أعطت الكلبةَ الجائعةَ خبزًا مخلوطًا بالخردل، ولما أكلت الكلبة الخبز صارت عيناها تدمعان من حِدَّة الخردل. ذهبت العجوز بالكلبة إلى منزل السيدة العفيفة التي يعشقها الشاب، واستقبلتها السيدة بكل احترامٍ بسبب مظهرها المتدين جدًّا. كانت الكلبة الصغيرة تتبع العجوز، وحين رأتها السيدة تبكي، سألتها عن الأمر وعن سبب بكائها.

فقالت لها العجوز، "لا تسألي، يا صديقتي العزيزة، عن الأمر. فحزني كبيرٌ لا أكاد أقوى على الحديث عنه."

توسلت إليها السيدة بتحمس أكبر من ذي قبل. فقالت العجوز، "إن هذه الكلبة الصغيرة التي ترينها كانت ابنتي، وكانت عفيفة ومحتشمة جدًا، وقد عشقها شاب، ولكنها كانت عفيفةً جدًا فرفضته وصدَّته. ومرض الشاب مرضًا شديدًا لمّا أضناه الوجد. وبسبب خطيئتها، مُسِخَت ابنتي الشقية وصارت هذه الكلبة الصغيرة." انتهت العجوز من كلامها، وانهمرت دموعها غزيرة.

عندها قالت السيدة العفيفة، "قولي لي، يا سيدتي العزيزة، ماذا أفعل. فأنا مُذنبةٌ بجُرمٍ مماثل: هناك شاب يعشقني، ولكن حبي للعفة جعلني أزدريه، فَمَرِضَ عاشقي كذلك."

"صديقتي العزيزة، أنصحك أن تُشفقي عليه بأسرع ما يمكن، وافعلي ما يطلبه منك لئلا تُمسخي كلبةً كما مُسِخَت ابنتي. لو علمتُ بالعشق الذي بين ابنتي وبين الشاب، لَمَا مُسِخَت ابنتي."

قالت المرأة العفيفة للعجوز، "أرجوك، أشيري عليَّ مشورةً سديدةً لئلا أُمسَخ كلبةً صغيرةً أو تُسلَب مني هيئتي."

قالت العجوز، "بكل سرور. سأبحث عن الشاب، وآتيك به إن وجدته، إكرامًا لوجه الله ولخلاص روحي وإشفاقي عليك."

شكرتها المرأة، ووفت العجوز الماكرة بوعدها وأحضرت الشاب كما وعدت، وجمعتهما معًا.(١٩)

السيدة سِيْرِث

بينما كنت أسير في طريقي سمعتُ قصةً عن رجلٍ رقيقٍ مفعمٍ بالحيوية، وكان ذكيًا وعالمًا ووسيمًا وأنيقَ الملابس. أحب امرأة متزوجة، وما كان له أن يفعل. أخذ حبُّها بشغاف قلبه، فلم يعرف طعم الراحة. لقد أحبها حبًّا شديدًا.

(19) Jones and Keller, *op. cit.*, pp. 61-63.

فكَّر مليًّا في وسيلة تمكِّنه من نيل وطره. واتفق أن زوجها سافر للتجارة ذات يوم. ذهب العاشق إلى البيت الذي تعيش فيه محبوبته، وكان بيتًا جميلًا. ثم دخل البهو حيث كانت تقف في أبهى ملابسها، فبادرها قائلًا، "تبارك العليُّ القدير."

فردت عليه الزوجة، "مرحبًا بك ترحابَ مَنْ ترجو الفرح دومًا. إن شئت، تعال واجلس، يا عزيزي، وقل لي ما تريد. فَوَرَبِّنا، ملك السماوات، إن كان بمقدوري أن أفعل أي شيء لإرضائك، فستجدني كريمةً جدًا. سأفعل ما بمقدوري من أجلك بكل سرور وبلا حرج."

"جزاك الله خيرًا، يا سيدتي. سأخبرك بشأني ما لم تشي بي أو تغضبي. ولكنني أكره أن أُغضبك بسببي."

"لا، على الإطلاق، يا وِلِكِنْ. لن أبخل عليك بأي شيءٍ كان لي في يوم من الأيام ما دمتَ بحاجة إليه. فأنا لا أعرف البخل ولا أنوي أن أتعلمه. يمكنك أن تقول ما تشاء، وسأجلس وأُنصت لك بينما تقص عليَّ حاجتك. وكن على يقين أنني سألبي مطلبك إن كان على الحق. وحتى لو قلت ما هو مُعيبٌ فلن ألومك على قوله."

"أمَا وقد أذِنْت لي، فمن الإجحاف أن أكون شقيًا. من المؤكد أنك، يا سيدتي، تتحدثين في غاية الكرم واللباقة، لذلك سأدخل في لب الموضوع وأخبرك بكل ما أريده، ولماذا أتيتك. لستُ ممن يلفقون الأكاذيب، ولن أفعل. لقد أحببتُك عددًا من السنين، على الرغم من أنني لم آتِ من قبل لأبدي لك حبي. فحين يكون زوجك في البيت، لا يستطيع المرء أن يتحاور معك بهدوء ولباقة. وبينما كنت أسير في الطريق يوم أمس سمعت أن زوجك ذهب إلى السوق في بوسطن في لِنْكِنْشَر. ولأنني علمت أنه خارج المنزل، تجشَّمت عَناء الحديث معك. فما أسعد من يملك امرأةً كهذه في السر. فإن وافقتني، سيدتي، سأحبك بسرية وكتمان."

"لا وربنا، ملك السماوات، الذي فوقنا ما أنا فاعلةٌ هذا أنّى كانت الأسباب! إن سيدي هو زوجي الذي جلبني إلى بيته عذراء مُعَزَّزة مُكرَّمة. وهو يحبني وأنا أحبه. إن حبنا كالفولاذ بلا شك. ومع أنه غائب عن البيت لبعض شأنه، فمن الحماقة أن أتعلَّم أن أكون عاهرة. لن يحدث أبدًا أن أخونه في فراشه أو في بيته. وما دام حيًّا، حتى وإن كان بعد روما بمئة ميلٍ، فلن أتخذ غيره شريكًا لحياتي على هذه البسيطة، أيًّا كانت الأسباب، قبل أن يعود إلى بيته."

"سيدتي، سيدتي، غيِّري موقفك. لقد كنتِ دومًا كريمةً، وستظلين كذلك. أستحلفك بالله الذي خلقنا أن تغيري موقفك ورأيك وأن ترحميني."

"ويْحَكَ، أتظنني حمقاء؟ إني واثقةٌ ثقتي بعيد الميلاد أنك سخيف. لن تُفلح في تغيير رأيي. إن زوجي رجلٌ جوادٌ كريمٌ ذو مال. وأنا زوجةٌ صالحةٌ وفيةٌ. ولا توجد امرأة أشد وفاءً مني. ولن يأتي اليوم الذي أقترف فيه الخِزيَ إما بالإغراء وإما غرورًا."

"رُحماكِ، يا حُلوتي! أنا لا أعرض عليك الخزي والعار، بل الحب بالسر من رجلٍ يريد أن ينعم بالحب ويجد السعادة."

"وحقِّ مَن قسم لي الطعام والشراب، إنك تضيع جهدك هنا. والأجدر بك هو أن تعود إلى بيتك، يا أخي العزيز، لأنني لا أريد حبك أو حب أي إنسان آخر سوى زوجي، وإني لا أجد غضاضةً في قول هذا لك."

"هذا يؤسفني حقًا، يا سيدتي. ما أتعس من سعى جاهدًا وخاب سعيه في النهاية، ولا مناص له من الشكوى. هكذا هي حالي وأنا مَن أحببت الحب الذي عليَّ أن أضيعه. والآن، وداعًا، يا سيدتي. وعسى الله الذي بيده حُكم كل شيء أن يغير رأيك لعلّي أكفُّ عن التفجُّع عليك!"

ثم ارتحل مهمومًا مغمومًا، وراح يقضي ليله ونهاره يفكر في طريقة تغير رأيها. فنصحه صديق أن يكف عما هو فيه من همٍّ عظيمٍ ويذهب لرؤية السيدة اللطيفة سيرِث. فتوجَّه إليها من فوره بأسرع ما يمكن، ولم يلتقِ أحدًا في طريقه. كان مثقلًا بالهم والغم. فحيّاها بلباقةٍ وبكلمات رقيقة لا تخلو من مكرٍ كذلك.

"باركك الله، يا سيدة سيرِث. لقد أتيت لأتحدث إليك بدافع الحاجة الشديدة. فإن ساعدْتِني ستنالين مكافأة عظيمة، كما سترين."

"أهلًا بك، يا ولدي العزيز. إن عرفتُ أو استطعتُ فعلَ شيء من أجلك بأي طريقة فإني سأبذل قصارى جهدي. فهيّا، يا ولدي العزيز، أخبرني بحاجتك."

"أريد دواءً، أيتها العجوز العزيزة؛ فأنا في أبأس حال، تُثقلني التعاسة والهموم:

بِالهَمِّ أحيا حياتي
بسبب زوجةٍ حلوة
اسمها مارْجَري
لقد أحببتُها دهرًا
لكنها عن حبي مُعْرِضة

لأجل هذا جئتك إلى هنا
فما لم تتغير وتتلاطف معي
سأفقد صوابي من الحزن
أو ألاقي حتفي.
كنت أفكر في قتل نفسي
ولكن صديقًا دلني عليك
لأكشف لك عن همّي وغمّي.

"لقد قال لي إنك حتمًا ستساعدينني وتخرجينني من الغم بمكرك وحيلك. وسأكافِئُك مكافأةً ثمينةً إن استطعتِ ذلك."

"اللهم أنْزِل علينا بركاتِك! لقد أثمتَ، يا بني، في هذا إثمًا عظيمًا. إني أسأل الله باسمه الكريم ألا ينجّيك من خِزي ما قلت. ستبوء بغضب الله إن أنتَ أنحيتَ باللائمة عليَّ، فأنا امرأة عجوز ومريضة ومشلولة. لقد روَّضني المرضُ تمامًا. معاذَ الله، معاذ الله، يا ولدي العزيز، أن تهلك بسبب هذه الفِرية التي لُفِّقت عني وأنا المثقلة بالهموم. فأنا امرأة تخاف ربَّها، ولا أعرف شيئًا عن السحر، بل لا أعرف إلا الصدقات التي يجود بها الطيبون. وأنا أعيش كلَّ يوم بيومه، وأردد الأذكار والتسابيح لعل الله يكون في عونهم إن احتاجوه. أسأل الله أن يوفق كلًّ من ساعدني على تدبير معيشتي. وسوَّد الله وجهَ من أرسلك إلي في هذا الأمر، وأسأله أن ينتقم لي مِمَّن تَفَوَّه عني هذا الإفكَ الشائن."

"أيتها العجوز العزيزة، كُفّي عن هذا السخف. فالرجل الذي دلَّني عليك يعلم أن باستطاعتك لَمَّ شملِ الأحِبَّة. يا سيدة سيرِث، ساعديني إن استطعتِ على استرضاء حبيبتي، وسأعطيك أعطيةً مجزيةً حقًّا من المال والملابس والأحذية الشتوية إن سارت أموري على ما يُرام. ستتباهين بثروة دائمة إن ساعدْتِني."

"لا تكذب عليَّ يا وِلِكِن. أَستحلفكَ بإخلاصك، هل أنت صادق؟ هل حقًّا تحب السيدة مارجري؟"

"أجل، أيتها العجوز، إني أحبها، أحبها. وقد يصيبني مكروه ما لم أُقنعْها بفعل ما أريده منها."

"حسنٌ، يا وِلِكِن الطيب، إني أأسف لمصابك، وأسأل الله أن يُفَرِّج عنك قريبًا. لو أيقنتُ أن الأمر لن يُعرَف، لكان من الخير أن أساعدك على نيل مرادك بوسائلك الخاصة. عِذْني، بل

أَقْسِم لي، أنك ستُبقي الأمر سرًّا، وسأرى إن كان بإمكاني إخبارُها، لأني لا أريد ولو مُلِّكْتُ الدنيا أن يُؤتى بي إلى الكنيسة من أجل هذه الأشياء، حيث، وا خجلتاه، سيُحكَم عليَّ في الحال بركوب حمارٍ يسوقه الكهنة ورجال الكنيسة."

"بكل تأكيدٍ، أيتها العجوز، لا أريد أن تُساء معاملتُك أو يلحق بك عارٌ لحسن صنيعِك معي. وها أنا أعدك وعدَ صدقٍ أنني سأفعل ما بوسعي لإبقاء الأمر سرًّا، وحقِّ الصليبِ المقدس."

"على الرحب والسعة، يا وِلكِن! ها قد وعدتَ وعدًا قد يسرُّك سرورًا عظيمًا. بإمكانك أن تمجِّد هذه اللحظة لأنك ستسعد أيّما سعادة، وتودِّع الآهات. إنه من حُسْن حظِّك أنك أتيتَ إليَّ لأنني سأذهب إليها مباشرةً وأُقنعها. سألقنها درسًا يجعلها تحبك أكثر من أي رجل آخر في البلاد."

"لقد أحسنتِ القول، يا سيدة سيرِث، راجيًا أن أنال رضا الله، وستنالين مكافأة طيبة. وهذه عشرون شِلْنًا أُعطيك إيّاها كي تشتري بها لنفسك أغنامًا وخنازير."

"وحقِّ مَن جعلني أرجو أن يكون لي سقفٌ فوق رأسي وأرضيةٌ تحت قدميَّ، ليس هناك من مَصْرِفٍ أفضل لهذه النقود، وسأنفذ الأمر بحيلةٍ بارعة، كما سترى.

"[مخاطبةً الكلبة] سأجعلكِ تأكلين الفلفل والخردل حتى تدمع عيناك! إني أعلم في أي زمان وأي مكان يمكنني أن أكذب كذبةً عن عينيك الدامعتين."

"وما الذي ستفعلينه الآن؟ لا بد أنكِ جُننتِ؟ أتطعمين الخردل للكلبة؟"

"اخرس، أيها الأحمق! بهذه الحيلة سأجعل حبها ينصرف كله إليك. لن يرتاح لي ضميرٌ أو يهدأ لي بالٌ حتى أخبرك بما ستفعل. انتظرني هنا حتى أعود."

"قسمًا بزهرة الصيف لن أبرحَ هذا المكان حتى تعودي."

انطلقت السيدة سيرِث مثل مخلوقةٍ تعيسة حتى جاءت إلى منزل الزوجة. وحين وصلت إلى الباب، راحت تتكلم كلامًا يثير الشفقة.

"ربّاه، ما أتعس العجائز اللاتي يعشن في فقرٍ دائمٍ. لا يعرف أحدٌ بؤس العيش مثل امرأةٍ مُعْوِزةٍ. والكل يستطيع أن يرى هذا فيَّ، فأنا لا أستطيع المشي ولا الجلوس. أتمنى لو أنني متُّ. لقد قتلني الجوع والعطش والبرد إلى درجة تُعجِزُني عن تحريك أيٍّ من أطرافي. فما نفع العيش لمخلوق تعيس مثلي؟ لماذا لا يأخذ الله روحي؟"

"فرَّج الله عنك، أيتها المرأة الطيبة. سأتيك بطعامٍ اليوم، كُرمى لله. أنا آأسف لتعاستك، وبإمكاني أن أرى بؤس حالك وملابسك. هيا ادخلي لأطعمك."

"جزاك الله العليُّ العظيم خيرًا، وجزاك الربُّ الذي عُلِّق على الصليب وصام أربعين يومًا حتى الظهر، ومَن له حُكْمُ السماوات والأرض. جزاك ذاك الإله."

"تناولي هذا اللحم والخبز، وقَرّي عينًا، وإليك بكأس الشراب هذه."

"جزى الله سعيَك بكل خير" قالت العجوز، لعنة الله عليها. "واحسرتاه، واحسرتاه، ما أبأس عيشتي. أمَا من رجلٍ يقطع رأسي ويخلصني من عيشتي وأنا أغفر له هذا الوزر؟"

"ما خطبُك، أيتها المرأة الطيبة؟"

"وا أسفاه، لقد كانت لي ابنةٌ جميلةٌ فاضلةٌ لا توجد فتاةٌ تضاهيها جمالًا. وكان لها زوج في غاية اللطف والدماثة لا يفضُله أحدٌ في الكرم. وقد أحبته ابنتي حبًّا جمًّا، وهذا هو سبب تعاستي. فخرج ذات يومٍ، وكان هذا سبب الخزي الذي لحق بابنتي. قام برحلة خارج المدينة، فجاء إلى ابنتي عالمٌ بارعٌ من رجال الكنيسة وعرض عليها حبه، فأبت أن تلبي مطلبه. ولم يجد إلى مطلبه أي سبيل، فراح يُعمِل سحره ومسخ ابنتي كلبةً. وهذه الكلبة التي ترينها هي ابنتي التي أقص عليك قصتها. وقلبي ينفطر من الحزن عليها. انظري كيف تدمع عيناها على خديها. فلا تعجبي يا سيدتي إنْ انفطر قلبي. وما أبأس المرأة الشابة التي يعرض عليها العالمُ حبه ما لم تذعن وتستجب لمراده."

"يا ربّي المسيح، ماذا أفعل؟ لقد جاءني منذ أيامٍ عالمٌ وعرض عليَّ حبه بطريقته الخاصة، ولم أُعِرْه أي اهتمامٍ. أظن أنه سيمسخني. بِمَ تشيرين علي، أيتها العجوز، لكي أنجو؟"

"ليكن العليُّ العظيم في عونك لكيلا تصبحي كلبةً أو جروًا. سيدتي العزيزة، إن عرض عليك طالب علمٍ حبه، فأنصحك أن تلبي مرادَه وتكوني عشيقته فورًا. وما لم تفعلي، فبئس ما اخترتِ."

"يا ربي المسيح، وا أسفاه لقد ارتحل العالم قبل أن أُمكِّنه من نفسي. إني على استعدادٍ لإعطاء أي شيء لكي ينام معي مرة واحدة ويقضي وطره فورًا. سأكون مدينةً لك إلى الأبد، أيتها العجوز، لو أحضرتِ إليَّ وِلِكِن العالِمِ الذي حدثتك عنه، وسأُهدي إليك هدايا ستُحيل حياتك إلى نعيمٍ مقيم، وحقِّ جَرَس الله."

"لو أيقنتُ، أيتها السيدة اللطيفة، أن بإمكاني أن أفعل ذلك من غير أن يُلقى باللومِ عليَّ، سيكون من دواعي سروري أن أحاول. ولن أتردد في ذلك لو قابلتُه في أي مكان. طاب يومُك، يا سيدتي. أنا ذاهبة."

"افعلي ما طلبتُه منك في كل الأحوال. فما لم تأتِني بولِكِن، فلن يهنأ لي عيشٌ بضحكٍ أو غناءٍ أو سرورٍ!"

"تأكدي، يا سيدتي، أنني سآتيك به اليوم إن لم يخِب مسعاي."

فذهبت إلى بيتها ووجدت ولِكِن، وعزَّةِ ربِّنا!

"طِبْ نَفْسًا، يا ولِكِن اللطيف، لقد أفلح مسعاي معها. فهيا أسرعْ معي إليها لأنها طلبتْك. لك أن تفرح الآن فرحًا لا شك فيه."

"أسأل الله، ملك السماوات والأرض، أن يجزيك خير الجزاء، أيتها العجوز العزيزة!"

ذهب هذا الشاب اللطيف مع السيدة سيرِث إلى محبوبته في تلك اللحظة.

شرعت السيدة سيرِث تقول للفتاة وتقسم بجرس الله أنها وجدت ولِكِن. "سيدتي، لقد اجتهدت في البحث عن وِلِكِن حتى وجدتْه وأحضرته إليك."

"أهلا بك، يا وِلِكِن، يا أيها الرجل اللطيف. إنك موضعُ ترحيبٍ أكثر من الملك. وِلِكِن، أيها الحبيب، أعدك بالوصل وبتلبية كل رغباتك. لقد غيرت رأيي لأنني لا أريدك أن تموت أبدًا."

"سيدتي، وحقِّ مَن جعلني أرجو الظهيرة، أنا مستعدٌ وتوّاقٌ لفعل كل ما تقولين. أما أنت، أيتها العجوز، فأستحلفك بالله أن تذهبي كي نمتع أنفسنا أنا وهي."

"هذا علمه عند ربي. سأرتحل، ولكن أوصيك أن تحرثها حرثًا وأن تفرش فخذيها فَرْشًا. لا نجّاك الله من الغمِّ إن استبقيت شيئًا منها وأنت معها. وما لم يستطع الأحمق نيل وطره من محبوبته بأي ثمن، فسأجعله ينجح، إن دفع لي، لأني أعرف الوسيلة إلى ذلك."[٢٠]

الأمثولة ٣٥

الأعمى والشاب الزاني

في قديم الزمان كان هناك رجل أعمى وكانت عنده زوجة جميلة جدًا. وكان شديد الحرص والغيرة عليها. وذات يومٍ كانا في بستانٍ تحت ظل شجرة كُمِّثرى، فصعدت إلى الشجرة بموافقته لقطف الثمار. ارتاب الرجلُ من الأمر، فطوَّق جذع الشجرة بيديه لكيلا يصعد أحدٌ آخر إلى الشجرة بينما زوجته فيها.

ولكن الشجرة كانت لها فُروعٌ كثيرة، وكان شابٌّ قد تسلق الشجرة من قبل واختبأ فيها بانتظار زوجة الضرير. التقيا بفرحٍ عظيمٍ وراحا يلعبان لعبة ڤينوس. وبينما هما كذلك، سمع الزوج الضرير أصواتها، فأدرك حقيقة ما يجري، فراح يصرخ وهو يتألم ألمًا عظيمًا ويقول،

(20) Brewer, Derek (ed.), *Medieval Comic Tales*, Cambridge, 1972, pp. 44-48.

"أيتها المرأة اللعينة، حتى لو كنتُ أعمى، فإني أشعر وأسمع! إن حواسيَ الأخرى أكثر حِدَّةً وقوةً. أنا أعلم أن معك الآن عشيقًا. إني أتوجه بشكايتي إلى جوبِتَر، الإله المهيمن، القادر على التفريج عن الحزانى وردِّ البصر إلى العميان!"

وبهذه الكلمات عاد البصر ونور الطبيعة إلى عيني الأعمى. فتطلع ورأى الشاب الزاني مع زوجته، فصاح بها، "أيتها الكاذبة الخائنة، لماذا تخادعينني وكنت أظنك وفيةً طيبةً؟ ويح قلبي، لا أتوقع منك بعد اليوم أي خير." وحين سمعت صراخ زوجها ارتعبت في البداية ولكنها فجأةً ابتكرت حيلة فأجابته بصوتٍ عالٍ ووجهٍ بشوشٍ، "أحمدُ جميع الآلهة التي استجابت لدعائي وردت البصر إلى زوجي الحبيب. فاعلم، يا سيدي العزيز، أنك مُنِحتَ البصرَ الذي رُدَّ إليك بسبب أدعيتي وأفعالي. فحتى هذه اللحظة ذهبت كلُّ محاولاتي سُدىً، سواء في الطب أو غيره. وأخيرًا، توجهتُ بدعائي إلى الآلهة أناشدهم أن يردوا إليك بصرك. فأتاني عُطارد، الذي أرسله الملك جوبِتَر، في المنام وأشار علي أن أتسلق شجرة كُمِّثْرى وأن ألعب لعبة ڤينوس مع شاب، وقال إن هذه اللعبة ستعيد الضياء لعينيك. فأقدمتُ على هذا الأمر لما فيه خيرُك وعافيتُك. لذلك عليك أن تشكر الآلهة، بل عليك أن تشكرني لأنك استعدت بصرك من خلالي."

صدق الأعمى كلمات زوجته الخادعة، فتصالح معها وصدَّق أنها امرأة فاضلة، وأدرك أن توبيخه لها لا داعي له. فشكرها وكافأها بهدايا عظيمة لا تُهدى إلا لِمن أسدى إليك خدمةً عظيمة.[٢١]

***

وهناك أمثولتان أُخريان من «عُهدة النُّسّاك» تحظيان باهتمام خاص في التراث الغربي: الأمثولة الثانية عشرة (الملك والقصّاص) والأمثولة الثالثة والعشرون (الثيران التي وُعِدها الذئبُ وحُكْمُ الثعلب). الأولى من نمط "الحكاية التي لا تنتهي،" عن عدِّ الخراف لجلب النوم، ولعلها مصدر هذه العادة الدارجة في الغرب إلى يومنا هذا. أما الثانية فهي أفضل الحكايات الخرافية في كل «عُهدة النُّسّاك» الذي لا يحتوي إلا على أربع حكاياتٍ خرافية: البغل الذي يتفاخر بنَسَبِهِ (الأمثولة الرابعة)؛ وتعاليم الطير الثلاثة (الأمثولة الثانية والعشرون)؛ والثعبان الذي يقتل الرجل الذي أنقذه (الأمثولة الخامسة)؛ والأمثولة الثالثة والعشرون.

(21) Gonzales Palencia, *op. cit.*, pp. 230-32. Trans. By George Cardona.

الأمثولة ١٢

الملك وراوي حكاياته

كان لدى ملكٍ قصّاصٌ يروي له عادةً خمس حكاياتٍ كل ليلة. وأخيرًا اتفق أن الملك، المثقل بالهموم، لم يستطع النوم، فأمر قصاصه أن يقص عليه المزيد من الحكايات. قص عليه ثلاث حكايات أخرى، لكنها كانت قصيرة، فاستزاده الملك كذلك. اعترض القصاص لأن الملك قد نال كفايته وأكثر.

ردَّ الملك، "لقد قصصت عليَّ الكثير، ولكن حكاياتك كانت قصيرة جدًا. أريدك أن تروي لي قصة طويلة، وبعدها سآذن لك بالذهاب للنوم."

وافق القصاص وبدأ على النحو التالي:

"كان لدى فلاحٍ ألف قطعةٍ من الفضة، فذهب إلى السوق واشترى ألفي رأس من الغنم بستة دنانير للرأس. وحين عاد، كان النهر قد طفح بمياه الفيضان، فلم يتمكن من عبور الجسر أو المخاضة. انتابه القلق، فراح يبحث عن مكان يمكن أن يعبر منه هو وأغنامه. وأخيرًا عثر على قاربٍ لا يتسع إلا لنعجتين مع الراعي في الوقت نفسه. وبضغطٍ من الحاجة، وضع نعجتين في القارب وعبر ..."

وحين بلغ الراوي هذا الحد من قصته، غلبه النعاس، فنام.

أيقظه الملك ليكمل القصة التي بدأها، فقال، "النهر عريض جدًّا، والقارب صغير جدًّا، والأغنام كثيرةٌ جدًّا. لذا دعِ الفلاح يعبر مع أغنامه أولًا، وعندها سأُكمل القصة."

وهكذا أسكت القصاص الملكَ المتشوقَ لسماع الحكايات الطويلة.[٢٢]

إن أول اسم نذكره حين نتحدث عن الخرافات هو إيسوپ. ومن بين الخليط الهائل للأمثولات التي تُنسَب إليه منذ أواخر العصور القديمة فصاعدًا هناك أُمثولة تحكي قصةَ ثعلبٍ وتيسٍ في بئر. يتمكن الثعلب من الخروج من مأزقه بالقفز على ظهر التيس الذي وافق على مساعدته بدوره. لكنه بدلًا من أن يساعده الثعلبُ، يقفز مبتعدًا، ويوجّه نصيحةً للتيس مفادها أن على المرء أن يفكر في المخرج قبل المدخل.

ولعل قصة بطرس ألفونسوس تنتمي إلى الطبقة العامة الكبيرة ذاتها لحكايات الحيوانات العالقة في الآبار، لكنها تختلف عنها في أمرين: مغزاها مفاده، "لا تقايض اليقين بوعدٍ،"

(22) Jones and Keller, *op. cit.*, pp. 60-61.

وحبكتها أعقد، إذ تنطلق من عنصر الوعد المتسرِّع، يتبعه قرص الجبن المتخيَّل في انعكاس القمر في البئر، ثم خدعة الدلاء. في أعراف الفلكلور تشكل هذه ثلاثة موتيفات منفصلة. اللافت في الأمر أن نسخة إيسوپ شائعة بالدرجة الأولى في أوربا الشرقية والشرق، بينما موتيفا قرص الجبن والدلو يشيعان أكثر في أوربا الغربية. ولعلَّ هذا مَرَدُّه، على الأقل في جزء منه، إلى الانتشار الجغرافي لكتاب «عُهدة النُّسّاك».

الأمثولة ٢٣

الثيران التي وُعِدها الذئبُ وحُكْمُ الثعلب

يُحكى أن فلاحًا قال لثيرانه التي لم تستطع أن تحرث الأرض بخطوطٍ مستقيمة، "تستطيع الذئاب أن تأكلكم."

سمع ذئبٌ قولَ الفلاح وسعِد به. وحين مالت الشمس للمغيب، حلَّ القروي المحراث عن ثيرانه، فجاءه الذئب وقال له، "أعطني الثيران التي وعدتني."

فقال له الفلاح، "ولكنني لم أُقْسِم على ما قلت."

فقال الذئب محاججًا، "عليك أن تعطيني إياها لأنك وعدتني."

وأخيرًا اتفقا على أن يذهبا للقاضي، وفي طريقهما قابلا ثعلبًا، فسألهما، "إلى أين تذهبان؟" فقصّا عليه ما جرى.

فقال لهما، "لا حاجة لكما في البحث عن قاضٍ آخر، فأنا أقضي بينكما بالعدل؛ لكن أريد أولًا أن أكلم كلًا منكما على انفراد."

تحدث الثعلب أولًا إلى الفلاح على انفراد وقال له، "إن أعطيتني دجاجةً ولزوجتي دجاجةً، سأعيد إليك ثيرانك."

وافق الفلاح، ثم تحدث الثعلب إلى الذئب وقال، "اسمع، يا صديقي، لقد تحدثت إلى هذا القروي، فوافق أن يعطيك قرصًا من الجبن بحجم الترس أن تركت له ثيرانه." وافق الذئب، فقال له الثعلب، دع الفلاح يذهب بثيرانه، وسأصطحبك إلى حيث يصنع أجبانه."

انخدع الذئب بكلمات الثعلب الماكرة، فترك القروي يذهب لشأنه. أضل الثعلبُ الذئبَ ولما حل الظلام الدامس، قاده إلى بئرٍ عميقةٍ، ثم وقف على الحافة، وأراه شكل نصف قمرٍ يسطع في قعر البئر، ثم قال له، "هذا هو قرص الجبن الذي وعدتكه، هيا انْزِل وكُلْهُ إن شئت."

فرد الذئب، "انْزِل أنت أولًا، وإن لم تستطع أن تأتيني به، فنادني لأساعدك، وسأفعل ما تقول."

وبينما هما يتحدثان لاحظا حبلًا يتدلّى في البئر، وفي كل طرفٍ منه يتدلّى دلوٌ، فكان إذا ارتفع دلوٌ، هبط الآخر. وما إن رأى الثعلب هذا حتى تظاهر بأنه ينفذ أوامر الذئب، فقفز في أحد الدلوين وهبط إلى القعر. سُرَّ الذئب بهذا، فقال، "لماذا لا تصعد وتأتيني بقرص الجبن؟"

أجابه الثعلب، "لا أستطيع بسبب حجمه. اهبِط في الدلو الآخر وتعال ساعدني، كما وعدتني."

قفز الذئب في الدلو الآخر، فهبط به إلى القعر مباشرة بسبب ثقله، بينما صعد الدلو الآخر الحامل للثعلب الخفيف الوزن. وحين صعد الثعلب إلى حافة البئر، قفز من الدلو وترك الذئب في البئر. وهكذا أضاع الذئبُ الثيرانَ وقرصَ الجبن لأنه قايض ما هو حاضرٌ بما سيأتي.[٢٣]

الأمثولة الثالثة والعشرون أمثولة أخرى من مَعينِ الفلكلور العالمي. ويشهد على دوام رواجها في التراث العربي شوڤان(٢٤) وغونزالِس پَلانثيا الذي يقول إنه سمعها في الرباط سنة ١٩٤٨ كما رواها بطرس ألفونسوس.[٢٥] وفي فرنسا أصبحت عملًا كلاسيكيًا بفضل مسيرةٍ متصلة من الاقتراضات التي بدأت من «عُهدة النُّسّاك»، ثم أشاعها كلٌّ من ماري دو فرانس ولافونتين. كما أن القصة بقيت حيةً في التراث الشفوي للشعوب الناطقة بالإنجليزية. فهذه القصة يوردها كاكسْتِن كاملةً في كتابه «حكايات أفونس» (١٤٨٤)، بما في ذلك هذه المحاورة بين الثعلب في الدلو الصاعد والذئب في الدلو الهابط. الذئب، "أأنت صاعدٌ يا صاحبي؟" الثعلب، "لقد صدقت... فهكذا هي حال الدنيا: واحدٌ يهبط، وآخر يعلو." وهذه القصة ترد مجردةً من موتيف الجِبن في كتاب جول چاندلر هارِس «العم ريموس» تحت عنوان "السيد الأرنب العجوز، إنه صيادُ سمكٍ بارع،" إذ يحل الأرنب البطل مكان الثعلب، والثعلب مكان الذئب.[٢٦] وهذه القصة ظلت شائعة بين السود في خمسينيات القرن العشرين في ولاية مِشِغَن. ويردد الأرنب في نهاية حكاية العم ريموس

(23) *Ibid.*, pp. 89-90.
(24) Chauvin, *op. cit.*, Vol. 3, p. 78.
(25) Gonzales Palencia, *op. cit.*, p. 25.
(26) Harris, J. C., *Uncle Remus*, New York, 1924 © 1880, no. XVI, pp. 75-9.

الأبيات الشعرية كما وردت تقريبًا بصيغتها الأصلية كما بدأت عند كاكستن على الأقل:

وداعًا، أخي الثعلب، واحرص على ثيابك،
فهذه هي سنة الحياة:
أناسٌ تصعد، وأناس تهبط،
وأنت ستهبط إلى القاع سالمًا غانمًا.

حكاية من الغرب: انهض وأغلق الباب

كان رجل يعيش في وادٍ
واسمه جون بلانت
يصنع من الشعير بيرة طيبة
وكان ذا صيت عجيب.

وذاتَ ليلةٍ هبَّت من المستنقع
ريحٌ عاتية وراحت تجول في الرواق
فقال، "انهضي، انهضي، يا لاكي العجوز،
انهضي وأغلقي الباب."

فتعاهدا بينهما
عهدًا وثيقًا
على أن ينهض ويغلق الباب
من يتفوَّه بأول كلمة.

ضل ثلاثة مسافرين طريقهم
وهم يسيرون بين التلال
فاهتدوا إلى بيت جوني بلانت
بالنور المنبعث منه.

أخرَجوا لاكي العجوز من سريرها
وطرحوها أرضًا
ولكن لاكي العجوز أبت أن تقول كلمة واحدة
لئلا تغلق الباب.

"لقد أكلتم خبزي وشربتم بيرتي
وستجعلون من زوجتي العجوز عاهرة!"
"آها، جوني بلانت، لقد نطقتَ بأول كلمة،
فانهض وأغلق الباب!"(٢٧)

(27) Child, Francis J., *English and Scottish Popular Ballads*, New York, 1965 © 1882-98, Vol. 5, no. 275.

حكاية من الشرق: الزوجان الصامتان

أمر رجلٌ سيئ الطباع زوجته ذاتَ ليلةٍ أن تعجّل في إعداد عشائه، فجلبت إلى المائدة خبزًا بائتًا. فقال لها، "قولي لي، يا عزيزتي، بحق الشيطان، من يمكنه أن يأكل مثل هذا الخبز اليابس القاسي؟" فقالت له، "انهض وبلّله بالماء." فأجابها الزوج، "بل بلليه أنت." فقالت له، "ليتني أُشنَق إن فعلت. فأنا منهكةٌ لا أستطيع حِراكًا." وظلا على هذه الحال يتجادلان ويتعاندان إلى أن اتفقا أخيرًا على أن مَن يتفوّه بأول كلمة، فعليه أن ينهض فورًا ويبلل الخبز. وقد ظلا في هذا الوضع الطريف وقتًا طويلًا إلى أن زارهما صدفةً أحد الجيران، وكان مولعًا بالسيدة في السر. نظرا إليه نظرةَ اهتمامٍ، ولكنهما لم ينطقا بكلمة. حيّاهما، فلم ينطقا. سألهما عن الأمر، فلم يتكلما. سألهما عن سبب صمتهما، فلم ينطقا. فاستنتج أنهما تعاهدا على الصمت، فقال للرجل، "أنت الزوج، فلماذا لا تتكلم؟" ولكنه لم يرد. قبّل الزائر الزوجة، ولكن زوجها لم يتكلم. ثم فعل بها الفاحشة، فلم ينطق الزوج. صفعه جاره الظريف على خده، فلم ينبِس بكلمة. اغتاظ الرجل، فذهب إلى القاضي وادّعى أنه لم يفلح في جعل جاره يتكلم. أُودِع الرجل السجن، ولم يتكلم. جيء به في اليوم التالي إلى القاضي، ولم يتكلم. أمر القاضي بشنقه بتهمة احتقار المحكمة. وحين دنت لحظة تنفيذ الحكم، حضرت الزوجة وقالت بصوتٍ مثيرٍ للشفقة، "واحسرتاه عليك، يا زوجي التعيس!" فقال، "أيتها اللعينة، اذهبي إلى البيت وبلّلي الخبز."[٢٨]

---

(28) Beloe, William, *Miscellanies*, Vol. 3 [Oriental Apologues], London, 1795, pp. 54-56.

في الصفحة غير المرقمة لهذا المجلد يقول بِلو إنه سمع القصة من صديقه الدكتور رَسِل الذي جاء بمجلد صغير من حلب كان يقرأ منه، "وأخير ترجم هذه القصص وأنا دوّنتُها." كان بِلو يعتقد أن هذه القصة لم تظهر في أي لغة أوربية من قبل. ومن الجدير ذكره أن پول بروستَر يلخص تاريخ قصة رهان الصمت على النحو التالي: تتشابه النصوص الشعرية، من حيث أن الأحداث تجري ليلًا، والعقوبة تكون بإغلاق الباب، ويتعاهد الزوجان على الصمت، وتتعرض الزوجة للمهانة وزوجها للتهديد، ويكون الزوج أول من يتحدث. أما النصوص النثرية فتتفاوت. وأقدم هذه النصوص يوجد في كتاب المئة أمثولة الصيني من القرن الخامس الميلادي، إذ يدور الخصام حول من يأخذ الكعكة الثالثة. يأتي اللصوص ويأخذون كل ما يملكه الزوجان، فتنعت الزوجة زوجها بأنه أحمق، فيفوز هو بالكعكة. "فمن بين ثماني عشرة قصة نثرية، المرأة هي أول من يتحدث في ست عشرة قصة." وينوه بروستر أن هذه القصة لا توجد في شكل قصائد إلا في الجزر البريطانية، وفي الحكايات الشعبية فيما سوى ذلك. انظر:

Paul G. Brewster, "The Silence Wager in Ballad and Tale," *East and West* (1971), New Series 21, pp. 363-76.

ألف ليلة وليلة

لا شيء يشهد على الانتشار العالمي الواسع لحكايات «ألف ليلة وليلة» خيرٌ من مقطع من رواية *Huckleberry Finn* (هَكِلْبِري فِن) [لِمارك توين]. في هذا المقطع يُبيِّن هَكْ الأمي للعبد جِم، وهما ينحدران مع مجرى نهر المسيسبّي في أربعينيات القرن التاسع عشر، كيف أن معظم الملوك أوغاد:

> يا إلهي، لو رأيتَ الشيخ هنري الثامن حين كان في أوج سلطانه وكان الزمان يزهو له. كان يتزوج امرأة كل يوم ثم يقطع رأسها في صباح اليوم التالي. وكان لا يبالي بما يفعل وكأنه يشتري بَيْضًا. كان يقول، "هاتوا لي نِل غْوِن." يأتون بها. في صباح اليوم التالي، "اقطعوا رأسها" فيقطعون رأسها. "هاتوا لي جين شايَر" فيأتون بها. في صباح اليوم التالي، "اقطعوا رأسها" فيقطعون رأسها. "اقرعوا الجرس ونادوا لي روزامون الحسناء." تلبي روزامون الحسناء النداء. في صباح اليوم التالي، "اقطعوا رأسها." وكان يجعل كل واحدة منهن تروي له حكاية كل ليلة، وظل على هذا الأمر حتى جمع ألفَ حكاية وحكايةً بهذه الطريقة، ثم جمعها كلها في كتابٍ وسمّاه كتاب يوم القيامة — وهذه تسمية مناسبة تعبر عن لب القضية.

لسنا بحاجة بعد هذا لقول إلى المزيد عن شهرزاد أو التاريخ الإنجليزي! ولكن حقيقة الأمر، على الرغم من ذلك، هي أن التواتر الشفوي لحكايات «ألف ليلة وليلة» جعل حتى الناس الأميين على درايةٍ بإطارها السردي وبأن حكاياتها جُعلت في كتابٍ، وهذا مكانةٌ لم تبلغها إلا بضعة كتب. وإن حدث هذا على تخوم أمريكا، فلا بد أنه حدث في غيرها كذلك.

أما القراء، فقد اطلعوا على «ألف ليلة وليلة» منذ سنة ١٧٠٤ حين نُشرت ترجمة أنتوان غالان باللغتين الفرنسية والإنجليزية. ومنذ ذلك التاريخ، صارت مدخل القارئ الغربي إلى العالم العربي، إذ شكلت أجيالٌ من القراء آراءها عن الشرق من خلالها. وقد اكتسحت أوربا

منذ البداية، وصدرت منها أربع طبعات بالإنجليزية قبل سنة ١٧١٣، ونُشرت مسلسلةً على مدى ثلاث سنوات في صحيفة «لندن نيوز» ابتداءً من سنة ١٧٢٣. لذلك كان بإمكان جيمز بيتي أن يقول عنها في إنجلترا سنة ١٧٨٣ "إنها كتابٌ يعرفه معظم الناس في هذا البلد." وبعد مئتي سنة من ذلك التاريخ، نُشرت أكثر من ٤٠٠ مرة في لغات أوربا الغربية. وقد أسهمت «ألف ليلة وليلة» في القرن الثامن عشر في زيادة الاهتمام بالدراسات الشرقية، وفي تطور دراسات الفلكلور والسرد، وفي نشأة مدرسةٍ روائيةٍ كاملةٍ من الروايات والحكايات شبه الشرقية، أما عن أثرها في الحركة الرومنسية في القرن التاسع عشر فلا يمكن أن يقال عنه إلا أنه كان هائلًا. حدث هذا كله في حين كان العرب ينظرون إلى «ألف ليلة وليلة» نظرةً دونيةً وإلى أنها عمل عامي منحط غير ذي قيمة ولا يمثل الأدب العربي، بل ليس أدبًا إطلاقًا، وإنما هي خليط من فلكلور الشوارع بلغة سوقية. وهي بالفعل فلكلور؛ فحتى في هذا القرن [العشرين] لا تزال حكاياتها تُروى لمستمعين مسحورين في المقاهي والأسواق في القاهرة وبغداد. ولكن في الغرب زالت سوقية «ألف ليلة وليلة» بفضل الترجمة، وأصبح العمل لا أدبًا فحسب بل واحدًا من أعمالنا الكلاسيكية. إذ تُعاد طباعته ويُحوَّل إلى مسرحيات ورقصات باليه وأفلام وعُروض في مسرح العرائس والمسرح الإيمائي، وخاصة للصغار. وبفضل المترجمين الأوائل للعمل الذين آثروا حكايات «ألف ليلة وليلة» الخرافية ورحلاتها ومغامراتها العجيبة على حكاياتها الأكثر واقعية، صار العمل مرادفًا للعجائبي والرومنسي. ولكن المجموعة الكاملة تحتوي على أنواع كثيرة أخرى: قصص الغرام وحكايات الأسفار وحكايات الشُّطار والمجرمين والطرائف وخرافات الحيوان وقصص الوعظ وحكايات النُّسّاك وقصص الجن ومجموعة من النوادر عن هارون الرشيد وقصص الأزواج والزوجات وقصص مستمدة من الحملات الصليبية وقصص طويلة شبه ملحمية عن الأسر الحاكمة والمعارك وتعليقات عابرة وقصص إطارية تتولد منها قصص إطارية أخرى بل حتى كتاب بأكمله هو كتاب السندباد (المعروف باسم الوزراء السبعة) الذي له تاريخٌ سابقٌ ولاحقٌ مستقلٌ بذاته. بالإضافة إلى ذلك، تحتوي مجموعة «ألف ليلة وليلة» على عدد من القصائد التي أُقْحِمت في ثنايا كثيرٍ من حكاياتها، وهذه القصائد على قَدْرٍ من الطول والتعقيد.

يحتاج تعبير "مجموعة كاملة" إلى شيء من الإيضاح، حيث إن «ألف ليلة وليلة»، كغيرها من المجموعات الفلكلورية، ليس لها شكل نهائي واحد. فالقصص تُطبَع بأعدادٍ متفاوتةٍ وترتيب مختلف بحسب ما يرتئيه المترجم، كما أن رقم ١٠٠١ يُفهَم منه أي رقم كبير لا رقمًا دقيقًا.

استخدم غالان، الذي كان موظفًا في السلك الدبلوماسي الفرنسي، مخطوطًا شاميًا لحكايات «ألف ليلة وليلة» وغير ذلك من المصادر المُدَوَّنة، بيد أنه أخذ مؤونته الكبرى من سوري يعيش في باريس [اسمه حنّا دياب] وكان هذا يروي له حكايات شعبيةً عربيةً ومن بين ما روى له الدُّرَّتان: قصتا علاء الدين وعلي بابا. وإنه لأمرٌ ذو دلالة أن «حكايات الأطفال والبيوت» (١٨١٢) التي أصدرها الأخوان غْرِم بعد مئة عام من ذلك وتُعَدُّ بداية جمع الحكايات الشعبية من أفواه العامة مباشرةً في العصر الحديث، احتوت على نسختين ألمانيتين لهاتين القصتين. وقد ظلت ترجمة غالان الطبعة المعيارية التي قولبت كل ما تلاها من الطبعات الأوربية على مدى أكثر من مئة عام، بل إن أجزاءً منها أُعيدت ترجمتها إلى العربية.[1] أما الطبعات الأوربية اللاحقة فقد اعتمدت على طبعة بولاق المصرية المنقحة، التي ترجمها إلى الإنجليزية إدورد وليم لين ونشرها في ١٨٣٨-١٨٤٠. أما أفضل ترجمة إنجليزية فهي التي قام بها جون پين ونشرها في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وهي التي نسخها رِچَّرْد بيرتِن حرفيًا في بعض الأحيان في ترجمته الأكثر شهرةً والأدنى قيمةً، وأفضل الترجمات الأوربية الحديثة هي ترجمة إي لِتْمان الألمانية في عشرينيات القرن العشرين.[2] تتماثل ترجمة بيرتِن إلى حدٍّ ما مع نموذجها الأصلي، ترجمة پين، الذي قامت على أساسه؛ وما عدا ذلك لا تتشابه ترجمتان من بين الترجمات الست أو نحوها من الترجمات العلمية الرصينة. ولكن هذه الترجمات جميعًا، بالإضافة إلى ما أضافه پين وبيرتِن من مجلداتٍ أخرى تحتوي على مادة قصصية من نصوص كَلْكُتّا (١٨١٤-١٨١٨) وبْرِسلاو (١٨٢٥-١٨٤٣) المكتشفة لاحقًا، تشكل مجموعة حكايات «ألف ليلة وليلة» المتعارَف عليها الآن. قليل من القراء في الغرب اليوم يدركون التنوع العجيب للكتاب برمته لأنه يصعب عليهم أن يجدوا العمل بأكمله في نسخة واحدة، على الرغم من استمرار نشر مختارات منه.

ومما يُضيف إلى تعقيد حكايات «ألف ليلة وليلة» هو التنوع الجغرافي الواسع لأصل

(١) لعل المؤلفة تشير هنا إلى الترجمة التي قام بها المهاجران السوريان ديونيسيوس شاويش (١٧٨٧) وميخائيل صبّاغ (١٨٠٥-١٨٠٨)، وهذا الأخير كان مساعدًا للمستشرق الفرنسي سِلفستر دو ساسي. انظر:

The Arabian Nights. Translated with an Introduction by Husain Haddawy. (New York & London: W. W. Norton & Company, 1990) xiii.

[المترجم].

(٢) هذا الكلام صحيحٌ من وجهة النظر التاريخية التي تتحدث منها رانيلا التي صدر كتابها الذي بين أيدينا سنة ١٩٧٩، غير أن أفضل ترجمة إنجليزية كاملة (ولذلك ثاني أفضل ترجمة أوربية بعد ترجمة غالان) هي التي أصدرها سنة ١٩٩٠ المترجم العراقي الأستاذ الدكتور حسين هدّاوي الذي اعتمد على المخطوط الشامي (من القرن الرابع عشر الميلادي) الذي حققه الأستاذ الدكتور محسن مهدي، أستاذ الأدب العربي في جامعة هارڤَرد الأمريكية. انظر الحاشية السابقة. [المترجم].

مضمونها. فقد اقتُفي أثر العناصر السردية إلى الهند في القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد، وإلى إيران والعراق ومصر وتركيا واليونان وإلى مصادر يهودية وعربية في العصر الجاهلي، ولكنها حُبكت جميعًا في المشهد الإسلامي. قد تكون قصة شهرزاد الإطارية هندية بأسماء فارسية، أو لعلها نسخة فارسية مُحوَّرة عن كتاب إستير التوراتي التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث. يرد أول ذِكرٍ لحكايات «ألف ليلة وليلة» التي كانت ببساطة تُسمّى حينها باسم «هَزار أفْسانَه» في جزء من مخطوطة فارسية في القرن التاسع، ثم تُذكَر شخصيات القصة الإطارية في القرن العاشر في «مروج الذهب» للمسعودي الذائع الصيت. وفي ثنايا العمل ذاته، تمكن الباحثون من التعرف على عدة طبقات ابتداءً من ترجمةٍ عربية في القرن الثامن لحكايات «هَزار أفْسانَه»، ثم زِيدَت عليها في القرن التاسع قصصٌ أخرى من بينها قصص السندباد البحري؛ وفي القرن العاشر ضُمَّت هذه جميعًا ضمن مجموعة من ٤٨٠ حكاية جمعها رجلٌ يدعى ابن عَبْدوس؛ وفي القرن الثاني عشر أُضيفت حكايات مصرية؛ وامتد الشكل الأخير الذي استقر عليه العمل إلى القرن السادس عشر وضم حكايات عن الحملات الصليبية واستيلاء المغول على بغداد وقصص بيبرس والاحتلال العثماني لمصر. وبما أن «ألف ليلة وليلة» عملٌ مركَّب من حكايات منفصلة كانت في الأصل تُروى مُشافَهةً وعلى مدى عدة قرون، فقد "صاغتها وهذَّبتها المخاطر الطبيعية للانتقال الشفوي" كما يقول ڤانْس راندولف بتعبيره الخالد. فكانت الحكاية تُضاف أو تُطرَح إما مصادفةً وإما وفقًا للظروف، لكن لكي تبقى فلا بدَّ أن تحظى باستحسان مستمعيها الذين يمدونها ورواتِها بأسباب الحياة. وهكذا تعاضد المستمعون والرواة عبر السنين ليُسبغوا على «ألف ليلة وليلة» شكلها: هؤلاء يصوغونها وأولئك يصقلونها.

ولكن علينا أن نميز بين هذه التغييرات الطبيعية المتوافقة مع طبيعة الفلكلور التي أدت إلى التباين في محتويات المخطوطات الأساسية لحكايات «ألف ليلة وليلة» وبين التغييرات التعسفية التي قام بها المحررون والمترجمون منذ أن أصبحت جزءًا من الأدب الغربي. فمنذ عام ١٧٠٤ قام المحررون أو المترجمون بتنقية كثيرٍ من القصص، أو أضافوا أُخرى لا تنتمي إلى «ألف ليلة وليلة»، أو ضخَّموا العنصر الإيروسي، أو شوهوا الترجمة، أو أدلوا بملاحظات غير دقيقة، أو أعادوا ترتيب المجموعات القصصية. ولأن كل قارئ يُسلِّم بحقيقة ما يقرأه، فلا بد أن هناك عددًا من الانطباعات المختلفة عن «ألف ليلة وليلة». لقد ذكرنا من قبل أنها مثلت في البداية صورة العجائبي والرومنسي. ولكنها قدمت لأوربا مرة أخرى عدة أمثولات ساخرة

ظهرت في «عُهدة النُّسّاك». ومن بين هذه أمثولات السيف، والكلبة الباكية، والمُرابي الظالم، والمُوْدِعون الأربعة، وبراميل الزيت. قد لا تكون عبارة "قدِّمت مرة أخرى" عبارة صحيحة، لأن هذه الحكايات شقت طريقها إلى الغرب في القرون الستة منذ «عُهدة النُّسّاك». فقد عرف الأوربيون كثيرًا من حكايات «ألف ليلة وليلة» الواقعية، ومُلَحِها، وطرائفها قبل ١٧٠٤، لِنَقْل منذ بوكاچيو فصاعدًا، إن لم يكن في الأدب ففي الفلكلور. في الحقيقة لعل أعظم ما شد انتباه مترجميها الأوائل في القرن الثامن عشر حول حكاياتها الخرافية هو كون هذه جديدةً بالنسبة إليهم، في حين أن نمط الأُقصوصة كان إما من نوع قصص المرح وإما الفجور المألوفة بالسماع لا بالقراءة.

ونيتنا هنا هي أن نقدم حكاياتٍ تعيش في التراث الغربي لأنها إما أُخذت من «ألف ليلة وليلة» وإما من مخزون مشترك مَتَحَتْ منه «ألف ليلة وليلة» كذلك. وهذا المخزون المشترك، الذي أشرنا إليه من قبل، هو الفلكلور العالمي للشرقين الأوسط والأدنى اللذين فقد الغرب صلته معهما بعد العصور الوسطى. ولكن في الحقيقة هناك قواسم مشتركة كثيرة تصبح معها أي عملية انتقاءٍ مشكلةً. فلا بد من غض النظر كليًا عن كثيرٍ من التوازيات اللافتة للنظر: مثل الموتيفات الفلكلورية عن تنافس السحرة على اتخاذ هيئات مختلفة، واتحاد شجرتين نابتتين على قبري حبيبين في شجرة واحدة، والساحرة التي تمتطي مكنسة، والنائم الذي صحا من نومه (وهو ما يعرفه الغرب من [مسرحية پيدرو كالدرون دو لا باركا] *Vida es sueño* (الحياة حلم) [١٦٣٥]، ومن [مسرحية غيرهارد هاوپتمَن] *Schluck und Jau* (شلوك وياو) [١٩٠٠]، أو [مسرحية شيكسپير] *The Taming of the Shrew* (ترويض الشرسة) [١٥٩١])، والبجعة العذراء التي تُؤسَر بسبب إخفاء ريشها ثم تتحرر من الأسر حين تجده، والعفريت الذي يُعاد إلى الزجاجة بالخدعة، وقصة پوليفيموس المأخوذة من ملحمة «الأوديسّا»، ونموذج الحبيسة *inclusa* أو الجندي المتبجح *Miles Gloriosus* الذي يستخدم فيه العاشقان نفقًا سريًا لخداع الزوج، وقصة المتلصِّص، والزوجة الصابرة المُفترى عليها، والثعلب الذي يتظاهر بالموت، والطيران السحري، وبساط الريح، والسيف بين عاشقين دلالةً على عفتهما، والأختين اللتين تحسدان أختهما الصغرى، وملك الموت، وقلب الغول في بيضة، ونموذج باربرا أَلَن للفتاة المتكبرة التي تدع عشيقها يموت ثم تموت هي على قبره، والجزيرة التي يتبيَّن أنها سمكة كبيرة كما في رحلة القديس بْرِندَن البحرية، والقلاع ذات الغرف المحرمة كما في أسطورة بلوبيرد [ذي اللحية الزرقاء]، والكثير الكثير من الأشياء السحرية.

وبما أن رحلات السندباد البحرية، وقصص علاء الدين وعلي بابا مألوفة جدًا ولا تحتاج إلى تذكير بها، فإننا لن نمثل حكايات العجائب في هذا المقام. بل ستكون مختاراتنا من الأنماط الأقصر والأكثر واقعية. كما سنُدرج قصةً أو قصتين حتى وإن لم يتفرع عنهما فروع غربية مباشرة، بل لما فيهما من توافق مُدهش مع الروح الغربية اليوم، ولأنهما أيضًا تبينان مراحل مختلفة من التنوع الموسوعي الذي نحن بصدده.

من حكايات «ألف ليلة وليلة»:

١- قصة الحلاق عن أخيه الخامس

بائعة الحليب ودلوها

٢- الحلم

الكنز على الجسر

٣- التاجر والمحتالان

چوسر، "بائع صكوك الغفران"

٤- أصحاب الوديعة

المُدَّعي العام نُوْي

٥- عدل الملك أنوشروان

عجينٌ لحصان الملك

٦- خُسرو وشيرين وصياد السمك

٧- أبو الضَّرْطات

الرجل الذي وَلَد طفلًا

٨- مكائد النساء

٩- الرجل الذي رأى ليلة القدر

الأمنيات الثلاث

١٠-زوجة التاجر والببغاء

چوسر، "حكاية متعهد المُؤَن"

١١-الملك وزوجة الوزير

كَرْمَةً كنتُ وكَرْمَةً ما زلتُ

١٢-السيدة وعاشقاها

العاشق والزوج المخدوع

١٣-حكاية الحكيم وأبنائه الثلاثة

ميراث السِّكِّير

١٤-السيدة وعُشّاقُها الخمسة

الراهب في البئر

١- قصة الحلاق عن أخيه الخامس

وأما أخي الخامس فإنه كان مقطوع الأذنين، يا أمير المؤمنين، وكان رجلًا فقيرًا يسأل الناس ليلًا، ويُنفق ما يحصله بالسؤال نهارًا. وكان والدنا شيخًا كبيرًا طاعنًا في السن، فخلف لنا سبع مئة درهم، فأخذ كل واحد منا مئة درهم. وأما أخي الخامس هذا، فإنه لما أخذ حصته، تحيّر ولم يدر ما يصنع بها. فبينما هو كذلك، إذ وقع في خاطره أنه يأخذ بها زجاجًا من كل نوع ليتَّجِر فيه ويربح. فاشترى بالمئة درهم زجاجًا وجعله في قفص كبير، وقعد في موضع ليبيع ذلك الزجاج وبجانبه حائط فأسند ظهره إلى الحائط وقعد متفكرًا في نفسه، وقال إن رأس مالي في هذا الزجاج مئة درهم. أنا أبيعه بمئتي درهم، ثم أشتري بالمئتي درهم زجاجًا أبيعه بأربعمئة درهم ولا أزال أبيع وأشتري إلى أن يبقى معي مال كثير، فأشتري به من جميع المتاجر والعطريات حتى أربح ربحًا عظيمًا وبعد ذلك أشتري دارًا حسنة وأشتري العبيد والخيل والسروج المذهبة وآكل وأشرب، ولا أخلي مغنية في المدينة حتى أجيء بها إلى بيتي وأسمع مغانيها. هذا كله وهو يحسب في نفسه وقفص الزجاج قدامه. ثم قال: وأبعث جميع الخاطبات في خطبة بنات الملوك والوزراء، وأخطب بنت الوزير، فقد بلغني أنها كاملة الحسن بديعة الجمال، وأمهرها بألف دينار. فإن رضي أبوها حصل المُراد، وإن لم يرض أخذتها قهرًا على الرغم من أنفه. فإن حَصُلْت على داري أشتري عشرة خدام صغار ثم أشتري لي كسوة الملوك والسلاطين وأصوغ لي سرجًا من الذهب مرصعًا بالجوهر، ثم أركب ومعي المماليك يمشون حولي وقدامي وخلفي، حتى إذا رآني الوزير قام إجلالًا لي وأقعدني مكانه، ويقعد هو دوني لأنه صهري، ويكون معي خادمان بكيسين في كل كيس ألف دينار، فأعطيه ألف دينار مهر ابنته، وأهدي إليه الألف الثانية إنعامًا، حتى تظهر له مروءتي وكرمي وصغر الدنيا في عيني. ثم أنصرف إلى داري. فإذا جاء أحد من جهة امرأتي، وهبت له دراهم، وخلعت له خلعة. وإن أرسل إليّ الوزير هدية رددتها عليه ولو

كانت نفيسة، ولم أقبل منه، حتى يعلموا أني عزيز النفس، ولا أخلّي نفسي إلا في أعلى مكانة، ثم أطلب منهم إصلاح شأني وتعظيمي، فإذا فعلوا ذلك أمرتهم بزفافها. ثم أصلح داري إصلاحًا بينًا. فإذا جاء وقت الجلاء، لبست أفخر ثيابي وقعدت على مرتبة من الديباج لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا لكبر عقلي ورزانة فهمي. وتجيء امرأتي وهي كالبدر في حليها وحللها، وأنا لا أنظر إليها عجبًا وتيهًا حتى يقول جميع من حضر: يا سيدي، امرأتك وجاريتك قائمة بين يديك، فأنعم عليها بالنظر، فقد أضرّ بها القيام، ثم يقبلون الأرض قدامي مرارًا. فعند ذلك أرفع رأسي وأنظر إليها نظرة واحدة ثم أطرق برأسي إلى الأرض فيمضون بها، وأقوم أنا أغيّر ثيابي وألبس أحسن مما كان عليّ. فإذا جاؤوا بالعروس المرة الثانية، لا أنظر إليها حتى يسألوني مرارًا. فأنظر إليها، ثم أطرق إلى الأرض. ولم أزل كذلك حتى يتم جلاؤها. ثم إني آمر بعض الخدام أن يرمي كيسًا فيه خمس مئة دينار للمواشط. فإذا أخذنه آمرهن أن يدخلنني عليها، فإذا أدخلنني عليها لا أنظر إليها ولا أكلمها احتقارًا لها لأجل أن يقال إني عزيز النفس. حتى تجيء أمها وتقبل رأسي ويدي وتقول لي يا سيدي انظر جاريتك، فإنها تشتهي قربك، فاجبر خاطرها بكلمة. فلم أرد عليها جوابًا، ولم تزل كذلك تستعطفني حتى تقوم وتقبل يدي ورجلي مرارًا، ثم تقول: يا سيدي إن ابنتي صبية مليحة، ما رأت رجلًا، فإذا رأت منك الانقباض انكسر خاطرها، فَمِل إليها وكلّمها. ثم إنها تقوم وتحضر لي قدحًا فيه شراب، ثم إن ابنتها تأخذ القدح لتعطيني إياه. فإذا جاءتني تركتها قائمة بين يدي وأنا متكئ على مخدة مزركشة بالذهب لأنظر إليها من كبر نفسي وجلالة قدري، حتى تظن في نفسها أني سلطان عظيم الشأن. فتقول يا سيدي بحق الله عليك لا تردَّ القدح من يد جاريتك، فإني جاريتك. فلا أكلمها، فتلحّ عليَّ فتقول لا بد من شربه، وتقدمه إلى فمي فأنفض يدي في وجهها وأرفسها، وأعمل هكذا. ثم رفس أخي برجله فجاءت في قفص الزجاج، وكان في مكان مرتفع، فنزل على الأرض، فتكسر كل ما فيه. ثم صار أخي بعد ذلك يلطم على وجهه ومزق ثيابه وجعل يبكي ويلطم على وجهه، والناس ينظرون إليه وهم رائحون إلى صلاة الجمعة. فمنهم من يرمقه، ومنهم من لم يفكر فيه، وهو على تلك الحالة، وراح منه رأس المال والربح.

لقد تعجَّب الباحث العظيم في علم الأساطير المقارن ماكس مولَر كيف تُنسى قضايا أخطر بكثير بينما يظل مثل هذا النمط من القصص ماثلًا في الأذهان عبر القرون، ولا يزال يُروى في دور الحضانة والمدارس شرقًا وغربًا. تُعزى هذه القصة عادةً في الغرب إلى إيسوپ،

ولكنها في الحقيقة مأخوذة من حكاية لافونتين "بائعة الحليب ودلو الحليب" المنشورة سنة ١٦٧٨.[٣] ونجد نسخة نموذجية من ذلك في مقرر دراسي لتلاميذ الصف الثالث الابتدائي الأمريكان: كانت بائعة حليب تسير وعلى رأسها دلوٌ من الحليب، وتغني بمرح. وكانت تفكر في المال الذي ستجنيه من بيع الحليب في المدينة، فقالت لنفسها، "لدي غالونان من الحليب، وبإمكاني أن أشتري بثمنه ثلاثين بيضة. ومن الثلاثين بيضة أنا واثقة أن خمسةً وعشرين صوصًا سيفقس منها، وستكبر الصيصان وسأبيعها في السوق يوم عيد الميلاد، وسأجني منها ربحًا طيبًا. سأجني خمسة عشر دولارًا أو عشرين على الأقل، وبهذا الثمن سأشتري ثوبًا جديدًا وقبعة جديدة، وسأرتدي هاتين حين أذهب إلى الكنيسة، فيتمنى الشبان حينها أن يرافقوني إلى البيت. ولكنني لن أنظر إلى أيٍّ منهم، لا، حاشى وكلاّ!" ثم نفضت رأسها باعتدادٍ وارتمى الدلو الذي نسيته وانسفح الحليب على الأرض."[٤]

لقد أُجريت دراسات كثيرة على هذا النمط الحكائي الذي يُعرَف لدى علماء الفلكلور بمسمّى "قِلاع الهواء" أو ما تقوله عامة الناس، "لا تَعُدَّ صيصانَك قبل أن تفقس." وهناك نسختان من هذه الحكاية في «ألف ليلة وليلة». في الحكاية غير المُدْرَجة هنا، يجمع رجل فقيرٌ قِدْرًا من الزبدة ثم يشرع يحلم بعددٍ من الصفقات المربحة التي تمكنه من الزواج وإنجاب ولدٍ تلتهي عنه زوجته ذات يوم، فيركلها زوجها الفقير. ولكنه يركل قِدْر الزبدة ويكسره.

تتبع شخصية الرجل الرئيسية أقدم الصيغ المدونة للقصة المأخوذة من «كليلة ودمنة» التي تُرجِمت في القرن الثامن الميلادي من السنسكريتية إلى العربية.[٥] في «كليلة ودمنة» تُحكى الحكاية عن رجل من البراهمة عنده جرة عسل. وحين ظهرت الحكاية في *Directorium Vitae Humanai* (دليل الحياة الإنسانية) لجاك دو فِتْري، الذي كان أسقف عكا من ١٢١٦ إلى ١٢٢٧، صارت الشخصية الرئيسية امرأة، وهذا يدل على أنها راسخة بهذه الصيغة في التراث الغربي. في *El Conde Lucanor* [حكايات الكونت لوكانور] الإسبانية لدون خوان مانوال (١٢٨٢-١٣٤٧) بطلة الحكاية امرأة تحمل عسلًا، ولدى رابليه (حوالي سنة ١٥٣٢) بطل الحكاية حذّاء لديه قِدْرٌ من الحليب، وفي الحكايات الألمانية المتأخرة غالبًا ما يكون البطلان رجلًا وامرأة يحلمان أحلام يقظة. وقد صارت بائعة الحليب وتفريعاتها في إنجلترا على كل

(3) La Fontaine, Jean de, *Fables*, Vol. 7, fable 7.

(4) Baker, Franklin T. and H. H. Thorndike, *Everyday Classics*, New York, 1920, pp. 35-36.

(٥) في الحقيقة، لم تُترجم «كليلة ودمنة» من السنسكريتية إلى العربية مباشرةً، بل من لغة وسيطة هي الفهلوية. [المترجم].

لسان منذ أوائل القرن الخامس عشر حين ورد ذكرها في «مسرحية الرعاة الأولى» في مدينة ويكفيلد. وعلى الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم من أن «كليلة ودمنة» العربية من أكثر الأعمال انتشارًا في العالم، إذ تُرجمت إلى اللغات الأوربية وغيرها مراتٍ ومراتٍ عديدة (هانز ساخْز وجون الكاپَوي وغيرهما)، إلا أن الحكاية التي أعاد روايتها لافونتين هي التي شكلت نواة الحكايات المماثلة في الغرب الحديث.

يُعد التاريخ السابق لـ «كليلة ودمنة» مثالًا مهمًا لما نقصده بالفلكلور العالمي للشرق الأوسط. فنحن هنا نتعامل مع مُدوَّنات ولذلك ندخل في التاريخ الأدبي كذلك، ولكن علينا أن نتذكر أن هذه المخطوطات المبكرة هي ببساطة فلكلور مُدوَّن. والأصل الذي تناسلت منه هذه المدونات هي «پانچاتانترا» (المبادئ الخمسة)، التي تُعرف أحيانًا في إنجلترا باسم «حكايات بيدپاي» [بَيْدَبا عند العرب]، وهي مجموعة حكايات من القرن الثالث الميلادي مكتوبة بالسنسكريتية. وقد ضاع الأصل وما تناسل عنه من القرن الثالث حتى القرن الخامس. وتقول أساطير الأولين إن إحدى هذه تُرجمت إلى الفارسية في القرن الرابع. تقول هذه الأساطير إن الملك العادل أنوشروان، الذي مر معنا ذكره من قبل مع عنترة والذي سنروي عنه بعض النوادر لاحقًا، قد أرسل بُرزويه، أعظم علمائه، إلى الهند ليتعلم حكمتها. وبعد سنين عديدة قضاها سُدى، طلب بُرزويه من ملك الهند أن يطلعه على كتاب «پانچاتانترا». ولم تكن هناك إلا نسخة واحدة وهي محفوظة ومغلَق عليها بالقفل والمفتاح. لذلك لم يسمح الملك لبُرزويه أن يأخذها أو ينسخها بل أن يأتي كل يومٍ ويقرأها. كان بُرزويه يحفظ ما يقرأ عن ظهر قلب، ويدون في الليل ما يقرؤه في النهار، ولما فرغ من ذلك عاد إلى بلاد فارس. وسواء أصحت هذه الحكاية عن برزويه أم لا، فقد أُجريت ترجمة سريانية من اللغة الفهلوية (اللغة الفارسية الوسيطة) في القرن السادس، وترجمة عربية في القرن الثامن. وما يهم الغرب هو الترجمة العربية المسماة «كليلة ودمنة»، وقد جاءت التسمية من اسم ابني آوى اللذين يرويان حكايات «پانچاتانترا».

حمل انتشار الإسلام هذه النسخة المعدلة إلى الشرق، حيث اندمجت مع الصيغ القائمة وإلى الغرب حيث ترجمها بالدو في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية، ومن ثم تُرجمت إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر وكذلك إلى اللاتينية مرة أخرى على يد جون الكاپَوي بعنوان *Directorium Vitae Humanai* (دليل الحياة الإنسانية)، وهذا أدخلها في تيار الأمثولات والفلكلور. ومن هناك انتشرت إلى كل الأصقاع—على الأقل في أوربا في كلٍّ من الفلكلور والأدب.

وما يهمنا ممن اقترضوا من «كليلة ودمنة» نذكر مجموعة پلانودس الإغريقية لـ«حكايات إيسوپ» في القرن الثالث عشر، ومجموعة «ديكاميرون» الإيطالية من القرن الرابع عشر، وكتاب «تاريخ الأربعين وزيرًا» التركي من القرن الرابع عشر، وكتاب «صنائع الرومان» اللاتيني من القرن الخامس عشر. أما كتاب «فلسفة دوني الأخلاقية» من القرن السادس عشر وكتاب «أنوار كانوپوس» من القرن التاسع عشر في الإنجليزية فقد تناسلا عن حكايات «كليلة ودمنة» ولم يستعيرا منها، كما أنهما يعكسان استمرارية هذه الحكايات والتغيرات المُلْغِزة التي طرأت على اسمها.

٢- الحلم

يُحكى أن رجلًا في بغداد كانت له تلك ثروة طائلة وغنى وافر. ولكنه فقد ثروته فيما بعد، وسرعان ما تغيرت حاله وأصبح معدومًا، فلم يكن يستطيع أن يحصل على ما يقيم أوده إلا بمشقة بالغة. ونام ذات ليلة وهو حزين مهموم، فرأى في منامه شخصًا يقول له: إن حظك في القاهرة، فاذهب وابحث عنه وأصلح به حالك. فشد الرجل الرحال إلى القاهرة. وعندما وصل إليها كان الليل قد حل، فبات في مسجد وشاءت مشيئة اللهّ، تعالى اسمه، أن دخلت جماعة من اللصوص إلى المسجد قاصدة البيت المجاور. واستيقظ أصحاب البيت على حركة اللصوص ورفعوا أصواتهم بالصراخ، مما جعل الوالي يخف إلى نجدتهم مع أتباعه. ولكن اللصوص كانوا قد هربوا من البيت. عندئذ دخل الوالي المسجد فوجد الرجل البغدادي نائمًا هناك، فأمسك بخناقه وانهال عليه ضربًا حتى أشرف الرجل على الهلاك، ثم أخذه إلى السجن حيث ظل فيه ثلاثة أيام، وبعدها استدعاه الوالي وسأله، من أي البلاد أنت؟ فأجاب: من بغداد. فسأله: وما الذي جاء بك إلى القاهرة؟ فأجاب، لقد رأيت في منامي من يقول لي: إن حظك في القاهرة، فأسرع إليه. وعندما جئت إلى القاهرة وجدت حظي في تلك الصفعات التي نلتها منك. عندئذ ضحك الوالي ملء شدقيه حتى بانت نواجذه وقال له، يا مغفل، لقد رأيت في منامي ثلاث مرات رجلًا يقول لي، يوجد في بغداد منزل في حيّ كذا وأوصافه كذا، وله حديقة في فنائه، تقع في نهايتها نافورة فيها ثروة بكميات طائلة، فأسرع إليها وخذها، ولكنني لم أذهب. وأنت تسافر بسبب قلة عقلك من بلد إلى بلد؟ أضغاث أحلام! ثم أعطاه بعض النقود، وقال له، أعن نفسك بها حتى تعود إلى بلدك. فأخذها الرجل وعاد إلى بغداد. ولم يكن البيت الذي وصفه الوالي له سوى بيت

ذلك الرجل. فلما وصل إليه أخذ يحفر أسفل النافورة حيث عثر على الكنز. وبهذا أغناه اللهّ وأعانه، وكان ذلك من عجائب المصادفات.(٦)

هذه حكاية شعبية معروفة وواسعة الانتشار في أوربا حتى قبل غالان وترجمته لـ «ألف ليلة وليلة» وظلت تُتداوَل في الجزر البريطانية حتى العصور الحديثة. وتحكي النسخ الإنجليزية عن بائعٍ متجول يُدعى جون چاپْمَن أو جون رولي ويحلم بكنزٍ موجود في جسر لندن. وحين يذهب إلى هناك، يقص عليه حانوتي حلمه عن كنز موجودٍ في حديقة البائع المتجول الكائنة أحيانًا في سوافْهَم في نورفُك، أو في لونسِسْتِن في كورنوول، أو في أپسول في يوركْشَر. يعود البائع المتجول إلى بيته ويستخرج كنزه. وأحيانًا يُضاف إلى هذه الحكاية عنصرٌ بسيط: يكون الكنز في صندوقٍ عليه نقش باللاتينية يقول، "أثمن مني يرقد كنز تحتي" أو شيءٌ من هذا القبيل. فيحفر البائع مرة أخرى، ويجد كنزًا أكبر من الأول.

وفي نسخةٍ تُحكى في مقاطعة كيري [الإيرلندية] حوالي سنة ١٩٥٠، يُدعى البطل مرة أخرى جون، أو شون [عند الإيرلنديين]، ولكنه يُعرف أيضًا بلقب جاك، أو جاك الفقير ذي الأشواك، والجسر يقع في لِمِرك. وهناك يسأله رجلٌ لماذا يقطع الجسر جيئةً وذهوبًا طيلة أيام ثلاثة. فيشرح له شون/ جاك. يرد عليه الرجل، "ما أسخف عقلك، أيها البائس! لا تضيِّع وقتك. لقد حلمت أيضًا بكنزٍ يُفترض أن يكون مُخبّأً في مزرعة صغيرة في مقاطعة كيري خلف منزل رجل يدعى جاك الفقير ذي الأشواك. وأظن الرجل لا وجود له." فيعود شون/ جاك إلى بيته ويستخرج الكنز، ثم يترجم عالِمٌ فقير النقش اللاتيني، فيقوده هذا إلى الكنز الثاني. وهكذا يصبح شون أغنى رجل في مقاطعة كيري.(٧)

هنا تتجلى فلسفة شرق المتوسط حيث يذهب الإنسان إلى حيث ترسله مشيئة الله؛ فالخطوة التي تبدو خاطئة هي في الحقيقة خطوة إلى المكان الصحيح – كما في حكاية "موعد في سامراء."(٨) وفي حكاية "الحلم" تكتسب موعظة الوالي المتعالم نكهة خاصة ولا سيما أنه في نهاية المطاف هو مَن يُهزأ منه.

(6) Lane, *op.cit.*, Vol. 2, pp. 514-515.

(7) Dorson, R in *Journal of American Folklore*, Vol. 66, 1953, p. 464.

(٨) لعل المؤلفة تشير هنا إلى الحكاية العربية التي صاغها الكاتب الإنجليزي سومرست موم. تروي هذه الحكاية قصة خادمٍ يرى الموت في بغداد، فيرتعب الخادم، ويعود إلى سيده، ويطلب منه أن يعطيه حصانًا ليهرب إلى سامراء. عندئذٍ يذهب السيد إلى السوق ليسأل الموت عن سبب تهديده لخادمه. ولكن الموت يقول، "لم أهدده، ولكنني اندهشتُ لمّا رأيته في بغداد، لأنني على موعدٍ معه مساء هذا اليوم في سامراء!" [المترجم].

٣- التاجر والمحتالان

كان في بلدة تسمى سندة تاجر غني، فجهز بضاعة، وانطلق بها إلى تلك المدينة يريد أن يبيعها فيها. فتبعه محتالان، وراحا يجمعان في أكياس ما يستطيعان من بضائع، وأوهماه أنهما تاجران مثله، ورافقاه في الطريق. وعند أول توقفٍ لهم، اتفق الاثنان على أن يحتالا عليه ليسلبا منه بضاعته. ولكن كلًا منهما أضمر للآخر مكيدة، وهو يقول في نفسه، "إن استطعت أن أخدع صاحبي، ففي ذلك خيرٌ لي وسأفوز بالغنيمة كلها لنفسي." وهكذا أخذ كل منهما طعامًا دس فيه السم وقدمه لصاحبه. أكل كل منهما الطعام المسموم فماتا معًا. ولما طال غيابهما عن التاجر وكانا يجلسان ويتحدثان معه خرج ليبحث عنهما فوجدهما ميتين. وعندئذ علم أنهما محتالان احتالا عليه لخداعه، ولكن خدعتهما ارتدت عليهما. وهكذا نجا التاجر من مكرهما وأخذ مالهما.[٩]

والمثيل الكلاسيكي لهذه هو حكاية "بائع صكوك الغفران" لچوسر، بيد أن أقدم مثال مُدوَّن يوجد في حكايات «الجاتاكا» أو حكايات مَوْلِد بوذا في القرن الثالث قبل الميلاد. وهكذا دخلت القصة باكرًا في تيار الحكايات الشعبية في الشرق الأوسط الذي انتقلت عبره إلى أوربا. ومن المعالجات الحديثة كتاب كِپلِنْغ «كتاب الأدغال الثاني» وكتاب جاك لندن «عندما يضحك الله»[١٠] وفي قصة روبرت م. كوتْس "صيد الأسماك شتاءً" حيث تحل بوليصات التأمين على الحياة لكل من الشريكين، حيث المستفيد في كل منها هو الآخر، محل البضائع، ويحل مثقب الجليد والمسدس محل السم.[١١] ولكن الأشهر من ذلك بطبيعة الحال هو النسخة الفِلْمية الصادرة سنة ١٩٤٨ بعنوان «كنز سييرا مادْري» عن الرواية التي أصدرها سنة ١٩٢٧ ب. تراڤِن، وهو كاتب پولندي يكتب بالألمانية، حيث يجد ثلاثة مغامرين ذهبًا، ولكن الهنود يأسرون أحدهم، فيقرر الآخران أن يحتفظا لنفسهما بحصته. يطلق الغدّار من بينهما النار على صاحبه، ولكنه يُقتَل على أيدي لصوص. يظن اللصوص أن التبر رملًا، فيرمونه. في كل هذه الحالات، سواء أكان هناك شخصيتان أو ثلاثة أو أكثر، لا تحتاج القصة إلا إلى اثنين لكي تكتمل عناصرها. أما الطرف الثالث البريء، حتى عندما يحصد الجائزة، فهو من باب الزيادة، كالجائزة تمامًا.

---

(9) Payne, John (Trans.), *The Book of the Thousand Nights and One Night*, Vol. 3, London, 1882-84, p. 45.
(10) London, Jack, *When God Laughs,* New York, 1911, pp. 93-128.
(11) Woolf, Henry B., *Modern Language Notes*, Vol. 66, 1951, pp. 267-69.

أما چوسر، فيضيف شخصية أخرى هي الرجل العجوز. يطالب المعربدون الثلاثة من الرجل العجوز أن يقودهم إلى الموت لأنهم يريدون ذبحه لإنهاء الطاعون. فيدلهم على شجرة سنديان توجد تحتها قطع الذهب المميتة. وفي هذا التفصيل يقترب چوسر كثيرًا من الموروث الإسلامي، إذ يحذر عيسى مريديه قائلًا إن الذهب الذي يُعثَر عليه في مكان معزول سيؤدي إلى موت ثلاثة مسافرين. بعد ذلك يقتل كل واحد الآخر، ولكن عيسى يُعيد الجميع إلى الحياة. لقد تأثر الأدب الإيطالي بعنصر الرجل الصالح الذي يدل على الذهب ثم يحذر أن فيه الهلاك، وقد ظهر هذا خاصةً في كتب النوڤيلا وفي مسرحية قديمة عن معجزات القديس أنتوني.[١٢] ولعل چوسر متح من مصادر شفوية لهذه القصة الشائعة جدًا، ولكن توجد على الأقل مجموعة إيطالية هي *Cento Novelle Antiche* «مئة قصة قديمة»، ويُعتقد أنها جُمعت في القرن الثالث عشر، وهي بهذا من القِدَم ما يكفي لتكون جسرًا أدبيًا يمتد من شرق المتوسط إلى "حكاية بائع صكوك الغفران."

٤- أصحاب الوديعة

اشترك أربعة تجار في ألف قطعة من الذهب، وجمعوها معًا في كيس واحد. ثم ذهبوا ليشتروا بها بضاعة، وفي طريقهم صادفوا بستانًا جميلًا فدخلوه، وتركوا الكيس لدى امرأةٍ كانت تحرس البستان. وبعد أن دخلوا، اتخذوا ناحيةً من البستان، فأكلوا وشربوا ومرحوا، ثم قال أحدهم، أنا معي طِيْب. تعالوا نغسل رؤوسنا بهذا الماء الجاري، ونتطيب. فقال آخر، نريد مشطًا. ثم قال آخر، لنسأل الحارسة لعل عندها مشطًا. عندئذ نهض أحدهم وذهب إلى الحارسة وقال لها، أعطيني الكيس. فقالت له، أعطيه لك بحضوركم جميعًا، أو يأمرني أصحابك أن أعطيك إياه. كان أصحابه في مكانٍ تستطيع الحارسة أن تراهم منه وتسمع كلامهم. فقال الرجل، إنها لا تريد أن تعطيني إياه. فقالوا لها أن تعطيه. وحين سمعت كلامهم، أعطته الكيس، فهرب به. ولما أعياهم طول الانتظار، ذهبوا إليها وسألوها لماذا لم تعطه المشط. فقالت لهم، لم يطلب مني سوى الكيس، ولم أعطه له إلا بموافقتكم، ثم ولى وارتحل. فلما سمعوا كلامها، لطموا وجوههم، ثم أمسكوا بها، وهم يقولون، لم نأمرك إلا بإعطائه المشط. فأجابتهم، ولكنه لم يذكر مشطًا. ثم أمسكوا بها وأخذوها إلى القاضي، ولما صاروا بحضرته، قصوا عليه قضيتهم. فألزمها القاضي بالكيس، ثم ألزم عددًا من غرمائها، وذلك ليكونوا كُفلاء لها.

(12) Clouston, W. H., *Popular Tales and Fictions*, Vol. 2, New York, 1887, pp. 379ff.

فخرجت حائرة لا تعرف طريقها، فالتقاها صبي في الخامسة من عمره. ولما رآها حائرة سألها، ما الأمر، يا أمي؟ ولكنها لم تعطه إجابة، واحتقرته لصغر سنه. فأعاد عليها سؤاله مرةً واثنتين وثلاثًا. وأخيرًا أخبرته بما جرى لها. فقال له الصبي، "أعطيني قطعة من الفضة أشتري بها حلوى، وسأخبرك بما يؤدي إلى تبرئتك." فأعطته الحارسة قطعة من الفضة، ثم سألته، "وماذا ستخبرني؟" فقال لها الغلام، "عودي إلى القاضي وقولي له إنك اتفقت معهم على ألا تعطيهم الكيس إلا بحضور الأربعة." فعادت الحارسة إلى القاضي وقالت له ما قاله لها الغلام. عندئذ قال القاضي للرجال الثلاثة، "هل هذا ما اتفقتم عليه معها؟" فقالوا، "نعم." ثم قال لهم القاضي، "أحضروا إليَّ صاحبكم، وخذوا الكيس." وهكذا ذهبت الحارسة في حال سبيلها ولم يلحقها أي ضرر.*(١٣)

* اللافت للانتباه أن هذه القصة تُروى عن المدعي العام نُوْي في عهد الملك جيمز الثاني. لكن بدلًا من التجار لدينا رعاة، وبدلًا من حارسة البستان لدينا مدير نُزُل، وبدلًا من الطفل ذي الخمس السنوات لدينا المحامي وِلْيَم نوي الذي ابتدأ عمله الشاق وكانت سمعته قد بلغت مبلغًا كبيرًا بسبب هذه القصة، كما يُقال. قد تكون القصة حقيقية وقد لا تكون، وليس لدينا من دليل سوى مجموعة من النوادر؛ ولكن الغريب أن توجد هذه القصة وقد شطت بعيدًا عن موطنها الأصلي.

Asiatic Journal, N. S. vol. xxx, p. 230.

٥- عدل الملك أنوشِرْوان

يُحكى عن الملك العادل أنوشروان أنه تمارض ذات يوم، فأمر قهرماناته وحاشيته أن يطوفوا في أنحاء مملكته ويبحثوا له عن حجرٍ متعفنٍ باقٍ من حطام قرية لعله يستخدمه دواءً وصفه له الأطباء. فطافوا بكافة أنحاء مملكته وبكل البلاد الخاضعة لحكمه، ثم عادوا وقالوا له، "لم نجد في كل المملكة مكانًا متهدمًا ولا حجرًا متعفنًا." فسرَّه هذا القول وشكر الله وقال، "كان قصدي أن أختبر أحوال مملكتي حتى إذا عرفت أن هناك مكانًا خربًا أو مهجورًا أعدت إعماره، ولكن بما أنه لا يوجد مكانٌ في مملكتي إلا وهو عامر، فهذا يعني أن أمورها منظمة وبلغت من الرخاء حد الكمال."(١٤)

(13) Lane, *op. cit.*, Vol. 3, pp. 181-82.
(14) Payne, *op. cit.*, Vol. 5, pp. 8-9.

ولدى الغرب حكاية "كلاسيكية يومية" مماثلة لهذه الحكاية. يبحث ملكٌ طيب (لم يُسمَّ) عن زوجة، فيعلن أن خادمه سيقود الحصان الملكي في أنحاء المملكة، ويطلب من كل فتاة يقابلها أن تعطيه ما تبقى لديها من عجين ليطعم حصانه. وهكذا تتنافس الفتيات على زواج الملك، فتأتي كل واحدة منهن بأكثر ما تستطيع من الفتات. وأخيرًا يأتي الخادم إلى بيت ريفي وضيع، لكن الفتاة الخفرة تعترف أنه ليس لديها أي فُتات لأنها تخبز كل العجين ولا تُبقي منه شيئًا. فيقول الملك، "هذه مَن تصلح عروسًا لي." وفي نسخة أخرى من ولاية كارولاينا الشمالية (١٩٢٨) بعنوان "البحث عن زوجة" يحل رجل عادي محل الملك.[١٥]

ومما تجدر ملاحظته هو أن هناك قصة أخرى عن أنوشروان في «ألف ليلة وليلة» تتصل بهذه إلى حدٍّ ما. بينما كان أنوشروان في طريقه إلى الصيد، يتوقف عند أحد البيوت ويطلب ماءً. فتعطيه صبيةٌ الماء ممزوجًا بعصير قصب السكر. ولما كان هؤلاء القرويون يجنون محصولًا جيدًا من العود الواحد، قرر أنوشروان في سره أن يزيد خِراجَهم. وفي نهاية اليوم، يتوقف عند البيت نفسه ويطلب شَرْبةً أخرى. ولكن الصبية تعصر له ثلاثة أعوادٍ هذه المرة، فيسأل الملك عن السبب، فتجيبه الصبية، "لأن نية الملك تبدلت." فيسألها، "وكيف عرفت ذلك؟" فتجيبه، "إذا تغيرت نية ملكٍ على قومه، قلَّت خيراتهم." وهنا يتزوج أنوشروان من الصبية.[١٦]

والمغزى في كل هذه الحكايات هو تماهي الملك مع رعيته، كما يتضح فعلًا من خلال المثال الأخير. فالحجر المتعفن وفُتات العجين علامات ضعف. فعلى الرغم من التظاهر بأن الملك أو حصانه يحتاج إليها، إلا أن غيابها مدعاةٌ للابتهاج والمكافأة.

٦- خُسرو وشيرين مع صياد السمك

كان خُسرو، ملك الفُرس، يحب السمك؛ وبينما كان يجلس ذات يومٍ في إيوانه مع زوجته شيرين، جاءه صياد سمك بسمكة عظيمةٍ وقدمها للملك. سُرَّ الملك بها فأمر له بأربعة آلاف درهم. ولما خرج، قالت شيرين للملك، "لقد أسأت صُنعًا." فسألها، "لماذا؟" فقالت، "لأنك إن أعطيت أيًا من حاشيتك بعد اليوم مبلغًا مماثلًا، فسيستصغره ويقول، 'لقد أعطاني مثل ما أعطى صياد السمك.' وإن أعطيته أقل من ذلك، سيقول، 'إنه يهزأ بي ويعطيني أقل مما أعطى صائد السمك'." فقال لها الملك، "لقد صدقتِ، ولكن الأمر تمَّ ولا يليق بملكٍ أن يستردَّ

(15) *Frank C. Brown Collection of North Carolina Folklore*, Vol. 1, Durham N.C., Duke University, 1952, pp. 702-703.
(16) Payne, *op. cit.,* Vol. 4, Night 390.

أُعطيةً." فقالت له شيرين، "إن شئتَ، سأحتال للأمر، وأجعلك تستردها." سألها، "وكيف ذاك؟" فقالت له، "اسْتَدْعِ الصياد واسأله إن كانت السمكة ذكرًا أم أنثى. فإن قال ذكرًا، قل له نريد أنثى، وإن قال أنثى، قل له نريد ذكرًا."

وهكذا أرسل في طلب الصياد الذي كان رجلًا نبيهًا فطنًا، فقال له، "هل هذه السمكة ذكرًا أم أنثى؟" قبَّل الصياد الأرض وأجاب، "إن السمكة خُنثى: لا ذكر ولا أنثى." فضحك الملك وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى. وذهب الصياد إلى خازن بيت المال، فأخذ الثمانية آلاف درهم، فوضعها في كيس كان معه. وحين ألقى بالكيس على كتفه، وسار في دربه، وقع منه درهم. عندئذٍ، أنزل الكيس عن عاتقه، وانحنى ليلتقط الدرهم. كان الملك وشيرين ينظران، فقالت شيرين، "ألا ترى، أيها الملك، خِسَّةَ هذا الرجل وجشعه الذي ينحني ليلتقط درهمًا ولا ترضى نفسه أن يتركه لأحد خدمك؟" وحين سمع الملك كلام شيرين، امتلأ غيظًا من الصياد وقال، "لقد صدقتِ، يا شيرين!" ثم استدعى الرجل وقال له، "يا لك من رجلٍ وضيعٍ، قليلِ العقل! كيف تضع الكيس عن كتفك وتنحني لتلتقط درهمًا ولا ترضى نفسك أن تتركه حيث وقع؟" قبّل الصياد الأرض أمام الملك وقال له، "أطال الله عمر الملك، لم ألتقط الدرهم بسبب قيمته في نظري، بل لأن على أحد وجهيه صورة الملك، وعلى وجهه الآخر اسمه، فخشيت أن يطأه أحدهم بقدمه وهو لا يعلم، فيهين اسم الملك أو صورته، وأصبح أنا السبب في هذه الإهانة." فتعجب الملك من فطنته وحنكته، فأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى. ثم أذاع في مملكته أنه لا يليق بأحدٍ أن يستمع لمشورة النساء، لأنه من يستمع لنصيحتهن، يفقد بدلًا من الدرهم درهمين آخرين.[١٧]

كان الملك خُسرو حفيدَ أنوشروان، صديقنا الملك العادل الذي حكم حين وُلد محمد [صلى الله عليه وسلم]. كان أنوشروان "الملك الشمس" في الشرق، حيث كان اسمه مرادفًا لكل عظمةٍ وخيرٍ في الملوك. اغتصب عمُّ خُسرو العرش، ولكن خُسرو استعاده بمساعدة موريس، إمبراطور الشرق اليوناني، وتزوج ابنة موريس. وكان اسمها إيرين، ولكن الفُرس سمّوها شيرين (أي، حُلوة) وقد تغنى الشاعر نظامي بجمالها. وعلى الرغم مما لهذين الزوجين من جلال القَدْر، إلا أن القصة، ذات المغزى التقليدي، تصورهما تصويرًا عاديًا باهتًا. في الحقيقة تُسمّى القصة عادةً "لا تأخذوا بمشورة النساء."

(17) *Ibid.*, pp. 230-32.

والشرف الذي تستحقه صورة الملك على النقود له ما يقابله في عصرنا الحديث في إنجلترا، حيث تحمل جميع الطوابع رأس الملك أو الملكة، ومن باب الاحترام لعاهل البلاد ليس من اللائق لصق الطابع مقلوبًا.

أما تجاهل مشورة النساء فهو تحذير شرقي شائع جدًا، ويرتبط بكثير من قصص الاعتبار الذي تُعد حكايتنا هذه واحدةً منه. وهناك قصة أشْيَع تتحدث عن رجل كان يأمل أن يتقرب من حاكم محلي بسلة من الفاكهة. فيسأل زوجته عن الفاكهة التي يجب أن يأخذها، فتشير عليه بالرمان. ولأنه من حيث المبدأ يجب أن يخالف مشورة النساء، يأخذ معه تينًا. ولكن التين زهيد الثمن، فتسخر منه حاشية الحاكم وتقذفه به. فيعزي الرجل نفسه قائلًا، "الحمد لله أنه لم يكن رمانًا."

٧- أبو الضرطات

في عهد الخليفة هارون الرشيد كان هناك قاضٍ في مدينة طرابلس في بلاد الشام وكان يمارس وظيفته بقسوةٍ بلغت الآفاق. وكانت خادمته الوحيدة، بل المرأة الوحيدة في حريمه، زنجيةً عجوزًا كأنها من جواميس النيل، وكان تقشُّفه لا يقل قسوةً عن قسوة أحكامه، لعنه الله. وعلى الرغم من غناه، كان يعيش على الخبز البائت والبصل. وكان جشعه يترافق مع تظاهره بالكرم. فإذا زاره جارٌ وقتَ الطعام، نادى القاضي جاريته السوداء وقال لها، "افرشي السُّفرة المذهَّبة الأطراف." لم يُدعَ أحدٌ قطُّ إلى الطعام الذي يُحضَر، وصار إحضار السُّفرة مضربًا للمثل بدلًا من أن يكون علامةً على الكرم، فصار المرء إذا لم يُكْرَم في وليمة يقول، "لقد أكلت على سفرة القاضي المذهَّبة." وسنرى أن هذا العجوز البائس، أصلاه الله نارَ جهنم، عاش عيشةً تُسقِم الكلب الجائع مع أن الله منحه الغنى والشرف.

وذات يوم أراد بعض الناس أن يستميلوا القاضي لصالحهم في قضيةٍ لهم، فقالوا له، "يا مولانا، لِمَ لا تتخذ زوجةً؟ فتلك الجارية السوداء لا تليق بك!" فسألهم القاضي، "ومن يجدُ لي زوجةً؟" فأجابه أحدهم، "لدي ابنةٌ جميلة جدًا، وسيشرِّف أَمَتَك إن صارتَ أهل بيتك." قبل القاضي من فوره بهذا العرض، وتم الزواج في الحال. أُخِذت الفتاة إلى بيت زوجها مساءً، ولما كانت في غاية التحفُّظ والطيبة أبت أن تُبدي دهشتها حين لم يُحضَر أي طعام أو يُذكر. مكث الضيوف والشهود بعضَ الوقت يُعلِّلون أنفسهم بالآمال، وحين لم يروا نارًا تُشعَل في المطبخ عادوا إلى بيوتهم وهم يلعنون خِسَّة العريس.

شعرت الزوجة الشابة بالجوع حين سمعت زوجها يقول للجارية السوداء أن تفرش السفرة المُذهَّبة. ولما كانت معتادةً على ما لذَّ وطاب من الطعام في بيت أبيها، اندفعت بشوقٍ نحو السُّفرة حين فُرِشت، بيد أنها اكتشفت أن الوجبة الوحيدة تتألف من ثلاث قطعٍ من الخبز الأسمر وثلاث بصلات. وبينما كانت تجلس مشدوهةً، تناول القاضي قطعةً من الخبز، وناول مثلها للجارية السوداء، ودعا الفتاة لتناول حصتها وهو يقول، "إيّاك أن تجحدي نِعَم الله عليك!" ثم التهم حصته بنهمٍ بالغ، أما الجارية السوداء فقد ابتلعت وجبتها بلقمةٍ واحدةٍ لأنها لم تذق شيئًا طوال اليوم. أما الزوجة البائسة فلم تستطع، مهما حاولت، أن تبتلع ولو لقمةً واحدةً من ذاك الطعام الكريه. غادرت المائدة، وصامت عن الطعام وهي تندب حظها العاثر. مرت ثلاثةُ أيامٍ كانت السُّفْرة المُذَهَّبة تُفْرَش فيها كل يومٍ ويوضع عليها الخبز الأسمر والبصلات البائسة. وفي اليوم الرابع سمع القاضي صراخًا آتيًا من حريمه، فذهب ليستطلع الأمر، فلاقته الجارية السوداء وأخبرته أن سيدتها سئمت عيشتها فأرسلت في طلب والدها.

توجَّه إلى زوجته وعيناه تقدحان شررًا، وأخذ يلعنها، ويتهمها بالفسوق، وقص شعر رأسها بالقوة، وطلقها ثلاثًا. ثم ألقى بها في الشارع، وأغلق الباب وراءها. ألا لعنة الله على الوغد الأحمق العجوز.

وبعد بضعة أيامٍ، وجد هذا البخيل ابن البخيل زوجة أخرى زوَّجها إياها قومٌ أرادوا أن يستميلوا القاضي. ولكن بعد ثلاثة أيام من عيشة البصل ثارت ثائرة المسكينة فطلَّقها. ومع ذلك لم يعتَبِر الناس الراغبون في كسب ودِّ هذا العجوز الكريه مما جرى لزوجتيه السابقتين، فتزوج عدة فتياتٍ، ولقين منه المعاملة ذاتها، فكان يطلقهن بعد يومٍ أو ما شابهه لأنهن لم يُطقن العيشة على البصل.

ولكن بِمرور الوقت شاعت كثرة طلاقاته في البلاد حتى صارت حديث النساء اللائي أجمعن على عدم تزويجه بعد اليوم.

وحين ألفى القاضي النساءَ عازفاتٍ عنه، راح إرثُ أبيه يعذبه، فصار يمشي طويلًا لعلَّه يخفف من حِدَّته. وذات مساءٍ، رأى امرأةً تقترب منه على ظهر بغلٍ أشهب، ففتنته بملابسها المُتْرفة وجمالِ قَدِّها. راح يفَتِّل طرفَيْ شاربَيْه البائسيْن وانحنى لها باحترامٍ وهو يقول، "من أين قَدِمْتِ، يا ابنة الكرام؟" فقالت له، "من هذا الطريق." فأجابها وهو يكتم ضحكته، "أعرف ذلك، أعرف ذلك. ولكن من أي مدينة؟" فقالت له، "من الموصل." سألها، "وهل أنت متزوجة أم عزباء؟" فأجابته، "بل عزباء." فقال لها، "إن شئت أن تتزوجي، فأنا عاقدٌ العزم

على أن أكون زوجَك." فقالت له، "دُلَّني على مسكنك، وسأُخبرك غدًا." فأخبرها القاضي أين يسكن، ولكنها كانت تعرفه سلفًا، تعرفه سلفًا. فودَّعته بنظراتٍ ساحرةٍ من طرف عينيها.

وفي الصباح التالي، أرسلتْ رسالةً إلى القاضي تقول فيها إنها ستتزوجه إن دفع لها مَهرًا قَدْرُه خمسون دينارًا. ونازعت البخيلَ نفسُهُ، ولكنه أرسل إليها الخمسين دينارًا، وأمر الجارية السوداء أن تأتيه بالعروس. وما إن وصلت الفتاة إلى بيته، حتى كُتِب عقدُ القران، ومضى الشهود بلا طعام.

وفي الحال نادى القاضي الجارية السوداء وقال، "افرشي السُّفرة المذهبة." وحين أُحضِرَ الصحنُ وفيه ثلاث كِسرٍ يابساتٍ وثلاث بصلات، تناولت العروس الجديدة حصتها وأكلتها بتلذُّذ وهي تقول، "الحمد الله على هذه الوجبة الرائعة." ثم ابتسمت ابتسامةَ امتنانٍ للقاضي، فصاح، "وأنا أيضًا أحمده أن ساقَ إليَّ بِمنِّه وكَرَمِه زوجةً كاملةَ الفضائل، قنوعًا لا فرق عندها بين قليل اليوم وكثير الغد." ولكن الأحمق المأفون لم يكن يدري ما تدبره له تلك المرأة المُمتعة من مكرٍ.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان زوجها في الديوان، راحت الفتاة تفتش جميع غرف المنزل، فعثرت أخيرًا على خزانةٍ مقفلٍ بابُها بثلاثة أقفالٍ كبيرة ومُدعَّم بثلاثة قضبانٍ حديدية متينة. راحت تطوف وتطوف حول الخزانة بفضولٍ شديد إلى أن عثرت أخيرًا على ثقبٍ في واحدٍ من القوالب يكاد يسمح بمرور أصبعٍ. ولما ركَّزت بصرها عليه، فرحت فرحًا شديدًا لما رأت كل ما كَنَزَه القاضي من ذهبٍ وفضةٍ في جِرارٍ نحاسية مفتوحة وموضوعة على أرض الخزانة. كانت مصممة على الانتفاع بهذا الاكتشاف، فأتت بجريدة نخل طويلة، فدهنت طرفها بمادة لزجة، ثم مررتها عبر الثقب في القالب. ثم لوت الجريدة في فم إحدى الجِرارِ، فالتصق بها عددٌ من قطع الذهب، وأخرجتها وهي مزهوة بانتصارها. عادت إلى حُجرتها، وأعطت النقود للجارية السوداء، وقالت لها، "اذهبي إلى السوق واشتري لنا أرغفةً من الخبز المرشوش بالسمسم، وبعض الأرز بالزعفران، ولحم الضأن الطري، وأجود أنواع الفاكهة والحلوى التي تجدينها." ذهبت الجارية السوداء وهي في غاية الذهول وأحضرت كل هذه الأشياء اللذيذة لسيدتها التي أعطتها منها مثل ما أخذت لنفسها. صاحت المرأة العجوز المسكينة، "يا نور عيني، جزاك الله شحمًا أبيضَ جميلًا على كرمك، فأنا لم أذق قط مثل هذا الطعام." فقالت لها الفتاة، "يمكنك أن تأكلي مثل هذا كل يومٍ إن كتمتِ السر ولم تبوحي بشيءٍ للقاضي." فقبَّلت الخادمة يدها ووعدت بألا تبوح بشيء.

وحين عاد القاضي ظهرًا، قال، "افرشي السُّفرة المذهبة،" ولكن زوجته قدمت له بقايا وجبتها اللذيذة. أكل القاضي بنهمٍ حتى لم تعد معدته تتسع للمزيد، ثم سأل عن مصدر هذه المؤونة. فقالت الفتاة، "سيدي العزيز، في هذه المدينة لدي أقرباء كثيرون، وأرسل إليَّ أحدهم هذه الأطباق. وما كنت آبه بها لولا فرحتي بمقاسمتها معك." وفرح القاضي في سِرِّه لزواجه من هذه المخلوقة.

وفي الصباح التالي، لم تكن جريدة النخل أقل نجاحًا، وتمكنت الزوجة من شراء خروف محشوٍّ بالفستق وغيره مما لذَّ وطاب. ثم دعت بعض جاراتها ليأكلن معها، وظلت جميع النساء يتلذذن بالطعام حتى حانت عودة القاضي. وبُعَيْد مغادرة الضيفات، وقد وُعِدْن بتكرار مثل هذه الصباحات، دخل القاضي وأمر الجارية السوداء أن تفرش السُّفرة المذهبة. ولكن حين قدمت له زوجته أطعمةً أشهى وأكثر مما قدمت له في اليوم السابق، انتابه شيءٌ من القلق، فسأل زوجته كيف تسنّى لها أن تحصل على هذه الأشياء المكلفة. فأجابته الفتاة بلا تردد، وكانت هي من تقوم على خدمته، "سيدي العزيز، لا تحمل همَّ طعامنا بعد اليوم. لقد أرسلت إليَّ إحدى عماتي هذه الأطباق القليلة البسيطة. ويُسعدني أن يشبع سيدي." هنأ القاضي نفسه على زواجه من هذه الفتاة الحَفِيَّة الكثيرة الأقارب، ثم راح يحشو بطنه إلى أقصى ما تستطيع.

مرت سنةٌ على عيشته كذلك، فَسَمِن القاضي وصار له كَرِشٌ كبيرٌ يُضرَب به المثل، فيقول الناس عن الشيء، "إنه كبير مثل كرش القاضي" أو "عجيب مثل كرش القاضي." لم يكن المغفَّل المسكين يدري أن زوجته كانت قد أقمست أنها ستنتقم لكل أولئك الفتيات العاثرات الحظ اللائي جوَّعهن وجزَّ شعورهن ورماهن في الشارع. وإليكم كيف نفذت خطتها.

ومن بين الجارات اللاتي كانت تُطعمهن كل يوم امرأةٌ حامل، وهي زوجة حمّال محتاج، وأمٌّ لخمسة أطفال. وذات يوم قالت لها مُضيفتها، "يا جارتي العزيزة، بما أن الله أعطاكِ عائلة كبيرةً ولا شيء سوى ذلك إلا القليل، فهلا أعطيتني وليدك حين يولَد لعلّي أُرَبّيه أنا العاقر التي لم تُرزق بولد؟ فإن وافقت ووعدتني بأن تحفظي السرَّ، فلن يقرصَك الفقر ولا ذَويكِ بعد اليوم." قبلت زوجة الحمال هذا العرض ووعدت بكتمان الأمر. وفي اليوم الذي كتبه الله، ولدت المرأة صبيًا يبلغ حجمه ضعف حجم رضيعٍ عادي، فتلقَّفته زوجة القاضي.

في ذلك الصباح أعدت الفتاة طبقًا من اللوبياء والبازلاء والفاصولياء البيضاء والملفوف والعدس والبصل والثوم وغيرها من الحبوب العسيرة الهضم والتوابل المطحونة. وكانت معدة القاضي فارغة تمامًا حين عاد إلى البيت من أجل الغداء، فظل يلتهم طعامه حتى أتى عليه

كله، ثم قال لزوجته، "أعِدّي لي طبقًا مثل هذا كل يوم. إنه ينساب بيُسرٍ ولذَّةٍ في البلعوم." فقالت له زوجته، "هنيئًا مريئًا إن شاء الله."

هنَّأ القاضي نفسه، كما فعل مرارًا من قبل، على اختياره هذه الزوجةَ الرائعة، ولكن بعد ساعة بدا واضحًا أن بطنه راحت تنتفخ. ودوَّى في بطنه دويٌّ كأنه هديرُ عاصفةٍ بعيدةٍ. وهزت أركانَ كيانه أصواتٌ هادرةٌ خفيضةٌ ورُعودٌ بعيدةٌ أعقبتها نوباتٌ من المغص الحاد والتشنجات والألم الشديد. اصفرَّ وجهه ثم راح يتلوّى على الأرض ويصرخ وهو يُمسك بطنه بكلتا يديه، "يا الله، يا الله. أشعر بعاصفةٍ فظيعةٍ في جوفي. فمن يخلصني منها؟" وسرعان ما صار كرشه مشدودًا كأنه ثمرة يَقْطين، وجاءت زوجته راكضةً على صراخه. فجعلته يَلْهَم مسحوقَ اليانسون والشِّمْر، فآتى ذلك أُكُله سريعًا، وراحت تواسيه وتشجعه وتفرك الجزء المتألِّم وتُربِّت عليه، كأنه طفل صغير مريض. فجأةً توقفت يدها عن الحركة، وصرختْ صرخةً مُجلجلة، "يوه، يوه، إنها معجزة، معجزة. يا سيدي، يا سيدي!" فقال القاضي متلعثمًا ويتلوّى من الألم، "ما الأمر؟ وما هي المعجزة؟" ولكن لم تجبه إلا بقولها، "يوه، يوه. يا سيدي، يا سيدي!" فصاح بها، "قولي لي ما الأمر!" فمررت يدها على بطنه العاصفة وقالت، "سبحان اسمه الأعلى الذي يقول كُن فيكون. فمَن ذا الذي يطَّلِع على مقاصده الخفية، يا سيدي؟" فقال القاضي لاهثًا بين صرختين، "لعنك الله لتعذيبك لي على هذا النحو! ما الأمر؟ قولي لي حالًا!" فقالت له زوجته، "سيدي، يا سيدي العزيز، ما شاء الله كان، إنك حامل! وقد حان وقت ولادتك!"

نهض القاضي عندما سمع هذا الكلام الذي لا يُصدَّق وصاح بها، "وهل جُنِنْتِ؟ كيف لرجلٍ أن يحبل؟" فأجابته، "لا أدري والله، ولكن الطفل يتحرك في بطنك؛ وقد شعرت به وهو يتحرك ولمستُ رأسه. إن الله يُنجِب خلقَه كيف يشاء، تبارك اسمه. صلِّ على النبي، يا زوجي." فقال القاضي وهو يئنُّ، "صلوات الله عليه!" ثم ازدادت آلامه ووقع على الأرض من شدة الألم. وفجأةً جاء الفَرَج. خرجت منه ضرطةٌ طويلةٌ مُدَوِّيةٌ هزت أركان البيت وقذفته بعُنفٍ إلى الأمام، فأُغمي عليه. ثم تلت ذلك ضرطاتٌ أخرى، كانت أخْفَتَ صَوْتًا ولكنها ظلت تتوالى ويتردد صداها في هذا الجو المضطرب. وأخيرًا، خرج انفجارٌ وحيدٌ يصِمُّ الآذان، وسَكَنَ كل شيء.

وحين استعاد القاضي وعيه شيئًا فشيئًا، رأى فراشًا صغيرًا إلى جانبه يرقد عليه وليدٌ جديدٌ في القِماط وكان يصرخ ويُكَشِّر. انحنت زوجته عليه وهي تقول، "الحمد لله ولرسوله

على قيامك بالسلامة!" ثم راحت تتمتم بكل اسمٍ مقدسٍ فوق زوجها والطفل حتى لم يعد القاضي يدري: أكان يحلم أم ما لاقاه من عذابٍ قبل حينٍ قد أدار رأسه. ولكن حين راح يُقَلِّب المسألةَ بِرُوِيَّةٍ، أجبرته رؤية الطفل وتَوَقُّف ألمه وذكرى العاصفة التي خرجت من بطنه على أن يصدق هذه الولادة المعجزة. وكذلك دفعته عاطفة الأمومة إلى قبول الطفل، فقال، "حقًا، إن الله يخلق عباده حيث يشاء. فحتى الرجل، إن قدَّر الله له ذلك، يمكن أن يحبل في أوانه المناسب. إيتيني بمرضعةٍ، يا زوجتي العزيزة، فأنا لا أستطيع أن أُرضع الطفل." فقالت له الزوجة، "لقد فكّرت في الأمر سلفًا، ولدي مرضعةٌ تنتظر عند الحريم. ولكن حليب الأم خيرٌ من كل شيء. فهل أنت متأكد أن ثديَيْكَ لم يَدِرّا؟" فتحسس القاضي نفسه بلهفةٍ وأجاب، "لا، ليس فيهما شيء."

فرحت الزوجة الشابة بنجاح خطتها، وبعد أن أعلمت القاضي أن عليه ملازمة الفراش أربعين يومًا وليلةً، أعطته من الأدوية ما يُعطى عادة للمرأة النَّفْساء ولاطفته بيدها حتى راح يغطُّ في نوم عميق. نام العجوز نومًا طويلًا لِمَا عاناه من المغص، وحين استفاق وجد جسمه وعقله مُتعبَيْن.

وكان أول همّه أن يوصي زوجته بكتمان السر، إذ قال، "سأضيع إلى الأبد إن علم الناس أن القاضي قد وَلَدَ طفلًا بالفعل." وبدلًا من أن تطمئنه زوجته، قالت له، "ولكننا لسنا الوحيدين الذين يعلمون بهذه الولادة المعجزة. فكل جيراننا عرفوا بالأمر من المرضعة. وأخشى أن منع الخبر من الانتشار في المدينة لن يقل صعوبة عن لجم لسان المرضعة في المقام الأول. فكلهم ثرثارون."

لازم القاضي الفراشَ أربعين يومًا في عذابٍ مقيم، إذ لم يكن يجرؤ على الحركة خشية المضاعفات والنزف الداخلي. وكان يتأمل طوال الوقت في هذه الحادثة الشنيعة، ويقول لنفسه، "لا شك أن أعدائي سيتهمونني بكثيرٍ من الأشياء السخيفة. سيقولون إنني يُلاط بي، وأنه لا عجب أن أقسو على الناس في أحكامي ما دمتُ قد انغمست في مثل هذه الرذائل الغريبة إلى درجةٍ جعلتني أحبل. أُقسم بالله، إنهم سيتهمونني، أنا قاضيهم الفاضل، باللواط. لقد كدت أن أنسى مهنة القضاء."

وظل يقلب الأمور على هذه الشاكلة وهو لا يعلم أن بخله هو سبب كل مصائبه. وكلما فكر في الأمر أكثر، ساءه ما بدا له من حاله المزرية. وحين أخبرته زوجته أخيرًا أنه بإمكانه أن ينهض من غير أن يخشى المضاعفات، استحم في البيت لأنه لم يجرؤ على الذهاب إلى حمام

السوق. وأخيرًا عزم على الرحيل من مدينة طرابلس مخافةَ أن يعرفه الناس في الشوارع. فأعلم زوجته بما عقد العزم عليه، فتظاهرت بالحزن العميق لتركه منصبه الرفيع، ولكنها جعلته أكثر تصميمًا على الرحيل حيث قالت له، "لا شك أن الألسنة الخبيثة تلوك قصتك الآن، ولكن سرعان ما تُنسى. عندئذٍ، يمكنك أن تعود وتكرس نفسك لتربية طفلك ... أعتقد أنه من الأفضل أن نسميه معجزة." فقال لها، "سمِّيه ما تشائين." وفي تلك الليلة، غادر المدينة خلسةً، تاركًا بيته وطفله في عهدة زوجته، واتجه قاصدًا دمشق.

وصل دمشق منهكًا، لكنه مسرور أن لا أحد يعرف اسمه أو قصته. ولكنه خلال ساعات قليلة، سمع حكاية ما جرى له تُروى مراتٍ عديدةً في كل الأماكن العامة في المدينة. وكان كل راويةٍ جديدٍ، وهذا ما كان يخشاه، يضيف بعض التفصيلات الطريفة ليثير ضحك سامعيه، كأن ينسب للقاضي أعضاءً عجيبةً، أو يُسبغ عليه من الأوصاف ما لم يجرؤ هو على تسميته. وما إن حلَّ الليل حتى تجرأ وتوقف لسماع حكايته يرويها غيرُه. وفي الحقيقة، حين سمع نفسه يُتَّهَم لا بولادة طفل واحد فحسب بل بولادة عائلةٍ كاملةٍ، لم يتمالك نفسه من الضحك قليلًا، فراح يتمتم، "فَلْيقولوا ما يشاؤون ما داموا لا يعرفون وجهي."

ومع أنه عاش في دمشق عيشةً أبخل من ذي قبل، إلا أن مؤونته من المال نفدت أخيرًا، فاضطر إلى بيع ثيابه لشراء الخبز. وفي نهاية المطاف، عَمِل طيَّانًا لدى بَنّاءٍ بدلًا من أن يرسل رسالةً إلى زوجته إذ سيضطر لإفشاء مخبأ كنزه.

ومرت السنون والقاضي، الذي راح أهل طرابلس يلعنونه كل ليلةٍ، يهزل شيئًا فشيئًا حتى صار كقطةٍ محبوسةٍ في إسطبل. وأخيرًا، اقتنع أن السنين محت ذكرى مصيبته، فغادر دمشق إلى مسقط رأسه، وليس له من صورته الأولى إلا شبحٌ من جِلْدٍ وعظمٍ. وحين اجتاز البوابة، رأى مجموعة من الأطفال يلعبون، وسمع أحدهم يقول للآخر، "وكيف تتوقع أن تفوز وقد وُلِدْتَ في سنة القاضي أبي الضرطات؟" فتمتم القاضي في سره قائلًا، "الحمد لله الذي أنساهم حكايتي، وجعل قاضيًا آخر مضربًا للأمثال عند الأطفال." ثم توجَّه إلى الصبي الذي تكلم وسأله، "ومن هو هذا القاضي الذي يُدعى أبا الضرطات؟" فأجابه الولد، "لقد لُقِّب بهذا اللقب حين ضرط ذات يومٍ ضُراطًا مُجَلْجِلًا، فجعلته زوجته يظن أنه ..." ولكن لا حاجة لتكرار تلك الحكاية التعيسة في هذا المقام.

أدرك القاضي لأول مرة أن زوجته قد خدعته، فترك الأطفال وركض مسرعًا إلى بيته. ولكنه وجد أبوابه مُشرعةً للرياح، وقد تهشمت أرضه، وتهاوت جدرانه. وفيما تبقى من خزانة

الكنز، لم يجد صفراء ولا بيضاء، ولا حتى رائحةً أو إشارةً تُشير إلى وجود شيءٍ من هذا القبيل. وحين سمعه الجيران ينتحب، أخبروه، وهم يضحكون، أن زوجته قد يئست من عودته إليها حيًّا، فارتحلت بكنوزه إلى بلاد بعيدة. فغادر تلك المدينة من غير أن ينبس ببنت شفة، ولم يُسمَع له ذِكْرٌ بعد ذلك أبدًا.(١٨)

لا تزال القصة تُروى إلى يومنا هذا.

الرجل الذي أنجب طفلًا

في يوم من الأيام كان هناك رجلٌ يظن أن النساء يبالغن في حديثهن عن مصاعب الوضع. فهو يقول إنه من الطبيعي أن تلفظ النساء الأطفال ولا يتوجعن جراء ذلك أكثر من إخراج دودة شريطية. غضبت زوجته من تبجُّحه هذا، فقالت له، "لا بأس، سأرتب مع الطبيب لكي تضع مولودنا التالي، وسنرى كيف يعجبك ذلك." فضحك صاحبنا، وقال إنه راضٍ بهذا الشرط العادل، وأنهما سيتبادلان الأدوار من الآن فصاعدًا.

وفي أولّ سانحةٍ ثَمِلَ فيها صاحبنا، قيَّده أهله إلى السرير بالأربطة، وأعطوه من زيت حبِّ الملوك ليُسْهِل، وسدَّ الطبيب فتحة شرجه بِسُدادةٍ كبيرة من لاصقٍ متين. وفي صباح اليوم التالي، انتفخت بطن الرجل كأنها بالون، وملأ صراخه أرجاء المدينة. فقال له الطبيب، "هَوِّن عليك، فهذه الآلام لا تدوم إلا أربعَ ساعاتٍ أو خمسًا." وراح صاحبنا يرفس حتى أقام الدنيا ولم يُقْعِدها، فاضطرت العائلة بأكملها لتثبيته في سريره. وأخيرًا، جاء الطبيب بقردٍ أليف صغير ودسه تحت اللحاف، ثم نزع السدادة اللاصقة من شرجه. فشهق المريض شهقةً وسَلَح على نفسه. امتلأ السرير بالبراز، بل سالَ منه على السجادة كذلك. وفي هذه اللحظة بالذات، خرج القرد، وهو يمسح البراز من عينيه، ويقهقه. وما إن رأى صاحبُنا القردَ حتى راح يصرخ بصوت أعلى من قبل، وهو يقول، "ما خطب ابن الزانية هذا يقهقه كالأحمق بينما أمه المسكينة تموت؟" فابتسم الطبيب مضطرًا، وكادت الزوجة أن يُغمى عليها من الضحك.

وبعد أن غادر الطبيب هو وقردُه، راح القوم ينظفون البيت، واستغرق الأمر منهم يومًا كاملًا قبل أن يُعيدوا الأمور إلى سابق عهدها. وعندما استعاد صاحبنا وعيه، أكد له الجميع أنه

(18) Mardrus, J. C., *The Arabian Nights, The Book of the Thousand Nights and One Night*, translated by Powys Mathers, London, Routledge & Kegan Paul, pp. 136-47.

رأى كل ذلك في المنام، ونصحه الطبيب بالتخفيف من المشروب. فامتنع صاحبنا عن الشرب مدةً طويلةً بعد ذلك، وكفَّ عن الزعم أن النساء لا يجدن عَنَتًا في وضع الأطفال.(١٩)

إن أشْيَعَ الأشكال الأوربية لهذه الحكاية الشعبية يتمثل في حكاية هزلية عن كاهن أو قسيس مثل "القسيس والعِجْل" أو "البابا الذي وَلَد عجلًا" في نسختها الروسية، إلخ، إذ تختلف الظروف التي يحبل فيها القسيس. أما في الأدب، فلا يروي بوكاچيو في «ديكاميرون» (الليلة التاسعة، الحكاية الثالثة) حكايةَ قسيسٍ بل حكاية رجل غبي يُوهَم بدايةً أنه حامل وأنه قد أجهض لاحقًا. ومع أن هانز زاكس ونيكولا دو تروا وستراپَرولا قلَّدوا «ديكاميرون» إلا أن هذا أحد الأمثلة التي لم يصبح فيها هذا النمط الحكائي هو الشكل السائد. ويبدو أن الولادة (على هيئةِ ضرطةٍ) قد وصلت الكتابة الغربية عبر «پِنتاميرون» لجيامباتيستا بازيلي في ناپولي سنة ١٦٣٤ (اليوم الثاني، الحكاية الثالثة)، إذ يظن غولٌ أحمقُ، وهو يروي حكايةً مختلفةً تمامًا، أنه وضع فتاةً صغيرةً. وهذا النوع من الفكاهة شائعٌ عالميًا بطبيعة الحال، وقد عرفه اليونانيون القدامى وإن بشكل أكثر حِذْقًا كما في «برلمان النساء» لأرستوفانيس، إذ يتضرع رجلٌ مصابٌ بالإمساك لإلهة الولادة لتُفَرِّج عنه.

٨- مكائد النساء

في الليلة التالية، قالت دُنْيازاد لأختها شهرزاد، "يا أختاه، إن لم تكن بك رغبةٌ للنوم، هلَّا رويتِ لنا حكايةً نُزجي بها ساعات الليل الطويل." فقالت، "حبًّا وكرامة. لقد بلغني، أيها الملك السعيد، أنه كان في مدينة بغداد شابٌ وسيمٌ، كريم الأصل، واسع الفضل، طويل القامة، ممشوق القوام. وكان اسمه علاء الدين، وكان من رؤساء أبناء التجار، وكان له دكان يبيع فيه ويشتري. وذات يوم، وبينما كان يجلس في دكانه، مرت به غادةٌ فاتنةٌ رفعت رأسها، وألقت نظرةً على التاجر الشاب ورأت على ناصية باب دكانه عبارة مكتوبة بخط انسيابي تقول، 'لا كيد مثل كيد الرجال لأنه غلب كيد النساء.' وحين رأت هذه الكلمات تملَّكها الغضب وتشاورت مع نفسها وقالت، 'وحياةِ رأسي، لن يهدأ لي بالٌ حتى أُريه من أعاجيب كيد النساء ما ينقض نقشه هذا!' وهكذا عادت إلى بيتها، وفي الصباح جهزت نفسها ولبست أفخر ثيابها، وتزينت بأثمن حِلِيِّها، وخضبت يديها بالحناء. ثم أطلقت ظفائرها على كتفيها، ومضت تمشي مشي مغناجٍ وتتبختر تَبَخْتُرَ عاشقةٍ، تتبعها جاريتها وهي تحمل صُرَّةً، حتى

(19) Randolph, Vance, *Pissing in the Snow,* University of Illinois, 1976, pp. 23-24.

وصلت دكان التاجر الشاب، ثم جلست بذريعة أنها تتبضع، فسلَّمت عليه وطلبت منه أن يُريها بعض الأقمشة. أخرج لها عدة أنواعٍ، فأخذتها وقلَّبتها، وهي تحادثه. فقالت له، 'انظر إلى جمال قدّي ومظهري! فهل ترى فيَّ عيبًا؟' فأجابها، 'لا، يا سيدتي.' ثم سألته أيضًا، 'هل يحق لأحدٍ أن يفتري علي ويقول إنني حدباء؟' ثم كشفت له جزءًا من صدرها، وحين رأى ثدييها طار عقله من رأسه، وتعلق قلبه بها وصاح، 'اسْتَتِري، ستركِ الله!' ثم قالت، 'وهل لمخلوقٍ أن يُنكِر مفاتني؟' فقال، 'وكيف لأحدٍ أن ينكر مفاتنك وأنتِ شمسٌ بهية؟' ثم قالت، 'وهل يحق لأحدٍ أن يقول إنني عَضْباء؟' ثم شمَّرت كُمَّيها وأرته ذراعين كأنهما زُجاجٌ مُمَرَّد، وبعد ذلك كشفت له عن وجهٍ كأنه البدر التمام في ليلته الرابعة عشرة، وسألته، 'هل يحق لأحدٍ أن يفتري علي ويقول إنني مَجْدورة الوجه، عوراء العين، مصلومة الأذن؟' فقال لها، 'ما الذي يدفعك، يا سيدتي، لكي تكشفي لي عن ذلك الوجه المشرق وتلك الأطراف الجميلة التي حَرِيٌّ بك أن تستريها وتحميها؟ أخبريني بحقيقة الأمر، جُعِلْتُ فداكِ!' ثم ارتجل قائلًا:

نشـرتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شَعْرها　　في ليلـــةٍ فَـــأَرَتْ ليـــالي أربَعا
واســـتقبلت قَمَرَ السماء بوجهها　　فأرتنـــي القَمَرَيْـــنِ في وقتٍ معا

ثم قالت الفتاة للتاجر الشاب، 'اعلم، يا سيدي، أنني فتاة تلاقي الأمرَّيْن من سيدي الذي يقول لي إني قبيحة المنظر والمظهر، ولا يليق بي أن أرتدي الملابس الفاخرة، لأنني في مقام الإماء، لا فرقَ بيني وبينهن. وهو رجلٌ ثري يمتلك ثروةً هائلة من المال، وهو لا يقول هذا إلا لأنه بخيل ويضِنُّ عليَّ ولو بقرش. ولهذا يرفض تزويجي مخافةَ أن تلحقه بعض التكاليف، مع أن الله سبحانه وتعالى قد منَّ عليه من فضله بالمال وجاه الدنيا.' فسألها الشاب، 'ومن هو أبوك وما هي صنعته؟' فقالت، 'إنه قاضي القضاة المشهور الذي يعمل تحت إمرته جميع القضاة الذين يقضون بين الناس في هذه المدينة.' صدَّقها التاجر، فودَّعته وارتحلت تاركةً في نفسه ألفَ حسرةٍ، إذ شغفته حبًّا، ولم يكن يدري كيف يفوز بها. فقد هام بحبها، وتشتت ذهنه حتى لم يعد يعرف أحيٌّ هو أم ميت. وما إن غادرته حتى أغلق دكانه وتوجه إلى دار القضاء، وذهب إلى قاضي القضاة وسلَّم عليه. ردَّ القاضي تحيته بأحسن منها وأجلسه إلى جانبه. ثم قال له علاء الدين، 'أتيتك راغبًا في مصاهرتك وطالبًا يد كريمتك.' فقال القاضي، 'أهلًا بك، يا سيدي التاجر، ومرحبًا، ولكن ابنتي لا تليق بأمثالك، ولا بملاحة شبابك، ولا برقة طبعك،

ولا بعذب كلامك.' ولكن علاء الدين قال، 'لا يليق هذا الكلام بك، ولا يجدر أن يصدر عن رجل مثلك. فإن كنت أنا راضيًا بها، فما يضيرك أنت؟' وهكذا رضي القاضي واتفقا على مُقَدَّمٍ قدره خمسُ بَدْراتٍ من المال ومؤجَّل قدره خمسون بَدْرَةً، وذلك لكي يصعب عليه طلاقُها، بعد أن نصحه والدها وحذره ولم يقبل النصح. ثم كتبا صك العقد، وقال التاجر، 'أريد الدخول بها الليلة.' وهكذا حملوها إليه في موكبٍ في ذلك المساء، ثم صلى العشاء، ودخل المخدع المُعَدَّ له، ولكن حين أزاح الطرحة عن رأس العروس ورفع الخِمار عن وجهها ونظر، رأى وجهًا قبيحًا وسحنةً تبعث على الغثيان. لقد رأى وجهًا لا أراك الله مثله! فقد كان كريهًا يفوق الوصف وفيها من كل ما يُحْسَب من المعايب الشرعية. فندم حين لا ينفع الندم وعرف أن الفتاة خدعته.

وقد دخل التاجر التعيس بالعروس القبيحة وهو غيرُ راغبٍ، وأمضى تلك الليلة مُكَدَّر الخاطر كما لو أنه في سجن الديلم. وما إن بزغ الفجر حتى نهض من جانبها وقصد أحد الحمامات، وغفى هناك هُنَيْهَةً، ثم اغتسل من الجنابة وارتدى ملابسه اليومية. ثم ذهب إلى المقهى وشرب فنجانًا من القهوة، وعاد بعد ذلك إلى دكانه. فتح بابه وجلس والهم والحزن باديان على وجهه. وبعد ساعةٍ أو نحوها، بدأ أصدقاؤه وخِلانُه من التجار وأهل السوق يتوافدون عليه مثنىً وفُرادى ليباركوا له وهم يقولون له ويتضاحكون، 'مبارك، مبارك! أين الحلوى؟ وأين القهوة؟ يبدو أنك نسيتنا، وما نسيتنا إلا بسبب مفاتن العروس التي شردت بلُبِّك وأخذت عقلك، أعانك الله! تهانينا، تهانينا.' وراحوا يسخرون منه وهو صامت، ويود لو يمزق ثيابه أو يذرف الدموع من الغضب. ثم تركوه، وحين حانت ساعة الظهر، جاءته سيدته الفتاة الماكرة، تجرجر أذيالها وتتمايل في مشيتها كأنها غصنُ بانٍ في حديقةٍ غَنّاء. وكانت ثيابها أفخر، وزينتها أبهى، وقدُّها أكثر جذبًا وتساوقًا من اليوم السابق. وكان المارة يتوقفون ويتجمعون حولها ليحملقوا فيها. وحين جاءت إلى دكان علاء الدين، جلست عنده وقالت، 'صباحُك مبارك، يا سيدي علاء الدين! زادك الله من نعمه وخيره، وأتمَّ سرورك، وكلَّل زواجك بالرفاء والبنين!' وكان ردُّه عليها أن قطّب حاجبيه وعبس في وجهها. ثم سألها، 'أين قصَّرتُ في واجبك أو كيف آذيتك بفعلٍ لكي تمتحنيني هكذا؟' فأجابته، 'خلاكَ عيبٌ وذمّ، ولكن ذلك النقش المكتوب على باب دكانك هو الذي يُغيظني ويُنكِّد عليَّ. فإن كانت لديك الشجاعة لتغيره وتكتب خلافَه، فسأنجِّيك من شر محنتك.' فقال لها، 'إن شرطك هَيِّن، وهو على الرأس والعين!' ثم أخرج دينارًا ونادى على أحد مماليكه وقال له، 'اذهب إلى فلان الكاتب

وقل له أن يكتب لنا هذه العبارة بماء الذهب واللازورد، لا كيد ككيد النساء، إن كيدهن عظيم، فقد غلب أكاذيب الرجال وهزمها، فقالت للمملوك الأبيض، 'هيّا اذهب.' فانطلق إلى الكاتب الذي كتب له اللفافة، فعاد بها إلى سيده الذي وضعها على الباب وسأل الفتاة، 'هل رضيتِ؟' فقالت، 'نعم! والآن انهض واذهب إلى المكان المقابل للقلعة، واجتمع بكل المشعوذين ومُرَقِّصي السعادين وسائسي الدببة والطبّالين والزمّارين، وقل لهم أن يوافوك باكرًا في صباح اليوم التالي حاملين معهم طبولهم وآلاتهم، بينما أنت تتناول القهوة مع حميِّك القاضي، ليهنئوك ويباركوا لك ويقولوا لك، مباركٌ، يا ابن العم. إنك قُرَّة عينٍ لنا! وإننا فرحون لك، وإن كنت تخجل منا، فإننا نفخر بك، واعلم أنه حتى لو أبعدتنا عنك، فلن نتخلى عنك ولو هجرتنا. ثم انثر عليهم الدراهم والدنانير، وعندها سيسألك القاضي، فقل له إن والدك كان مرقّص سعادين، وإن هذه هي حالكم في الأصل، وإن الله فتح عليكم وصار لكم اسمٌ بين التجار وشيخ طائفتهم. وعندها سيقول لك، إذن أنت مرقّص سعادين من معشر المشعوذين؟ فقل له إنك لا يمكن إطلاقًا أن تُنْكِر أصلك من أجل ابنته وسمعتها. وسيقول لك القاضي، لا يليق بك أن تقترن بابنة شيخٍ يجلس على بساط القضاء ويعود نسبه إلى رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، كما لا يليق بابنته أن تكون على عصمة رجلٍ مرقّص سعادين ومُغَنٍّ. فقل عندها، ولكن يا أفندي، إنها زوجتي على سنة الله ورسوله، وكل شعرةٍ منها تساوي عندي ألف نَفْسٍ، وإنني لن أطلقها ولو أُعطيتُ مُلْك الدنيا. ولكن في النهاية ارضَ بتطليقها، وحينها سيصبح الزواج لاغيًا، وينجو كلاكما من الآخر.' فقال علاء الدين، 'لقد أصبتِ في مشورتك.' ثم أغلق دكانه، وتوجَّه إلى المكان المقابل للقلعة حيث اجتمع بالراقصين والطبالين والزمارين، وأوصاهم بما يجب عليهم فعله، ووعدهم بمكافأة كبيرة رائعة. فردوا على قوله، 'سمعًا وطاعة.' وفي صباح اليوم التالي، توجه بعد صلاة الصبح إلى حضرة القاضي الذي استقبله بحفاوة المتواضع وأجلسه إلى جانبه. ثم راح يسأله عن مسائل البيع والشراء وعن الأسعار الحالية لمختلف البضائع التي كانت تُحمَل إلى بغداد من كل الأصقاع، وكان صهره يجيبه عن كل أسئلته. وبينما هما يتحادثان على هذا النحو، جاء الراقصون والطبالون بطبولهم والزمارون بمزاميرهم يتقدمهم واحدٌ منهم وبيده رايةٌ طويلةٌ تشبه العَلَم، وراح يقوم بكل حركات المهرجين بصوته وأطرافه. وحين وصلوا إلى دار القضاء، صاح القاضي، 'أعوذ بالله من هؤلاء الشياطين!' فضحك التاجر ولم يقل شيئًا. ثم دخلوا وسلموا على القاضي، وقبَّلوا يد علاء الدين وهم يقولون، 'مباركٌ، يا ابن العم. أنت بحقٍّ قرةُ عينٍ لنا في كل ما تفعل، ونسأل الله أن يديم عظمة مولانا القاضي الذي

شرَّفنا بمصاهرته لك وخصَّنا بنصيبٍ من مقامه ومنزلته.' وحين سمع القاضي هذا الكلام، شُدِه عقله وأُصيب بالذهول واحمرَّ وجهُه، فقال لصهره، 'ما هذا الكلام؟' فقال له التاجر، 'ألا تعلم، يا مولاي، أنني من هؤلاء القوم؟ فهذا ابن عمي وذاك ابن خالي، وإن كنتُ أُعَدُّ من التجار، فذاك من قبيل المجاملة.' وحين سمع القاضي قوله، امتقع لونه واضطرب وكاد أن ينفجر من شدة الغضب. ثم قال للتاجر الشاب، 'معاذ الله أن يدوم هذا! فكيف يجوز أن تقترن ابنة قاضي المسلمين برجل من الراقصين الوضيعي الأصل؟ والله ما لم تطلقها في الحال، لآمُرنَّ بضربك وإلقائك في السجن، ولأحبسنَّك فيه حتى تموت. لو كنت أعلم أنك واحدٌ منهم، لَمَا جعلتك تدنو مني، ولَبصقتُ في وجهك، فأنت أشأم من الكلب والخنزير.' ثم رفسه رفسة أطاحته من مكانه، وأمره أن يطلقها، ولكن التاجر قال له، 'ارحمني، يا أفندي، فقد كتب الله على نفسه الرحمة، ولا تستعجل: فأنا لن أطلق زوجتي ولو أعطيتني مُلك العراق.' وقع القاضي في حيرة من أمره، وكان يعلم أن الإكراه مُحَرَّمٌ شرعًا، فتلطَّف للتاجر وقال له، 'استُرني، سَتَرَكَ الله. فما لم تطلقها، سيلاحقني العار حتى الممات.' ثم تملَّكه الغضب وقال، 'ما لم تطلقها الآن بمحض إرادتك، فسأقطع رقبتك وأقتل نفسي. فنار جهنم ولا الخزي.' فكر التاجر هُنيهةً ثم طلقها طلاقًا بائنًا علنيًا، وهكذا تخلص من همِّه الثقيل. ثم عاد إلى دكانه ثم جدَّ في البحث عن والد الفتاة التي فعلت به ما فعلت، وكان هذا شيخ طائفة الحدادين، ليخطبها منه. وهكذا تزوجها وعاشا بعد ذلك أهنأ عيشةٍ وأمتعها حتى الممات، والحمد لله رب العالمين.[٢٠]

وردت هذه الحكاية في القرن الخامس عشر في كتاب «فاكهة الخلفاء ومُجالسة الظرفاء» لابن عَرَبْشاه. ومن هناك وجدت طريقها إلى طبعة بِرِسْلاو لكتاب «ألف ليلة وليلة». ثم أخذها لوسكاليبه من ابن عَرَبْشاه كذلك وطبعها في «رحلات السندباد» سنة ١٨١٤، قبل أن يُعرَف نص بِرِسْلاو بوقت طويل. وطبعة بِرِسْلاو هي التي استخدمها بيرتِن في كتابه «حكايات مُلحقة بألف ليلة وليلة».

٩- الرجل الذي رأى ليلة القَدْرِ

ظل رجلٌ يتلهف طوال حياته لرؤية ليلة القَدْرِ، ولما اتفق ذات ليلة أن تطلَّع إلى السماء ورأى الملائكة وبوابات الجنة مفتوحةً ورأى الخلائق تسجد لخالقها، كلٌّ في موضعه، قال

(20) Burton, Richard, *Supplemental Nights*, Vol. 9, pp. 341-48.

لزوجته، 'اسمعي، يا فلانة، لقد أراني الله ليلة القدر، وقد بلغني من عالَم الغيب أن الله سيحقق لي ثلاث أمنيات، فأشيري عليَّ ماذا أتمنى.' فقالت له، 'أيها الرجل، إن تمام الرجل ومتعته في ذَكَرِه، فاطلب من الله أن يُطيله ويُكبِّره.' فرفع يديه إلى السماء وقال، 'يا إلهي، أَطِل ذَكَري وكبِّرْهُ.' وما إن نطق حتى كَبُرَ ذَكَرُه وصار كأنه قَرْعة، فلم يعد يستطيع الجلوس أو القيام أو الحركة. وكان إذا أراد مضاجعة زوجته، فرَّت أمامه من مكان إلى مكان. فقال لها، 'ما العمل، أيتها المرأة اللعينة؟ هذه هي أمنيتك التي تمنيتها بسبب شبقك.' فردت قائلة، 'لا والله، لم أطلب هذا الحجم الهائل الذي لا تتسع له بوابة طريق. اطلب من الله أن يجعله أصغر.' فرفع عينيه إلى السماء وقال، 'اللهم، خلِّصني من هذا الشيء ونجِّني منه.' وفي الحال، اختفى ذَكَرُه تمامًا وانمسح أثره. وحين رأته زوجته على هذه الحال، قالت له، 'لا حاجة لي بك بعد أن أصبحت بلا ذَكَر.' فقال لها، 'كل هذا من فساد مشورتك وقلة عقلك. كانت لي ثلاث أمنيات مستجابةٍ عند الله، وكان يمكنني أن أنتفع بها في الدنيا والآخرة. وها قد ذهبت اثنتان هباءً منثورًا بسبب شبقك، ولم تعد لدي سوى واحدة.' فقالت، 'ادعُ الله سبحانه وتعالى أن يعيد إليك ذَكرك كما كان.' فتضرع إلى ربه وعاد ذَكَرُه كما كان. وهكذا أضاع الرجل أمنياته الثلاث بسبب مشورة زوجته الفاسدة وقلة عقلها.(٢١)

هذه حكاية شديدة التنوع وتوجد في كل مكان وعلى مدى فترة طويلة. وهي تتعلق بالأمنيات السخيفة أو الأمنيات التي تُمنح بأشكال غير مقبولة مما يوجب إبطالها بأمنيات أخرى. وهذه القصة لها مثيلٌ في «پانچاتانترا» [كليلة ودمنة] ويُعتَقد عمومًا أن أصلها في النهاية يعود إلى الهند، ولكن أول من دوَّنها هو فيدروس المنقِّح الروماني لحكايات إيسوپ في القرن الميلادي الأول تحت عنوان "عُطارِد والمرأتان" إذ يمنح الإله عطارِد أمنية لكلٍّ من المرأتين. الأولى لديها غلامٌ رضيع، فتتمنى أن تراه وقد نبتت لحيته؛ والثانية تتمنى أن يتبعها كل ما تلامسه. وبالنتيجة، تنبت للطفل لحية، بينما تلامس الأخرى أنفها في غفلة منها، فيبدأ يلاحقها ويخبط بالأرض. من الأرجح أن حكاية الأمنيات الضائعة عبثًا هذه عاشت، كغيرها من حكايات إيسوپ، في المخزون العالمي لفلكلور الشرق الأدنى قبل فيدروس بوقت طويل، ولعلها تحولت إلى حكاية "ليلة القدر" قبل «ألف ليلة وليلة» بوقت طويل، ولكنها في كل الأحوال تتميز بكثرة التنويعات على فكرتها الأساسية. إذ يمكن أن تكون هناك أمنية واحدة

(21) Payne, *op. cit.*, Vol. 5, pp. 314-15.

لشخص أو شخصين أو ثلاثة، أو ثلاث أمنيات لشخص واحد، أو في أغلب الأحيان ثلاث أمنياتٍ لزوج وزوجته. فالزوجة تُفسد الأمنية الأولى، والزوج الغاضب يُفسد الثانية، وتذهب الثالثة لإصلاح الوضع وإعادته لسابق عهده.

ومن الموضوعات التي تتكرر باستمرارٍ منحُ الأماني من قبل إله أو مخلوق خارق للعادة كملكة الجنيات أو شبح الغابة أو العفريت أو الشيطان، إلخ. والشكل الذي شاع في أوربا كان عن المسيح وبطرس يمنحان أمنياتٍ لفلاح فقير استضافهما وأكرمهما. وقد شرح پين في حاشيةٍ على حكاية "الرجل الذي رأى ليلة القدر" العنصر الإلهي في قصة ليلة القدر. وهناك نسخة عربية حديثة جُمِعت منذ عهد قريب من عامة الناس في تونس، وهي تحكي عن زوج أعطاه الله ثلاث أمنيات. فيعطي زوجته واحدة، فتتمنى فورًا أن تصبح أجمل امرأة في الدنيا لتتمكن من ترك زوجها. أما الزوج فيتمنى أن تتحول زوجته إلى كلب، ولكن أبناءه يعترضون ويطلبون منه أن يتمنى عودتها إلى سابق عهدها.[٢٢] يتضح أثر الحكاية كما وردت في «ألف ليلة وليلة» فيما تناسل عنها من حكايات غربية متنوعة، ولكن القصة تُحَوَّر بصورة نمطية حتى تصبح كالحكاية التالية، بيد أن موتيف المُهلَّبية يعود على الأقل إلى حكايات [شارل] پيرو.

الأمنيات الثلاث

مرَّ زوجان عجوزان بأيامِ ضيقٍ حتى لم يعد لديهما طعام في يوم من الأيام. ولكن حين طرق بابَهما رجلٌ صغيرٌ وقال إنه جائع، أعطياه آخر كسرة خبز. وحين ارتحل، شكرهما وقال لهما، 'أنا ملكٌ في بلادٍ بعيدة. يمكنكما أن تتمنيا ثلاث أمنيات وستتحقق.'

ضحك العجوزان، ثم قالت الزوجة، 'آهٍ، لو أن الأماني تتحقق. أتمنى لو أن لدينا مُهلَّبية سوداء.' فإذا بمهلبية سوداء تهبط من المدخنة. فقال لها زوجها، 'أيتها الحمقاء، كان بإمكانك أن تتمني أي شيء، وكل ما تمنيته مُهلَّبية! يا ليتها التصقت بأنفك!' فإذا المُهلَّبية تلتصق بأنفها. أما الأمنية الثالثة فقد استُخْدِمت لإزالة المُهلَّبية عن أنف الزوجة.

ولم يكن أمامهما من شيء يفعلانه سوى أن يأكلا المُهلَّبية، وهذا ما فعلاه.

وقد كان من شأن قصة وليَم جيكُبز "كفُّ القرد" أن أشاعت هذه الحكاية من جديد وشَهَرَتْها. ولكن نبرة الحكاية مأساوية ومُروِّعة، إذ لا تتحقق رغبة الأب في المال إلا من خلال

(22) Bedier, *op. cit.*, p. 183, in a note referring to Liebrecht, *Orient und Occident*, Vol. 3, 378.

موت ابنه الوحيد المؤمَّن على حياته. وأمنية الأم أن يعود إليها ابنُها، وإن كان جثةً هامدةً، من القبر تلغيها رغبة الأب في أن يظل ابنه راقدًا بسلام. ولعلَّ جيكُبز قد تأثر هنا بالقصيدة السردية الإنجليزية القديمة "بئر زوجة أَشَر" إذ تستطيع أمٌّ أن تستعيد جثث أبنائها الثلاثة الغرقى ليلةً واحدةً كما لو كانوا أحياء. يتكرر موتيف عودة الأموات في كثير من القصائد السردية والأساطير الأوروبية، ولكنه ليس جزءًا من جوهر نمطنا الذي هو الحكاية المرحة والمُلْحة الطريفة.

١٠- زوجة التاجر والببغاء

في سالف الأزمان كان هناك تاجرٌ كثير الترحال، وكانت لديه زوجةٌ جميلةٌ يحبها ويغار عليها من شدة حبه لها. لذلك اشترى لها بمئة دينار ببغاءً أخضر يتحدث كإنسانٍ وكان يُخبره بكل ما يجري في غيابه. وبينما كان مسافرًا في إحدى المرات، وقعت زوجته في غرام شاب تركي كان يزورها وكانت تستضيفه وتعاشره في غياب زوجها. وعندما عاد هذا، أخبره الببغاء بما جرى، فغضب غضبًا شديدًا وكاد أن يقتل زوجته. ولكنها قالت، 'اتقِّ الله، يا رجل، وثُبْ إلى رُشْدِك. فكيف لطائر أن يعقِل أو يفهم؟ إن شئت أن آتيك ببرهانٍ لتعرف صدقه من كذبه، فاذهب الليلة وبِت عند أحد أصحابك، وتعال في الصباح واسأل الببغاء عما جرى ليلًا، وسترى إن كان يقول الصدق أم لا.'

وهكذا ذهب الزوج وأمضى ليلته عند أحد أصحابه. وحين حلَّ الظلام، غطت الزوجةُ قفصَ الببغاء بقطعة من الجلد وراحت ترش عليها الماء من فوق. ثم راحت تهفَّ عليه بمروحة وتومض عليه بالسراج كأنه برق لامع وتطحن بالرحى. وظلت على هذه الحال بلا توقف حتى بزوغ الفجر. ظن الببغاء رذاذَ الماء على قفصه مطرًا، وهواءَ المروحة ريحًا عاصفة، ووميضَ السراج برقًا، وضجيج الرحى رعدًا. وحين عاد زوجها طلبت منه أن يستنطق الببغاء، فذهب إلى القفص وراح يتحدث مع الطائر ويستنطقه عن الليلة الماضية. فقال الببغاء، 'ولكن يا سيدي، من كان بإمكانه أن يسمع أو يرى الليلة الماضية؟' فسأله، 'ولماذا؟' فأجابه الببغاء، 'بسبب المطر الغزير والريح والرعد والبرق.' فقال له التاجر، 'أنت تكذب، إذ لم يكن شيءٌ من هذا القبيل ليلة أمس.' فقال الطائر، 'ولكني لا أقول لك إلا ما رأيت وسمعت.' أيقن الرجل عندئذ أن الببغاء كذب في كل ما قاله عن زوجته، وكان يهم بمصالحة زوجته، ولكنها قالت له، 'والله لا أصالحك حتى تقتل هذا الببغاء الذي افترى لديكَ عليَّ.' فنهض وقتل الببغاء، ولكنه

بعد بضعة أيام رأى الشاب التركي يخرج من بيته فعلم أن الببغاء قد قال الحق وندم على قتله إياه. ثم دخل على زوجته وقطع رقبتها وألقى بها في النهر، وقد أقسم ألا يتخذ امرأة أخرى.(٢٣)

يبدو أن «كتاب السندباد» يعطي صورة مصغرة عن التعصب الذكوري. فهو أولًا يقوم على التضاد بين زوجة الأب الشبقة والشاب العفيف، وهذه أقدم الحكايات الشعبية وأوسعها انتشارًا وأكثرها طعنًا في النساء (لمزيد من التفصيلات في موضوع زوجة الأب الشبقة، انظر الفصل المخصص للحديث عن يوسف وزوجة فوطيفار). ثانيًا، وما زاد الأمر سوءًا هو أن هذه الحكاية في «كتاب السندباد» أصبحت قصةً إطاريةً ربما منذ القرن الخامس قبل الميلاد في الهند. وبهذه الطريقة لم يستمر انتشار موضوع زوجة الأب الشبقة ويتكاثر فحسب، بل جمع وحمل معه أمثولاتٍ أخرى معاديةً للنساء بلغت أقصى درجات الانتشار على هذا النحو. وبلغ الأمر ذروته حين تبنّت «ألف ليلة وليلة» الإطار القصصي لمجموعة «كتاب السندباد» وحكاياته، مثل «الوزراء السبعة»، وخلَّدتها بفضل انتشارها الواسع.

هناك فرعان لمجموعة «كتاب السندباد»: شرقي وغربي. يُعرَف الفرع الغربي باسم «أساطين الحكمة السبعة» أو «حكماء روما السبعة». وكلا الفرعين وصل إلى أوربا. في الفرع الشرقي، يكون السندباد مستشارًا لدى الأمير الذي اتهمته زوجةُ أبيه زورًا وبُهتانًا. وفي الفرع الغربي، لدى الأمير سبعة مستشارين. وكلٌّ من هؤلاء يروي قصصًا تبين غدر النساء، بينما ترد زوجة الأب بقصص عن الرجال الأشرار. ومن نافلة القول إن الرجال لديهم أفضل الحكايات في الغالب الأعم. يختلف عدد الحكايات تِبعًا لكل نسخة، كما تختلف الحكايات الفردية كذلك. لكن لا يتفق الفرعان الشرقي والغربي إلا في أربع حكايات: الخنزير الذي يخدعه الراعي أو القرد؛ القَهْرَمان؛ الكلب الذي ينقذ طفلًا فيُقتل ظلمًا وعدوانًا (انظر أيضًا "بث غِليرت")؛ الرجل وزوجته والطائر الواشي ("زوجة التاجر والببغاء"). وهذه الأخيرة ترد تقريبًا في كل كتاب مهم من كتب القصص في العصور الوسطى، إذ كانت تستخدم في كل البلدان الأوربية أمثولةً مفضلةً على غدر النساء.

ولو أخذنا مثالًا واحدًا فقط هو «حكايات كانتبري» لوجدنا أن چوسر عرف هذه الحكاية بصيغتين. ففي إعادة سرده الأكبر لهذه الحكاية في "حكاية متعهد المُؤن" يكون الطائر غرابًا أبيض، والزوج هو فيبوس [أپولو، إله الشعر والموسيقى والجمال الرجولي عند الإغريق] الذي يذبح زوجته ثم يُحيل الغراب إلى اللون الأسود عقابًا له. ولهذا صارت الغربان سوداء

(23) Payne, *op. cit.,* Vol. 4, pp. 265-66.

من بعد ذلك. أما في "ديباجة امرأة باث" فيشير چوسر إلى "زوجة حكيمة، لو أنها تعرف صالحها" إذ تُقنع هذه الزوجة زوجها أن الطائر مجنون وتُشهِد خادمتها على ذلك. بمعنى آخر، يُشير چوسر إلى الحكاية النموذج.

١١- الملك وزوجة وزيره

في سالف الأزمان كان هناك ملك مشغوفٌ بحب النساء، وفي يوم من الأيام كان بمفرده في قصره حين أبصر امرأةً جميلةً على سطح بيتها، ولم يتمالك نفسه من الوقوع في غرامها. فسأل خدمَه عن صاحب البيت، فقالوا له، 'لوزيرك فلان.' وهكذا استدعى الوزير المعني وأرسله في مهمةٍ إلى ناحية قصية من مملكته. وما إن غادر الوزير حتى تذرَّع الملك ليدخل بيته. وحين رأته زوجة الوزير، عرفته، فنهضت وقبَّلت يديه وقدميه ورحَّبت به. ثم وقفت بعيدًا عنه، متشاغلةً بخدمته، وقالت له، 'وما سبب زيارتك الميمونة، يا مولانا؟ فمثل هذا الشرف لا يكون لواحدة مثلي.' فقال له، 'ما ساقني إليك هو حبي واشتهائي لك.' وحينئذٍ قبلت الأرض بين يديه مرة أخرى وقالت، 'يا مولانا، أنا لا أصلح أن أكون جاريةً لبعض خُدام الملك، فأنّى لي بمثل هذه الحُظوة عند جلالتك؟' مدَّ لها الملك يده، ولكنها قالت له، 'إن هذا الأمر لن يفوتنا، ولكن صبرًا أيها الملك، وأقِم عندي اليوم بينما أُعِدُّ لك بعض الطعام.' وهكذا جلس الملك، فأحضرت له السيدة كتابًا يقرؤه، بينما راحت هي لتعد الطعام. حين أخذ الكتاب وراح يقرأ وجد فيه من المواعظ الأخلاقية والحكم ما زجره عن الزنا ونهاه عن ارتكاب المعصية.

وبعد مدة، عادت ووضعت أمامه تسعين طبقًا من مختلف الأنواع والألوان، فأخذ ملعقة من كل منها ووجد أن طعمها واحد. فتعجب من هذا الأمر أيّما عجب، فقال للسيدة، 'يا سيدتي، أرى هذه اللحوم كثيرةً ومتعددة الألوان، ولكن طعمها واحد.' فقالت له، 'أسعد الله الملك، هذا مثلٌ ضربته لك لعلك تعتبر به.' فسألها، 'وماذا تعنين به؟' فأجابته، 'أصلح الله حالَ مولانا الملك. في قصرك تسعون محظية من كل الألوان، ولكن مذاقهن جميعًا واحد.' وحين سمع الملك كلامها، خجل من نفسه، ونهض على عجلٍ، وخرج عائدًا إلى قصره، ولم يتعرض لها بسوء. ولكن بسبب عجلته وارتباكه، نسي خاتمه تحت الوسادة التي كان يجلس عليها.

لم يطل المقام حتى عاد الوزير ومَثُل أمام الملك، ثم قبَّل الأرض بين يديه وأخبره عن أحوال الناحية المعنية. بعد ذلك عاد إلى بيته وجلس على وسادته. واتفق أنه مدَّ يده تحتها فوجد

خاتم الملك. نظر إلى الخاتم فعرفه وأسرَّ المسألةَ في قلبه، وهجَر زوجته ولم يكلمها عامًا كاملًا، وهي لا تعلم سبب غضبه. وحين سئمت من الهَجْر أخيرًا، بعثت إلى أبيها وأخبرته بحالها، فقال لها، 'سأشكوه للملك حين يكون بحضرته.'

وذات يومٍ دخل على الملك وكان الوزير وقاضي العكسر قد سبقاه إليه، فقدم شكواه على النحو التالي، 'أصلح الله حال مولانا الملك. لقد كانت لي روضةٌ جميلةٌ غرستها بيدي وأنفقت عليها من مالي حتى أثمرت وطاب جناها، فأعطيتها لوزيرك هذا الذي أكل منها ما طاب له، ثم هجرها ولم يسقِها حتى ذبلت أزهارها وذهب رونقها وأصبحت خرابًا.' فقال الوزير، 'أيها الملك، صحيحٌ ما قاله هذا الرجل. حقًا، لقد اعتنيت بالروضة وأكلتُ منها حتى دخلتُ ذاتَ يومٍ فوجدتُ أثر الأسد هناك، فخشيتُه وانسللتُ من الروضة.' فهم الملك المثل الذي ضربه الوزير وعرف أن أثر الأسد قصد به خاتمه الذي نسيه في بيته، فقال له، 'ارجع إلى روضتك أيها الوزير ولا تخش الأسد، فهو لم يَدْنُ منها. لقد قيل لي إنه ذهب إلى هناك، ولكن أُقسم لك بشرف آبائي وأجدادي، لم يمسَّها بسوء.' فقال الوزير، 'سمعًا وطاعة،' وعاد إلى بيته وتصالح مع زوجته ووثق بعفافها.(٢٤)

كَرْمَةً كنتُ وكَرْمَةً ما زلتُ

من جوزيبّي بيرنوني، «من تراث البندقية الشعبي» ١٨٧٥-١٨٧٧

كان ملكٌ يكره الزواج، فأمر قَهْرَمانه بأن يظل عازبًا. وذاتَ يومٍ رأى هذا فتاةً جميلةً تُدعى ڤينيا [كَرْمة]، فتزوجها سِرًّا. ومع أنه أبقاها حبيسةً في حجرتها، إلا أن الملك ساورته الشكوك، فأرسل القهرمان في سِفارةٍ. وبعد رحيله دخل الملك دار قهرمانه، فوجد زوجته نائمة. لم يتعرض لها الملك بسوء، ولكنه حين همَّ بمغادرة الدار، سقط منه أحد قفّازَيْه سهوًا على السرير. وعندما عاد الزوج، وجد القفاز، فالتزم الصمت، ولم يعد يُبدي لزوجته أي مودةٍ لاعتقاده أنها خانته.

اشتاق الملك لرؤية المرأة الجميلة ثانيةً، فأقام وليمة وأمر قهرمانه أن يجلب زوجته. أنكر القهرمان في البداية أن لديه زوجة، ولكنه في النهاية جاء بها. وبينما كان الحاضرون جميعًا يتحادثون ويمرحون في الوليمة، إلا أنها ظلت صامتة. لاحظ الملك ذلك، وسألها عن

(24) Payne, *op. cit.,* Vol. 4, pp. 265-66.

سبب صمتها، فأجابته إجابةً فيها توريةٌ لاسمها، "كَرْمَةً كنتُ، وكرمةً ما زلتُ؛ كنتُ محبوبةً، وغدوتُ منبوذةً. ولست أدري لأي سببٍ انقطع موسمُ الكَرْم."

سمع زوجها كلماتها، فقال لها، "كَرْمَةً كنتِ، وكرمةً ما زلتِ؛ كنتِ محبوبةً، وغدوتِ منبوذةً، وقد انقطع موسم الكَرْمِ بسبب مِخْلَب الأسد." قال له الملك الذي فهم مقصده، "لقد دخلتُ الكَرْمَ، ولمست الأوراق، ولكني أُقسِم بتاجي إنني لم أذق من ثماره." فعلم القهرمان أن زوجته بريئة، وتصالح الاثنان وعاشا بعدها عيشةً هَنيّة رَضية.[٢٥]

كلتا هاتين القصتين مستمدة بنهاية المطاف من مجموعة حكايات السندباد التي يعود إليها أيضًا أصلُ نسخةٍ أخرى في «حكايات الكونت لوكانور»، وهي حكاية تتضمن الوليمة الرتيبة وأثر الأسد في حكاية "الملك وزوجة وزيره." تحتفظ «ديكاميرون» (الليلة الأولى، الحكاية الخامسة) بموضوع "كل النساء سواء" ولكنها تُسقِط الأسد. ومن الجدير ذكره هو أن الحكاية موجودة في النسخ الشرقية من «أساطين الحكمة السبعة» (أو «الوزراء السبعة» بالعربية)، ولكنها غير موجودة في المجموعات الغربية المستمدة أيضًا من «كتاب السندباد». وفي الحقيقة، النسخة الوحيدة لمجموعة «الوزراء السبعة» التي لم تندثر هي المُدْرجة في «ألف ليلة وليلة». وهناك دلائل على أن «ألف ليلة وليلة» كانت معروفةً في الأندلس العربية منذ القرن الثالث عشر، لذلك يمكن أن يكون دون خوان مانوال قد استخدمها في «حكايات الكونت لوكانور»، بما أن دون خوان، الذي كان يجيد القراءة بالعربية، متح من الأمثولات العربية. وتشير النسخ الإيطالية إلى انتشار هذا الشكل الشرقي بين عامة الناس في البندقية وفلورنسا، وكلتاهما كانت نقطة التقاء تجارية مع الشرق.

١٢- السيدة وعاشِقاها

كان رجلٌ يعمل سيافًا عند أحد الملوك، وكان يهوى امرأةً من عامة الناس. وذات يومٍ أرسل إليها كعادته رسالةً مع غلامه، فجلس هذا معها وداعبها. فمالت عليه وضمته إلى صدرها، فأراد أن يضاجعها فطاوعته. وبينما هما كذلك، طرق السياف الباب، فألقت بالشاب في غرفة في الطابق السفلي، ودخل السياف حاملًا سيفه في يده وجلس على سريرها. ثم أقبلت عليه وداعبته وراحت تقبِّله وتضمه إلى صدرها، فقام الرجل إليها وجامعها.

(25) From Crane, Thomas F., *Italian Popular Tales*, Boston, 1885, pp. 159-60, where the source is given as Bernoni, Giuseppe, *Tradizioni Popolari Veneziana*, Venice, 1875-77, Part 1, p. 11.

وفجأةً، طرق زوجها الباب، فقال لها، 'من هذا؟' فقالت له، 'إنه زوجي.' قال لها، 'ما العمل؟' فقالت له، 'استل سيفك، وقف في المدخل، وسُبَّني واشتمني، وحين يدخل زوجي ويراك، اخرُج وامضِ في سبيلك.' فعل الرجل ما أمرته، وحين دخل الزوج، رأى سياف الملك واقفًا شاهرًا سيفه، وهو يشتم زوجته ويهددها. ولما رأى هذا زوجَها، خجل من نفسه، فأغمد سيفه، وخرج من المنزل. فسأل الرجل زوجته عما جرى، فقالت له، 'ما أبركها من ساعةٍ هذه التي أتيت فيها، أيها الرجل! لقد أنقذت حياة مؤمنٍ حقٍّ من الموت. لقد كنت أغزل على سطح المنزل حين أقبل عليَّ شاب يلهث خائفًا من الموت، وهاربًا من ذلك الرجل الذي كان يطارده بسيفه المسلول. فوقع الغلام عليَّ وراح يقبِّل يديَّ وقدميَّ وهو يقول: أنقذيني، يا مولاتي، من هذا الرجل الذي يريد قتلي ظلمًا! فخبأْتُه في الغرفة في الطابق السفلي، وإذا بذاك الرجل يدخل عليَّ مُجَرِّدًا سيفه ويطالبني أن أسلِّمه الفتى. فأنكرت أنه عندي فراح يشتمني ويهددني كما رأيت. والحمد لله الذي ساقك إلي فأنقذتني من حيرتي والورطة التي كنت فيها.' قال زوجها، 'أحسنتِ صنعًا، أيتها المرأة. إن أجرك على الله، وجزاكِ خيرًا جزيلًا.' ثم توجَّه إلى الباب السري ونادى الغلام، 'اطلَع ولا خوف عليك! لن يصيبك مكروه.' فخرج الغلام مرتعدًا من الخوف، فطيَّب الزوج خاطره مما حدث له، وهو يقول، 'هَوِّن عليك! لن يصيبك مكروه.' وكان الغلام يُمطِره بالدعاء له. ثم خرج الاثنان، ولم يدرِ أيٌّ منهما ما دبَّرته المرأة.(٢٦)

تُعْرَف هذه الحكاية الكلاسيكية في سلسلة نَسَب القصص باسم "حكاية السيف" أو De Gladio، وذلك منذ أول ظهورٍ مُدَوَّنٍ لها في الغرب تحت عنوان الأمثولة الحادية عشرة في «عُهدة النُّسّاك». ومن نافلة القول إن هذه الحكاية مُدْرَجة في «كتاب السندباد» المعادي للنساء. وهي أيضًا موجودة في كتاب «هيتوباديشا» و«شوكاسَپتاتي» [وكلاهما بالسنسكريتية] ومجموعة قصص الببغاوات. ومن اللافت للانتباه أن حكاية السيف غير موجودة في النسخ الغربية لمجموعة السندباد، على الرغم من ورودها في كل النسخ الشرقية مثل "الملك وزوجة وزيره." وقد وصلت إلى «ديكاميرون» (الليلة السابعة، الحكاية السادسة) عبر «عُهدة النُّسّاك»، ومن هناك دخلت في صميم الأدب الغربي. وحكاية Le Lait de l'Epervier (حليب الصقر) نسخة قريبة من التراث العربي، وكانت شائعة جدًا، وهناك الكثير من الأمثلة الشعبية

(26) Payne, *op. cit.*, Vol. 5, pp. 270-72.

الأوربية والشرقية على ذلك. وفي الحكايات الشرقية تكون السيدة أحيانًا زوجةَ مُغَفَّل مثل نصر الدين خوجة [جُحا].

يقتبس باسيه من "العاشق والزوج المخدوع،" وهي نسخة تركية تعدّ كذلك نموذجًا للحكايات الشعبية الغربية:

> عشق رجلٌ زوجة جُحا، وكان لديه غلامٌ شابٌّ، وكان وسيمًا أمرد. فقال له ذات يوم، 'اذهب إليها وقل لها أن تستعد لزيارتي.' ذهب الغلام، فلم تتمالك نفسها من معانقته وضمه إلى صدرها حتى قضت شهوتها منه. وبينما كان الغلام معها، لاحظ سيده أنه تأخر، فذهب ليبحث عنه ودخل بيت جحا. ولما رأته الزوجة، خبأت الغلام تحت السرير واستقبلت عاشقها كالعادة. وفي هذا اللحظة، طرق جحا الباب، فقالت لعاشقها، 'قم واخرج إلى البهو مُشْرِعًا سيفَك.' ففعل. وحين دخل جحا بيته، سأل زوجته، 'ماذا كان يفعل ذلك الرجل هنا؟' فأجابته، 'هذا جارنا، يا زوجي، وقد هرب خادمه والتجأ إلينا. وقد طارده سيده ليقتله، ولكنني خبأته تحت السرير.' فقال جحا للشاب، 'اخرج، يا بُني، وادْعُ الله أن يجزي هذه السيدة الكريمة على معروفها العظيم.'[(٢٧)]

١٣- حكاية الحكيم وأبنائه الثلاثة

كان في سالف الأزمان حكيمٌ، وكان عنده ثلاثةُ أبناءٍ وأبناءُ أبناءٍ، وحين تكاثروا وتكاثرت ذريتهم، حدث بينهم شِقاق. فجمعهم وقال لهم، 'كونوا يدًا واحدة على الآخرين، ولا يستصغر أحدكم الآخر لئلا يستصغركم الناس، واعلموا أن مثلكم كمثل الرجل والحبل الذي تمكن من قطعه حين كان بمفرده، ولما جمعه مع حبل آخر، عجز عن قطعه. هكذا هو الشقاق والاتحاد. وإياكم أن تستنصروا غيركم على بعضكم، ففيه هلاككم. فأيًا كانت سبيلكم لتحقيق أمانيكم على يديه، فإن كلمته هي العليا عليكم. والآن لدي مال سأدفنه في الحال لعله يكون ذخرًا لكم في أيام عِوَزِكم.' ثم تركوه وتفرقوا، ولكن أحد أبنائه راح يتجسس على أبيه، فرآه وهو يخبئ الكنز خارج المدينة. وعندما فرغ من دفنه، رجع الحكيم إلى بيته. وما إن أصبح الصباح حتى عاد الابن إلى المكان الذي رأي فيه أباه يدفن الكنز، فحفر وأخذ كل المال الذي وجده ومضى في سبيله. وعندما شعر الشيخ بدنو أجله، دعا إليه أبناءه وأطلعهم على المكان الذي دفن فيه

(27) Basset, *op. cit.*, Vol. 2, p. 143, trans. By E. L. Ranelagh.

الكنز. وما إن مات حتى ذهبوا وحفروا الكنز وعثروا على مال كثيرٍ، لأن المال الذي أخذه الابن الأول خلسةً وبمفرده كان قريبًا من السطح، ولم يكن يعلم أنّ تحته أموالًا أخرى. حملوا المال وتقاسموه وأخذ الابن الأول حصته وضمها إلى ما أخذه من قبل من وراء ظهر أبيه وإخوته. ثم تزوج ابنة عمه وأنجبت له ولدًا كان زينة شباب عصره. وحين شبَّ الغلام، خشي أبوه عليه من الفقر وسوء الحال، فقال له، 'اعلم، يا بُني، أنني في شبابي الغِرِّ ظلمت إخوتي في مسألة تركة أبينا، وأنا الآن أراك في غنى. لكن إن أصابتك فاقة، فلا تطلب منهم أو من أحد سواهم. لقد تركت لك في تلك الحجرة كنزًا، لكن لا تفتحها إلا إذا عجزتَ عن تحصيل قوت يومك.' ثم مات الرجل وتحولت ثروته الهائلة إلى ابنه. لم يصبر الشاب إلى أن يصرف كل ما معه، بل نهض وفتح الحجرة، فإذا بجدرانها المطلية بالبياض خالية، وفي وسطها يتدلى حبل كأنها لدلوٍ وعشر طوباتٍ متراصفة فوق بعضها، وهناك لفافةٌ كُتب عليها، 'لا مفرَّ من الموت، فاشنق نفسك ولا تطلب من أحد، وارفس الطوب بأصابع قدميك حتى لا يكون هناك مَهْربٌ لحياتك، وسترتاح من شماتة الأعداء والحاسدين ومرارة التوسل.' لما رأى الفتى ذلك تعجب مما فعله أبوه، فقال، 'هذا كنز شؤم.' ثم مضى وراح يأكل ويشرب مع الناس حتى لم يبق عنده شيء، وقضى يومين بلا طعام. بعد ذلك أخذ منديلًا وباعه بدرهمين اشترى بهما خبزًا وحليبًا ووضعهما على الرف وخرج. وفي أثناء غيابه، جاء كلب وأكل الخبز ونجّس الحليب. وحين عاد الشاب ورأى ذلك، لطم على وجهه وخرج مذهوبَ العقل. وفي الحال، صادف صديقًا وكشف له عن أمره، فقال له هذا، 'ألا تخجل أن تتحدث على هذا النحو؟ كيف أضعت كل تلك الثروة والآن تأتي وتدّعي أن الكلب قفز على الرف وتتكلم بهذا الهراء؟' ثم شتمه. فعاد الفتى إلى بيته، وقد اسودَّت الدنيا في عينه وصاح، 'إن أبي لم يقل إلا الحق.' ثم فتح باب الحجرة ورصف الطوبات تحت قدميه، ولفَّ الحبل حول عنقه، ثم رفس الطوبات وراح يتأرجح. ولكن الحبل انقطع فوقع على الأرض ثم تهاوى السقف وأمطر عليه مالًا جمًّا. علم حينئذ أن أباه أراد تأديبه، فترحَّم عليه. فاستعاد ما باعه من أراضٍ وبيوتٍ وسواها، وصَلُحت حاله مرة أخرى. عاد إليه أصدقاؤه واحتفى بهم مدةً من الوقت. ثم قال لأحدهم ذات يوم، 'كان عندنا خبز وأكله الجراد، فوضعنا مكانه حجرًا طوله ذراع وعرضه ذراع، وجاء الجراد وأكل الحجر بسبب رائحة الخبز.' فقال صديقه الذي كذَّبه من قبل في حكاية الكلب والخبز والحليب، 'لا تعجب من هذا، فالجرذان والفئران تفعل أكثر من هذا.' فقال له الفتى، 'قم إلى بيتك! في أيام فقري كنتُ كاذبًا حين أخبرتك عن الكلب الذي قفز على الرف وأكل الخبز ونجّس الحليب. أما اليوم، فلأنني عدتُ

غنيًا، فأنا أُصدَّق حين أخبركم أن الجراد أكل حجرًا طوله ذراع وعرضه ذراع.' فخجلوا جميعًا مما قال وخرجوا من عنده، أما الشاب فقد عاد إليه خيرُه وصَلُحت حاله.(٢٨)

تحتوي مجموعة فرانسِس جيمز چايلد الشاملة *The English and Scottish Popular Ballads* (القصائد السردية الشعبية الإنجليزية والإسكوتلندية) (بوسطن ١٨٨٤-٩٨) على هذا النمط القصصي الذي غالبًا ما يُسمى في الدراسات الفلكلورية حكاية الكنز من السقف. وقد وردت هذه الحكاية تحت رقم ٢٦٧ وعنوان "وارِث لين،" والنسخ الشعرية التي ضمَّنها چايلد مجموعته لا تشبه القصة الواردة في «ألف ليلة وليلة» إلا بصورة عامة: فبعد أن بعثر الوارثُ المُبَذِّر ثروته وممتلكاته، تذكر أخيرًا وصية أبيه، فوجد كنزًا جديدًا واستعاد ممتلكاته ومكانته. ولكن چايلد يُدْرِج أيضًا حكايةً هابطةً مفرطةَ العاطفة أقرب إلى حكايتنا، وهي بعنوان "ميراث السكِّير" من القرن الثامن عشر. ولدى كلوستِن نسخة شعبية نثرية، وهي أيضًا من القرن الثامن عشر، اقتبس منها 'العنوان المفصَّل' الذي يلخص أحداث القصة: ميراث السكِّير في أربعة أجزاء. وفيها أولًا قصة سيد عنده ابن طائش تنبأ أنه ستصيبه فاقة، فبنى كوخًا له بابٌ واحد ومغلق على الدوام. أمره أبوه وهو على فراش الموت ألا يفتح الكوخ حتى يفتقر ويتعرض للحيف، وهو ما وعد الفتى بعمله. وفيها ثانيًا ذِكْرٌ لرهن الشاب ممتلكاتِه عند تاجر خمور كان قد طرده من بيته حين كان فقيرًا. وحين أدرك الفتى أنه حان الوقت ليرى ميراثه، كسر باب الكوخ، وبدلًا من المال وجد مشنقةً وحبلًا، فلفَّ الحبل على رقبته، وحين قفز عن الكرسي انكسرت المشنقة، وتساقطت على رأسه ألفُ جنيه كانت مخبأة في السقف. وفيها ثالثًا ذِكرٌ لاستعادة الفتى ممتلكاته وغُبْنِه لتاجر الخمور بمبلغ مئتي جنيه، فانتحر التاجر لما سخر منه جيرانه. وأخيرًا، فيها وصفٌ لانصلاح حال الشاب.(٢٩)

كانت قصة "ميراث السكِّير" واسعة الانتشار، مثلها في ذلك مثل مثيلاتها في فرنسا وألمانيا وإيطاليا واليونان. يذكر چايلد إشارات لها ترد في مجموعات قصصية إنجليزية تعود للقرن السادس عشر، كما ترد عند كُتّاب الخرافات الفرنسيين. وهذه الحكاية يعود أصلها أيضًا في نهاية المطاف إلى مجموعة حكايات السندباد.

(28) Burton, *op. cit.,* Vol. 1, pp. 222-25.
(29) Clouston, *op. cit.*, p. 54.

١٤- السيدة وعُشاقها الخمسة

كانت ابنة أحد التجار متزوجة من رجل كثير الأسفار. وحدث أنه سافر ذات يوم إلى بلاد بعيدة وأطال الغيبة، فشق الأمر على زوجته، فوقعت في غرام شاب وسيم من أبناء التجار، وأحبّا بعضهما حبًّا جمًّا. وذات يومٍ تشاجر الفتى مع رجل آخر، فاشتكاه هذا إلى الوالي الذي ألقى به في السجن. وحين بلغت عشيقتَه الأخبار، كادت أن تفقد عقلها، فنهضت وارتدت أفخر ثيابها وتوجهت إلى بيت الوالي، فحيَّته وقدمت له شكوى تقول فيها إن السجين أخوها، وقد اتُّهم ظلمًا وعدوانًا، وقد حُكِم عليه بشهادة زور، وأنها لا تملك مُعيلًا غيره، لذلك جاءت تستعطفه وتسترحمه لعله يُفْرِج عنه.

حين قرأ الوالي الشكوى، نظر إليها ووقع في غرامها، فقال لها، 'ارجعي إلى بيتك حتى أستدعيه إلي، ثم أرسل إليك لتأخذيه.' فقالت، 'ولكن، يا مولاي، ليس لي إلا الله سبحانه وتعالى. وأنا غريبة لا أدخل بيت أحد.' قال لها الوالي، 'لن أُفْرِج عنه ما لَم تدخلي بيتي وأقضي وطري منك.' فقالت، 'إن كان لا بد من ذلك، فعليك أن تأتي إلى بيتي وتجلس وتنام وترتاح اليوم بأكمله عندي.' فسألها، 'وأين بيتك؟' فقالت له، 'في المكان الفلاني،' وواعدته على ذلك.

ثم خرجت من عنده، تاركةً قلبَه مشغوفًا بحبها، وذهبت إلى قاضي المدينة وقالت له، 'يا سيدي القاضي، انظر في حالتي وأجرُك على الله سبحانه وتعالى.' فقال لها، 'ومن ظَلَمك؟' فأجابت قائلة، 'يا سيدي، إن لي أخًا وليس لي أخٌ سواه، وقد أتيتُ إليك بسببه، إذ إن الوالي حبسه ظلمًا وعدوانًا وبشهادة زورٍ، وأتوسل إليك أن تشفع له عند الوالي.' وحين نظر إليها القاضي، وقع في غرامها، فقال لها، 'ادخلي واستريحي مع حريمي بينما أرسل إلى الوالي ليفرج عن أخيك. ولو كنا نعلم الغرامة، لدفعناها من مالنا، لعلّي أقضي وطري منك لأنك تستهويني بعذب كلامك.' فقالت له، 'إن كنت، يا مولاي، تفعل هذا، فلا عتب على غيرك.' ولكن القاضي أجاب، 'إن لم تدخلي البيت، فامضي في سبيلك.' فقالت له، 'إن شئت ذلك، يا مولاي، فإن بيتي أسْتَر من بيتك وأفضل لنا، فهنا إماءٌ وخدمٌ وداخلون وخارجون، وأنا امرأة لا تعرف هذه الأمور، ولكن للضرورة أحكام.' فسألها القاضي، 'وأين بيتك؟' فقالت له، 'في المكان الفلاني.' ثم واعدته في الموعد ذاته الذي أعطته للوالي.

ثم ذهبت إلى الوزير، وقدمت إليه شكوى لإطلاق سراح أخيها المزعوم من السجن، ولكنه أيضًا راودها على نفسها قائلًا، 'دعيني أقضِ وطري منك، وسأُفرِج عن أخيك.'

فقالت له، 'إن شئت هذا الأمر، فليكن ذلك في بيتي، فهو آمَن لي ولك. إنه ليس بعيدًا من هنا، وأنت تعلم ما يليق بنا من نظافة وظرافة.' فسألها، 'وأين بيتك؟' فقالت له، 'في المكان الفلاني.' ثم واعدته في الموعد ذاته الذي أعطته لسابِقَيه.

ثم خرجت من عنده إلى ملك المدينة وأخبرته قصتها وناشدته أن يُفرج عن أخيها. فسألها، 'ومن سَجَنه؟' فقالت له، 'الوالي.' وحين سمعها الملك، رمى كلامُها قلبَه بسهام الحب، فأمرها أن تدخل القصر معه بينما يرسل هو إلى القاضي ليفرج عن أخيها. فقالت له، 'أيها الملك، هذا هيِّن عليك، سواء أردتُه أم لا. وإن رغب الملك في ذلك مني، فإن ذلك من حُسن حظي، ولكن لو أتيت منزلي، فإنك تشرفني أكثر، كما قال الشاعر:

خليليّ هل أبصـرتُما أو سمعتُما زيارةَ مَنْ جَلّت مكارمُه عندي

فقال لها الملك، 'لن نخالفك في هذا.' فأخبرته عن مكان بيتها وواعدته في الموعد الذي أعطته للثلاثة الآخرين.

ثم غادرته وذهبت إلى نجار وقالت له، 'أريدك أن تصنع لي خزانة لها أربع طبقات ولكل طبقة بابٌ وقفل يُغلقه. وقل لي أجرك كي أدفعه إليك. فقال لها الرجل، 'إن أجري، يا مولاتي، أربعة دنانير، ولكن إن تفضلتِ عليَّ بالوصال، فلا أريد غيره منك.' فقالت له، 'إن كنت تريد ذلك، فاجعل للخزانة خمسَ طبقات بأقفالها.' فقال لها، 'حسنٌ، اجلسي، يا سيدتي، وسأصنعها لك في الحال، وبعد ذلك سآتيك على مهل.' وهكذا جلست، وراح هو يصنع الخزانة، وعندما فرغ منها، حملتها ووضعتها في حجرة الجلوس. ثم أخذت أربعة أثوابٍ إلى الصباغ، فصبغ لها كل ثوب بلون، وبعد ذلك أشغلت نفسها في إعداد الطعام والشراب والفاكهة والأزهار والطيب.

وحين حل الموعد، ارتدت أفخر ثيابها وتعطرت وتزينت، ثم فرشت الحجرة بشتى أنواع السجاد وجلست تنتظر مَن يأتيها. وكان القاضي أول من يأتي، وحين رأته نهضت وقبّلت الأرض بين يديه، وأجلسته بجانبها على الأريكة وراحت تُمازحه وتداعبه. وشيئًا فشيئًا، أراد أن يقضي وطره منه، لكنها قالت له، 'اخلع ملابسك وعمامتك يا مولاي، والبس هذه الغلالة الصفراء وهذا المنديل، بينما أُحضر لك الطعام والشراب، وبعد ذلك تقضي وطرك.' ثم نزعت ملابسه وعمامته وألبسته الغلالة الصفراء والمنديل. وما كادت تنتهي من ذلك حتى سمعت

طرقًا على الباب. قال لها، 'من الطارق؟' فقالت له، 'إنه زوجي.' قال لها القاضي، 'ما العمل وأين أذهب؟' فقالت له، 'لا تخشَ شيئًا. سأخبئك في هذه الخزانة.' قال لها، 'افعلي ما يطيب لك.' فجرَّتْه من يده ودفعته داخل الطبقة السفلى، وأغلقت الباب عليه.

ثم ذهبت إلى الباب حيث وجدت الوالي، فقبلت الأرض بين يديه، وأدخلته إلى البهو، وأجلسته وهي تقول، 'يا سيدي، البيت بيتُك وأنا خادمتك، وستقضي هذا النهار كله معي، لذا انزع عنك ملابسك والبس هذا الثوب الأحمر، إذ إنه ثوب نوم.' وهكذا أخذت ثيابه وألبسته الثوب الأحمر ووضعت على رأسه خرقةً مرقعةً كانت بجانبها. وبعد ذلك جلست معه على الأريكة تلاعبه ويلاعبها، وحين مد يده إليها، قالت له، 'يا مولاي، هذا اليوم كله لك، ولن يقاسمك فيه أحد، ولكن أولًا اكتب، فضلًا وكرمًا، أمرًا بإخلاء سبيل أخي كي يطمئن قلبي.' فقال لها، 'سمعًا وطاعة، وعلى الرأس والعين.' ثم كتب إلى خازنه، 'حالما وصلك كتابي هذا، أطلق سراح فلان بلا إمهال ولا إهمال، ولا تُراجع حامله بكلمة.' ثم ختم الكتاب وأخذته منه، وأقبلت عليه تداعبه على الأريكة، وإذا بطارقٍ على الباب. فقال لها، 'من الطارق؟' قالت له، 'إنه زوجي.' سألها، 'ما العمل؟' قالت له، 'ادخل هذه الخزانة حتى أصرفه وأعود إليك.' ثم حشرته في الطبقة الثانية وأغلقت عليه الباب، وكان القاضي في هذه الأثناء يسمع ما يقولان ويفعلان.

ذهبت إلى الباب وفتحته، وإذا بالوزير يدخل. قبَّلت الأرض بين يديه، واستقبلته بكل حفاوة، وهي تقول، 'يا مولاي، إنك تشرفنا بزيارة بيتنا، لا حرَمَنا الله من نور وجهك!' ثم أجلسته على الأريكة وقالت له، 'يا مولاي، إن ملابسك هذه وعمامتك هي ملبوس الوزارة، فاتركها لأوانها والبس هذا الثوب الخفيف لأنه أصلح للهو والمرح والنوم.' وهكذا خلع ملابسه وعمامته وألبسته غلالة زرقاء وقبعة حمراء طويلة. وبعد ذلك راحت تلاعبه ويلاعبها، وكان يريد قضاء وطره منها، ولكنها استمهلته قائلة، 'يا مولاي، إن هذا الأمر لن يفوتنا.' وإذ بطارق على الباب، فقال لها الوزير، 'من هذا؟' فقالت له، 'إنه زوجي.' سألها، 'ما العمل؟' قالت له، 'لا تخش شيئًا، بل ادخل هذه الخزانة حتى أصرفه وأعود إليك.' ثم حشرته في الطبقة الثالثة وأغلقت عليه الباب. وبعد ذلك، ذهبت إلى الباب وفتحته، وإذا بالملك يدخل.

وحين رأته، قبَّلت الأرض بين يديه، وأخذت بيده، وقادته إلى البهو، ثم أجلسته على صدر الأريكة. ثم قالت له، 'إنك، أيها الملك، تشرفنا بزيارتك، ولو قدمنا لك الدنيا وما فيها

هديةً، فهي لا تساوي خطوة واحدة خطوتها نحونا، ولكن إئذن لي بكلمة.' فقال لها، 'قولي ما تشائين.' فقالت، 'خذ راحتك، يا مولاي، واخلع ملابسك وعمامتك.' فخلع الملك ملابسه، وكانت تساوي ألف دينار، وألبسته ثوبًا خَلِقًا لا يساوي عشرة دراهم، وراحت تؤانسه بالحديث وتمازحه، وكان سجناء الخزانة يسمعون كل ما يجري، لكنهم لم يجرؤوا على قول كلمة. فجأة، مدَّ الملك يده إلى عنقها يريد أن يقضي وطره منها، ولكنها قالت، 'لن يفوتنا هذا الأمر، ولكنني آليت على نفسي أولًا أن أستضيفك في هذا المجلس، ولدي ما يسرُّك.' وفي هذه اللحظة، طرق طارقٌ الباب فسألها، 'من هذا؟' فقالت له، 'إنه زوجي.' فقال لها، 'اجعليه يذهب من تلقاء نفسه، وإلا ذهبت إليه بنفسي وصرفتُه بالقوة.' فقالت له، 'لا، مولاي، بل اصْبِر حتى أصرفه بحسن تدبيري.' قال لها الملك، 'لكن ما العمل؟' فأخذته من يده وأدخلته في الطبقة الرابعة من الخزانة، وأغلقتها عليه.

ثم ذهبت وفتحت الباب، فدخل النجار وسلم عليها. فقالت له، 'ما هذه الخزانة التي صنعتَها لي؟' فقال لها، 'مِم تشكو، يا سيدتي؟' قالت له، 'الطبقة العليا ضيقة جدًا.' فقال لها، 'إنها ليست كذلك.' قالت له، 'ادخلها وانظر بنفسك، إنها لا تتسع لك.' قال لها، 'إنها تتسع لأربعة.' ثم دخل الطبقة الخامسة، فأغلقت الباب عليه. عندئذٍ، أخذت رسالة الوالي وحملتها إلى الخازن، فقبَّل الرسالة وسلَّمها عشيقها الذي أخبرته بكل ما جرى، فسألها، 'وما العمل الآن؟' قالت له، 'سننتقل إلى مدينة أخرى، فليس لنا إقامةٌ هنا بعد هذا الصنيع.' فحزما أمتعتهما وحمّلاها على الجمال، وانطلقا من ساعتهما إلى مدينة أخرى.

وظل الخمسة ماكثين في الخزانة ثلاثة أيامٍ بأكملها، بلا طعام أو شراب، حتى لم يعد النجار يحتمل حبس بوله، فبال على رأس الملك، والملك بال على رأس الوزير، والوزير بال على رأس الوالي، والوالي بال على رأس القاضي. فصاح هذا، 'ما هذه النجاسة؟ أما يكفينا الضيق الذي نحن فيه حتى تتبولوا علينا؟' عرف الوالي صوت القاضي، فقال، 'عظَّم الله أجرك، أيها القاضي!' وحين سمعه القاضي عرف أنه الوالي. ثم رفع هذا صوته وقال، 'ما بال هذه النجاسة؟' فأجابه الوزير قائلًا، 'عظم الله أجرك، أيها الوالي.' فعرف الوالي أنه الوزير. ثم رفع الوزير صوته وقال، 'ما بال هذه النجاسة؟' ولكن الملك حين سمع صوت الوزير التزم الصمت وكتم أمره. عندئذ قال الوزير، 'لعن الله تلك المرأة التي جاءت بكل أرباب الدولة إلى هنا ما عدا الملك.' فقال له الملك، 'على رِسْلِك، أيها الوزير، فأنا أول من وقع في شراك هذه الفاجرة العاهرة.' فصاح النجار، 'وما ذنبي أنا؟ لقد صنعت لها خزانةً بأربعة دنانير،

وحين أتيت لأطالب بأجرتي، خدعتني وأدخلتني هذه الطبقة وأغلقت الباب علي.' ثم راحوا يتحدثون لتسلية الملك لعلهم يُذهِبون عنه ما فيه من الكَرْب.

وفي الحال جاء الجيران إلى البيت فرأوه مهجورًا فقالوا لبعضهم، 'ولكن جارتنا زوجة فلان كانت فيه بالأمس. ولكنه الآن لا يُسمع فيه صوتٌ ولا تُرى فيه نَفسٌ. لنكسر الأبواب وننظر جَلَيَة الأمر، وإلا سمع الملك أو الوالي وسيُلقى بنا في السجن ونندم لأننا لم نفعل هذا من قبل.' ثم كسروا الأبواب ودخلوا البهو، فرأوا الخزانة وسمعوا الرجال بداخلها يئنون من الجوع والعطش. قال أحدهم، 'هل في الخزانة جِنيّ؟' فقال آخر، 'لِنجمعْ عليها حطبًا ونحرقها بالنار.' وحين سمعهم القاضي، قال لهم، 'لا تفعلوا!' فقالوا لبعضهم بعضًا، 'إن الجن يتصوَّرون بصورة الإنس ويتكلمون بلسانهم.' عندئذ، تلا القاضي بعضًا من آيات الذِّكْر الحكيم، وقال لهم، 'ادنوا من الخزانة.' فاقتربوا، وقال لهم، 'أنا فلان القاضي، وأنت فلان وأنت فلان، ونحن هنا جماعة.' فسأله الجيران، 'ومن جاء بكم هنا؟' فقصَّ عليهم الخبر من بدايته إلى نهايته.

ثم أحضروا نجارًا، وفتح الأبواب الخمسة وأخرج القاضي والوزير والوالي والملك والنجار، ولما رأى كلٌّ منهم ملبوس الآخر، راح يضحك عليه. ولما كانت المرأة قد أخذت ملابسهم جميعًا، أرسل كلٌّ منهم إلى أهله ليأتوه بملابس جديدة، فلبسوها وخرجوا، وهم يتسترون من الناس.(٣٠)

ترد هذه القصة مرتين في «ألف ليلة وليلة». تحكي النسخة الأخرى عن أربعة رجال يلاحقون زوجة فاضلة تتوصل هي وزوجها إلى طريقة للتخلص منهم. إذ تدعوهم على التوالي إلى بيتها، فيأتي كل منهم بهديةٍ ثم يُجرَّد من ملابسه ويُلبَس بدلًا منها ملابسَ ملونة. وفي هذه اللحظة، يقاطعها وصول الوافد الجديد، فيُحبَس الزير السابق في حجرة. وآخر من يصل هو الزوج الذي تُخبره زوجته أنها عثرت على أربعة مهرجين في السوق، فيضطر كلٌّ من المغفَّلين تِباعًا أن يرقصوا ويحكوا حكاية، ثم يُفرَج عنهم.(٣١)

هذا النمط القصصي، كغيره من حكاياتنا، له سلسلة نَسَبٍ عريقة. فهو يرد في مجموعة الحكايات السنسكريتية *Kathasaritsagara* (بحرٌ من ينابيع القصص) التي جمعها سومادِيڤا، وهي مجموعة هائلة من الحكايات التي كانت تُتداوَل حوالي سنة ١٠٠٠ ميلادية، ولكنها، كما

(30) Payne, *op. cit.*, Vol. 5, pp. 306-13.
(31) Burton, *op. cit.*, Vol. 5, pp. 253ff.

هو معروف الآن، تحتوي على حكايات أقدم بكثير وكثير. يوحي نقشٌ من القرن الثالث قبل الميلاد في بَرْهوت أن هذه الحكاية مُصورة هناك، وهو ما يعزز آراءً أخرى ترى أنها ذات أصل بوذي. وتوجد منها نسخٌ أخرى بالفارسية مثل «توتي نامه»، «بَحاري دانِش»، و«ألف يوم ويوم»، وفي النص العربي لـ «كتاب السندباد» المعروف باسم «الوزراء السبعة»، كما يوجد في كتاب «سيرة الأربعين وزيرًا» التركي، وفي مجموعة الحكايات الخرافية الفرنسية *Constant du Hamel* (كونستان دو آمل)، وفي «صنائع الرومان» باللاتينية، إلخ. أما أفضل نسخة إنجليزية فهي *The Wright's Chaste Wife* (زوجة الصانع العفيفة) التي كتبها آدم كوبسام (حوالي سنة ١٤٦٢)، ويُعتقد أنها تعتمد على حكاية *De Castitate* التي ترد في كتاب «صنائع الرومان» الذي ربما كُتِب في إنجلترا.

في هذه القصة، لا تأتي زوجة الصانع بمهرٍ غير إكليلٍ من الورد يحافظ على لونه ما دامت وفية. يبني الصانع حجرةً في برجٍ لكيلا يُفسدها أحد، ولهذه الغرفة بابٌ سري يُفضي إلى حفرة. يبعث إليه أحد الوجهاء ليبني له دارًا، مما سيضطره للغياب شهرين أو ثلاثة. يسأله الوجيه عن الإكليل، فيشرح له الصانع. يذهب الوجيه خِفْيةً إلى الزوجة ليمتحنها، فيعلن لها عن حبه ويقدم لها أربعين مارْكًا. فتأخذ النقود منه وترسله إلى الحجرة السرية حيث يقع في الحفرة. وعلى الرغم من توسلاته، إلا أنها ترفض الإفراج عنه حتى يراه زوجُها. ولكي يحصل على طعامه، عليه أن يغزل الكتان. يسأل وكيلُ الوجيه الصانعَ عن الوجيه ويلاحظ الإكليل. ويريد الوكيل أيضًا أن يمتحن الزوجة ويلاقي المصير ذاته بعد أن دفع عشرين ماركًا. بعد ذلك يسأل ناظر الكنيسة، فيحدث له الشي ذاته ويخسر عشرين ماركًا. وحين يعود الصانع، تقول الزوجة إنهم عمال جاؤوا لمساعدتها. لكنها لن تُخْرجهم حتى تأتي زوجة الوجيه وتسمع القصة. تضحك السيدة وتأخذ زوجها والآخَرَيْن وتعطي النقود التي جُبِيَت من الثلاثة للزوجة.

إن مقارنةً مع القصة السابقة الواردة في «صنائع الرومان» تقدم دليلًا على استخدام مثل هذه القصص أمثولاتٍ في المواعظ. هنا يُعطى النجار قميصًا بدلًا من الإكليل، وهذا القميص لا يحتاج إلى غسلٍ ما لم يَخُن أحدُ الزوجين شريكه. ومُراوِدو المرأة ثلاثة فرسان يُحبَسون على الخبز والماء لكنهم لا يُجبَرون على العمل، ولا يوجد ذِكْرٌ لزوجة الوجيه. ولكن الموعظة تُشرَح بالتفصيل الكامل: تمثل الزوجةُ الكنيسةَ الأمَّ المقدسةَ، ويمثل النجارُ المسيحيَّ الطيبَ، ويرمز القميص إلى الإيمان، ويرمز الفرسان إلى غرور الدنيا، وشهوة العين وشهوة

الجسد. 'وهذه عليك أن تحبسها في حجرة التوبة إلى أن تنالَ جزاءً خالدًا ... لذلك، هيا بنا ندعُ الله،' إلخ.(٣٢)

يتمحور المثال من «صنائع الرومان» وحكاية «زوجة الصانع العفيفة» حول رمز العفة الذي لا يظهر بطبيعة الحال في أي من الحكايتين في «ألف ليلة وليلة»، والذي يشكل سمةً فارقةً لهذا النمط القصصي، إذ يُعرَف النمط الآخر بالحادثة (وقوع مُراوِدي المرأة في المصيدة) التي تنتظم النمط بأكمله. في الحقيقة، ترد كلتا الصيغتين في مجموعة «بحرٌ من ينابيع القصص». أما رمز العفة فيظهر في قصة ديڤاسميتا التي يعطيها الإله شيڤا هي وزوجها التاجر زهرتي لوتس حمراوين حين يسافر الزوج إلى بلد آخر بقصد التجارة. وحين يسمع أربعة تجار شباب قصة اللوتس، يعزمون على إفساد ديڤاسميتا. فيذهبون إلى المدينة التي تعيش فيها ويرشون ناسكةً تستخدم حيلة الكلبة الباكية لتقنعها أنها تبالغ في عفافها. ولكن ديڤاسميتا لا تنطلي عليها هذه الحيلة، فتدبر مكيدة تخدِّر فيها كلًا من مُراوِديها وتسمه بالكي حين يزورها على انفراد. ثم تمضي للحاق بزوجها، وهكذا تستطيع بفضل الوشم أن تدعي أن الشباب الأربعة هم عبيدها الآبقون. ثم تنكشف الحقيقة، ويفتدي التجار أنفسهم بالمال، ويعود الزوج وزوجته معزَّزيْن مُكرَّمَيْن.

أما مصدر الحكاية من دون رمز العفة في «بحرٌ من ينابيع القصص» فهو حكاية الزوجة الفاضلة أوپاكوسا، إذ يُعرَّى المُراوِدون الثلاثة وتُطلى أجسامهم بسُخام المصابيح ثم يُحبَسون في سلة. والموعد الرابع مع جامعِ أموالٍ يحتفظ بمالٍ يعود لزوج أوپاكوسا وكان قد قال إنه سينكره ما لم تُذعِن له. وهو يعد أوپاكوسا أنه سيسلمها المال بعد زيارته لها. يُعرّى بدوره ثم يُلقى به في الشارع بما أن الفجر راح ينبلج. تذهب أوپاكوسا مباشرةً إلى الملك وتقدم مظلمةً ضد جامع الأموال. وحين ينكر ذلك، تقول إن آلهة أسرتها موجودة في السلة وستشهد بصدقها. يشهد الثلاثة من داخل السلة، خشية الفضيحة، ويعترف جامع الأموال بدينه. يطلب الملك أن يرى آلهة الأسرة، فيُكشف عن المجرمين، ويسخر الناس منهم، ثم تُروى القصة كاملةً.

وبينما خلَّد كتاب «توتي نامه» الفارسي رمز العفة، لم ينقل كتاب «الوزراء السبعة» العربي إلا موضوع المُراوِدين الواقعين في المصيدة، وهو ما تشعب إلى نسختين في «ألف ليلة وليلة». ترد الخزانة ذات الطبقات في «الوزراء السبعة»، كما ترد فيه أيضًا قصة السيدة التي تتصرف لإنقاذ العشيق، لا لحماية حقوق الزوج. أما حادثة التبول في الخزانة فلعلَّها لا تزال تُروى في الفكاهة

(32) Pearson, C. H., cited in Furnival, Frederick T., *The Wright's Chaste Wife*, London, E. E. T. S., 1865, (no. 12) front page.

الشعبية الأمريكية الدارجة عن السيناتور بانكس عن طقوس البدء في نوادي الرجال.(٣٣) ورمز العفة له بطبيعة الحال تاريخ منفصل في قصص أخرى. ويتمثل في أكثر أشكاله شيوعًا في قميص أو رداء، كما في القصيدة السردية الإنجليزية The Boy and the Mantle (الغلام والرداء) وفي الحكاية الخرافية الفرنسية *Cort Mantel* (الرداء القصير) كما يوجد في مثيلاتها النوردية والألمانية والإيرلندية وغيرها.(٣٤)

وليس غريبًا أن يتفرع من قصة شعبية واحدة فرعان مختلفان إلى درجة لافتة في «ألف ليلة وليلة»، ذلك لأن هذه الحكايات تمثل الفلكلور العربي وكذلك أنماطَ المعيشة المختلفة التي تختلف في تفاصيل الثقافة المادية وفي رؤيتها للطبقات الاجتماعية ومعنى العار والشرف، إلخ.

والآن ننتقل إلى القصائد السردية مرة أخرى لكي نقدم نسخة حديثة للقصة. يرى تشايلد أن قصيدة "الراهب في البئر" مشتقة أصلًا من نمط المُراوِدين الواقعين في المصيدة، حيث يقول إن القصة:

لا تفوق 'قوى الخيال' عند أي شعب من الشعوب الأوربية، ولكن وجود بئر مكشوف في بيت إنجليزي هو شيء غريب على الأقل. فإن وجدنا شيئًا من هذا القبيل ... في حكاية شرقية، فالاستعارة تبدو أكثر منطقية من الابتكار. وهناك كم هائل من الحكايات، الشرقية في معظمها، التي تحكي عن زوجة عفيفة تُحْبِط شراكَ اثنين أو ثلاثة من مُراوِديها ... في كتاب «توتي نامه» الفارسي ... تفرش الزوجة فراشًا فوق بئر ناضب، وتدعو مراوديها للجلوس عليه، فيسقطون في البئر. وهنا يحق لنا أن نفترض أننا عثرنا على الأصل البعيد لهذه الحيلة في قصيدتنا السردية الغنائية.(٣٥)

الراهب في البئر

بينما كنت مستلقيًا مستغرقًا في تفكيري،
خطرت ببالي نكتةٌ طريفة.
فاستمعوا قليلًا كي أروي لكم
عن راهبٍ هامَ بفتاة جميلة.

---

(33) Randolph, *op. cit.*, p. 20.
(34) Child, *op. cit.*, Vol. 1, pp. 257ff.
(35) *Ibid.*, Vol. 5, p. 100ff, no. 276.

فقد أتى إلى الفتاة حين أوت إلى فراشها
وهو ينوي أن يفتض بكارتها،
ولكنها صدَّت رغبته
وقالت له إنها تخشى نار الجحيم.

'وَيْحَكِ، لا تشكّي بقدرتي على إخراجك
من الجحيم بغنائي،' قال لها الراهب.
فقالت الفتاة، 'إذن، ستنال مُرادَك.'
وفرح الراهب فَرَحَ ثعلبٍ في جُحره.

'ولكنَّ لي مطلبًا واحدًا قبل
أن تنال مُرادك،' قالت الفتاة،
'فقبل أن تفعل فعلتك
عليك أن تأتيني بمبلغٍ من المال.'

فقال الراهب، 'وَيْحَكِ، دعينا نتفق:
لن يحول المال بيني وبين من أُحب،
فقبل أن أراك في فاقة
سأنضو عن ظهري ردائي الرمادي وأرهنه.'

فكرت الفتاة في حيلة
تحتال بها على الراهب،
وفي غيابه، والحقُّ يُقال،
علَّقت قماشةً أمام البئر.

جاء الراهب، بحسب الاتفاق،
بالمال لفتاته الجميلة.

'صباح الخير، سيدتي الحسناء!' فقالت، 'صباح الخير.'
'هذا هو المال الذي وعدتُك.'

شكرت الرجل وأخذت ماله،
فقال لها، 'هَلُمّي بنا، يا حبيبتي الحلوة.'
فقالت، 'مهلًا، مهلًا،
لقد جاء أبي ليأخذني.'

قال الراهب، 'واحسرتاه، أين المفر
كي أختبئ حتى يذهب؟'
قالت، 'اذهب إلى وراء القماشة،
حيث لن يراك أبي هناك.'

خلف القماشة زحف الراهب
وفجأةً سقط على رأسه في الجب.
'واحسرتاه، لقد سقطت في الجب.'
فقالت، 'لا بأس حتى لو كنت في الجحيم

ألم تقل إنك تستطيع إخراجي من جهنم بغنائك؟
والآن أرجو أن تُخرج نفسك من البئر!'
فغنى الراهب بصوت يفطر القلوب،
'أخرجيني، وإلا غرقت!'

فقال، 'كُرمى لحبيبنا القديس فرانسِس
ارحمي تلميذه.'
فقالت، 'ولكن القديس فرانسس لم يوصِ
تلامذته قط أن يُراوِدوا الفتيات الصغيرات!'

ظل الراهب يتوسل إليها
لعلَّها تُخرجه من البئر.
فسمعته يئن أنينًا يفطر القلوب
فأخرجته وأمرته أن يذهب.

قال لها، 'هلاّ أعدتِ إليَّ مالي
الذي أخذتِه مني من قبل؟'
'لا سبيل إلى ذلك يا سيدي العزيز،
لأنك لوَّثْتَ بئري.'
مضى الراهب في سبيله
وهو يقطر ماءً مثل نعجةٍ غُسِلَتْ للتو.
وأثنى الناس، شيبُهم وشبانُهم،
على ما نصبته الفتاة من مكيدة ظريفة.

حكاية من الغرب: بِثْ غِليرت

أو قبر الكلب السلوقي(٣٦)

سمع الرَّمّاحُ صوتَ البوق
وأشرق الصبحُ باسمًا
فلبَّت نداءَ بوق لُويِلِين
كثيرٌ من كلاب الصيد ذكورًا وإناثًا.

'تُرى، أين يتجول غِليرت الوفي،
وهو مَن سادَ سُلالته جميعًا،
ذاك الحَمَلُ الوديعُ في البيت
وأسدُ الغاب في النِزال؟'

إنه بحقٍّ كلبُ صيدٍ لا يُجارى
فهو هديةٌ من الملك جون.
أمَا وقد غابَ أثرُ غِليرت الآن
فقد مضى موكبُ الصيدِ في سبيله.

عاد لُويِلِين إلى بيته مُكدَّر الخاطر
فأبصر قريبًا من بوابة القصر
غِليرت المتقاعس
يتقافزُ لتحية سيده.

ولكن السيد وقف مذهولًا
حين بلغ باب قلعته:

(٣٦) قصة هذه القصيدة السردية الغنائية متوارثةٌ في قرية عند سفح سنودِن حيث كان لدى لُويِلِين بيت هناك. وكان الكلب السلوقي، ويُدعى غِليرت، قد أهداه إليه حَمُوُّه الملك جون سنة ١٢٠٥، ولا يزال المكان إلى يومنا هذا يُعرَف باسم 'بِث غليرت.'

كان الكلبُ ملطخًا جسدُه
وعلى شفتيه وأنيابه تسيل الدماء.

هُرِع لُويلِين مسرعًا
وكذلك تَبِعَهُ غِليرت،
فأنّى تلفَّت صَدَمَتْ ناظرَيْهِ
قطراتٌ من الدم جديدة.

ثم ألفى سرير رضيعه مقلوبًا
وغطاءه ملطخًا بالدماء ممزقًا
والجدران من حوله كلها
بدمٍ مُراقٍ حديثًا ملطخة.

نادى طفله وما من مُجيب
فراح يبحث برعبٍ جنوني
والدماء الدماء في كل صوب
إلا الطفل ما له من أثر.

'يا وارِدَ الجحيم، أنت من افترست طفلي،'
صاح الوالد الهائج المسعور،
ثم أغمد في خاصرة غليرت
سيفَ الانتقام حتى النصلِ.

لم تَشِ نظراتُ غليرت المتضرعة،
وهو مُكِبٌّ على وجهه، بما يدعو للشفقة.
لكن صرخة احتضاره
أثقلت قلبَ سيده.

أيقظت صرخةُ احتضارِ غِليرت
من كان يغط في نومه غيرَ بعيدٍ.
ما أعجز الكلماتِ عن وصف فرحة الأب
وهو يسمع صراخ ابنه!

استفاق الطفلُ الجميل متورِّدَ الخدَّيْن
من نومه الهانئ، فأقبل عليه أبُوه يقبّله.
وكان متدثرًا تحت كومةٍ من الأغطية
لم ينتبه إليها في بحثه العَجول.

لا خدش فيه، لا إصابة، لا أثر لخوفٍ
ولكن تحت الأريكة ذاتها
يرقد ذئبٌ كالحٌ، مُمَزَّقًا قتيلا
مُروِّعًا حتى في موته.

ما أشدَّ وجعَك يا لُوِيلِين
بعد أن انجلت الحقيقة:
لقد قتل كلبُه الشهمُ الذئبَ
لينقذ حياةَ وارث لُوِيلِين.

أتُراه يُجدي العويلُ قَتيلا؟
'يا خيرَ أبناءِ جنسك!
سيندم ذا القلبُ ما حييتُ
على طعنةٍ أَرْدَتْكَ قتيلا.'

هاهم يُشيدون ضريحًا فاخرًا
مُزيَّنًا بنقوشٍ باهظةِ الأثمان

ورخامٍ عليه عباراتُ الثناء
ليحمي عظام غِليرت المسكين.

لا يمكن لرمّاحٍ أو حطّاب قطُّ
أن يمرَّ من غير أن يتأثر،
إذ يرى العشب المبلَّل بالدموع غالبًا
شاهدًا على حزن لُويلِين.

وإلى أن تشيخَ صخورُ سنودِن العظيمة
وتتوقف عن تحدي العواصف،
ستظل تلك البقعة المقدسة
تحمل اسم 'قبر غِليرت.'(٣٧)

(37) From *Poems by the Late Hon. William Spencer*, London, 1835, pp. 150-55.

حكاية من الشرق: الفعل المُتسرِّع

حين حان وقت ولادة زوجة البرهمي، ولدت ولدًا عليه أمارات الفأل الحسن. وفي اليوم العاشر من الولادة وبعد تسمية الولد، تركت زوجة البرهمي الولد في عهدة والده وذهبت إلى نهرٍ قريبٍ لتتطهر ولتغسل ملابسها الملوثة. كان البرهمي فقيرًا جدًا لا يُطيق أجرة خادم، فيضطر للقيام بعمله بنفسه، فظل يراقب الولد. وبما أن ذلك وافق يوم تغيُّر القمر، فقد أرسلت الملكة الكبرى خادمة من قصر الملك لتحضر قارئًا للنصوص المقدسة، فزارت البرهمي. وحين تلقى البرهمي الدعوة، خطر له هذا الخاطر، 'إن لم أذهب في الحال، سيحظى غيري بالقُربان. ولكن ليس هناك من يراقب الولد. ماذا أفعل؟' في هذه الظروف، ترك نِمسًا كان قد ربّاه مثل ابنه، فكان يؤويه في بيته في الحجرة التي تُوقَد فيها النار المقدسة ويُطعمه من حبوب الذرة وما شابهها، وهكذا غادر البرهمي. وفي الحال رأى النمس أفعىً تخرج من جُحر في الأرض وتقترب من الطفل. وما إن رآها حتى راح شرار الغضب يقدح من عينيه، وارتجفت شفتاه وأسنانه ومخالبه، فقفز في الحال على الأفعى ومزقها مِزقًا. وحين رأى البرهميَّ مُقبلًا، عَدا نحوه فَرَحًا وليريه ما فعل، وكان فمه ومخالبه لا تزال ملطخةً بالدم. وحين رأى البرهمي المتسرع خَطمَ النمسِ ملطخًا بالدم، قال في سرِّه، 'ماذا؟ أتُراه أكل ولدي؟' ثم أرداه قتيلًا بعصاه. وما إن دخل البيت بعد قتله النمس حتى رأى طفله نائمًا وسليمًا معافى كما تركه، ورأى الأفعى ممزقة إلى جانبه. وراح يضرب صدره ويصيح، 'ويحَ قلبي، ما أحمقني، وما أشنعَ ما صنعت!'[(٣٨)]

ملاحظة:

لا توجد أسطورة الأب والرضيع والكلب الوفي الذي يُقتَل بسبب التسرع في ويلز فحسب بل أيضًا في كل البلدان الأوربية تقريبًا. وإذا استبدلنا النمس بالكلب، وجدنا أنها لا تقل شهرة وانتشارًا في الشرق، ذلك لأن النمس يرد ذكره في مجموعة «پانچاتانترا» التي أخذنا منها النص الشرقي هنا. ولقد ذكرنا من قبل أن «پانچاتانترا» تُرجمت إلى العربية (من طريق البهلوية) وسُمِّيت «كليلة ودمنة». ومن خلال هذه المجموعة البالغة الأثر، عبرت هذه الحكاية إلى «كتاب السندباد» الذي انتقل بأكمله إلى الأدب الأوروبي تحت اسم «حُكماء روما السبعة». يلخص إدغَرتِن تاريخ قصتنا على النحو التالي: بما أن النمس غير معروف للعرب،

(38) Edgerton, Franklin (Trans.), *The Panchatantra*, New York and London, 1965, pp. 149-50.

فقد تحول في البداية إلى ابن عرس ثم إلى كلب، وظلت الأفعى أفعى، ولكن بسبب ارتباط الكلاب بالفرسان، فقد تحول البرهمي الأصلي أو رجل الدين إلى أحد النبلاء. يُعرَف كتاب «حُكماء روما السبعة» في ويلز باسم «كتاب هيرغِست الأحمر» الذي يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر، وهو يحتفظ بالأفعى، ولكن القصة استقلت بذاتها عن الأدب وشاعت كثيرًا في القَصص الشعبي الويلزي الذي حوَّل الأفعى في أواخر العصور الوسطى إلى ذئب، لأن الذئب أجدر بهجوم الكلب. أما اقتران الأمير الحقيقي لويلين وكلبه المميز بحكاية قتل الكلب فلم يحصل إلا في حوالي ١٧٩٣-٩٤ حين خلط صاحب نُزُلٍ في ويلز بين الأسطورتين. ومن المعروف أن الشاعر وِلْيَم سبِنسَر، الذي اشتهرت أسطورة لويلين بفضل قصيدته، قد زار صاحب النُزُل قبل نشر عمله سنة ١٨٠٠.(٣٩)

غير أنه من الممكن أن يكون للحكايتين (حكاية لويلين وحكاية «پانچاتانترا») مصدران مستقلان، إذ يمكن أن يُرتكب الفعل المتسرِّع أكثر من مرة. وفي الحقيقة توجد حكاية موثقة عن نِمس قُتِل في ظروف مشابهة في الهند حوالي سنة ١٩٢٠.(٤٠) علاوةً على ذلك، إن أقدم مثيلٍ مُدَوَّن لقصتنا لا يرد في «پانچاتانترا» السنسكريتية بل في كتاب پوزانْيَاس الإغريقي في القرن الثاني (أي، إنه أقدم بقرنين أو ثلاثة). ففي كتابه عن مقاطعة فوكيس، يروي پوزانْيَاس قصة أب يشتبه أن هناك مؤامرةً لقتل ابنه الرضيع. لذلك يخبىء الأبُ ابنَه في وعاء، وحين يحاول ذئب أن يصل إليه، تطرده حيةٌ ملتفةٌ حول الوعاء. وحين يرى الأب الحية، يرميها برمحه، فيقتل الحية وابنه معًا. ثم يخبره الرعاة أن الحية تحرس الطفل، فيقيم الأب محُرَقة جنائزية لكل منهما، ثم تُسمّى مدينة أوفيتيا باسم الحية. في مقالة بعنوان 'آرثر وغورلاغون' يلفت كِتْردج انتباهنا إلى پوزانْيَاس ويستشهد بقولٍ لهارتلاند مفادُه أن نسخةً واحدةً للحكاية على الأقل كانت معروفةً في أوربا 'بغض النظر عن التيار الذي يُرصَد من خلاله أصل الخرافة عادةً.'(٤١) إذن، يُمكن أن تكون حكاية لويلين قد نشأت مما يَتواتر عن حدث فعلي عن رضيعٍ وكلب وذئب أو عن أسطورة شعبية ناشئة من پوزانْيَاس أو لعلها سابقة عليه، وليس من المصادر الأدبية التي يعود أصلها إلى «كليلة ودمنة» ومنها إلى «پانچاتانترا».

---

(39) Edgerton, *op. cit.*, pp. 18-19.

(40) Emenau, M. B., 'A Classical Indian Folk-Tale as Reported Modern Event,' *Proceedings of the American Philosophical Society*, Vol. 83 (1940), pp. 503-13.

(41) Kittredge, 'Arthur and Gorlagon,' *Studies in Philology and Literature*, VIII, (1903), pp. 222ff., 269ff.

الساحر العربي

مُقتطف من واشنطن إيرڤِنغ، «قصر الحمراء»، ١٨٣٢

كان واشنطن إيرڤِنغ أبرز أدباء أمريكا وأكثرهم ترحالًا، وكان أينما يحلُّ يجمع شذراتٍ من الأساطير كي يستخدمها في كتاباته. كان اهتمامه بكل الأماكن، من سليپي هُلو في ولاية نيويورك إلى بريسبردج في إنجلترا وغرناطة في إسبانيا، هو اهتمام الآثاري الرومنسي، ولا سيما في إسبانيا التي سحره ماضيها العربي الإسلامي. وقد أقام فعليًا في قصر الحمراء (بإذنٍ من حاكم غرناطة) من أيار حتى تموز ١٨٢٩. وفي بعض المدونات التي كتبها في ذاك الزمان يروي كيف كان يستمع إلى الرواة مثل ماتيو خِمينيز الذي يتذكر حكاياتٍ كان يرويها جده، المولود قبل مئة عام، عن كتابٍ عربي في السحر، وعن إرث العرب وكنزٍ مدفونٍ ورجلٍ مسحورٍ كان يحرسه.

اعترف إيرڤِنغ أيضًا أنه مدين لكتاب «نفح الطيب» للمَقرّي، إذ أصبح هذا المُصنَّف الجامع للمعلومات التاريخية والأدبية المُدوَّن في أوائل القرن السابع عشر متوفرًا بترجمةٍ إنجليزية سنة ١٨٤٠. وكتاب «نفح الطيب» هو المصدر العربي الوحيد المتبقي عن إسبانيا الإسلامية، ويضم رسائل وقصائد واقتباسات من أعمال تُعدُّ الآن من عِداد المفقودات. ولدى مناقشة "الساحر العربي" يقول إيرڤِنغ، "يقتبس المَقرّي في كتابه «نفح الطيب» من كاتب عربي آخر حكايةَ طَلْسَمٍ على هيئة تمثالٍ تشبه إلى حدٍّ ما حكاية "الساحر العربي." ثم يقدم ملخصًا لهذه الحكاية يفيد أنه في الماضي كان ينتصب برجٌ مربَّع في قادش وعلى رأسه تمثال رجل يحمل عصًا في يمينه بينما تشير يساره إلى مضيق جبل طارق. ظن أبناء المنطقة المسلمون أن الطلسم يفرض سحره على البحار. وتحت إرشاداته غزت الساحلَ جيوشٌ من القراصنة. وأخيرًا سمع أحد أمراء البحر المسلمين أن التمثال مصنوعٌ من الذهب الخالص،

فأمر بإنزاله. وحين فتّوه تبيَّن أنه من النحاس الأصفر المطلي بالذهب. بَيْدَ أنه منذ ذلك اليوم توقفت غارات القراصنة نهائيًا.

وفي كل الأحوال، الموضوعات الرئيسية في "الساحر العربي" هي موضوعات شرقية لا غبار عليها: المنجِّم بثوب الساحر، مصر بوصفها مركز العلوم الخفية، التماثيل البرونزية التي تشير إلى غارات الأعداء، مدينة إرَم [ذات العماد]، الجنة تحت الأرض، والأميرة الأجنبية الغامضة التي تبذر الشقاق. فنحن في الغرب نعرف أن هذه الموضوعات عربية حتى من دون ملاحظات إيرفِنغ، لأنها وردت أيضًا في «ألف ليلة وليلة» كما ترد في أعمال سابقة مثل «سيرة الإسكندر». ففي كلا العملين نسمع عن تمثال قادش الذي نصبه الإسكندر عند ملتقى البحر الأبيض المتوسط ببحر الظلمات. كذلك تقع مدينة النحاس في أقصى الغرب قرب بحر الظلمات. يشير وِنْزِك إلى مأثوراتٍ تتعلق بالإسكندر وهي "تتحدث عن صورة نحاسية ومدينة نحاسية بوصفهما علامتين على تُخوم الغرب. والمدينة مجهزة بقبابٍ وأبراجٍ لامعةٍ، وهي مكان مليء بكل ما هو ثمين ولكنها مكانٌ للموت."[١] كما نذكر أيضًا تماثيل نِكتانيبوس السحرية يوم كان حاكمًا لمصر. ويروي كتاب «حكماء روما السبعة» عن طلسمٍ صنعه ڤيرجِل، وهو عبارة عن تمثالٍ كبيرٍ يحمل تفاحةً ذهبيةً، وتحيط به تماثيل أصغر، يمثل كل منها أحد الأقاليم الرومانية. وكل منها يحمل جرسًا في يده تشير به إلى التمثال الأوسط حين يتمرد أحد الأقاليم.[٢] في مجموعة حكايات سليمان، يبدو سليمان نموذجًا أوليًا للساحر المصري، إذ ينام إلى الأبد في فردوس تحت الأرض.

ومن المفارقات الغريبة التي حدثت لحكاية "الساحر العربي" أن ألكساندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) أعاد صياغة حبكتها شعرًا بالروسية وسمّاها "حكاية الديك الذهبي الصغير،" مما جعلها تنتشر انتشارًا واسعًا وزائفًا على أنها حكاية شعبية روسية. تذكر نسخة بوشكين مرة واحدة فقط أن الساحر يلبس طربوشًا عربيًا، وما عدا ذلك فهي تقدم الحكاية بلا خلفية مغربية. فالقيصر دودون ملكٌ على بلادٍ غير مُحددة. وأصبح تمثال الفارس ديكًا ذهبيًا صغيرًا (كما حدث لطلسم سابق في حكاية إيرفِنغ). يقتل الديك القيصر دودن حين يرفض إعطاء الأميرة للساحر. أما الملك والساحر والطلسم والوعد المخلوف واختفاء الأميرة كلها عناصر أساسية في القصة ذاتها. ولكن النقاد السوفييت في العصر الحديث، الرافضين لفكرة أن

(1) Cited in Gerhardt, Mia, *The Art of Story-Telling*, Leyden, Netherlands, 1963, p. 203.
(2) Campbell, Joseph (Ed.), *The Portable Arabian Nights*, New York, Viking Press, 1952, pp. 322-54.

الكتابات الروسية قد تكون مستمدّة من مصادر أجنبية، اتهموا الباحثين الفلكوريين الذين وثَّقوا العلاقة بين پوشكين وإيرڤِنغ بالتبعية للغرب. على أي حال، يشتهر پوشكين اليوم بين الغربيين أكثر من شهرة إيرڤِنغ، ولا سيما بسبب هذا العمل لأن رِمْسكي-كورساكوف ألّف أوپرا «الديك الذهبي» سنة ١٩١٠، وقد استخدم قصة پوشكين والألحان الشعبية الروسية. وهذه الصيغة الروسية للحكاية هي الأشهر الآن. ولكن إيرڤِنغ يعود إليه فضلُ مزجِ موضوعات من القصص الشعبي العربي في نمط قصصي شرقي تقليدي، المعروف بانقلاب السحر على الساحر. وإن لم يكن هناك مثيل شرقي محدد للقصة برمتها، فهناك مثيلات جزئية لها.

المفارقة المزدوجة تكمن في أن إيرڤِنغ ينتهي به المطاف إلى تمثيل الثقافة الشرقية، أما أوپرا «الديك الذهبي» فتمثل الثقافة الغربية.

الساحر العربي

منذ مئات السنين من قديم الزمان، كان هناك ملك مغربي على مملكة غرناطة اسمه ابن حبوس. وبعد أن شاخ وتقاعد عن الفتوحات لم يعد راغبًا في شيءٍ سوى العيشِ في سلامٍ والاستمتاع بما استولى عليه من جيرانه.

ولكن كان لديه منافسون شباب وعليه أن يتعامل معهم: إما أمراء لديهم حساباتٌ يريدون تصفيتها معه، وإما رعايا متمردون داخل مملكته. وما زاد في الطين بلةً هو أن غرناطة محاطة بجبال وعرة مُقْفِرة تحول بينه وبين رؤية مَقدم الأعداء، فعاش ابن حبوس العاثر الحظ في ذُعر دائم.

ولم يكن يُجدي ما بناه من أبراج للمراقبة ونقاط للحراسة، إذ كان أعداؤه المتربصون لا تُعييهم وسيلة، فيظهرون عليه من شِعْبٍ في الجبال لا يخطر على بال، فيعيثون في بلاده تخريبًا على مرأىً منه، ثم يولّون آخذين معهم الأسرى والغنائم. لم يعش فاتحٌ متقاعدٌ قط مثل ما عاشه من نكدٍ وضيقٍ.

وبينما هو في هذه المحنة، وصل إلى بَلاطه طبيبٌ عربيٌ طاعنٌ في السن. كانت لحيته البيضاء تتدلى حتى نِطاقه، وكانت تبدو عليه كل أمارات الهَرَم الشديد، ومع ذلك فقد قطع كل المسافة تقريبًا من مصر على قدميه. وكانت شُهرته قد سبقته. وكان اسمه إبراهيم ابن أبي أيوب، ويقال إنه عاش منذ أيام محمد [صلى الله عليه وسلم] وأن أباه أبا أيوب هو آخر صحابة النبي، وأنه في طفولته رافق جيش الفتح الإسلامي إلى مصر التي قضى فيها سنين عديدة يتعلم العلوم الخفية،

ولا سيما السحر، بين الكهنة المصريين. كما يُقال أيضًا إنه اكتشف سر إطالة العمر، وهو ما مكّنه من بلوغ ما يربو على القرنين. لكن بما أنه لم يكتشف السر إلا بعد أن بلغ من الكبر عِتِيّا، فلم يُفلح إلا في إمداد شيبته وتجاعيده بأسباب الحياة.

أكرم الملك وفادة هذا الشيخ العجيب، وهمَّ أن يعطيه إحدى المقصورات في قصره، ولكن الساحر فضَّل كهفًا في سفحِ رابيةٍ تُطل على مدينة غرناطة، وهي ذات الرابية التي بُني عليها قصر الحمراء. فأمر أن يوسَّع الكهفُ بحيث يشكل بهوًا واسعًا مرتفعًا وله ثقب دائري من الأعلى يستطيع من خلال أن يرى السماء والنجوم في رابعة النهار كما لو كان في جبٍّ. وكانت جدران هذا البهو مغطاةً كلها بالكتابات الهيروغليفية المصرية وأشكال النجوم في بروجها. ثم زوَّد هذا البهو بكثيرٍ من الأدوات التي صنعها عمالٌ مَهَرة من غرناطة بتوجيه منه، ولكن لا أحد يعرف ما فيها من خصائص سحرية سواه. ولم يمض إلا وقتٌ قصير حتى صار الحكيم إبراهيم المستشار المُقرَّب للملك، إذ كان يطلب مشورته في كل مُلِمَّةٍ من المُلِمّات. وذات مرةٍ، هاجم ابن حبوس جيرانه وشكا من شدة الترقب التي عليه أن يلتزمها حَذَرَ الغزو. وحين فرغ الملك، ظل الساحر صامتًا لحظة ثم أجاب، 'اعلم، أيها الملك، أنني حين كنت في مصر رأيتُ أمرًا عجبًا صنعته كاهنةٌ وثنيةٌ من سالف العصور. فعلى جبلٍ يُطلُّ على وادي النيل العظيم ينتصب تمثالُ كبشٍ وعليه تمثالُ ديكٍ، وكان كلاهما من النحاس المُذاب ويتحرك على مِحْوَر. فكلما تعرضت البلادَ لخطر الغزو، استدار الكبش باتجاه العدو، وصاح الديك. وبهذا يعرف الناسُ الخطرَ ويحتاطون له في الوقت المناسب.'

فصاح ابن حبوس، 'الله أكبر! الله أكبر! ما أعظمه من كنزٍ أن يكون لدي كبشٌ لحراسة هذه الجبال المحيطة بي وديكٌ يصيح في وقت الخطر! عندها سأنام قريرَ العين في قصري بحراسة هذين.'

فقال الساحر العربي بصوت رزين، 'اسمع أيها الملك، لقد كنتُ حاضرًا وتفحصتُ الطلسم، ودرستُ سِرَّه، وبإمكاني أن أصنع لك مثله أو ما يفوقه في مزاياه.'

صاح الملك، 'أيها الحكيم ابن أبي أيوب، إن هذا الطلسم أفضل من كل أبراج المراقبة على الروابي والحراس على الحدود. أعطني مثل هذا الأمان، وكنوز بيت مالي كلها تحت إمرتك.'

اعتكف الساحر في بيته، وشرع في عمله مباشرةً، إذ استدعى أرواح النيل وشياطينه لمساعدته. وبأمرٍ منه نقلوا إليه مومياء من حجرةٍ في وسط أحد الأهرامات، وكانت مومياء الكاهن الذي بنى الهرم بسحره.

فتح الساحر الصناديق الخارجية للمومياء وحلَّ لُفافاتها الكثيرة. على صدر الجثة وجد كتابًا مكتوبًا بأحرف قديمة. أمسك الكتاب بيد مرتجفة، ثم أعاد المومياء إلى صندوقها، وأمر الجِن أن تعيدها إلى حجرتها المظلمة الصامتة في قلب الهرم.

وفي المأثور أن هذا الكتاب هو كتاب المعرفة الذي أعطاه الله لآدم بعد هبوطه. وقد تناقلته البشرية جيلًا بعد جيل حتى وصل إلى سليمان الحكيم الذي استطاع بفضل ما فيه من أسرار عجيبة في السحر والفن أن يبني الهيكل في القدس. أما كيف صار هذا الكتاب بحوزة باني الأهرامات، فلا علم إلا عند العلَّام الخبير.

وبفضل هذا الكتاب والجن التي سُخِّرت له، استطاع الساحر أن يبني برجًا عظيمًا فوق قصر ابن حبوس في وقت قصير. وقد بُني البرجُ بحجارةٍ جُلبت من أحد أهرامات مصر، كما يقولون. في الجزء العلوي من البرج يوجد بهوٌ مستديرٌ وله نوافذ تتجه إلى كل نقطة في البوصلة، وأمام كل نافذة تصطف على منضدة، كرقعة الشطرنج، تماثيلُ من خشبٍ لجيشٍ من الخيالة والمشاة وتمثال مصغَّر للملك الحاكم في تلك الناحية. وكانت كل منضدة مربوطًا بها رمحٌ صغير لا يتعدى حجمه حجم المِخْرَز، وقد نُقشت عليه بعض النقوش الغامضة. وكان هذا البهو مغلقًا على الدوام ببوابة من النحاس ولها قفل فولاذي عظيم يحتفظ الملك بمفتاحه.

وعلى رأس البرج ينتصب تمثال برونزي لفارسٍ مغربي، وهو مُثبَّت على محِور، يحمل ترسًا على أحد ذراعيه، ويرفع رمحًا بشكل متعامد. يتجه الفارس نحو المدينة، كأنه يحرسها، لكن إن اقترب أي عدو، يستدير الفارس إليه ثم يسدد رمحه نحوه كأنه يتأهب للقتال.

وحين بُني الطلسم، كان ابن حبوس يتحرق شوقًا لامتحان مزاياه. وسرعان ما تحققت أمنيته، إذ جاءته الأخبار ذات صباح باكر أن وجه الفارس البرونزي قد اتجه باتجاه شِعْب لوپيه وأن رمحه مُصوَّب بذلك الاتجاه.

قال ابن حبوس، 'أعلنوا النفير للقتال!'

فقال الساحر، 'أيها الملك، لا تُقلق مدينتك ولا تدعُ محاربيك للقتال، فلسنا بحاجة إلى السلاح لننجّيك من أعدائك. اصرف حاشيتك وتعال معي لوحدك إلى البهو السري في البرج.'

صعد ابن حبوس الطاعن في السن درج البرج وهو يتكئ على ذراع ابن أبي أيوب الطاعن أكثر منه في السن. فتحا الباب النحاسي ودخلا، وكانت النافذة التي تطل على شِعب لوپيه مفتوحةً. فقال الساحر، 'في هذا الاتجاه يكمن الخطر. اقترب، أيها الملك، وانظر سِرَّ المنضدة.'

اقترب الملك من المنضدة الشبيهة برقعة الشطرنج التي تصطف عليها التماثيل الخشبية الصغيرة، فإذا بها، يا للعَجب، جميعًا في شُغل شاغل. كانت الخيل تثب وتتقافز، والمحاربون يُشْرِعون أسلحتهم، وللطبول قرعٌ، وللأبواقِ نفيرٌ، وللسلاح قعقعةٌ، وللخيل صهيلٌ، لكنها كلها لا تعلو على طنين نحلة ولا أمْيَز منه.

قال الساحر العربي، 'انظر أيها الملك، هاهُم أعداؤك في الميدان حتى في هذه اللحظة. لا بد أنهم يتقدمون عبر شِعب لوپيه في تلك الجبال. فإن شئت أن تبث الذعر والإرباك بينهم فتحملهم على التخلي عما جاؤوا من أجله وعلى التقهقر بلا خسائر في الأرواح، فاضرب هذه التماثيل بعَقِبِ هذا الرمح السحري. لكن إن شئت أن تسفك الدماء وتُحدِث مذبحةً في صفوفهم، فاضرب برأس الرمح.'

عبرت وجهَ ابن حبوس غمامةٌ شاحبةٌ، فأمسك بالرمح المقلَّد بشوق مرتجف، وترنح باتجاه المنضدة. كانت لحيته تتراقص فرحًا، وهو يقول، 'لا بأس من قليل من الدم، يا ابن أبي أيوب.'

قال هذا وهو يُغْمِد رأس رمحه السحري في بعض التماثيل القزمة، وهاجم أخرى بعقب الرمح. سقطت الأولى صرعى على الرقعة، واستدارت التماثيل الأخرى نحو بعضها وراحت تتقاتل قتالًا مسعورًا.

لم يتمكن الساحر من إيقاف يد الملك ومنعه من إبادة أعدائه كليًا إلا بشق الأنفس. وفي النهاية أقنعه بمغادرة البرج وإرسال كَشّافةٍ إلى شِعب لوپيه في الجبال.

عاد الكشافة بأخبار تفيد أن جيشًا من النصارى قد تقدم حتى صار على مقربة من غرناطة، ثم ثار الشقاق بينهم. فقد وجهوا أسلحتهم نحو بعضهم بعضًا، وبعد مقتلةٍ كبيرة، تراجعوا إلى ما وراء الحدود.

فرح ابن حبوس أيما فرحٍ حين اختبر الطلسم، فقال، 'وأخيرًا سأعيش عيشةً هادئة يكون فيها أعدائي تحت رحمتي. فقُل لي أيها الحكيمُ ابنَ أبي أيوب كيف أكافئك على هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ؟'

'إن حاجات الشيخ والفيلسوف، أيها الملك، قليلة وبسيطة. فأعِنّي على تجهيز كهفي كي يكون صومعةً لائقةً، وأنا لك من الشاكرين.'

فهتف ابن حبوس، وهو فَرِحٌ في سِرِّه لهذه المكافأة الزهيدة، 'ما أنبل اعتدالَ الحكيم الحق!' فنادى على خازن بيت ماله وأمره أن يصرف أي مبلغٍ يطلبه إبراهيم ليكمل صومعته ويؤثثها.

أمر الساحر الآن أن تُنحَت له حُجُراتٌ في الصخور الصمّاء بحيث تُشكّل مقصوراتٍ متصلةً بقاعة التنجيم. ثم أمر أن تُفْرَش بنمارق وأرائك فاخرة، وأن تُعلق على الجدران أفخر أنواع الحرير الدمشقي. وكان يقول، 'أنا شيخٌ طاعنٌ في السن، ولم أعد أطيق إراحة عظامي على أرائك من الصخر، وهذه الجدران الرطبة تحتاج إلى أغطية.'

ثم أمر أن تُبنى حمّاماتٌ وتزوَّد بكل أنواع الطيب والزيوت العطرية لأن الحمام، بحسب قوله، 'ضروريٌ لعلاج التصلُّب الناشئ عن الهَرَم وليعيد للجسم نضارته وليونته اللتين أذهبهما طلبُ العلم.'

ثم أمر أن تُعلَّق في المقصورات شتى أنواع المصابيح الفضية والبلورية التي ملأها بزيت عطري أعده وفقًا لوصفةٍ اكتشفها هو في مصر. وكان هذا الزيت لا ينفد بطبيعته وكان يُصدِر ضوءًا خافتًا. 'لأن ضوء الشمس مُبْهِرٌ وشديدٌ لا تحتمله عينا شيخٍ كبير، وضوء المصباح أَلْيَق بفيلسوف يَجِدُّ في طلب العلم.'

راح خازن بيت المال يتذمر من المبالغ التي يطلبها الساحر كل يوم ليجهز صومعته، وكان يحمل شكاويه للملك. ولكن الملك قد وعد، لذلك كان ابن حبوس يهز كتفيه ويقول، 'علينا أن نتحلّى بالصبر. فكل الأمور آيلةٌ إلى نهاية، وكذلك سننتهي من تجهيز هذا الكهف.'

وكان الملك على حق، إذ اكتملت الصومعة أخيرًا، وصارت قصرًا فخمًا تحت الأرض. قال إبراهيم بن أبي أيوب، 'لقد رضيت الآن. سأغلق صومعتي على نفسي وأكرس نفسي للعلم. لا أريد أي شيء آخر، أيًّا كان، إلا عزاءً ضئيلًا أروِّح به عن نفسي بين الحين والآخر من إجهاد الفكر.'

'أيها الحكيم إبراهيم، اطلب ما تشاء، فأنا مُلزَم بتزويدك بكل ما هو ضروري لعزلتك.'

'إذن، أرغب في بضعِ نساءٍ راقصات.'

قال الخازن بدهشة، 'نساءٍ راقصات؟'

ردَّ الحكيم بنبرةٍ رزينة، 'أي نعم، أريد نساءً راقصات. قليلٌ منهن يكفي. فأنا شيخٌ كبير وطالبُ حكمةٍ ذو عادات يسيرة ويقنع بالقليل. لكنني أريدهن أن يكن شاباتٍ يَسْرُرْن الناظرين، لأن مرأى الشباب والجمال يُنعِش العظم الرميم.'

وبينما كان إبراهيم الحكيم يُمضي وقته بلا تفريطٍ في صومعته، كان ابن حبوس المُسالم يواصل حملاته المحمومة مع تماثيله في البرج. فما أروع أن يجد شيخٌ هادئُ الطباع الحربَ بهذه السهولة وأن يتسلّى، وهو في حجرته، بطرد أعدائه كأنه يطرد أسرابًا من الذباب! ظل لبعض

الوقت منغمسًا في إشباع نزواته، بل كان يوبخ أعداءه ويهينهم لعلَّه يُغريهم بغزو مملكته، ولكنهم شيئًا فشيئًا سئموا من النكبات المتوالية حتى لم يعد أحدٌ يغامر بغزو بلاده. ظل الفارس البرونزي عدةَ شهورٍ رافعًا رمحه في الهواء، وبدأ الملك العجوز يتبرم من زوال تسليته المعتادة ومن هدوئه الرتيب.

وأخيرًا، انحرف الطلسم فجأةً وأشار برمحه إلى جبال غواديكس. هُرِع ابن حبوس إلى برجه، ولكن المنضدة في ذاك الاتجاه ظلت ساكنة، ولم يتحرك فوقها ولو محارب واحد. طار صوابه، فأرسل قوة من الفرسان لتمشيط الجبال، ثم عادوا بعد غياب ثلاثة أيام. خاطب رضوان، قائد القوة، الملك قائلًا، 'لقد فتشنا كل شِعْبٍ من شعاب الجبال، فلم نجد فيها خوذة أو رمحًا يتحرك. وكل ما وجدناه فتاةٌ إسبانيةٌ ذات جمال بارع، وكانت تنام في الظهيرة عند نبعٍ فأسرناها وجئنا بها.'

هتف ابن حبوس، 'فتاةٌ ذات جمالٍ بارع! إليَّ بها.'

فقال رضوان، 'عفوًا، أيها الملك، ولكن الحرب في هذه الأيام شحيحةٌ قليلٌ جَناها. وكنت آمل أن أحظى بهذه اللُّقية التي وجدناها مصادفةً لقاءَ خدماتي.'

فصاح الملك، 'لقية؟ مصادفةً؟ فتاة ذات جمال بارع! ورأس أبي، ما هي إلا ثمرةٌ منتقاةٌ من ثمار الحروب، ولا تُقطف إلا للملوك. إليَّ بالفتاة في الحال.'

وبناءً على ذلك، جيء بالفتاة إلى حضرته. كانت ترتدي الزي الغوطي بكل ما فيه من مفاخر الزينة التي كانت سائدةً بين الإسبان الغوطيين عند الفتح العربي. كانت لآلئ ذات بياض ناصع مجدولة مع غدائرها الفاحمة، والجواهر تتلألأ على جبينها، فتُنافس بريق عينيها. وعلى جيدها سلسلة ذهبية تتدلى منها قيثارةٌ فضيةٌ على جانب الفتاة.

أشعل بريق عينيها نارًا في صدر ابن حبوس الذاوي، فصاح منتشيًا، 'يا أجمل النساء، من أنت وماذا تكونين؟'

'أنا ابنة أمير غوطي كان يحكم هذه البلاد حتى عهد قريب! لقد هلكت جيوش أبي كأنما بقوة سحرية بين هذه الجبال. نُفِي هو وصارت ابنته أَمَةً.'

'قَرِّي عينًا، أيتها الأميرة الجميلة! أنتِ لستِ أَمَةً بعد اليوم، بل مليكة. انظري بعين الرأفة إلى ابن حبوس، وكوني ملكة عليه وعلى مملكته.'

همس ابن أبي أيوب، 'حَذارِ، أيها الملك. قد تكون هذه جنيةً استحضرها سَحَرَةُ الغوط وأرسلوها لإهلاكك. أو لعلها واحدةٌ من ساحرات الشمال. أظن أنني لمحتُ السحر في عينيها والكهانة في حركاتها. فالحِذْرَ الحِذْرَ! لا بد أن هذه هي العدو الذي أشار إليه الطلسم.'

فقال الملك، 'يا ابن أبي أيوب، إني أُقِرُّ لك بأنك رجلٌ حكيمٌ وساحرٌ عظيمٌ، ولكنك قليل الخبرة في شؤون النساء. ففي معرفة النساء لا أُعوِّل على أحد قَط، ولا حتى على سليمان الحكيم على الرغم من كثرة زوجاته. إني أرى في هذه الفتاة كثيرًا من السلوى لأيام شيخوختي.'

قال الساحر وهو يغير نبرة كلامه فجأة، 'اسمع أيها الملك، لقد منحتك انتصاراتٍ عديدةً على أعدائك، وذلك بفضل الطلسم الذي بنيته له، ولكنك لم تُعطني قط حصتي من الغنائم. فامنحني هذه الأسيرة الشاردة لتكون لي سلوى في عُزلتي، وسأكتفي بذلك.'

فصاح ابن حبوس، 'ماذا؟ المزيد من النساء؟ أليس عندك سلفًا نساءٌ راقصات يُرَوِّحْنَ عنك؟ فماذا تريد غير ذلك؟'

'عندي نساءٌ يرقصن، ولكن ليس عندي من تُغنّي، والموسيقى بلسمٌ لخريف العمر. أرى هذه الأسيرة تحمل قيثارة فضية، ولا بد أنها بارعةٌ في الغناء. فأعطني إياها، أتوسل إليك.'

اشتعل غضب الملك، وراح يُقَرِّع الفيلسوف. انسحب هذا غاضبًا إلى صومعته، ولكنه قبل أن يغادر، حضَّ الملك مرةً أخرى على الحذر من هذه الأسيرة الجميلة. ولكن أنّى لشيخٍ أن يستمع للنصح؟ لقد أحس ابن حبوس بسحر عينيها الآسرتين، فكلما حدَّق فيها، وقع في الأَسْر أكثر.

استسلم ابن حبوس لهواه. وكان همُّه الوحيد هو أن يكون محبوبًا في نظر هذه الحسناء الغوطية. صحيحٌ أنه لم يعد في شَرْخِ الشباب، ولكنه يملك الثراء. نُقِّبتْ غرناطة بحثًا عن أنفس بضائع الشرق: فأُغْدِق على الأميرة كلُّ ما جادت به آسيا وإفريقيا من نادر ونفيس كالحرير والجواهر والأحجار الكريمة والعطور الفاخرة. أخذت كل هذا كأنه حقٌّ مستحقٌّ لها ونظرت إليه نظرةَ اللامبالي الذي تعوَّد على الترف. وأقيمت أنواعُ الفُرجة والاحتفالات لتسليتها، من غناء ورقص ومباريات ومصارعة ثيران، وصارت غرناطة لمدة من الزمن مسرحًا لمهرجان دائم. وبدا أن الأميرة الغوطية تتلذذ في الإنفاق عليها وكأنها عازمة على استنزاف خزائن الملك. لم يكن لتبذيرها حدود. وعلى الرغم من كل الكرم الباذخ، لم يستطع ابن حبوس أن يُخادع نفسه ويقول إنه ترك أثرًا في قلب فتاته. صحيح أنها لم تعبس قط في وجهه، ولكنها كانت بارعةً في صد محاولات وصاله منها. فكلما راح يتوسل إليها، عمدت إلى قيثارتها الفضية تضرب بها. وكان في صوت قيثارتها سحرٌ خفيٌّ يجعل الملك يتملَّكُه نعاسٌ لا يُقاوَم حين يسمعه، فكان يَخِرُّ نائمًا! ولكن حلم العشق فتنه فتونًا جعله لا يكف عن غوايته، بينما كانت غرناطة كلها تهزأ من هيامه بفاتنته، وتتألم لضياع كنوزٍ من أجل أغنية.

وفي النهاية، أطل على رأس ابن حبوس خطرٌ لم يحذِّره منه الطلسم. لقد اندلع تمردٌ في قلب عاصمته بقيادة رضوان الجَسور. حوصر الملك في قصره، ولم يتمكن من إخماد التمرد إلا بشق الأنفس.

ومرةً أخرى وجد الملك نفسه مضطرًا لطلب المساعدة من الساحر، فقال، 'أيها الحكيمُ ابنَ أبي أيوب، لقد تحقق ما تنبأتَ به. فلم تجلب لي الأميرة الغوطية إلا المتاعب والخطر.'

'وهل الملك مستعدٌ للتخلي عنها؟'

'بل أتخلى عن مملكتي ولا أتخلى عنها!'

'إذن، فما حاجتك إلي؟'

'إني أطمع في صنيعٍ آخر من عجائب سحرك. هَيِّئ لي وسيلةً تحميني من غدر الداخل وحرب الخارج، من قبيل ملجَئٍ آمن ألوذ به وآمن على نفسي فيه.'

فكر الساحر هُنيهةً، ثم قال، 'لا شك أنك سمعت، أيها الملك، بقصر إرَم وجنَّتها التي ورد ذِكْرُها في القرآن [الكريم] في سورة الفجر.'

'لقد سمعت بتلك الجنَّة التي يروي عنها الحجاج الذاهبون إلى مكة العجائبَ، ولكني كنت أظن أنها أساطير.'

'أصغِ إليَّ، أيها الملك، وستعلم سِرَّ تلك الجنة. في أيام شبابي كنت في اليمن السعيد أرعى إبِلَ أبي، فَضَلَّ أحدُها وضاع. فبحثت عنه عدةَ أيامٍ في الصحراء حتى خارت قواي، فاستلقيتُ ونِمتُ تحت نخلة. وحين أفقتُ وجدتُ نفسي أمام بوابةِ مدينةٍ. فدخلتُ ورأيت طرقاتٍ وساحاتٍ وأسواقًا فخمةً، لكنها كلها كانت ساكنةً لا ساكِنَ فيها. تجوَّلت حتى أتيتُ قصرًا باذخًا فيه جنةٌ مزينةٌ بالنوافير وبِرَك السمك وغياضٍ وأزاهير وبساتين محملة بفاكهة لذيذة، لكني لم أرَ فيه أحدًا. وحين شعرت برهبة هذا المكان الموحش، أسرعت لمغادرته، ولما خرجت من بوابة المدينة، التفتُّ لأنظر إلى المكان، فإذا به قد اختفى عن الأنظار، ولم يبق أمامي إلا صحراءُ ساكنةٌ تنبسط على مَدِّ البصر.

'وفي الجوار ألفيتُ درويشًا طاعنًا في السن وأخبرته ما جرى لي، فقال: هذه هي جنة إرَم التي ذاعَ صيتها في أقاصي الأرض، وهي إحدى عجائب الصحراء. وهي لا تظهر إلا أحيانًا لعابر سبيلٍ مثلك، فتُبْهِجُهُ بمشهد الأبراج والقصور وأسوار الجنة التي تتدلى منها أشجارُ فاكهةٍ مثقلةٌ بأفخر الثمار، ثم تختفي، فلا تخلف وراءها إلا صحراء مقفرة. وهذه هي قصتها. وفي العصور السالفة، شيَّد الملك شدّاد بن عاد، وهو من نسلِ نوح، مدينةً بديعةً هنا. فامتلأ قلبُه

كِبْرًا وغُرورًا، فعزم على أن يبني قصرًا ملكيًا فيه جنانٌ تنافس كلَّ ما ورد في القرآن [الكريم] من وصفٍ عن جنة الفردوس. ولكن لعنة السماء حلت عليه لغروره، فَمَحقه الله هو ورعيتَه من الأرض، ووقعت مدينته البديعة وقصره وجنته تحت سِحرٍ أبدي يُخفيها عن أنظار البشر.

'هذه القصة والعجائب التي رأيتها، أيها الملك، لا تزال ماثلة في ذهني، وبعد سنين ذهبت إلى مصر، وأتقنت كل صنوف السحر، وقررت أن أعود وأزور جنة إرَم. وهذا ما قمت به، ووجدتها تتكشف بأمر مني أمام ناظري. ثم استوليت على قصر شدّاد وأمضيت عدة أيام هناك. وكانت الجن التي تحرس المكان خاضعة لقوتي السحرية وكشفت لي الرُّقى التي تحجب الجنة بأكملها عن الأنظار. وهذه الرُّقى، أيها الملك، في متناول يدي. فما قولك؟ هل تريد قصرًا وجنةً مثل جنة إرمَ تغُصُّ بأصناف المسرات لكنها محجوبةٌ عين أعين البشر؟'

فصاح ابن حبوس وهو يهتز شوقًا، 'أيها الحكيمُ ابنَ أبي أيوب، اجعل لي مثل هذا الفردوس واطلب أي مكافأة ولو بلغت نصف مملكتي.'

فقال الساحر، 'أنت تعلم أنني شيخٌ كبير للأسف وحكيمٌ يرضى بالقليل. فكل ما أريده هو أول دابَّةٍ بما عليها من حمولة تدخل بوابة القصر السحرية.'

فرح الملك بهذا الطلب المتواضع فوافق عليه، وشرع الساحر في عمله. وعلى قمة الرابية التي تطل على كهفه، أمر ببناء بوابة عظيمة تُفضي إلى وسط برجٍ هائل. وكان هناك رِواق خارجي له قوسٌ مرتفع وفي داخله بابٌ تحميه بواباتٌ هائلة. وعلى عِماد الباب رسم الساحر بيده صورة مفتاح ضخم، وعلى عماد القوس الخارجي نحتَ يدًا عملاقة. كان كلٌّ من هذين طلسمًا فعالًا رتل عليه عباراتٍ عديدةً بلسان غير معروف.

وحين اكتملت البوابة، اعتكف الساحر مدة يومين في قاعة تنجيمه يرتّل التعاويذ السرية. وفي اليوم الثالث صعد الرابية وأمضى اليوم بأكمله على قمتها. وفي ساعة متأخرة من الليل هبط من الرابية وذهب إلى حضرة ابن حبوس، وقال، 'وأخيرًا، أنجزت عملي أيها الملك. فعلى قمة الرابية ينتصب واحدٌ من أبهى القصور التي تصورها عقل إنسان أو تمناها قلبه. إنه يحتوي على قاعات وردهات فاخرة، وحدائق غَنّاء، ونوافير ذات مياه باردة، وحمامات تضوع منها العطور. باختصار لقد تحول الجبل بأكمله إلى فردوس. وهذه الجنة محروسةٌ، مثل جنة إرَم، بسحرٍ عظيم يحجبها عن أبصار البشر إلا من حاز سر الطلسم.'

صاح الملك بمرح، 'كفى. غدًا في الصباح المشرق الباكر، سنصعد إليها ونتملكها.' لم يكد ينام تلك الليلة. وما إن أرسلت الشمس أشعتها الأولى حتى امتطى حصانه وراح مع

صفوة حاشيته يصعد الطريق الضيق الشاهق المؤدي إلى الرابية. وكانت إلى جانبه الأميرة الغوطية على جواد أبيض صغير، وكان ثوبها يتلألأ بالجواهر وكانت القيثارة الفضية تتدلى من عنقها. وكان الساحر على الجانب الآخر للملك، وهو يتوكأ على عصاه.

تلفَّت ابن حبوس ليرى أبراج قصره الموعود ومصاطب حدائقه، ولكنه لم ير شيئًا بعد. فقال الساحر، 'هذا هو سر المكان ومَكْمَنُ أمنه. لن ترى شيئًا حتى تتجاوز البوابة المسحورة وتمتلك القصر.'

ولما اقتربوا من البوابة، توقف الساحر وأشار بيده إلى المقبض السري والمفتاح المنحوت على الباب والقوس، ثم قال، 'هذان هما الطلسمان اللذان يحرسان مدخل هذه الجنة. فما لم تمتد تلك اليد وتأخذ ذلك المفتاح، فلن تستطيع قوة بشرية أو سحر أن يتغلب على صاحب هذا الجبل.'

وبينما كان الملك يحملق فاغرَ الفم متعجبًا بصمتٍ من هذه الأعاجيب، تابع حصان الأميرة مسيره، فتجاوز بها البوابة إلى قلب البرج عينه.

صاح الساحر، 'انظر، هذه هي مكافأتي الموعودة! أولُ دابَّةٍ بها حملت تعبر البوابة السحرية.'

تبسم ابن حبوس مما ظن أنها مزحة لطيفة يداعبه بها الشيخ المسن، ولكن حين وجد أنه يعني ما يقول، اهتزت لحيته البيضاء غضبًا، ثم خاطبه بنبرةٍ حازمة، 'ماذا تقول يا ابن أبي أيوب؟ أنت تعلم معنى ما وعدتُ، أولُ دابة بها حملت تعبر هذه البوابة. فخذ أفضل بغل في إسطبلاتي وحمِّله بأثمن ما في خزائني، وهي لك. لكن إيّاك أن تتطاول، ولو بفكرك، على مُنية قلبي.'

رد الساحر بازدراء، 'وما حاجتي للمال؟ أليس عندي علم سليمان الحكيم الذي به أستطيع أن أملك خزائن الأرض؟ إن الأميرة حق مستحق لي، وقد وعدتني وعدَ الملوك. لذلك فهي لي.'

كانت الأميرة تجلس على حصانها وقد لوت فمها الوردي بابتسامة ازدراءٍ طفيفة جراء هذا الخلاف. لم يستطع الملك لجم غضبه، فصاح، 'أيها البدوي الخسيس، قد تكون أتقنت عددًا من الفنون، ولكن اعلم أنني سيدك. فلا يغرَّنك الغرور للعبث بمليكك.'

رد الساحر، 'سيدي؟ مليكي؟ ما أعجب أن يدَّعي ملكُ مملكةٍ تافهةٍ بحجم تلِّ خُلْد أنه ملك على من يملك طلاسم سليمان! وداعًا، يا ابن حبوس، وهنيئًا لك بمملكتك التافهة وجنة الحمقى. أما أنا، فسأسخر منك.'

قال هذا وأمسك بلجام الحصان، ثم ضرب الأرض بعصاه، وتَمَوَّسَ مع الأميرة إلى قلب البرج. ثم ابتلعتهما الأرض ولم يبق أثرٌ للفتحة التي هبطا منها. عقدت الدهشة لسان الملك. وحين استفاق، أمر ألف عامل أن يحفروا الأرض بالمعاول والرفوش. وكانوا يحفرون ويحفرون من غير جدوى، إذ كان التراب ينهال عائدًا في الإثْر إلى المكان الذي جُرِفَ منه. ذهب ابن حبوس إلى الكهف على سفح الرابية الذي يؤدي إلى قصر الساحر في باطن الأرض، ولكنه لم يجد له أثرًا. وبدلًا من مدخل الكهف، لم يجد إلا الصخر الأصَمّ. فمع اختفاء الساحر، لم يعد للطلسم فائدة. ظل الفارس البرونزي مُيَمِّمًا وجهَه نحو الرابية ورمحه يشير إلى المكان الذي تَمَوَّسَ فيه إبراهيم. ومن حين لآخر، كانت أنغام الموسيقى ونبرات صوتٍ أنثوي خافتة تُسمَع من جوف الرابية، وعثر فلاحٌ ذات يوم على صدعٍ في الصخرة فتسلل منه، وحين نظر إلى الأسفل رأى قاعةً عظيمةً يغفو فيها الساحر على أريكةٍ فاخرة على أنغام قيثارة الأميرة الفضية.

لكن حين بحث ابن حبوس عن الصدع، وجده مغلقًا. أما قمة الجبل، موقع قصره الموعود وجنته، فقد ظلت صفصفًا خاوية. وما زاد من متاعبه هو أن جيرانه اكتشفوا أنه لم يعد محروسًا بتعاويذ السحر، فهجموا عليه من كل حدب وصوب، وساءَ ما تبقى له من أرذل العمر.

وأخيرًا، مات الملك ودُفِن. وقد انسلخت عهودٌ عديدة منذ أيامه. بُني قصر الحمراء على الجبل، ولا تزال البوابة موجودة، وهي الآن تُشكِّل المدخل الكبير للقصر. ويقال حتى يومنا هذا إن الساحر العجوز لا يزال يرقد في مقصورته السحرية تُهَدْهِدُهُ أنغام قيثارة الأميرة الفضية.

لا يخفى إلا على غير الباحثين أو يفاجئهم أن الثقافة العربية هي ثالثة الأثافي التي تقوم عليها الثقافة الغربية. وبعد أن صار عالم اليوم أصغر والاتصالات أسهل وتخفف الدِّين في الغرب من تشدده واتسع التبادل بين الباحثين، فقد بات الباحثون الغربيون يعترفون بالأرضية التي يشتركون فيها مع التراث العربي. فقد وصل الأدب الإغريقي إلى أوربا الغربية عبر الرومان، ولكن الجزء الأكبر من المعارف الإغريقية التي ضمت العلوم والفلسفة تناقلها البيزنطيون عبر الترجمة من الإغريقية إلى العربية، فطوَّرها العرب بدورهم، ثم انتقلت في العصور الوسطى من العربية إلى اللاتينية. وقد كانت مشروعات الترجمة الهائلة في القرن الثاني عشر في كل من إسبانيا وصقلية جسورًا كبرى عبرت عليها المعارف العلمية عند العرب إلى أوربا الغربية البدائية حينذاك.

إن أكثر ما يهتم به هذا الكتاب هو الإرث العربي في الأدب الشعبي الغربي، ذلك لأنه غير معروف على نطاق واسع. وهذا الإرث ليس شيئًا بسيطًا واحدًا. فمن كانوا يُعْرَفون في العصور الوسطى باسم السَراقِنة [الشرقيين] ينحدرون من مجموعات عرقية متعددة من بينها الإغريق والفُرس والهنود والأقباط والأتراك والأرمن واليهود. وقد استوعبت الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية حضاراتِ هؤلاء القديمة الثرية، لكن الانتشار السريع للإسلام في القرن السابع فرض على هذه المجموعات ثقافة الفاتحين الجدد، فأضفى على هذه الثقافة صبغة عربية جديدة. وأهم مُرتكَزين في هذه الثقافة هما الإسلام، الدين المركزي، والعربيةُ، لغةُ القرآن ووسيلةُ التعبير. بَيْدَ أن هناك تاريخًا فكريًا معقدًا يتضمنه الأدب العربي في العصور الوسطى ويكمن تحت عاملَي التوحيد هذين. وجزءٌ من هذا كان تلك الثروة الهائلة من القَصص الشعبي الذي دُوِّن أولًا في الهند أو فارس، ثم صُنِّف على أنه أدب أو حكايات شعبية يغلب عليها الطابع الشفوي، فتناقلتها الشعوب الناطقة بالعربية، وجلبتها معها في توسعها إلى أوربا.